كلمة الوزارة

أ. الدكتورة لبانة مشوّح
وزيرة الثقافة

خريف التشكيل.. ربيع دافق

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عام مضى على آخر معرض للخريف التشكيلي.. وكأنه كان بالأمس.

أتراه الزمن توقف من حولنا.. أم أنَّ زماننا أغرقنا في أحزانه فنسينا أنفسنا والعالم من حولنا..؟!

نعود اليوم كما كنّا وكما يجب أن نكون.. نمتع النظر بمشاهد أجمل تنأى بنا عن قبح ليس منَّا.. نستولد الفكر حقائق أسكنوها ظلمة الكهوف وأدخلوها في سبات.. نتلمّس صدق التعبير في زمن الكذب والتجني.. نتأمّل تناغم الخطوط والألوان.. نتحصّن به من تفكك عفن.. نشهد انطلاق الأحاسيس من عقالها، وارتقاءها على ما أصابها من دنس..

معرض الخريف، لقاء المبدعين التشكيليين من أبناء سورية، وطن الفن والحضارة.. استنطقنا إبداعاتهم.. رافقناهم في رحلة الشغف، على أمل أن تعيد احتفالية خطوطهم وألوانهم التوازن إلى تشكيل حياتنا.

معرض الخريف دليل على أنَّ خريف الوطن أخصب وأغنى من ربيعه..

بل هو ربيع متجدد لا تسقط منه ورقة إلا لتنبُتَ من جذعه الصلب أغصان وأوراق أنضر وأجمل، فلا ينضب معين إبداعه، ولا يخبو نور الأمل الذي يشعّ منه.

❁ ❁ ❁

ولأننا أمّة محكومة بأبدية الحياة، أمّة قدرها أن توجد وتبقى ما بقيت السماء والأرض، كان لا بد لنا من العودة إلى ينبوع الإبداع الدافق، وإلى مكونات الجمال التي نبتت في ثرى أرضنا الطيبة فغرست في النفوس ورود الأمل. كان لا بد لنا من العودة إلى مبدعينا التشكيليين.

اجتمعوا على اختلاف مدارسهم وتقنياتهم ورؤاهم. نحو مئتي فنان وفنانة تشكيلية اشتركوا في معرض الخريف السنوي ليعكس، كل على طريقته، مأساة بلاده، وما ترنو إليه العين الدامعة من ضوء الخلاص. روى كلٌ بأسلوبه وأدواته الخاصة ألم الراهن وأمل القادم. تعانق الأسلوب الواقعي مع الانطباعي، والتكعيبي مع التعبيري، والحرف بأصالته مع التشكيل بحداثته.. وصولاً إلى التجريد بأقصى حالاته.. فإذا باللوحات المنجزة رسماً أو حفراً أو تنقيطاً أو لصقاً، تنطق بما انطبع في الذاكرة من صور تراثية جمعية، فيها من الهدوء والجمال ما يعكّره صخب اللحظة الراهنة وعنفها. كان الحاضر ماثلاً بكل ثقله، تحدّق منه عيون شيطانية تتربص بالوطن وما عليه، ويسيل لعابها لرؤية جراحه المتفجّرة. ولا يخفف من وطأة حاضر اللامعقول هذا إلا رزانة الماضي بانسياب حروفه، وإتقان زخرفه، ونصاعة ألوانه، وتناسق أشكاله. هكذا تداخل الحاضر بالماضي، والواقع بالأسطورة. نضحت بعض اللوحات بوجع يسكن الأفئدة، وبثت أخرى تفاؤلاً يحكمنا رغماً عنّا.

ولم تشذ الأعمال النحتية عن تلك القاعدة، فصوّر بعضها الإنسان سجينَ الجسدِ والفكر داخل مربّع يتقوقع فيه منكسراً وجدران تطبق على أنفاسه.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بينما أطلق البعض الآخر للعقل والجسد أجنحة تشق جدران القهر وتحلق في سماء الحرية. فهيهات أن تركن النفس الأبية لليأس... وهيهات ألا يلمع في نهاية النفق بصيص نور!!

❁ ❁ ❁

في معرض الخريف لهذا العام يفجّر الفنان ذهول العقل وأوجاع القلب.. وتغلب النزعة التعبيرية والتجريدية على الكثير من الأعمال المعروضة. ولعل مردّ ذلك إلى أن هذه المدرسة التعبيرية قد نبتت في الأصل وسط أمواج عاتية من مشاعر القلق وخشية العنف، مشاعر نشأت في بداية القرن العشرين، وتحديداً في العام ١٩١٠م. والتعبيرية مدرسة كان رائدها الحقيقي الهولندي فنسان فان غوغ، وإن كان توفي قبل هذا التاريخ وإن كان يصنّف من أتباع المدرسة الانطباعية.

والتعبيرية فن يصوّر العالم الخارجي بلغة انفعالية أكثر منها تشكيلية. بدأت النزعة التعبيرية رسمياً في عام ١٩٠٦م إذ قامت مجموعة من الفنانين ضمّت كلاً من إرنست لودفيغ كيرشنر، وإيريك هيكل، وكارل شميت روتلوف، وماكس بيشتن، بتأسيس «المدرسة التعبيرية» بتأثير من فان غوغ. أمّا أعمالهم فكانت تعبيراً صارخاً عن مشاعر القلق والألم التي تعتمل في نفس الإنسان، ومعاناته في الحياة.

ثم ما لبثت النزعة التعبيرية في التشكيل أن تطورت لتأخذ منحى أكثر تجريدية. كان ذلك على يد فريق من التشكيليين الألمان بزعامة الروسي فاسيلي كاندنسكي، أحد أهم الرسامين في القرن العشرين إلى جانب بيكاسو وماتيس، وصاحب أوّل رسم مائي تجريدي في تاريخ الفن الحديث (القوس الأسود- ١٩١٠م). وبدءاً من ذاك التاريخ، نحا التعبيريون نحو التجريد وبدؤوا يسبغون على الأشكال صبغة روحانية، وأخذوا يصورون أشكالاً وألواناً متحررة من المنظر أو الشخصية أو المشهد، ويسعون من خلال حرية

الشكل والتلاعب بالتكوين إلى تحريك العواطف وإثارة الانفعالات، وخلق تناغمات ملونة وتوازنات دقيقة تبدو عشوائية للعين المجردة، لكنها في أغلب الأحيان مدروسة، تتبع نظاماً دقيق التركيب مدروس المعالم، يفترض فيه أن يحرّك مشاعر المتلقي ويولّد فيه انفعالات مختلفة.

❁ ❁ ❁

إذا كان من الطبيعي أن تتراجع الحركة التشكيلية في زمن الحروب والأزمات، وهذا ما حدث مثلاً في أوروبة أثناء الحرب العالمية الثانية حيث أفل نجم الإبداع الفني بالإجمال، فمن الطبيعي أيضاً أن تغلب النزعة التعبيرية التجريدية على الفن التشكيلي، بما يعكس قلق الإنسان وانفعالاته وخوفه من اللحظة الراهنة أو القادم الغامض.

لقد أثبت معرض الخريف التشكيلي بالدليل القاطع أن الفنون التشكيلية، شأنها في ذلك شأن سائر وسائل التعبير الفنية، مرآة النفس الإنسانية.. والنبض المتسارع لقلب المجتمع المتعب.. وأجنحته المحلّقة في سماء الخلاص.. فقد حفل المعرض لهذا العام بأعمال نطقت بما يكتنف النفس البشرية من معاناة أججتها شجون الوطن، لكنها في آن معاً بسطت للبصر والبصيرة أجنحة الأمل، ونشرت مساحات خضراء تغطيها شموس فرح آتٍ لا محالة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كلمة العدد

د. علي القيّم
رئيس التحرير

مشكلة الموسيقى العربية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أكثر من لقاء، جمعني بالمفكر العربي المصري الراحل فؤاد زكريا (١٩٢٧-٢٠١٠م)، وقد كتبت عنه مرات عدّة في الصحف المحلية والعربية، لأنني من أشد المتابعين والمعجبين بدراساته الفكرية والأدبية والموسيقية والفنية الهادفة، فهو يؤمن بأنّ الفن مسؤولية كبيرة، ومجرد كون الفنان قد أخذ على عاتقه مهمة نشر فنّه بين الناس، يعني أنه تحمّل هذه المسؤولية، أي تحمّل العواقب الناجمة عن انتشار فنّه بين الناس، ومن هنا كان من الضروري أن نحاسبه على الآثار التي تجلبها أعماله الفنية على المجتمع الذي نعيش فيه..

فؤاد زكريا يرى أنّ مشكلة الفن الهادف، أنّ أصحابه يصورون دعوتهم كأنّها تفرض على الفنان أهدافاً معينة تحتّم عليه أن يجعل من فنّه أداة للتعبير عنها، وهذا الخطأ هو أخطر ما يصيب قضيتهم، وهو الذي يستغله خصومهم،

ويستمدون منه قوتهم، فلا جدال في أنّ حرية الخلق، وتلقائيته، شرط أساسي لكل إنتاج فني سليم فإذا ضاع هذا الشرط، بدا العمل الفني متكلفاً لا روح فيه ولا حياة..

إذن، في موقف كل من الطرفين نقطة ضعف ينبغي التخلّص منها،وميزة ينبغي الاحتفاظ بها، أي إنّ الوضع السليم للفن، أن يكون تلقائياً حرّاً، ويكون في الوقت نفسه عاملاً من عوامل النهوض بالمجتمع نحو مستقبل مشرق، مضيء.. وتلقائية الفن لا تتعارض على الإطلاق مع كونه هادفاً، وبهذا وحده يمكن أن ترتفع موسيقانا العربية إلى المستوى الذي بلغته الموسيقى العالمية..

لقد ركّز الدكتور زكريا، في كتاباته الموسيقية، وهي كثيرة، على مشكلات الموسيقى العربية وقدراتها التعبيرية، وضرورة تجديدها لتأخذ دورها المهم في حياتنا، وهو يراها أكثر الفنون استقلالاً، فهي تتميز بأنها لا تصوّر أو تقلد شيئاً بينما نجد الرسم فنّاً تصويرياً، والنحت له صلة بتصوير الواقع الخارجي بأبعاده الثلاثة، والأدب يمثّل الواقع عن طريق الرموز اللغوية.. إذن، الموسيقى لا تقلّد ولا تمثّل شيئاً، وهي في هذا نمط فنيّ مستقل بذاته، والمادة التي يستمدها الفن الموسيقي، ويبني عليها تركيباته المعقدة، لا تستمد من الطبيعة مباشرة، وإنّما هي مادة لابد لها من وسائل مصنوعة، هي الآلات الموسيقيّة، التي تصقل الأصوات، وتقوم بتنظيم ذبذباتها، أو الغناء المدرّب الذي يختلف كل الاختلاف عن أصوات الكلام أو الصياح المعتاد، ومن هنا فقد استحال على الموسيقي أن يقدّم وصفاً مباشراً لأي موضوع خاص، وإنّما يصوّر دائماً انفعالات وأحاسيس عامة، ومهما حاول المرء، أن يأتي بروابط بين المؤلفات الموسيقيّة، وبين موضوعات معينة، فلا بد أن يعترف بأنّ الموسيقى لا تصوّر في هذه الموضوعات جوانبه الجزئية، وإنّما تعبّر عن الأوجه العامة فيها..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في كتابه المتجدد «التعبير الموسيقي» يرى المفكر الكبير فؤاد زكريا، أنّ أوّل ماينبغي أن ندرسه في تحليلنا العلمي للموسيقى هو عناصر اللغة الموسيقية.. ذلك لأنَّ للموسيقى لغة خاصة بها، ولهذه اللغة عناصر لا يؤدي كل منها عمله على حدة، وإنَّما تتضافر وتتشابك جميعها سوياً في إخراج المؤلفات الموسيقية، وهذه العناصر هي: الإيقاع واللحن والتوافق الصوتي والصورة أو القالب..

فالإيقاع هو الوجه الخاص بحركة الموسيقى المتعاقبة خلال الزمان، أي هو النظام الوزني للأنغام في حركتها المتتالية، ويغلب على الإيقاع عنصر التنسيق أو التنظيم المطرد، أمَّا اللحن فلا يكتفي بأن تنظم ضربات الموسيقى تبعاً لشدّتها أو خفتها، وإنَّما يضيف إلى الإيقاع عنصراً جديداً، هو عنصر ارتفاع الأصوات أو انخفاضها، وأمَّا التوافق الصوتي، فأساسه إيجاد الانسجام بين صوتين أو أكثر في وقت واحد.. بينما اللحن، هو أصوات منسجمة متعاقبة.. والصورة أو القالب فهو عنصر لاتعرفه الموسيقى الشرقية، إذ إنّها تنظم العلاقات بين الأجزاء اللحنيّة في العمل الفني الطويل، وتضمن الوحدة بين أجزاء القطعة الموسيقية كلها..

لقد بحث المفكرّ زكريا طويلاً عن الطريقة الخاصة التي تتميز بها الموسيقى في التعبير عن معانيها، فالموسيقى استمدت من الغناء.. ذلك لأنَّ الفن الموسيقي قد بدأ منذ أن تعلّم بعض المنشدين كيف ينظّمون طريقة إنشادهم على نحو إيقاعي منغّم، وظلّ فن الأنغام مرتبطاً بالغناء طويلاً، وعندما ظهرت الآلات الموسيقية، كان الغرض منها مساعدة الصوت البشري أو تقويته أو تزيينه، وبعد تطور طويل بدأت الآلات تستقل عن الصوت تدريجياً، ونظراً لاتساع مجال التعبير بها، فقد أخذت تفوقه بالتدريج، حتى أصبحت موسيقى الآلات هي الأساسية عند الغرب، وإن كان فن الغناء لا يزال على ازدهاره.. فللموسيقى إذاً قدرة معبّرة بذاتها، وهي ليست بحاجة إلى معرفة الكلمات النثرية أو الشعرية لإكمال قدرتها التعبيرية، بل إن قوتها تكمن في استقلالها، وفي مالها من كيان خاص ينقل لنا معاني عامة حقاً، ولكن عموميتها هي أصل روعة هذا الفن الجميل الساحر..

وفي بحثه عن التطور الموسيقي، يرى الدكتور زكريا، أنَّ الموسيقى قد سارت تدريجياً في طريق طويل، تحوّلت فيه من فن ذي نطاق ضيّق في تعبيره ووظيفته وأسلوبه إلى فن شامل ذي صبغة إنسانية عامة، وثيق الصلة بالحياة، وبالمجتمع الإنساني الكبير.. إنَّ استقلال الموسيقى، قد أدى بها إلى أنَّ تصبح أكثر الفنون عموميّة، وأبعدها عن التقيّد بالفواصل والحدود المحليّة، والحق أن أي فن آخر لا يمكن أن يبلغ ما بلغته الموسيقى في هذا المضمار، وكل الكشوف التي استخدمها الموسيقيون منذ عهد «باخ» حتى عصرنا القريب، كانت ترمي إلى زيادة القدرة التعبيريّة للموسيقى، وإلى توسيع نطاق لغتها، حتى تفي بمقتضيات هذا الفن الإنساني الرفيع، وقد ظلَّ هذا التطور يسير متصلاً، فيأتي كل فنان بتحديات رائعة سرعان ما تندمج في التراث الموسيقي القديم، لتكوّن معه مركّباً أعمق وأغزر عما عرف من قبل، وقد أدى تدرّج هذا التطور إلى تمكين الناس من فهم كل تجديد ذي قيمة، واستيعابه سريعاً، ثم ضمّه إلى تلك الذخيرة الضخمة من الكشوف والتجديدات التي حفل بها تاريخ الموسيقى في وقتنا الراهن..

مشكلة الموسيقى الشرقية، أو العربية، بشكل عام، تكمن في أنَّ تجربتنا الموسيقيّة كلها قد انحصرت في الأغاني وحدها، وإذا بحثنا عن موسيقى عربية خالصة، فلن نجد إلا محاولات قصيرة خفيفة، ليس لها شأن يذكر إلى جانب الأغاني، ولا تؤثر على الجمهور أدنى تأثير، على الرغم من سهولة فهمه لها، إذ إنَّها من دون كلمات الأغنية عاجزة تماماً..

ولا جدال في أنَّ اعتماد الموسيقى على الأغنية وحدها هو أوضح مظاهر تأخرها، إذ إنَّ الأغنية بطبيعتها محدودة المجال تكفي الكلمات فيها في كثير من الأحيان للتأثير على المستمعين، مهما كانت سذاجة الموسيقى التي صيغت فيها.. فعالمنا الموسيقي إذاً ينحصر في نطاق ضيّق للغاية، هو نطاق الأغنية، وحتى في هذا النطاق الضيّق لا تؤدي الموسيقى وظيفتها الصحيحة على الإطلاق، ويرى الدكتور زكريا في هذا المجال أنَّ الموسيقى الغربية قد استقلت عن الشعر والغناء

منذ زمن بعيد، وتمكّنت بعد تطور طويل، من أن تؤدي رسالتها التعبيريّة كاملة، من دون حاجة إلى معونة أي فن آخر، وأصبح الشعر أو الرقص لا يضاف إلى الموسيقى من أجل ملء فراغ فيها، بل من أجل إيجاد جديد من الفن الموسيقي الشعري، أو الموسيقي الراقص فحسب..

وبناءً على ما سبق نرى أن الموسيقى لا تؤدي وظيفتها الصحيحة في نطاق الأغنية الضيق؛ لأنها تلجأ في ألحانها إلى أساليب تفقد العمل الفني جدّته وطرافته، المستمرة، وتضفي عليه طابعاً يبعث في الأذن الخبيرة قدراً غير قليل من الملل، والإيقاع الشرقي يسير مع اللحن، ولكنّه لا يندمج فيه، ففي الموسيقى الشرقية تؤدي الآلات الإيقاعية كالرق مثلاً دوراً ظاهراً، نستطيع أن نميزه بكل وضوح.. صحيح أنَّ ضرباته تتماشى مع اللحن وتنظّمه، غير أنَّها مستقلة عنه بمعنى معيّن، بينما نجده في الموسيقى الغربية الرفيعة يندمج في تيار اللحن، ويتوافق معه إلى حدّ بعيد، أي إنَّ اللحن والتوافق هما اللذان يكشفان عن الإيقاع خلال مسارهما.

أمَّا التوافق الصوتي، فهو غريب تماماً عن الموسيقى الشرقية، ونتيجة لذلك أصبحت هذه الموسيقى تسير في تيار لحني متصل، يتصف بالسطحية.. ولأنَّ التوافق الصوتي هو مصدر عمق الموسيقى الغربية، وبفضله تتخذ الموسيقى عند المستمع ألواناً متجددة على الدوام، ويستطيع المرء أن يكشف فيها، كلما عاد للاستماع إليها معاني عدّة.. ولهذا السبب لم يكن لدينا «كلاسيكيات شرقية» أي مجموعة من الأعمال التي تظل قيمتها محفوظة على مرّ الزمان، كما هو الحال في موسيقى «باخ» و«موتزارت» و«بيتهوفن».

العنصر الأخير، هو القالب أو الصورة، ويكاد يكون مفقوداً بدوره، وهذا كان له دوره في تحديد طبيعة المستمع الشرقي الذي يبحث دائماً عن النشوة العاجلة، وعن الطرب المستمر في الألحان، وسبب ذلك يعود إلى القالب الذي تتخذه تلك الألحان بما فيه من سعي إلى إرضاء المستمع إرضاءً رخيصاً، هيناً، سريعاً، وهذا

مـاأدى إلى ضياع القدرة على الاستماع الهادئ، العميق لدى جمهور الموسيقى الشرقيّة..

يرى الدكتور فؤاد زكريا، في الفترة الحالية من تاريخ الموسيقى العربية، بأنّها فترة بائسة، لأن محترفي هذا الفن، عندما أحسّوا بقصور الطريقة الشرقية الخالصة، لم يلجؤوا إلا إلى أتفه أنواع الموسيقى الغربية، ليقتبسوا منها ألحانهم، فكانت النتيجة خليطاً غير متجانس بين الألحان الشرقية، وبين صخب موسيقى المراقص الغربية.. خليطاً لا لون له، ولا طابع يتميّز به، بل هو في أساسه اقتراح خارجي، لا اندماج باطني بين عناصر متنافرة فحسب، والخطأ الأكبر كان في الاعتقاد بـأنّ إصلاح الموسيقى يكون عن طريق نقل «ألحان» غربية أو أنماط لحنيّة معيّنة، وإقحامها داخل الألحان الشرقية..

كان من المفروض دراسة أسلوب التأليف والأداء، لا لملمة نواتج الموسيقى الغربية ذاتها.. علماً بأنّ موسيقانا في تراثها القديم تحتوي مقامات وتنوعات غنية يمكن دراستها وتطويرها والعودة إليها وفق منهجية وأسلوبية متطورة، تستفيد من علم التوافق «الهارموني» وهناك تجارب عدّة ناجحة قام بها صلحي الوادي، ورفعت جرانة، وأبو بكر خيرت، وعمر خيرت، وعبد الحليم الضبع، وصفوان بهلوان وجمال عبد الرحيم وغيرهم، ولكنها لم تنل شهرة شعبية، لعدم وجود الثقافة الموسيقية، والدعاية والرعاية اللازمة للتعريف بها ونشرها وتسويقها.

الحوار الثقافي في ضوء العولمة

د. محمود السّيد ✪



طالما تردد لفظ «العولمة» في حياتنا الثقافية المعاصرة، وهو مصطلح مترجم عن اللغة الإنجليزية «Global» ووضع المترجمون العرب مصطلح «العولمة أو الكونية» مقابل «Globalization»، وطالما استخدم في الأدبيات الثقافية المعاصرة «القرية الكونية» مقابل «Global village».

ومصطلح «العولمة» الذي ذاع وانتشر انتشاراً واسعاً هو من نتاج الثورة المعلوماتية والشابكة (الإنترنت) وسيطرة اقتصاد السوق، وهو سلاح ذو حدين، فله جانب مضيء حين يربط بين الحضارات والشعوب متخطياً العامل الجغرافي، وجاعلاً من العالم قرية واحدة، ومحرراً الإنسان في مختلف أنحاء المعمورة من كثير من القيود بفضل ذيوع الإعلام

✪ أديب وناقد وأستاذ جامعي، ورئيس لجنة التمكين للغة العربية، ووزير سابق.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وانكشاف العالم كله أمام كل إنسان فيه، فبات يطّلع على ما يجري في العالم وهو في عقر داره، وباتت ثقافات الشعوب مكشوفة ومنتشرة ومتفاعلة بسبب العولمة الاقتصادية والثقافية والإعلامية بصورة خاصة.

أمّا الجانب المظلم من العولمة فقد تمثل في هيمنة الأقوياء على الضعفاء، والأغنياء على الفقراء، وراح الاقتصاد العالمي الجديد يعمل على تحطيم الحواجز الاقتصادية والمالية بين الشعوب لا من أجل توليد عالم إنساني عادل في خدمة الإنسان، بل من أجل مصلحة الشركات العالمية المتعددة الجنسية والمسيطرة على العالم.. وباتت الدول تتعامل مع هذا الاقتصاد العالمي الجديد تعاملاً يربح فيه الأقوى، إلا أن الخاسر فيه لا محالة هو الدول النامية وخاصة الطبقات الفقيرة التي تزداد فقراً في العالم كله وسط هذا النظام الاقتصادي العالمي الذي يجعل اقتصاد العالم في يد ٢٠٪ من أبنائه على أكثر تقدير.

وإذا كان يقال إنَّ العالم غدا قرية صغيرة في ظلال العولمة، فيا ليت هذا العالم تحلّى بأخلاق القرية، ففي القرية الناس متحابون ومتكاتفون ومتعاونون، ويعرف بعضهم بعضاً. أمّا في عالمنا فثمَّة انحسار للقيم المعنوية حيث غاض فيه الوفاء، وفاض فيه الغدر والابتزاز، وهيمن فيه التطرف والإرهاب، ولم يعد فيه الإنسان آمناً على نفسه وعرضه وقيمه وأخلاقه ووطنه.

وغني عن البيان أن ثمة هيمنة لثقافة الأقوياء، وغزواً ثقافياً يتسلل من دون ضجة حتى إنَّ بعضهم شبهه بقنبلة كيميائية تتفجر خلسة دون أن يحس بها أحد، ولكن ترى الوجوه والأيدي بعد انفجارها بساعات قد أصيبت جميعاً.

وإذا كان «فيكتور هوغو» يقول: «قد نستطيع مقاومة غزو السلاح، ولكننا لا نستطيع مقاومة غزو الأفكار»، فهذا ما نلاحظه جليّاً في عالمنا المعاصر، وهاهو ذا الغزو الثقافي الأمريكي يتبدّى منتشراً على الصعيد العالمي في العديد من دول العالم وذلك في مجالين أساسيين أولهما وسائل الإعلام وثانيهما وسائل ثقافة الأطفال.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وهاهي ذي البرامج المبثوثة عبر التلفزة والفيديو شقت طريقها إلى البيوت العربية حاملة معها الإثارة والعنف وقيم الاستهلاك، ذلك أن الانتشار الثقافي في ظلال العولمة يشكل خطراً حقيقياً لا من جانب الصناعات الثقافية متمثلة في الأفلام السينمائية وأدوات الموسيقى من أجهزة الفيديو والتسجيل وأجهزة التصوير المتطورة، فضلاً عن الألعاب الخاصة بالأطفال والشباب ولاسيما الإلكترونية منها، وإنَّما يكون الخطر في الجانب المعنوي المتمثل في التأثير في القيم والاتجاهات وأنماط السلوك المبثوثة عبر

القنوات الفضائية، كما أن إعلامنا العربي أصبح نظاماً تابعاً، وغدا النظام الإعلامي العالمي يسلب عقولنا، ويشكل خطراً على ذاتيتنا الثقافية وانتمائنا بسبب ما يفرضه من قيم الاستهلاك، وتحويل المجتمعات النامية، ومنها وطننا العربي إلى مجرد أفواه وعقول مستهلكة لا منتجة، ومنفعلة لا فاعلة، وتنميط الحياة الثقافية بحيث تتحول الحضارات الأخرى إلى حضارات هامشية، فضلاً عن أنَّ فرض النموذج التقاني (التكنولوجي) المتقدم يسلب الهوية الثقافية مقوماتها، ويوقف الذاتية الثقافية عن الإبداع، ويلغي التنوع والتعدد الثقافي البشري، وهو أثمن ثروات الإنسانية.

ولما كان الوطن العربي لم يتمكن من اللحاق بأسرار هذه الثورات المعرفية والتقانية والاتصالية فقد زاد ذلك في قطع صلته بالعصر، كما زاد في قيام حالات عقد النقص والاغتراب والإحساس بالدونية أمام هذه الثورات وأصحابها، ومن ثمَّ أدى ذلك إلى مزيد من التبعية، حتى لو لم يشأ ذلك أو لم يقبله، وهذا كله يدفع إلى البحث عن الأمن الثقافي.

وطالما وجهنا أصابع الاتهام إلى الآخرين وحملّناهم مسؤولية ما نحن فيه، وأنَّ هؤلاء الآخرين يعملون على محو ذاتيتنا الثقافية وخلخلة انتمائنا، والسعي إلى تشكيكنا في تراثنا وتاريخنا وشخصياتنا وأنماط تفكيرنا، ونادراً ما حملّنا أنفسنا تلك المسؤولية، إذ إن تخلّفنا الثقافي وتشرذمنا من العوامل الأساسية التي تسهلّ عملية الاستلاب والاختراق، وإذا كانت بعض الأسباب ترجع إلى غيرنا فإن الأجواء التي نحياها ملائمة للغزو ومسهلّة له، لأنَّ الغزو مظهر من مظاهر التخلف الثقافي وهو نتيجة له، إذ ليس ثمة خطر مع وجود النهضة الثقافية، ذلك لأن ضعف البنية الثقافية هو الذي يسمح بالغزو مثلما ضعف بنية الجسم يسمح بدخول الجراثيم إليه، أمَّا إذا كان قوياً ومتسماً بالمنعة فإن ثمة صعوبة في اختراقه.

ولقد أبانت الخطة الشاملة للثقافة العربية أن الغزو الثقافي ظاهرة ثلاثية الملامح، فهي تاريخية وحتمية وإنسانية، تاريخية لأنها وليدة مرحلة معينة من التطور التقني الرأسمالي في الحضارة الحديثة، وحتمية لأن أمم العالم الثالث لم تسهم في إبداع العلم والتقانة المتطورة اللذين تقوم عليهما ظاهرة الغزو، وهي مجبرة مع ذلك على الأخذ بإنجازات هذه التقنيات الغازية. والغزو الثقافي في النهاية ليس مشكلة خاصة بالأمة العربية وحدها، ولكنها مشكلة إنسانية شاملة، وبعد من أبعاد القضايا الإنسانية الكبرى.

والسؤال الذي يمثل أمامنا: ماذا نفعل تجاه هذا الغزو الثقافي؟ وهل ثمة بديل عن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هذا الغـزو؟ وهل ننغلق على أنفسنا تجاهه أم نفتح حنايانا له؟

الواقـع ليس الانغلاق بديـلاً عن الغزو لأنـه غير ممكـن في عالمنا المعاصـر، إذ إن الانغلاق يعني الجمود والموت لا محالة، وليس الاستسلام والذوبان في الآخر وتبني أنماطه الوافدة ببديل أيضاً لأنَّه سينتهي بدوره إلى النتيجـة نفسها من ضمـور الوجود الذاتي إضافـة إلى خسارتـه الإنسانيـة لأنَّه يلغي تعدد الـرؤى الثقافيـة بمحاولة فرض لغة واحدة، وأسلوب حيـاة واحد، وإحلال فكر دخيل على الفكر الأصيل.

والسـؤال الآخـر: هـل يكـون البديل بالحوار؟

إنَّ الحـوار الحقيقـي بـين المجتمعات والشعوب على الصعيد العالمي ينبغي له أن يرتكز على مبادئ إنسانية وفي مقدمة هذه المبادئ تسـاوي جميع الثقافات في الكرامة واغتناء بعضها من بعضها الآخر، وهذا مبدأ بدهي ثبّته التاريخ الأدبي والفني والمعماري في حياة البشرية، وهـو وسيلة لقراءة العالم وفهمـه، ولا يغيـبَنّ عن بالنا مـدى إسهام الثقافة العربية في الهندسة المعمارية والطب والرياضيـات على الصعيـد العالمي عندما جـابَ أصقاع الأرض بعيداً عن حدودها في الوقت الذي كانت فيه أوروبة متقوقعة على نفسهـا، كما لا يغيبَنّ عن البال أثر الفلسفة الهنديـة في الثقافة العالمية، وفلسفة الأنوار التـي انطلقت من فرنسـا في القرن الثامن عشر لتنتشـر في سائر أنحاء أوروبة قبل أن تعبر المحيطات، ولا يمكننا أن ننسى الإسهام الأساسـي للديانات السمحة في حياة البشر عندما سمت بهم هذه الديانات إلى التحليق في أجـواء المحبة والحـق والخير والجمال، ونأت بهم عن الضغينـة والأنانية والبغض والكراهية.

وتجدر الإشارة إلى أن الثقافات لا تتطور كلها وفـق الوتيرة نفسها، فثمـة ثقافة لأمة مـا تبلغ الذروة في فترة مـا، وإذا هي تنحدر وتتقوقع وتجمد في فترة أخرى كما حدث في تاريخ أمتنا العربية، إذ إنَّ ثقافتنا بلغت الأوج في العصـر العباسي، وما لبثـت أن أصيبت بالانحـدار والانحطـاط في عصـر الـدول والممالـك المتتابعة بعد ذلـك، وما من ثقافة إلا وتشهد فـترات إشعاع وتوسّع وتعقبها بعد ذلك فترات صمت وتراجع، وهذا ما أكده عالم الاجتماع العربي ابن خلدون في مقدمته.

وثمة مبدأ آخر في الحوار بين الثقافات يتكامـل مع المبدأ السابـق ولا يمكن فصله عن تساوي الثقافات في الكرامة الإنسانية، ألا وهو ضـرورة التعددية الثقافيـة، إذ إنَّ هـذه التعددية تحف بها المخاطر في حياتنا المعاصـرة، وفي ظـلال عولمة تـروم امحاء الذاتيـة الثقافيـة لكثير من شعـوب العالم ومجتمعاته، ويتجلى ذلـك في تهميش لغات الكثيريـن وفرض لغـات الأقويـاء مكانها،

وكم من مجتمعات منعزلة في عالمنا تتعرض ثقافتها للخطر!

ومن الملاحظ أن ثمة استعمالاً إيجابياً للعولمة، واستعمالاً سلبياً لها، ويكون الاستعمال الإيجابي في الأمور المشتركة والمتداولة والتي تؤثر في الضمائر متمثلة في الإعلام والمعرفة والتقدم وفهم الآخر وتقاسم القيم والثروات. أمَّا الاستعمال السلبي فيتمثل في قولبة كل شيء على صورة واحدة ونمط واحد والاختزال إلى أصغر قاسم مشترك، أو حتى سيادة قانون السوق وحده الذي يتغاضى عن تلك الثقافة الإنسانية القديمة التي يكمن جوهرها في جمع الناس حول مبادئ أخلاقية. وما مواجهة العولمة الطاغية للثقافات إلا بطريق التعددية الثقافية، وأساسها الاقتناع بأن لدى كل شعب رسالة فريدة يعطيها للعالم عن طريق الإدلاء بدلوه في فلك الجمال والحقيقة إغناءً للحياة البشرية في هذا العالم.

وتجدر الإشارة إلى أن الحوار الفعّال يكون بين متكافئين، ولا يمكن أن يكون هنالك حوار بين قوي وضعيف، إذ إنَّ القوي لا محالة هو الذي يسيطر، كما أنَّ هؤلاء الأقوياء لا يرومون الحوار مع الضعفاء حتى لو أراد الضعفاء الحوار وسعوا إليه.

وإذا كانت البشرية في تاريخها قد عرفت حوار الثقافات وانفتاح بعضها على بعضها الآخر فإن مستقبل البشرية وفي ظلال العولمة يرمي إلى تهميش الثقافات الضعيفة وهيمنة ثقافة الأقوياء على الآخرين.

ومع أنَّ أسلوب الحوار هو الأسلوب الذي ينبغي له أن يعتمد في عالمنا المعاصر بدلاً من أسلوب التصادم والهيمنة والاستلاب فإنَّ التفاعل بين الثقافات ينبغي له أن يكون مبنياً على الأخذ والعطاء وعلى تقديم شيء من الذاتية الثقافية إذ لا يصح التعامل مع ثقافة الآخر تعامل الإنسان الفارغ الخالي من أي شيء والفاقد الانتماء والمنبهر أمام الثقافة المهيمنة، يقبل عليها بقلبه وعقله ووجدانه، فتملك عليه شخصيته كاملة، وتسلبه هويته وطابعه وذاتيته الثقافية.

ورحم الله شاعرنا العربي إذ يقول:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى

فصادف قلباً خالياً فتمكنا

ومعرفة الهوى هنا هي معرفة الذات، ومعرفة من نحن، ومعرفة سر التقدم التقاني والمعلوماتي والبرمجيات المتعلقة به مصوغة بطابعنا العربي وذاتيتنا الثقافية، وعندها فقط يكون لنا موطئ قدم في هذا العصر المتطور والمتوثب والذي لا يعترف إلا بالأقوياء بعقولهم ومعرفتهم، لأنَّ المعرفة قوة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المقاومة الشعرية العربية المعاصرة: بعض مالها وما عليها!

د. خير الدين عبد الرحمن ✿



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لئـن كان الشعر دفق أحاسيس ومشاعر ينتظم كلمات، فإنه قد كان في نصف القرن المنصـرم من حياتنا العربيـة سبيلاً رئيساً لاستنهاض الأمة وإيقـاظ وعيها وتفجير المعطل والكامن من طاقاتها.

وإذا كنـا نتمنى أن تـزداد المراجعات النقدية الراهنة قسوة وصرامة في محاسبة الـذات، سعياً إلى تلمس أكثر وعيا وجدية ودقة لأسباب الفشل والانهيارات والتراجعات والهزائم المتوالدة على مختلف الأصعدة في حياتنـا، فإنَّ للشعر العربي نصيبه من تلك المراجعـات بالتأكيد، وخاصة شعر المقاومة

✿ أديب وباحث ودبلوماسي سابق.

الذي بدأ منتقدوه يلحون على أنه كان شديد الانفعال عموماً. وهذا صحيح، لكنه ليس مثلبة على الإطلاق، فالشعر الجيد أصلاً انفعال صادق.

والشعر المقاوم أدب إنساني رفيع، يرفع من قيمة الإنسان وشأنه، ويزكي القيم العليا في النفوس.. إنه أدب الدفاع عن الحياة.. وفي هذا كتب السيد نجم: «يردد البعض أنّ أدب المقاومة مفعول به ومنفعل، وكأنه رد فعل لعدوان من السحاب، وليس لموقع أقدامنا على الأرض دور. فكان التساؤل: (الأدب المقاوم: أدب فاعل أم أدب منفعل؟)، والطريف أن القائلين بتلك المقولة الحائرة المتحيرة.. لم ينتبه أحدهم إلى مبرر مقنع يردده، اللهم إلا الإحساس بالقهر الداخلي والإحساس بالهزيمة.. من دون أن ينتبه إلى عوامل وعناصر القوة فيه وفي قومه،وما أظنه إلا سبباً لا يقاومه سوى (أدب المقاومة)».

وقال عضو رابطة علماء فلسطين الدكتور زياد مقداد: إنّ مقاومة الغاصبين والمعتدين على الأرض والعرض والوطن حق مشروع كفلته الديانات والثقافات والدساتير السماوية كافة بل إنّه حق فطري يستشعر به كل إنسان، مشيراً إلى أنّ مقومات نشر ثقافة المقاومة تكمن في الإعداد المعنوي لرفع المعنويات والثقة بنصر الله والإعداد المادي ووحدة الأمة. (صحيفة فلسطين، غزة، ٢٠٠٩/٢/٢٣م).

كما رأى الدكتور وهبة الزحيلي «أنَّ تفعيل ثقافة المقاومة أمر مهم من أجل مواجهة ثقافة الانهزامية والاستسلام التي يتم زرعها في نفوس أبناء الأمة، خاصة تجاه قضية فلسطين.

ويؤكد على أن تفعيل ثقافة المقاومة يكون بتحريك آراء الجماهير وغضبتهم، وبتحريك الشعور الوطني، وتحريك الناس ضد المعتدي والظالم، باعتبار أن هذا واجب شرعي، ولابدّ أن نعبر عنه بكل الأساليب لتنمو ثقافة عدم الاستسلام للظلم والعدوان والقبول بالهوان».(المصدر نفسه).

إنّ أدب المقاومة عموماً -والشعر الحق في طليعته- هو المعبر عن الذات الجمعية، الواعية بهويتها، المتطلعة إلى حريتها في مواجهة الآخر العدواني.. ومحور المقاومة هي تعضيد الذات الجمعية والبحث عن عناصر قوتها، ثم البحث عن عناصر ضعفها لتلافيها.. وبالتالي أدب المقاومة يبدأ بالذات ومنها قبل ممارسة العنف أو الصراع مع الآخر العدواني. لذا كان أدب المقاومة معنياً بقضايا الهوية والحرية والأرض والانتماء، إضافة إلى خوض القتال.. وهنا يجدر بنا الوعي بأنه لابد من توسيع مفهوم المقاومة

ARCHIVE http://archivebeta.Sakhrit.com

ليشمل إرادات بشرية تكدح في مجالات روحية وذهنية، فالمثقف الذي يعكف على عمله بإخلاص هو مقاوم بامتياز حتى لو كرس أصابعه للقلم أو الريشة ولم يقترب من زناد بندقية.(خيري منصور (بتصرف)، الخليج، ١٨/٣/٢٠٠٩م).

• • •

لاشك في أنَّ اهتمام الشعر العربي المعاصر بالهمِّ القومي كبير، وخاصة مع اشتداد وطأة الغزوة الصهيونية وما قابلها من خفة مرعبة وتكاذب فاضح في كثير من التعاطي العربي الرسمي إزاءها، بحيث جاءت فاجعة الهزيمة في العام ١٩٤٨م زلزالاً هز الأمة. كانت الهزيمة حافزاً هائلاً للشعر بالذات، لكي يعرّي الفساد ويفضح مواطن الخلل ويستنهض الهمم ويستنفر طاقات الرفض البنّاء في الأمة. لكن تكرار الهزيمة، وصولاً إلى تطبيع النكوص عن قيم الأمة وحقوقها وأهدافها، والاستهتار بخطوطها الحمر، واستبدال تحرير فلسطين بالتسليم لمغتصبيها قد وضع الشعر بين حجري الرحى: تهويلاً يرفع وتيرة خطابه التحريضي من ناحية، ويصد من ناحية ثانية الحملات التي جعلتنا جميعاً موضع اتهام بأننا خضنا حروبنا ومعاركنا بالقصائد والأناشيد والأهازيج والأغاني والشعارات، سواء الصراع ضد الغزاة الخارجيين، صهاينة وأوربيين وأمريكيين، وكأن الشعراء -لا الجيوش- هم المولجون بخوض الحرب وإدارتها، أو الصراع الداخلي ضد الظلم والفقر والقمع والجهل والتخلف والفساد على امتداد قارتنا العربية.

مع ذلك، فلهذا الاتهام نصيب من الصحة. لقد استسهل بعضنا المبالغة في استثارة الحماس، متوهماً أن العدو سوف يرتعد فيرتد مذعوراً خائباً لمجرد صراخنا وتهويلنا.

ولعلَّ هذه سمة متوارثة، فقد كان الغالب على شعر الاستنهاض والاستنجاد واستثارة النخوة في أزمان العرب القديمة والمتوسطة يرتكز على التذكير بالأمجاد والشجاعة والأنفة وسائر الشمائل الرفيعة، دونما إطلاق أو تعميم في هذا التقييم، إذ لا ننسى مثلاً استفزازاً اضطر إليه حتى الإمام الشافعي في زمنه المتقدم، بالغاً حد إعلان اليأس والقنوط من حياة تبعث في جثة المخاطب، أمة أو جماعة أو قبيلة أو قوماً، عبر قوله:

لقد أسمعت لو ناديت حياً

ولكن لا حياة لمن تنادي!

كذلك هو أمر المتنبي، حيث أنه بعدما تقمَّص دور الموجه بقوله:

عش عزيزاً أو مُتْ وأنت كريمٌ

بين طعن القنا وخفق البنود

واطلب العزَّ في لظى ودع الذل
ولو كان في جنان الخلود

راح يقرن افتخاره بنفسه بهجائه لأمته، إذ قال:

أنا في أمة تداركها اللـ
ـه غريب كصالح في ثمود!

أمَّا أبو فراس الحمداني الذي استشرف خطر الانهيار الناجم عن استشراء التغلغل الشعوبي والفساد والضعف في الدولة العباسية فأطلق زفرة ألم وتقريع قال فيها:

يا للرجال أما لله منتصف
من الطغاة، أما للدين منتقم؟

* * *

لعلَّ أخطر ما واكب المبالغات الشعرية العربية، وخاصة في قدح الأمة لإيقاظها واستفزار هممها، هي تلك المقولة الفاسدة المفسدة التي استوطنت العقل الباطن لأكثرنا، أو لنقل في اللاوعي العميق، مما قد تمَّ تلقينه لنا أطفالاً: مقولة «أعذب الشعر أكذبه»! تلك المقولة التي فعلت فعلها مع كثير سواها في سياق فلسفة تعليم قاصرة وفاسدة بدورها، تقوم على مفهوم خاطئ هو «النقش على الحجر»، زاعمة العقول حجراً صلداً، والتعليم نقشا على ذلك الجماد! وهكذا توسل كثير من أصحاب الشعر والنثر والسلوك مزيدا من العذوبة عبر الولوغ أكثر في الكذب إلى جانب الإفراط في المبالغة، مما لم يعد يقض مضجعاً أو يثير وخزة ضمير لدى كثيرين بعدما تمّ نقش تلك المقولة المفسدة على عقول مسخت أحجاراً.

* * *

كثيراً ما اختلطت المعايير واضطربت، مما جعل المشهد ضبابياً، أو قل مختفياً تحت ستار كثيف من غبار ودخان. وهكذا تقمص كثير من شعرائنا، أو فرضت عليهم، أدوار المنظّر والقائد الميداني والمفكر الإستراتيجي وصانع التاريخ ومجترح المعجزات ورابح الحروب، في تبادل للأدوار مع هؤلاء الذين يمارسون التنظير والقيادة والحرب والإدارة شعراً. طبيعي في هذه الحالة أن تكون النتيجة إخفاق هذا الفريق وذاك، إخفاقاً كثيراً ما يقترب بأصحابه من تخوم اليأس والقنوط والإحباط، فيستسهلون إفراغ تأزمهم بإلقاء المسؤولية على الشعب وعلى الأمة، وكيل التهم للجماهير، وفي ذهن بعضهم -بحسن نية طبعاً- أن مثل هذا الخطاب الاستفزازي يوقظ النيام ويستنهض الراقدين ويعيد الوعي المغيّب. لكن النتائج تكون سلبية غالباً، تماماً مثلما هي نتيجة إدمان التغطية على الخلل بادعاء نقيضه، بوعي أو بلا وعي!

شدّني في طفولتي حماس سليمان العيسى وهو يقول:

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

لو كان في كفي قياد القدر
غسلت جفني أمتي بالشرر
ألهبت بالثورة حتى الحجر

وعشت طفلاً فرحته مع الأمة بأسرها وهو يؤكد:

يا ليالي الضياع والقيد زولي
نحن باقون وحدةً لن تزولا

لكنني لم ألبث أن قرأت له هجاءه القاسي في (صفقت لك)، وخاصة في (بهلوان)، ولم يبرح خاطري إلى يومنا قوله مستنكراً:

بالثأري أيعلو صهوة التاريخ عبد ويحمل الرسالة تاجر؟

ومثلما حيرني قصيد تقافز المواقف وردود الفعل فيه من نقيض إلى نقيض، حرت في أمر وحدة زالت بمثل سقوط ورقة من شجرتها في الخريف، على الرغم من تأكيده أنها لن تزول.

حفظت آنذاك العديد من أبيات ملتهبة للشاعر يوسف الخطيب، وخاصة من ديوانه (العيون الظماء للنور). ولازلت أحفظ بعد مرور نحو خمسين سنة قوله:

الرعاع المسكين في الشرق ينقاد أمام القوي كيف يشاء

وتستعيد الذاكرة توق الشاعر إلى نهوض جمعي كاد تأخره يجعله ييئس من الأمة:

أكاد أومن من شكٍّ ومن عجب
هذي الملايين ليست أمة العرب!

كذلك هو قوله:

في الظلام الحزين أقرع ناقـ
ـوسي حداداً على الطلول الدوائر
وأنادي في الريح أشتات قومي
فيجيب الصدى وصمت المقابر!

ناهيك عن استنهاضه الشعب بقوله:

أنا لا أعتب على طاغية
أنا أعتب يا شعبي عليك
أما ترى لون يديه قانياً
من ضحاياك، فما بال يديك
مصرع الظالم لو قمت له
ليس إلا نبة من شفتيك

وفي البال أيضاً تحديه للمستبدين وسارقي ثروات الأمة والمتواطئين مع الغزاة:

أين بترولنا؟ أنحرق فيه
ليعيش الأسياد والأمراء
أتمنى لو كنت عود ثقاب
في حقول البترول يوماً يضاء

• • •

وتسترجع الذاكرة مثله الذي قاله الكبير المرحوم عمر أبو ريشة قبله بسنوات:

يا شعب لا تشك الأذاة
ولا تطل فيها نواحك

لـو لم تـكـن بـيـديـك مجـروحـاً
لـضـمـدنـا جـراحـك
أنـت ارتـضـيـت رجـال أمـرك
وارتـقـبـت مـنـهـم صـلاحـك
فإذا بهم يرخون فوق خسيس دنياهم وشاحك
كـم مـرة خـفـروا عـهـودك
واسـتـغـنـوا بـرضـاك راحـك
أيسيل صدرك من جراحاتهم وتعطيهم سلاحك

بـل مضى عمر أبو ريشـة إلى أبعد من ذلك في تقريع الأمة واستفزازها لاستنهاضها وهو يتمزق ألماً بعـد اغتصاب معظم أرض فلسـطين في العـام ١٩٤٨م، في ظل تواطؤ أنظمة حاكمة وعجـز أخرى وفشل سواها، فقال:

يا أمة رضيت بالعار فانطلقت
فيها الطواغيت تحطيماً وتهديما
لا تعجبي من سكوتي مطرقاً خجلاً
إنَّ الصواعق لا تؤذي الجراثيما!

أمّـا المرحوم عبد الكـريم الكرمي (أبو سلمى) فكان أكثر تحديداً عندما سدد سهامه إلى التجزئة العربية وحرّاسها، فقال:

ودويلاتكـم علـى الأهـل حَـرْبٌ
وأمـام الـعـدا الـنـسـيـم العليل
يا فلسطين، يا بقايا فلسطين
حـرام علـى الـنـجـوم الأفـول
وحرام أن لا يمر على دربك الوحي
وأن لا يـفـيء ظـل ظليل

وجاء محمود درويش أشد مباشرة فقال:

وما القدس والمدن الضائعة
سوى ناقة تمتطيها البداوة
إلى السلطة الجائعة!

كم هي المقارنة مؤرقه بين كارثة تفريط نظـام رسمي عربي بائـس بفلسطين، وبين شجاعة يوسـف العظمة الذي أبـى إلا أن يدافـع عن دمشق مع حفنـة من رجاله في ميسلون ضد الغـزاة الفرنسيين. رجال قال فيهم أبو ريشة:

كـم لـنـا مـن مـيـسـلـون نفضت
عـن جـنـاحـيـهـا غـبـار الـتـعـب

* * *

شـرف الـوثـبـة أن تـرضـي العلى
غـلـب الـواثـب أم لـم يـغـلـب

ومن ذا الذي لم تهـزه قصيدة أبو ريشة ذائعة الصيت التي مطلعها:

أمـتـي هـل لـك بـيـن الأمم
مـنـبـر لـلـسـيـف أو لـلـقـلـم
أتـلـقـاك وطـرفي مـطـرق
خـجـلاً مـن أمـسـك الـمـنـصـرم

* * *

الإسـرائـيـل تـعـلـو رايـة
في حـمـى المهـد وظـل الحـرم!
كـيـف أغـضـيـت علـى الـذل ولم
تـنـفـضـي عـنـك غـبـار الـتـهـم

إلى أن قال:

أمتي كم صنم مجدته
لم يكن يحمل طهر الصنم
لا يلام الذنب في عدوانه
إن يك الراعي عدو الغنم
فاحبسي الشكوى فلولاك لما
كان في الحكم عبيد الدرهم

مثله كان قصيد الجواهري يقطر سخريةً مريرةً وهو يخاطب الجماهير المضطهدة المغيَّبة:

نامي جياع الشعب نامي
حرستك آلهة الطعام
نامي، فإن لم تشبعي
من يقظة فمن المنام
نامي تصحّي.. نعم نوم
المرء في الكرب الجسام

كذلك كان انتقاد شفيق جبري بدوره نوم الأمة بينما يغتصب اليهود القدس:

أيعبث اليهود في حرم القدس
فساداً والنوم يأخذ منا؟

مع ذلك، لم يصل الأمر بهم حد تقريع الشعب إلى الحد الذي سبق أن بلغه الشاعر المهجري نسيب عريضة عندما قال في العام ١٩١٧م:

كفنوه، وادفنوه..
أسكنوه هوة اللحد العميق
واذهبوا، لا تندبوه،
فهو شعب ميّت ليس يفيق!

٭ ٭ ٭

في البال أيضاً مبالغات التطرف في الاعتداد بالذات، مما يذكّر بمبالغات المتنبي، وأعود إلى يوسف الخطيب الذي تقمص الشعب في اعتداده، بينما كان المتنبي يزهو بشخصه:

أنا مشعل أنا مارد جبار
لا الريح تخمده ولا الإعصار
ومشيئتي قدر على أقدامه
تتمسح الأيام والأقدار

فيتداعى من ثنايا الذاكرة اليوم هنا قول الشاعر ابن هانئ الفاطمي مسفّاً في مديح المعز لدين الله، لعل يوسف قد تمثله آنذاك، مفتخراً بالشعب، أو حتى بنفسه:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار
فاحكم فأنت الحاكم القهار

يدافع بعضنا معتبراً هذا الإفراط في المبالغة جزءاً من طبيعة الشعر، ومرحلة في مسار تطوره، منذ أصبح الشعر محاكاة مقصودة هدفها تقديم موضوعاتها مضافاً إليها ما يراه الصانع، وأصبحت المحاكاة فعلاً قصدياً في مدى الإضافة إلى موضوعاتها، وأصبح للشعر منطقه النوعي، ومن ثم أصبح (المستحيل المقنع) أقرب إلى

غاية الشعر، كما كتب د.جابر عصفور عن (تحولات الشعر العربي).

في المقابل، لفتتني قصيدة مغنّاة للمرحوم سعيد المزين كثرت إذاعتها من إذاعة الثورة الفلسطينية منذ العام ١٩٦٩م، بدأها بقوله:

أنا يا أخي آمنت بالشعب المضيّع والمكبل
وحملت رشاشي لتحمل بعدنا الأجيال منجل

ولعلَّ هذه من أكثر ما نظمه المرحوم سعيد المزين عمقاً ونضوجاً، إذ تمثل خطاباً حضارياً وفهماً عميقاً لطبيعة الصراع ورؤية بناءة للمستقبل، خلافاً لبعض قصائده التي وشت بعصبية تنظيمية لم تنج منها كل التنظيمات الفلسطينية، استنساخاً لداء عصبية جاهلية اتخذت هيئة النرجسية التنظيمية التي طالما طبعت خطابات الأحزاب والتنظيمات العربية بدرجات متفاوتة.

• • •

لا يغيب عني أبداً تأثري الشديد ببيت شعر لصديقي الشاعر المرحوم كمال ناصر من قصيدة مشهورة قالها لدى احتدام الخلاف بين البعث وعبد الناصر سنة ١٩٦٤:

أعوذ من نزوات الفرد جامحة
ما كان للفرد في دستورنا جاه

كان لي يومها نحو نصف سنوات عمره، ومثل ما كان له من انتماء حزبي. وقد صدّقت قوله، ولكنني سرعان ما اكتشفت لاحقاً كم تمادى تحالف التخلف والنفاق في اختزال قضايا الأمة الكبرى، بل الأمة ذاتها في هذا القائد أو ذاك، ممن فاقت شراستهم ضد بعضهم بعضاً ما ناله منهم العدو.

تساءلت آنذاك: ما دام كل منهم يرتاح لمن زعموه قائد الأمة وصانع مجدها ومحط أملها وكل شيء في حياتها، من دون أن يستشير أحد الأمة بهذا، أفلا يتحمل هو المسؤولية عن الهزائم والنكسات مثلما يحتكر الإنجازات؟ ثم هل إذا ما مات يفترض أن تموت الأمة بموته، أم أن من جعلوه كل شيء اعتبروا سلفاً أن الأمة ميتة؟!

كنت قد عرفت كمال عن قرب بعد فترة قصيرة، إذ جمعتنا الثورة الفلسطينية المغدورة، فسألته ذات مساء ونحن في مقهى على شاطئ الروشة: أمازلت تزعم بعد كل ما خبرناه، حتى منك، أنه «ما كان للفرد في دستورنا جاه؟»، فابتسم وحوّل مجرى الحديث على الفور. تدفقت مياه كثيرة بعد ذلك جعلتنا نتحسر حتى على تلك الأيام. وما زلت أكرر: سامحك الله يا كمال ناصر!

• • •

من مقولات كمال الأخرى، التي مضى تأثيرها في غير ما أراد هو عندما أطلقها، قوله أثناء مجازر أيلول الأسود سنة ١٩٧٠م في الأردن: (يا وحدنا..). كان بهذا يعكس انطباعاً عاماً بأنَّ الأمة قد خذلت أشجع أبنائها وأصدقهم وأشدهم براءةً آنذاك، فتركتهم ضحايا افترسها تواطؤ أكثر من نظام عربي مع الولايات المتحدة، التي استنفر رئيسها آنذاك ريتشارد نيكسون القواعد العسكرية الأمريكية في العالم كافة للتدخل ضد الثورة الفلسطينية عند الحاجة، وقد أدار مستشاره الجديد آنذاك لشؤون الأمن القومي هنري كيسنجر المعركة بالتفاهم مع إسحق رابين على دور عسكري إسرائيلي، بدأ بمظلة جوية من الطائرات الحربية التي حلّقت فوق ساحة القتال على مدار الساعة، حتى حسم الأمر بإخراج المقاومة الفلسطينية من أكبر وأهم ساحاتها.

ما كان كمال ناصر يتوقع أن تنتشر مقولته (يا وحدنا) انتشار النار في الهشيم، وأن يستغلها من حاولوا استبدال الانتماء القومي الأصيل للشعب الفلسطيني بانتماء قطري هجين لم يعرفه يوماً. ولا كان يتوقع أن يعتبر أكثر من حاكم عربي عبارة (يا وحدنا) غمزاً من قناته، كلما رددها المرحوم ياسر عرفات بمناسبة ومن دون مناسبة، بحيث كلفتنا الكثير من الدماء والخسائر في بعض المراحل.

وهنا لا أبرئ نفسي. كنت قد توليت رئاسة تحرير صحيفة فتح اليومية، اللسان المركزي للثورة الفلسطينية، صباح اليوم الأول للقتال في أيلول ذاك فجعلت والألم يعتصرني عنوان افتتاحية أحد أعدادها في ذروة احتدام القتال بيت شعر يوسف الخطيب:

وأنادي في الريح أشتات قومي

فيجيب الصدى وصمت المقابر!

⚬ ⚬ ⚬

بلغ استفزاز الخطاب الشعري المقاوم للأمة مداه عند الأخطل الصغير في محاولة لاستنهاضها، لعلها ترفض الخنوع وتقاوم الغزاة وأدواتهم المحلية، حتى إنه قال:

إذا ما ضربت الكلب يعوي؛ وربما

تقحَّم مؤذيه، وعض بنابه

وفي الشرق ناس لو سحقت رؤوسهم

لما نبحوا.. فليخجلوا من كلابه

وكذلك قوله:

يا أمة غدت الذئاب تسوسها

غرقت سفينتها فأين رئيسها

تعساً لها من أمة.. أزعيمها

جلادها وأمينها جاسوسها

أشبال ذا الوطن الجريح إلى متى

أنتم سيوف بلادكم وتروسها

موتوا كراماً أو فعيشوا أمة

تهوي على يدها العلا وتبوسها

ولم يدع الأخطل الصغير أساه لما كان من هوان الأمة يضعف ثقته بها، وهو الذي قال في ثورة فلسطين الكبرى سنة ١٩٣٦، المغدورة كلاحقتها:

سائل العلياء عنا والزمانا

هل خفرنا ذمة مذ عرفانا

شرف للموت أن نطعمه

أنفساً جبارةً تأبى الهوانا

يا فلسطين التي كدنا لما

كابدته من أسىً ننسى أسانا

استمر استفزاز الشعر العربي المعاصر المقاوم للشعب وانتقاده القاسي للأمة - قسوة المحب لمحبوبه- يتكرر في معظم قصائد هذا الشعر، كما في قول محمود درويش:

ونعرف، كنا شعوباً وصرنا حجارة

ونعرف، كنت بلاداً وصرت دخان!

يبرر أكثرنا هذه القسوة متسائلاً: أليس من حق الشاعر المخلص لوطنه وأمته أن يصرخ ألماً وهو يرى من حوله فلسطين تتكرر في العراق والصومال والسودان، ومن يدري أين يكون الاحتلال القادم، بعدما توالت نكسات الأمة منذ أطلق علي محمود طه تحذيره:

أخي جاوز الظالمون المدى

فحق الجهاد وحق الفدا

هل توقع أحد منا أن يطول الحال الذي اشتكى منه المبدع بدوي الجبل عقوداً، إذ قال:

يا سامر الحي هل تعنيك شكوانا

رق الحديد وما رقّوا لبلوانا!

وإذ بالأمر ينتهي كارثةً ارتكبها أنور السادات في كامب ديفيد وصفقةً بائسةً في أوسلو وسلسلة تنازلات عن معظم أرض فلسطين وحقوق شعبها تتلاحق في مبادرات تفريط رسمية عربية؟

• • •

لا يمكن لمنصف أن يبخس حق ما رسخ وسرى عبر السنين والعقود، على امتداد الوطن العربي، من شعر يستنفر النزعة الطبيعية لدى الإنسان لمقاومة العدوان والاحتلال والغزو والقمع والظلم. من هذا قول الشابي:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة

فلا بد أن يستجيب القدر

ولا بد لليل أن ينجلي

ولا بد للقيد أن ينكسر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقوله أيضاً:

لا عدل إلا إن تعادلت القوى
وتصادم الإرهاب بالإرهاب
لا رأي للحق الضعيف ولا صدى
والرأي رأي القاهر الغلاب

ولم يتخلف الشابي عن تحذير الطغاة، لأنه آمن بالشعب:

لك الويل يا صرح المظالم من غد
إذا نهض المستضعفون وصمموا

* * *

لم يشذ شاعر اليمن الكبير عبد الله البردوني عن نظرائه في استخدامه الاستفزاز وسيلة لاستنهاض أمته وشعبه على حد سواء، آملاً لفرط حبه لهما أن يوقظ وعيهما المغيب. نقرأ له:

ما أصدق السيف إن لم ينضه الكذب
وأكذب القول إن لم يصدق الغضب
ماذا فعلنا؟ غضبنا كالرجال ولم
نصدق وقد صدق التنجيم والكتب
تسعون ألفا لعمورية اتقدوا
وللمنجِّم قالوا: إننا الشهب
عروبة اليوم أخرى لا ينمُّ على
وجودها اسم ولا لون.. ولا لقب
ماذا أحدِّث عن صنعاء يا أبتي
مليحة عاشقاها السلُّ والجرب
الحاكمون وواشنطن حكومتهم
واللامعون وما شعوا ولا غربوا
القاتلون نبوغ الشعب ترضية
للمعتدين وما أجدتهم القرب

كذلك هو حال قوله:

هرب الزمان من الزمان
وخوت ثوانيه الغبية
حتى الزمان بلا زمان
حتى المكان بلا قضية
الليل يبحث عن ضحى
والصبح يبحث عن عشية

* * *

ومؤمركات يرتدين
قميص ليلى العامرية!

وقد وضع المرحوم البردوني إصبعه على الجرح وهو يمزق ستر المخادعة والدجل والتهريج الإعلامي المنافق، فقال مخاطبا مدينته صنعاء:

فظيع جهل ما يجري
وأفظع منه أن تدري
وهل تدرين يا صنعاء
من المستعمر السري
غزاة لا أشاهدهم
وسيف الغزو في صدري!

* * *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لهذا الانتقاد الموغل في استفزاز الأمة جذور في كثير مما قاله المعري والمتنبي، مثل قول الأول في لزومياته:

يا أمة من سفاه لا حلوم لها
ما أنت إلا كضأن غاب راعيها
تدعى لخير فلا تصغي لها أذناً
فما ينادي لغير الشر داعيها

وقول الثاني:

أغاية الدين أن تحفوا شواربكم
يا أمة ضحكت من جهلها الأمم
ألا فتىً يورد الهندي هامته
كيما تزول شكوك الناس والتهم

كم هو بائس شعور شرفاء الأمة اليوم مع استشراء الردة انطباق وصف المتنبي على حالهم:

ولكن الفتى العربي فيها
غريب الوجه واليد واللسان

وثمة فارق ليس بسيطاً، هو أن موضع الفتى المتنبي كان شيراز، بينما موضع غربة المتمسك اليوم بقيم الأمة وشرفها وحقوقها ومبادئها وأهدافها الأصيلة يكاد يمتد ما بين محيط وخليج.

● ● ●

المبدع هو من يرسم الطريق ويدعو إليه، ويتقدم الصفوف قدوة لمن خاطبهم، لا من يتلطى وراء مقولة (أكذب الشعر أعذبه) الساقطة المؤذية وما تحمله من عوامل تدمير للمتلقين، أو الذي ينتشي بممارسة النفاق انتشاء من يطربون لسماعه وربما يصدقونه!

في الوقت نفسه لا يجوز للسلبية أن تجعلنا نركز على جوانب الإخفاق والقصور فينا، جلداً للذات وتحطيماً للمعنويات، أو أن نستخف بإنجازات تستحق أن نفخر بها بدعوى أن الإنجاز هو أمر طبيعي وليس استثناء يغرقنا التباهي به. إن الإنجازات الحقيقية -لاالمدّعاة- هي حوافز تقدمنا وتطورنا وسعينا إلى مزيد من النجاح. بل هي التي تجعل لحياتنا معنى. المهم هو الصدق في الموقف، وفي التعبير، وفي الالتزام، وانسجام القول مع العمل. هنا تومض في الذاكرة أسماء وقصائد شعراء صدقوا حتى الاستشهاد، مثل عبد الرحيم محمود القائل:

سأحمل روحي على راحتي
وألقي بها في مهاوي الردى
فإما حياة تسر الصديق
وإما ممات يغيظ العدا

● ● ●

تجددت ذات الروح لدى الجيل اللاحق الذي صقلته التجربة المرة، كما في قول خالد أبو خالد:

زيد حصارك فافتحي دمنا سنخرج من بقايانا إلينا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

زيد، سندخل في عصور لا تساومنا علينا
وجع بحجم خروجنا العربي عن أسمائنا الأولى
وكون شاسع لرمادنا وقيامة أخرى وجسر للعبور.

* * *

يتكرر في الشعر المقاوم التأرجح ما بين الأمل واليأس، ما بين الرجاء والإحباط، ما بين الإيمان بطاقات الأمة والانكفاء قنوطا. نتمعن في قصيدة أمل دنقل (كلمات بارتكوس الأخيرة):

معلق أنا على مشانق الصباح
وجبهتي بالموت محنية.. لأنني لم أحنها حية
قرطاجة كانت ضمير الشمس: قد تعلمت
معنى الركوع
والعنكبوت فوق أعناق الرجال
والكلمات تختنق
يا أخوتي قرطاجة العذراء تحترق
فقبلوا زوجاتكم
إني تركت زوجتي بلا وداع
وإن رأيتم طفلي الذي تركته على ذراعها... بلا ذراع
فعلموه الانحناء
علموه الانحناء
علموه الانحناء!

كم هو الخيط وثيق بين «علموه الانحناء» هذه «وقول شاعر عربي قبل نحو مئة وستين عاماً:

يـهـود هـذا الـزمـان قـد بلغوا
غـايـة آمـالـهـم وقـد مـلـكـوا
الـمـال مـنـهـم والـجـاه عـنـدهـم
ومـنـهـم الـمـسـتـشـار والـمـلـك
يـا أهل ذا العصر قد نصحتكم:
تـهـودوا، فـقـد تـهـود الـفـلـك!

* * *

تكرر استفزاز أمل دنقل في قصيدته «خطاب غير تاريخي على قبر صلاح الدين»، إذ قال:

نم يا صلاح الدين
نم: تتدلى فوق قبرك الورود: كالمظليين
ونحن ساهرون في نافذة الحنين
نقشر التفاح بالسكين
ونسأل الله «القروض الحسنة»!
فاتحة: آمين...

وطني لو شغلت بالخلد عنه نازعتني لمجلس الأمن- نفسي

ولئن اختار المرحوم أمل دنقل صلاح الدين الأيوبي ليبثه لزفراته الحرّى، فقد اختار المستفز البارع محمد الماغوط طارق ابن زياد والخنساء والمتنبي، فقال في مصحفه الحجري:

سأصعد أحد التلال
القريبة من التاريخ
وأقذف سيفي إلى قبضة طارق
ورأسي إلى صدر الخنساء
وقلمي إلى أصابع المتنبي
وأجلس عاريا كالشجرة في الشتاء

حتى أعرف متى تبت لنا أهداب جديدة
ودموع جديدة في الربيع.

صرخ أمل دنقل قبل ذلك في (أقوال جديدة عن حرب البسوس) مناشداً بضمير المصري الأصيل أخاه الفلسطيني أساساً، الذي بات شعلة الأمل في ظلمات الانهيار الكبير الذي أسس له الرئيس المصري السابق أنور السادات بفتحه أبواب جهنم الاستسلام للغزوة الصهيونية:

لا تصالح
ولو توجوك بتاج الإمارة
كيف تخطو على جثة ابن أبيك
وكيف تصير المليك
على أوجه البهجة المستعارة
كيف تنظر في يد من صافحوك
فلا تبصر الدم في كل كف
إن سهماً أتى من الخلف
سوف يجيئك من كل خلف
لا تصالح على الدم حتى بدم
لا تصالح ولو قيل رأس برأس
أكل الرؤوس سواء؟

• • •

إنه ليس ثأرك وحدك لكنه ثأر جيل فجيل
لا تصالح
ولو وقف ضد سيفك كل الشيوخ
والرجال التي ملأتها الشروخ
هؤلاء الذين يحبون طعم الثريد
وامتطاء العبيد
هؤلاء الذين تدلت عمائمهم فوق أعينهم
وسيوفهم العربية
قد نسيت سنوات الشموخ
لا تصالح
فليس سوى أن تريد!

• • •

بعد الشابي في تونس، ومفدي زكريا في الجزائر، ومحمد الفيتوري في السودان، وبدوي الجبل وعمر أبو ريشة ونزار قباني في سورية، وأحمد شوقي وعلي محمود طه وأحمد عبد المعطي حجازي وصلاح عبد الصبور في مصر وإبراهيم العريض في البحرين، ومعروف الرصافي والزهاوي ومحمد مهدي الجواهري وبدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتي وشفيق الكمالي في العراق، وبشارة الخوري (الأخطل الصغير) ورشيد سليم الخوري (الشاعر القروي) وخليل حاوي في لبنان، وإبراهيم طوقان وأخته فدوى وعبد الرحيم محمود ومحمد العدناني ومعين بسيسو وهارون هاشم رشيد في فلسطين، وسواهم كثير، استقطب فرسان الشعر الجليلي اهتمام الأمة، بعدما أنستها دهاليز السياسة اليومية فلسطينيين نجوا من الاقتلاع الصهيوني سنة ١٩٤٨م، فظلوا على أرض وطنهم وصقل تحديهم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

للاغتصاب الصهيوني انتماءهم العربي. لقد نجح شعر محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد في توليد موجات متجددة من الانفعالات الصادقة والتجاوب الهائل على امتداد القارة العربية. وسرعان ماتحرر نزار قباني بدوره من صيغة عاشق النساء المدمن، التي اتهم بها فاستحبها، ليهدر صوته مقاوماً بصدق وإبداع وحرفية جعلته في طليعة شعراء المقاومة. لقد تجاوز تأثير بعض شعراء المقاومة ديار العرب إلى معظم أنحاء العالم، وخاصة في حالة محمود درويش الذي أعتز بصداقة جمعتني به، والذي ترجم شعره إلى عشرات اللغات. نستذكر هنا كيف التصقت قصيدة «سجل أنا عربي» باسم محمود وبشخصه التصاقاً عجيباً. وقد شهدت إلحاح الجمهور على سماعها منه في عدة أقطار عربية، لما فيها من التحدي القوي للعدو/ المغتصب/ السجان، والاعتزاز بالانتماء العربي، وكبرياء المقاوم الذي لايساوم. لكن الشاعر صار يتذمر لما اعتبره اختزال شعره وشخصه بهذه القصيدة، فحاول التبرؤ منها قائلاً أنها تنتمي لمرحلة مضت ظروفها، ثم صار يرفض بإصرار ونزق إلقاءها. ولم يتوان محمود عن انتقاد أوضاع عربية متخلفة بائسة تاجرت بفلسطين، كما قوله فاضحاً ما اعتبره لعبة الحرب من أجل أسعار النفط:

وأستدعى إلى الحرب ليصبح سعر النفط أعلى..
وأستدعى إلى الحرب ليصبح لون التاج أحلى.. كلا!

كذلك التصقت قصيدة (أناديكم..) بتوفيق زياد، على كثرة ما كان له من قصائد مبدعة أخرى. أمَّا سميح القاسم، فقد نجح كثير من قصيده في الانطلاق إلى ما وراء الساحة العربية، ونجح هو في النجاة من اختزاله واختزال شعره بقصيدة أو بشطر من بيت في قصيدة. وسوى هؤلاء وبعدهم لمع عشرات وعشرات من شعراء المقاومة المبدعين الذين يضيق المقام للإحاطة بهم جميعاً.

• • •

في تلك المرحلة التي لا زالت تتفاقم كوارثها وتتوالد فواجعها، بلغ الاستفزاز القاسي مستويات غير مسبوقة لدى نزار قباني، أملاً في إيقاظ بقية حياة. قال مثلا في قصيدته «المهرولون»:

سقطت آخر جدران الحياء
وفرحنا.. ورقصنا..
وتباركنا بتوقيع سلام الجبناء
لم يعد يرعبنا شيء
ولا يخجلنا شيء
فقد يبست فينا عروق الكبرياء

• • •

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

من ترى يسألهم عن سلام الجبناء؟
لا سلام الأقوياء القادرين
من ترى يسألهم عن سلام البيع بالتقسيط؟
والتأجير بالتقسيط.. والصفقات.. والتجار والمستثمرين؟
من ترى يسألهم
عن سلام الميتين؟
أسكتوا الشارع..
واغتالوا جميع الأسئلة..
وجميع السائلين..

يتكرر الخوف من القمع، وتحميله أوزار ما حل بنا ويحل، لدى معظم الشعراء المعاصرين الذين تعاطوا مع محن الأمة. قرأنا هذا مثلا لعبد الوهاب البياتي(الصفحة ٢٦٨ من ديوانه) محبطاً مثخنا بالجراح، استفزازه المدمّى:

يبيع الجزارون لحوم الشعراء المنفيين
رأيتك في مبغى هذا العالم
في أحضان رجال ونساء تمضين الليل
بكيت. رآني البوليس وحيدا
في مدن الثورات المغدورة
مجنونا أتحدث عنك.. البوليس رآني

* * *

تتضح كلمات الشاعر الإماراتي إبراهيم محمد إبراهيم بألم مماثل:

نباع من القهر بيع الرقيق
ونحلم بالصفقة الرابحة
ففي كل صدر طموح يموت
وفي كل جمجمة مذبحة
عقول تحاصر في كل درب
وحرب تدور بلا أسلحة!

وهو نفسه الذي صاغ رؤيته للفضيحة الجاثمة على أنفاسنا بقوله:

أهازيج المهزومة على الشاطئ
ينتظرون الأخبار المهزومة
نحيب الموجة والرمل
على جناح العرب الخلص
سماسرة الدفن، الندابات
الدجل المتفشي في أسواق الموت

لكنه لا يغفل التشبث بالضوء الذي يصارع ريح الهزيمة وظلام التدمير المتسلسل المبرمج:

هذا الحجر الباسل
ربانيّ الصنع، فلسطيني المنبت
ما جاء من البيت الأبيض محمولا
فوق ظهور تتغنى طربا تحت سياط السادة.

يتكرر التفنن باستفزاز المخاطب في أكثر قصائد الشاعر الإماراتي المرحوم خلفان بن مصبح:

مجد العروبة ماله
لا يستثار ولا يثور؟
أتهاونا قد صابهم
أم صابهم ياذا فتور؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(ص٧٥ من ديوانه)

مجد العروبة قد أفل

عن عرشه بيد البنين

وتقسَّمت أوطانهم

بيد الطغاة الجائرين

(ص٧٦)

داء التواكل قد فشا

فينا فوا عجز المراد

وملوكنا قد فخمت

أسماؤهم لكن من جماد

يرجون من أعدائهم

أن يصلحوا لهم الفساد!

هيهات حتى أرضنا

بالذل ترسف بالقيود

أوطاننا من ذلة

أمست علينا كاللحود!

وفي زمن استشراء عبادة المال والنزوات وتلوث التاريخ الشخصي والجمعي، يتساءل الشاعر العماني سيف الرحبي مستفزاً بدوره في ديوانه «رجل من الربع الخالي»:

كم يلزم الإنسان من المليارات

كي يغسل تاريخه من الوحل؟

بينما كان ربط قاسم العزاوي أكثر وضوحاً في (صرخة) أطلقها بين الوضع المعيشي الذي يتم التلاعب به تيسيراً وتعقيداً، ترفيهاً وتجويعاً، في تناغم يخدم إشغال الناس عن قضاياهم العامة:

ما عاد يشغلهم سوى

فاتورة الماء التي ارتفعت

وسعر الكهرباء

والخبز والمازوت

في حمّى الغلاء

فالقوم صاروا عبيداً للرغيف.

وقد حاولت سعدية مفرح، وباستفزاز شديد أيضاً، وضع إصبعها على مواطن الخلل، قائلة في قصيدتها (الخروج الأخير):

نطلع الآن..

لم يعد بيننا وجموح اللغات سوى مفردات

الخنوع

لم يعد بيننا وشموخ الأغاني سوى نغمات

الخضوع

لم يعد بيننا وبياض الصلاة سوى كلمات

الخشوع

* * *

مرت عقود في إثر عقود، مثلما مضت قرون في إثر قرون، والأسئلة تكاد تكون هي هي:

أين الخلل؟ من المسؤول؟ ما الحل؟ ما العمل؟

المراجعة مطلوبة لجدوى استنساخ الصيغ والأشكال القديمة للخطاب الشعري، بمبالغاته التي تضيع معها الحدود ما بين الوهم والأمل، وعذوبته القائمة على جعل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حرام الكذب حـلالا مرغوبا بشدة، وإيغاله في استخدام الاستفزاز الناضح قنوطاً وكفراً سبيـلاً لاستنهاض الهمـم وإيقاظ الوعي. لكنها ليسـت مراجعة قاصرة على الخطاب الشعري، وإنَّما هـي مطلوبة قبله في سائر الحقول وفق أولويات منطقية تنتقل عمودياً وأفقياً في شتى الاتجاهات.

يستسهـل بعضنـا تحميـل الشاعر أو الكاتـب، المسؤوليـة لتأرجحهمـا فيما بين مبالغـة بالحلـم وإحباط، وكأنمـا الشاعر والكاتب هو الذي ينجز التنمية وينفذ برامج التحديث ويقـود الجيوش لخوض الحروب والدفاع عن الوطن! يستسهل آخرون الاتكاء علـى التاريخ غرقاً في غياهبـه وكموناً في تجاربـه وتشرنقاً في حلولـه، على نحو قول معروف الرصافي:

إنـا لمـن أمـة في عـهـد نهضتها
بالعلم والسيف قبلاً أنشأت دولاً

كما يستسهل أكثرنا تحميل الآخر الأجنبي المعـادي كل الأوزار، تبرئة للنفـس الأمارة بالسـوء والمثقلـة بالأخطاء مـن مسؤولية التقصـير والقصور. فهل مـن سبيل سوى أن نعيـد تعليم أنفسنا جميعاً البدء بأنفسنا أولاً، وتصويب الصغائر والكبائر في تفكيرنا وسلوكنا، وإعطـاء كل ذي حق حقه، دونما تهوين أو تهويل، ودونما محاباة أو ظلم.

ويظل الشعر -مهما تفاوتت رؤانا- ديوان العرب، وتظل المقاومة رمزاً لعزتهم وحصناً لكرامتهم وصانعة لمستقبلهم!.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الوطن والعروبة في شعر حسن فتح الباب

أحمد سعيد هواش ✲



بـزغ نجم الشاعر حسن فتح الباب أثناء الاعتـداء الثلاثي الغاشم علـى بور سعيد والقنـاة في خريف عـام ١٩٥٦م، حيث كان أحد الشعراء الذين أسهموا بشعرهم وبعملهم المهني كضابط في الشرطة في جمهورية مصر العربية في المعركة مع شعراء آخرين لتعزيز صمـود الجبهة الداخلية ممـا كان له الأثر الكبير في دحر المعتدين الإنكليز والفرنسيين واليهود.. أورد مقدماً ديوانه:(١)

«الدكتـور حسن فتـح البـاب الشاعر الكبير، أحد الشعراء القلائل الذين لايزالون يواصلـون كتابة الشعر حتـى الآن، ويتميز إبداعه الشعري بحس منفرد على الصعيدين المصري والعرب.. ففنى لوطنه وأمته العربية وللإنسانيـة، وللإنسان المناضل في كل زمان ومكان، ابتغاء تحقيـق أحلامه في التحرير والعدل الاجتماعي..

ولاشك أنَّ التجربة القاسية التي خاضها ضابط الشرطة الشاعر وسط الريف المصري

✲ أديب وناقد سوري.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

الزاخر بالأصالة الأسطورية، وبالصفاء الإنساني، والوطنية الحقيقية وإنكار الذات هي التي ربطت حسن فتح الباب بالناس والحياة والتقدم وهي التي جعلته ينفرد بين الشعراء العرب الجدد بهذا الحس الاشتراكي الذي جعله يتمرد على أشكال التعاون الاجتماعي ويلتزم بقضية العدالة الاشتراكية عن إيمان ووعي حقيقيين منذ أن بدأ يكتب الشعر الجديد».

وأستطيع القول بأنَّ الشاعر حسن فتح الباب مع الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي من الشعراء المميزين الذين سخروا شعرهم للهاجس الوطني والعربي حينما عاشا أحداث الأمة العربية وواكبا نضالها في صراعها المرير مع الاستعمار وربيبته إسرائيل.. وذلك في خلال حقبة من الزمن كانت هي الأغنى في التوهج والغليان الشعبي والمد الثوري الذي لازم العصر الذهبي للثورة المصرية(٢٣تموز ١٩٥٢م) وخاصة إبان العدوان الثلاثي على مصر الشقيقة، وما تبعه من قيام الوحدة العربية بين القطرين الشقيقين مصر وسورية/ ٢٢شباط ١٩٥٨م/..

وقد ارتسم كل ذلك وما تلاه من أحداث جسام على الأمة العربية في شعر الشاعر الدكتور حسن فتح الباب.

ومن الطبيعي أن يبارك الشاعر حسن فتح الباب مسيرة ثورة يوليو ١٩٥٢م المظفرة التي كان يقودها الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، فها هو يصور حب الشعب العربي، المناضل لقائد الثورة حيث قال من قصيدة (فارس الأمل):

أنفاسهم مشبوبة الحنين ساعة السحر
والشمسُ تغمرُ العيون والشجر
وتنضح الحياة بالعرق/ لايعرفون زينة المدن
وينشقُون طيب العبير من ندى الحقول
وفي المساء حين يرجعون
كاد خطوهم يذوب من حنين
لضمة البنات والبنين

إنَّهم أبناء الشعب الكادحون في سبيل الوطن والأبناء الذين سيكونون جنود وحماة الوطن تحت قيادة قائد الوطن الرئيس جمال عبد الناصر.

ثم يتابع الشاعر مشيداً بالثورة وقائدها وشعبها المناضل فيقول:

ياراثحين بلغوا السلام/ للصاعدين يرقبون مطلع الشروق
على ذوائب الخيل/ والصامدين حول فارس الأمل.

ثم يتوجه بالتحية لقائد الثورة بلسان أبناء الشعب فيقول:

«يا ناصر العتاة/ ياقاهر الطغاة بالسواعد الشداد
تفجرت من شعبك المجيد/ ياحلم الأجداد من دم
يا واهب الحياة للقناة/ تفديك أمة العرب

وما أجمل أن تكون الأرض التي درج عليها الإنسان طفلاً ويافعاً، القرية، التي رأى فيها الطفل أوَّل ما رأى البشر والشجر والتراب، ما أجملها أن تكون في مخيلة هذا الابن البار الذي أصبح كبيراً في عمره وقدره، ما أجمل أن يسمعنا الشاعر الدكتور حسن فتح الباب ضابط الشرطة تحيته

المفعمة بالفخر والعزة والكرامة والأمل، ما أجمل أن نعيش هموم أبناء القرية ونعبر عن فرحهم وهمومهم وأشجانهم.. إنَّه الوفاء من الأبناء البررة.. هاهو يسمعنا مقاطع من قصيدة (أغنية ريفية) حيث قال واصفاً مكان قريته في نفسه وكفاح أهلها في سبيل لقمة العيش:

يا قريتي/ يا نجمة خضراء في مشارف النخيل.
تموجُ في بحيرة الضياء/ عيونها مشاعل المساء
فؤادك الرهيف يسكب الحياة في سكون
للغارقين في دجى الأغوار
والقابعين في الدروب يرقبون مطلع النهار
لينزعوا من قبضة التراب لقمة الكفاف
والضاربين بالصدور في الصخوُر
ليطلعوا من ردة الهجير ريق الثمار

والشاعر مع قريته وأبنائها الكادحين مع نضالهم في سبيل الغد المشرق والأفضل:

يا قريتي
من أجلك العيون في سهاد/ تخاف في صراعها القضاء
أن تطفأ النجوم والأقمار/ في أفقك الرحيب

ومن مقطوعة (معزوفة على الجرح القديم) ينعي الشاعر الشعراء الذين يصفقون للحكام ولأمراء البلاط متناسين واجبهم كشعراء يرفعون صوت الحق.. صوت الشعب فيقول:

قتلت مرتين..
فمرة نفسي../ لأني رفعت راية القناعة
أنا المغنى شاهد العصر الحزين
ومرة أبي قتلت/ أبي الذي مضى.
ولم تشيع نعشه حشود[٢]
قتلته.. لأنني مشيت مختالاً على قبره
ونمت عن ثأره..
وكانت الأفعى التي التفت على صدره
ترمقني بنظرة جوفاء/ وضحكة جامدة صفراء
رجعت خالي الوفاض/ تفاحتي مرة
أنا رقيق الأرض.. شاعر الأمير

ويجمع الشاعر حسن فتح الباب قصائده النضالية في ديوان (من وحي بور سعيد) ١٩٥٧م ويكرمه رفاق الكلمة على أثر نشر هذا الديوان وهو الأوَّل له فيحييهم بقصيدة يقول فيها:

العود حميدٌ يا عشاق الإنسان
يا صناع الكلمة..
غنوا للشمس على أبيات الأحرار
غنوها في عين مدينتنا/ وعيون الأحباب الشرفاء
في عالمنا الآتي الأكبر..
غنوا لمن يغني سحر الكلمة
غنوا فالليلة موعد أحبابي

(١٩٥٧/٦/٩م)

وتتطلع العيون والمآقي إلى القاهرة، مدينة المعز، وسعد، وجمال، فيخاطبها الشاعر قائلاً، موصياً بأن تكون المدينة الحانية على أبنائها من عمال وأطفال طيبين؛ فقد مضى زمن الحرمان

مدينتي..

إن مر في صباحك البسيم طارقٌ من الحقول

لاتحجبي عن عينه النهار/ لاتوصدي في وجهه الطريق

ففي حماك حيث توقدُ الشموسُ أعين العُمّال

وتدفئُ القلوب في مراحها الأطفال

ما تملك الحياة للجميع/ ويشتهي العشاق من ربيع

ولتمسحي على الجباه بالحنان/ فقد مضى بطيبها الزّمان

وعاش في غضونها الحرمان

وفي أواخر عام ١٩٥٧م تقوم تركيا بحشد قواتها على الحدود السورية الشمالية كضغط سياسي على قطرنا العربي المناضل في سبيل الحرية والتقدم حيث كانت المنطقة العربية في أوج توهجها الوطني، وكان حلف بغداد يتطلع لكسر الطوق الذي تمثله سورية مع بعض الدول العربية لتوقف امتداده، فقال الشاعر حسن فتح الباب قصيدة بعنوان (راعيان من حلب) نقتطف منها:

الليلة القمراءُ في دمشق غاب

حطّابها يطارد الذئابْ

والطير في الوهاد يحتجب

وينفث الفضاء دامي اللهبْ

بالأمس كانتْ تمطر العيون

زرقاء يحضنُ السفوح أفقها

ويصعد الحمامُ في الربا طروب

يزف فوق بيدرونبع

ويحصد الثماركل جمع

ثم يصور الشاعر استعداد أبناء الشعب العربي السوري، لخوض المعركة، حيث خيّم على الوطن جوّ الحرب استعداداً لبدء المعركة مع المعتدين فقال:

سماءُ سوريا ارتوت من

ولم يعد يطل من غصونها

وانفضّ سامرُ المساء

وكل زهرة تفتحت على

وكل طفلِ قلبه على يده

وبندقيته

ورنت الأصداء كالهدير: معركة

وجاوبت نداءها الجموع: معركة

قد خرَّ في الظلام راعيان من حلب (١٩٥٨م)

ونظراً لما يمثله القطران العربيان مصر وسورية من ريادة في قيادة الأمة العربية نحو الوحدة والعدالة الاجتماعية فقد قامت إسرائيل -ربيبة الاستعمار في الشرق الأوسط- بعدوان غادر كبير على الدول المجاورة لأرض فلسطين المحتلة في الخامس من حزيران لعام ١٩٦٧م وقد تحمل الرئيس الراحل جمال عبد الناصر المسؤولية وقدم استقالته من مناصبه القيادية إلا أنَّ جموع أبناء الشعب العربي في مصر وسورية وباقي الدول العربية طالبته بالبقاء في قيادة المسيرة وقد خرجت جموع أبناء الشعب العربي في مصر في يومي ٩و١٠ حزيران (يونيو) ١٩٦٧م وافترشت شوارع القاهرة مطالبة الرئيس عبد الناصر أن يتراجع

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عن قـراره، وكان رأي الشعب وإرادته محل اعتزازه فتراجع وأصـرَّ على تحرير الأرض وقـال كلمتـه المعروفـة: (ما أخـذ بالقوة لايسترد إلا بالقـوة) وقام مع الفريق محمد فوزي والشهيد عبد المنعم رياض بإعادة بناء الجيش العربي المصـري استعداداً للمعركة المقبلة.. وقد صوَّر الشاعر حسن فتح الباب ذلك بقصيدة عنوانها (تحية إلى جمال عبد الناصر) نقتطف منها:

الله يا بطل/تقطع الصفير.. والغضب
وفتية تفترش العراء حول النار
وطفلة تجهش بالبكاء
والقلعة الشماء والطوفان
بيتك ترعاه القلوب/ يحفظك الرحمن
تبقى لنا.. فليلنا الماضي طويل
يا غرس أيدينا/ يا سرَّ وادينا
يا روح شعبنا النبيل.

ولم تمض إلا شهـورٌ قليلـة على نكسة حزيران ١٩٦٧م حتـى قام الجيش المصري بـرد المعتديـن الصهاينـة المتمركزين على الشاطئ الشرقي من قناة السويس، بل انتقل للهجوم، فكانت معركة «الفردان» شرقي قناة السويـس، وإغراق المدمـرة إيلات في شهر تشريـن الأوَّل (١٩٦٧م) إضافة إلى إغارات ليلية يقـوم بها أبناء جيشنا العربي المصري لجلب الأسرى الصهاينة وتدمير صواريخهم حيث استشهد البطل فاروق نجم بطل معركة تدمير الصواريخ ١٩٦٨/١٠/٢٦م وقد مجد الشاعر حسن فتح الباب هذا الشهيد البطل فقال:

يا نجمي..
يا نجمي المخضوب الجبهة بالدَّم
يا نجمي الغائب/أين طواكَ الأفق الشاحب؟
يا شهداء المأساة/ يا أشباح الويل
مات الليل..
والنجم الجواب الثاقب.

ولذلك قامت إسرائيـل بأعمال عدائية بل إجرامية حيث قصف طيرانها التجمعات السكانية في الوجه البحري من مدن الدلتا، وكذلـك أخليت مـدن القناة مـن سكانها وهجّـروا إلى أماكـن أكـثر أمنـاً في داخل القطـر المصـري الشقيق، ومـن الأعمال الإجراميـة التي ارتكبتهـا إسرائيل قصفها لمدرسـة ابتدائيـة في قرية بحـر البقر في شمال القاهـرة حيث استشهد العدد الكبير مـن الأطفال وأساتذتهم وذلك في ١٨نيسان (أبريـل) ١٩٧٠م فوصف الشاعر حسن فتح الباب تلك المجزرة فقال:

«أحمد» كان يغني كالعصفور الأخضر
يمشي مختالاً في ردهات الفصل
ويُسرّ «لزينب» خطك أجمل
ستكونين مدرسة في مصر
وسأغدو طياراً في الجبهة
لا تأسوا

«أحمد» لما أطلق أول صرخة

لم ينس رفيقته في الصف الأول

وجدوه يحتضن ضفائرها

بذراعي طيار في السابعة من العمر

سقط الطيار وماتت «زينب»

ومن أعمال إسرائيل العدوانية التي قامت بها رداً على الأعمال الحربية التي نفذتها قوات الجيش المصري الشقيق في عمق سيناء- تفردها بجزيرة صغيرة (شدوان) في البحر الأحمر حيث تعاون الطيران المعادي والبحرية في القصف الجوي والهجوم البحري على جزيرة (شدوان) التي تحرسها مفرزة من القوات البحرية المصرية، وقاوم أبطال جزيرة (شدوان) الهجوم البحري الكبير والقصف الجوي الكثيف واستشهد عددٌ كبيرٌ منهم وعلى رأسهم الشهيد الضابط «حسني حماد» وقد مجد بطولتهم الشاعر حسن فتح الباب حيث قال:

رأيت عيونكم المشرَّعة/ تشق صخور الجبال

تحدق في الشرق.. فوق الرمال

وتخرج من صمتها/ وأشباحها

ومن شجن القوقعة/ ومما أضاع الرجال

تهز إله الغضب

ليحرقنا.. كي تغني البلابل

ليحرقنا.. كي تبتل الجداول

وتنمو السنابل/ وتحرق نيراننا الزوبعة.

وكما قلنا إنَّ الهم العربي مثل الهم الوطني كانا هاجس حسن فتح الباب، فها هو يزور لبنان مواسياً في شهدائه الذين سقطوا ليدفعوا عن أرض لبنان العدو الإسرائيلي فيقول: مخاطباً السيدة (فيروز) ممهداً للدخول إلى الموضوع الأساسي:

بين أطلال الأرز والخرير/ وصخرها أصداء

ناي من بعيد

أثرت يا «فيروز» طَيْرَ الشجو والحنين/

مهموماً على مشارف السنين

كسرت نَصْل الانتظار/ وحلمنا الغافي الحزين

كسرت قيدي/ أطلقتني من الأسار

صوتك يا شاديتي شمس النهار/ وفجرنا

الغائر في الأسوار

وطلعة الثوار على مشارف الجبل

ثم يظهر الشاعر بطولة رجال المقاومة اللبنانية وشهدائها فيقول:

رأيت في «عين الصفا» عيني «منار»

لهفي- يا وردتي- على النهار

ينساب في مرآته الصغار

والهفي على العيون المشرعات- والشهيد

لقد شاركت الفتاة اللبنانية شقيقها المقاتل في الأعمال الفدائية المظفرة، فقامت بطلات من لبنان وسورية بأعمال يعجز عن تنفيذها الرجال، وقد قامت البطلة اللبنانية «سناء محيدلي» ابنة الجنوب بأعمال فدائية تذكرنا بأخواتها العربيات أسماء، وخولة،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وصفية، وزينب وغيرهن من بطلاتنا العربيات القدامى، حيث فجرت الشهيدة /سناء/ جسمها الغض مع حافلتها ضمن رتل كبير للقوات الإسرائيلية المحتلة لأرض الجنوب فأوقعت بها خسائر جسيمة، وقد أشاد بها الشعراء العرب، ممجدين البطولة والفدائية، ومما قاله الشاعر حسن فتح الباب (عروس الجنوب):[٣]

قربان لبنان عروس الجنوب/

أين ترى نبني لك الرخام/ تحت سفوح الأرز والغمام

أين ترى تمتزج الورود بالتراب/ يمتزج التراب بالورود

مزارك القبرُ الذي ليس يزارْ

ليل نهار/ لا ليل لا نهار

ثم يتابع الشاعر حسن فتح الباب مباركاً الشهادة والبطولات التي قامت بها (سناء):

لن تصعد الجبل/ بعدَك يا سنا

بين صبايا الحيّ يا أسطورة الفداء

أبهى سناءً منك/ يا شقيقة الشموس والأقمار

يا شجني.. يا شهقة الوَتَر/ يا حُلُم النساء من قِدَمْ

يا قطرة تروي الصَدى/ يا زينة الحسين قُبلةَ الندى

على الدم الشهيد يا/ صغيرة على الرؤى

أكبر من أحلامنا/ ياكبدي المحترقة

يا سدرةً لعالم لم يأتِ بعد

موتك مجلاه الذي لن نشهدُه

موتك مصباح الحياة يتقدُ

إلى الآن

إلى الأبد

والشاعر حسن فتح الباب يرى الواقع العربي المتردي، حيث الاستسلام والتخاذل، والهرولة نحو العدو، ولكن الشاعر يرى أيضاً منافذ نور تضيء وتقاوم الظلام فيشد على أيديها مباركاً الصمود والتضحية والفداء، فها هو يهدي قصيدته (فوق العاصفة)[٤] إلى دمشق والجنوب اللبناني الصامدين، ولعله سمع بتحرير الجنوب حيث كان ثمرة هذا الصمود فقال:

يا رفيقي

هذه العاصفة السوداء مرت هاهنا

تصفق الأبواب من دار لدار

وتهز الشرفات

تسرق الأحلام من أطفالنا

تئد الأقمار في أعينهم

وتواريها بأحشاء الظلام

وتغني للخراب

ويرشدنا الشاعر كيف نتعامل مع هذه العاصفة السوداء، فيدعو للصمود والفداء لنلبي نداء لشهيد كما يقول:

يا رفيقي.. لا مفر

لا ينل روحكَ آفاق مغامر

ولنقاتل

هذه الأرض لنا/ هذه الأرض علينا

إن تخاذلنا ونمنا/ عن أنين لورود قُطفت

واحتضار لهلاك/ واستغاثات لأم

هذه الأرض علينا/ إن تخاذلنا ونمنا

عن نداء لشهيد

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولابدَّ من بــزوغ النور بعد الظلمة، لابدَّ من النصر بعد التضحية، وسيهزم المعتدون ونحــرر كل شبر من أرضنـــا المحتلة، ها هو الشاعــر حسن فتــح الباب يبشــر بالنصر بتحرير الجنوب:

يا رفيقي
دقت الساعة حبلى بالنذر
هذه العاصفة السوداء تجتاح الحدود
وهي تعوي في الفضاء،
تقتفي آثارنا.. أرواحنا
في السماوات العُلا/ والقلوب المشرقة
بشموس الحب والثورة والحلم الأعز

الهوامش

١- الأعمال الكاملة /المجلد الأول/، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٦٥م، أحمد لطفي، محمد البخاري.
٢- من قصيدة (ضابط في القرية) ١٩٥٧م.
٣- مجلة الآداب اللبنانية- صاحبها- د.سهيل إدريس العدد(٧-٩)تموز- أيلول ١٩٨٥م.
٤- الموقف الأدبي، عدد تموز (يوليو) ٢٠٠٠م، اتحاد الكتَّاب العرب- دمشق ص١٩-٢٠.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بين فلسفة التصوف وتصوف الفلاسفة

عباس حيروقة ٭



إنَّ الدارس لمراتب ودرجات ومقامات وأحوال المتصوفة يدرك كم أصابهم والحق بهم من ظلم وحيف وسوء فهم وتقدير، وكل ذلك مردّه لتلك القراءات الخاطئة لتجاربهم الروحانية.. القراءات المستندة في كثير منها على التناول الحرفي للنص ومحاكمته وفق فقه شرعي لا يقبل التأويل والدلالات، وأيضاً تم ذلك بعيداً عن وجوب تناول هذه التجارب ومكابداتها ومجاهداتها- التي أنتجت بوحاً عذباً، جاء على شكل تلميحات حيناً وتصريحات حيناً آخر-... وفق سياقاتها وتطوراتها وتناميها

٭ أديب وناقد.

المعرفي. ولا يخفى على أي دارس ما تم تناوله على أيدي فقهاء وعلماء الكلام مثل ابن القيم الجوزي وابن تيمية وغيرهما.. فنجد تاريخياً أنَّ الصوفيين لاقوا ما لقيه الفلاسفة على أيدي علماء الكلام والفقهاء من اتهامهم بالتكفير والزندقة لا بل زادوا على ذلك إذ تمَّ رميهم بالجنون وتعطيل العقل وإبطال الشريعة والقول بالمعجزات والخوارق..إلخ. ولنا أنموذج عن طبيعة العلاقة بين الفلاسفة والفقهيين في ذاك السجال النقدي الذي دار بين الغزالي وابن رشد، وهجوم الغزالي العنيف على الفلاسفة في كتابه (تهافت الفلاسفة) ورد ابن رشد عليه في كتابه (تهافت التهافت) والذي نعت الغزالي فيه بالجهل والغباء، علماً بأن الغزالي يعتبر من المنفتحين والمتنورين نسبياً إذا ما قورن بغيره..

وتخبرنا كتب التاريخ أنَّ علماء الكلام والفقه كانوا على الدوام يشنون هجوماً مزدوجاً على الفلاسفة ليكفروهم، وعلى المتصوفة ليتهموهم بالجنون وتعطيل الدين وإبطال الشريعة و..إلخ من تهم تضج بها كتب التاريخ.

لسنا بصدد ذلك ولكن ما يمكننا الحديث عنه هنا هو ما تعرض له مفهوم التصوف وأساطينه من خلط بينهم وبين الفلاسفة، وذلك ربما لأنَّ المتصوفة قد أغرقوا أنفسهم في الغموض بتصريحاتهم وتلميحاتهم واستخدموا الكثير من مصطلحات ومفاهيم اشتغل بها وعليها الفلاسفة، كما قالوا بنظرياتهم وعملوا على شرحها.

إلا أنه لا يخفى على كل دارس ومتعمق لتجارب الصوفية أنهم ليسوا بفلاسفة لسبب بسيط نقوله الآن -ويمكن لنا الاسترسال بشرح أسباب النتيجة تلك- وهو أنَّ الفلسفة هي إعمال للعقل وبالعقل.. بالفكر وللفكر ومن أين له هذا العقل الحادث المحدث من إدراك القديم.. من أين لهذا المخلوق أن يدرك ماهية الخالق.. من أين لهذا المحدود والمتناهي إدراك اللامحدود واللامتناهي، بينما التصوف هو علم باطني قلبي لدني يعتمد القلب مستقراً وناشراً..

فالقلب واحة الأسرار والأنوار الربانية القدسية ومستقر الحقيقة والحق..ألم يقل سبحانه وتعالى «**وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ**».(١)

أولم يقل الرسول محمد صلوات الله عليه **(العلم علمان: فعلم في القلب فذاك العلم النافع، وعلم اللسان فتلك حجة الله على ابن آدم)** أخرجه الترمزي.

وكذلك قوله (صلى الله عليه وسلم) **(قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء).**

ولكن هل يمكن للفلاسفة أن ينعتوا أو

أن يكونوا صوفيين مثلاً .؟؟!!! وهل صوفيتهم ستكون لها ذات الملامح الواسمة من مكابدات ومجاهدات و.. و.. إلخ مما تذخر به نفوس وقلوب الصوفية.

فكم من باحث صوّف الفلاسفة أمثال (ابن سينا، ابن رشد، ابن الفارض،أبو حيان التوحيدي، أو ذاك العالم الحكيم مخترع آلة القانون الموسيقية وشارح كتب أرسطو الفارابي المعلم الثاني..إلخ) وكم من باحث ودارس أيضاً فلسف التصوف أمثال (الحسين بن منصور الحلّاج، السهروردي، ابن سبعين، محيي الدين بن عربي..إلخ).

ومما لاشك فيه أنّ الفلاسفة استخدموا واشتغلوا كما قلنا على المصطلحات والأفكار والنظريات ذاتها ونذكر على سبيل المثال لا الحصر (التجلّي- النفس- الفيض).

وإن توقفنا لهنيهة عند الأخيرة نرى أنّ العديد من المتصوفة والفلاسفة قالوا بها واشتغلوا عليها، اختلفوا حيناً واتفقوا أحياناً. ونظرية الفيض هي النظرية التي تبين لنا كيفية صدور الموجودات عن الأول فالوجود يصدر عنه كما يصدر النور عن الشمس وكما تصدر الحرارة عن النور.

كان هناك قانون لتطور الكائنات وانتقالها من الواحد إلى الكثير، من الأوّل إلى العقول أي من الوجود الأبدي إلى الوجود الزماني المتغير.(٢)

وأوّل من جاء أو قال بها في رأي الكثير من مؤرخي الفلسفة هو أفلوطين الذي يقسم العالم إلى قسمين: عالم المعقول وعالم المحسوس، والمعقول قسمه ثلاثة أقسام هي الواحد والعقل والنفس.. فالواحد إذاً يفيض فيتكون العقل الذي يفيض فتتكون النفس التي تفيض هي الأخرى فتتكون المادة. وعند المادة يستنفد الفيض إمكانيته، فلا يترتب على المادة أي فيض أو إبداع.(٣)

المادة غير الفانية السرمدية والتي ما يفنى فيها فقط هو شكلها لا هي.. ومن البديهي أن تكون المادة سرمدية غير فانية وإن ما يفنى هو شكل المادة لا المادة وهذا يؤدي إلى أنّ الخلق من العدم أمرٌ غير وارد في نظرية الفيض عامة، وما يؤدي أيضاً إلى أنّ القصدية في الخلق أو الإبداع أمرٌ هو الآخر غير وارد، إذ إنّ الإبداع الذي هو نتيجة الفيض مرتبطٌ بالكمال الإلهي..(٤)

وعن المؤسس الأوّل ومنه أخذ كثير من الفلاسفة الذين جاؤوا من بعده الغربيين منهم والشرقيين سواء، أمّا الصابئة في الشرق فقالوا بها أيضاً وقسموا الوجود إلى وجودين اثنين: وجود روحاني وآخر جسماني. ويتصف الوجود الروحاني بأنّه نوراني علوي نظيف، ويتصف الوجود الجسماني بكونه ظلمانياً سفلياً كثيفاً...(٥)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وتتحدث الصابئة في نظريتهم هذه عن موجودات روحية عشرة. وهي الباري والعقل والنفس والروحانيات السبع.. ويبدأ الفيض بالباري أو الواحد الذي يفيض فيتكون العقل. أي (إنَّ الواحد حقاً لا يصدر عنه إلا الواحد).وهذا الواحد أو العقل جوهر مجرد بالضرورة من المادة وهو (غير متحيّز، ولا حالٌّ في المتحيز ولا يكون وجوده منه على سبيل الاختيار بل على سبيل الإيجاب بالذات، كما أن فيضان النور عن قرص الشمس والضوء عن السراج والإحراق عن النار ليس بالقصد والاختيار، بل بالإيجاب فكذلك فيضان هذا الجوهر من الله تعالى)[٦]

ويرى الباحث حامد حسن أنَّ كثيرين من مؤرخي الفلسفة يجمعون بأنَّ أول من جاء بنظرية الفيض هو أفلوطين وعنه أخذ كثيرٌ من الفلاسفة الذين جاؤوا بعده ومن أشهر فلاسفة العرب الذين قالوا بهذه النظرية الفارابي وابن سينا وإخوان الصفا.. حتى تأثر بها الكندي والرازي.. ويقال إنَّ نظرية الفيض مشتقة من نظرية الكواكب عند أرسطو.

وكل من قال بها اتفقوا على تسلسل الخلق وخصوصاً الفارابي وابن سينا فاتفقا على أنَّ العالم العلوي يبدأ من الأعلى إلى الأدنى من العقل الأوَّل حتى العاشر، والعالم السفلي أو الأرضي على العكس يبدأ من الأدنى إلى الأعلى من الجماد إلى الإنسان ماراً بالحيوان والنبات لكن ابن سينا يرى الأفلاك والعقول ملائكة وأنَّ العقل الفعال هو جبريل أو شبيه به عند الفارابي وكلاهما يريانه واسطة العالمين وأنَّ الإنسان مميز عند الله فقد بدأ الخلق بأشرف الجواهر- العقل الأول- واختتم الموجودات- الإنسان - وأنه العالم الصغير فبالحيوانية يشارك الحيوان وبالطبيعية يشارك النبات وبالإنسانية يوافق الملائكة.[٧]

فالفارابي أفاد بقوله في نظرية الفيض مما جاءت به الصابئة أو الأفلوطينية الحديثة وحاول إعادة صياغتها وفق منهج عقلي تخييلي أراد من خلاله بناء علاقة جديدة لفهم أو لإدراك ماهية الذات الإلهية واجبة الوجود وما بعدها لتتبسط أمامه أبجديات قراءة ممكنات الوجود وتراتبيتها فرأى في عيون المسائل (إنَّ الوجود الأوَّل هو الله وهو واجب الوجود، ولا غاية من وجوده، فغايته بذاته، ولكن وجود واجب الوجود يلزم ضرورة أن يوجد عنه سائر المخلوقات (فيضاً) عن وجوده الأوَّل الواجب الوجود، فوجود غيره فائض عن وجوده، وعلة وجود العالم ليس (إرادة) الخالق القادر، بل علمه بما يجب عنه، فالأشياء ظهرت لكونه عالماً

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بذاته،فإذن علمه علة لوجود الشيء الذي يعلمه).[8]

وابن سينا كذلك قال بنظرية الفيض وصدور الموجودات عن الخالق وفق ثلاثة مبادئ:

المبدأ الأوّل والذي قسم بموجبه الموجودات إلى ممكن وواجب فالإله واجب بذاته أمَّا الموجودات ممكنة بذاتها وواجبة بالإله.

والمبدأ الثاني يقول: لا يصدر عن الواحد إلا الواحد وهو القائل في كتابه النجاة ص٤٥٣ (إنَّ الواحد من حيث هو واحد إنما يوجد عنه واحد) وقال أيضاً في كتاب الإشارات (الأول ليس فيه حيثيات الواحد لوحدانيته فيلزم كما علمت أن لا يكون مبدأ إلا لواحد بسيط).

والمبدأ الثالث الذي أخذ به ابن سينا هو مبدأ الإبداع أو التعقل وقال إنَّ تعقل الإله هو (علة للوجود على ما يعقله)..

إلى أن يخلص جميل صليبة في كتابه (من أفلاطون إلى ابن سينا) إلى أنَّ تصوف ابن سينا تصوف عقلي لا قلبي فيقول: نعم ابن سينا يقول إن الإله عاشق ومعشوق ولكن هذا العشق جاف وليس فيه شيء من الحرية لأنَّه ناشئ تعقله لذاته ولا غرو إذا قام الغزالي على الفارابي وابن سينا ورد عليهما وقد يظهر أنَّ تصوف ابن سينا رجوع إلى الحياة والفاعلية والرحمة إلا أن الأمر على خلاف ذلك لأنَّ التصوف عند ابن سينا تصوف عقلي لا قلبي.[9]

بينما علي حرب في كتابه (النص والحقيقة - نقد النص):

يصل لنتيجة تتوافق والكتاب المتناول بالنقد إلى نتيجة مفادها أن الفلاسفة ليسوا حكماء بل عشاقاً فيقول: الفلاسفة ما كانوا حكماء بل عاشقين أفنوا حياتهم في صنع مفاهيم والجري وراءها كما هو شأن أفلاطون والفارابي وديكارت وكانط وخصوصاً نيتشه الذي شهد بجنونه على أنه العاشق الأكبر للمفهوم أي الفيلسوف بامتياز... ويرى أنَّ أرسطو هو الحكيم والمعلم الأوَّل وصاحب المنطق كما سماه العرب. تزوج وأنجب ووزّر ولكن كل ذلك تمَّ على حساب كونه فيلسوفاً يهوى الأسئلة ويعشق المفاهيم.[10]

وبعد ما سبق من رؤية كل من ابن سينا والفارابي لنظرية الفيض وتناول العلاقة الممكنة بين الفلسفة بالتصوف نورد مثالاً آخر عن المتصوفة الموشومة أو الموسومة صوفيتهم بالفلسفة أو ما يمكن أن نقول عنه فيلسوفاً معفّراً بالصوفية ألا وهو (أبو حيان التوحيدي) صاحب الكتاب القيم جداً (الإمتاع والمؤانسة).. الفيلسوف والمتصوف والأديب والفقيه الموسوعي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أو العالم الموسوعي صاحب البيان البديع والنثر الفني الراقي والفنان بمهارات وأنواع الخطوط والأقلام صاحب المؤلفات العديدة والمتعمقة بأخبار ونظريات الصوفية نذكر منها على سبيل المثال: رياض العارفين - الرسالة الصوفية- الإشارات الإلهية- الرسالة في أخبار الصوفية..إلخ ويرى أن الصوفية هم ملوك الدنيا وسادة الآخرة.

التوحيدي الذي كان قد عرف أوّل ما عرف بالتأليف ولكن تشربه التصوف حفزه إلى الحج وتناوله الدكتور إحسان عباس في كتابه (أبو حيان التوحيدي) فقال نقلاً عن اللمع للطوسي: الصوفية يرون الحج واجباً لا محيد عنه ولا رخصة فيه ولا عذر، لأن المفروض أن يتمسك الصوفي بالأتم من الشرع، ولا يركن إلى التأويلات والرخص، فهذه إنما وجدت للعامة والضعفاء والصوفية في النظر إلى الحج ثلاثة أصناف: صنف يحج مرة في العمر ثم يتفرغ لنفسه، وطبقة يهجرون أوطانهم ويقطعون البراري بغير زاد ونفقة ويحجون مرات عدّة، والطبقة الثالثة هي المشايخ الذين يختارون المقام بمكة لقداسة المكان وفضله وشرفه.. ليخلص إحسان عباس بأن حجّ أبي حيان التوحيدي قد جعله من الفريق أو الصنف الأول فحج مرة واحدة ولم يعد مرة أخرى وتعرف آنذاك إلى جماعة من كبار الصوفية منهم ابن الجلاء والحرّاني.(١١)

نلاحظ من خلال قراءة التوحيدي أنه انشغل أو اشتغل بالفلسفة أكثر من اشتغاله على تصوّفه كتجربة، ومحاولته التوفيق مابين الحقيقة والشريعة من جهة، وبين العقل والقلب من جهة أخرى، قادته إلى أن يعيش غربة وتردداً وقلقاً أنتج من جرائها أجمل الكتب وأبدعها وأمتعها.

وبما أننا في وارد الحديث عن الحج نستذكر ما طرح على لسان أساطين التصوف من مفاهيم عن الأبعاد الدلالية والرمزية للحج فكان لهم فهمهم الخاص للحج، فهم رمزيٌّ دلالي ولّد إشكالية كبرى زادت من عدائية العوام لهم وبعض الفقهاء والمتكلمين كما حصل مع الحلاج في تأويله لمفهوم الحج وما قام به بحسب ما نقله سامي خرطبيل عن ماسنيون قوله:إن الحلاّج بعد سنة ٢٩٢هـ أقام في بيته كعبة مصغّرة.(١٢)

إلا أننا نراه عند ابن عربي يأخذ منحى فلسفياً لا يقل إشكالية عن موقف الحلاج إذ يعلو مجال المقاربة الرمزية عند ابن عربي بصفة خاصة ليصبح «قلب العارف» موازياً لعرش الرحمن والخواطر التي تطوف به توازي ملائكة العرش. فالدكتور نصر حامد أبو زيد في كتابه (هكذا تكلم ابن عربي) يقول: هكذا يفهم الشيخ أن الكعبة في التعبير القرآني هي بيت الله، والله هو الاسم الجامع، من هنا تستمد الكعبة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

طبيعتها الجمعية.من هنا تصح الموازنة بين الكعبة وقلب المؤمن؛إذ كما يطوف حول الكعبة الصالحون والطالحون، فقلب المؤمن عرضة لأن تطوف به بالمثل الخواطر الخيرة والشريرة.. ليخلص بأنّ الشيخ يقول إن قلب العارف الذي يسع الرحمن - أشرف من الكعبة وأعلى مقاماً مستنداً في ذلك إلى قول النبي (ص) في ذاك الحديث القدسي والذي جاء على لسان ربه: (ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن).(١٣)

أبو حيان التوحيدي لم يبتعد عن التأليف في الفكر والفلسفة والتصوف فكانت فلسفته نوعاً من الإشارات والرموز الصوفية ولم تنقطع علاقاته لامع هذا التيار ولا ذاك بل تعددت حواراته ورسائله في تجدد دائم مع أصدقاء جدد في الفكر والفلسفة فيبتعد حيناً عن التصوف لكنه نظرياً يبقى متواصلاً ومتعاطفاً إلى أن يعود إليه من دون فراق ولا منازع بسبب ما لاقاه من ظمأ عقلي تركته فيه الفلسفة فيقول الدكتور إحسان عباس وهكذا انطوى أبو حيان على نفسه ولم يبق في الأرض من يستطيع أن يبادله الشكوى والبث، فحول طرفه إلى السماء وأخذ يناجي الله بالإشارات وعاد إلى التصوف الذي نهل منه في شبابه، لأنه لم يجد في العلم أو في الفلسفة منقذاً، وارتد ظمؤه العقلي إلى هداة التسليم وضعف تقديسه للعقل الإنساني لذلك نسمعه يقول إذا ناجاك الحق بما يدقّ عن الفهم فلا تحاكمه إلى نقص العقل.. وإذا فتنك العقل بدقائق البحث، فاستقبله بحقائق التسليم.(١٤)

هكذا نجد أنّ توازناً هاماً عاشه التوحيدي في حياته لم نقرأ له ما يعكس عدم الإيمان والتسليم بكل مفردات الدين والإيمان كما وجدناه عند بعض المتصوفة من شطحات وغيرها من عبارات قد يساء فهمها..ولكن هل مرد ذلك يا ترى اشتغاله على الفلسفة أو بها؟؟و هل ذلك حد من إمعاناته في التأمل لا التفكر الذي قد يورث التحليق لخيالاته النشطة..؟؟؟!!!

أمّا الحديث عن الزهد والتصوف عند مفكر وفيلسوف بحجم الأمير حسن بن مكزون السنجاري (٥٨٣-٦٣٨ هـ) (١١٨٧-١٢٤٠م) فله متعة ودهشة وآفاق خاصة يعكسها المستوى الفني والأدبي لشعره وعمق فلسفته وعفوية وبساطة حياته وتصوفه العملي.

حديثنا عن زاهد متصوف خاص جداً ربط بين التصوف والزهد، بين الفلسفة والتصوف، وله موقفه وفهمه الخاصان للحياة لـ لله للإنسان، وله رأي حضاري في ماهية التصوف والصوفية والقائم على احترام إنسانية الإنسان هذا المخلوق الذي فيه ما فيه وله ما له ويحمل ما يؤهله

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لأن يكون خليفة الله على الأرض بمنحه كل ما حلّله الله له من طيبات الدنيا وممارسة حقه بعقلانية وحب ووئام على هذا الكوكب. مستندين في حديثنا عن هذا الزاهد والمتصوف إلى ما جاء به حامد حسن في كتابه (المكزون السنجاري بين الأمارة والشعر والفلسفة) -منشورات دار مجلة الثقافة- دمشق.

نتحدث عن تلك الفلسفة والرؤية التي تعكس ذاك الكم العرفاني الإشراقي الذي يتمتع به هذا المتصوف، تصوف خاص به وحده لا يشابهه أحدٌ غيره، التصوف القائم كما سنرى على ثنائية الحقيقة والشريعة.. العقل والقلب.. إنَّه الأمير حسن بن مكزون السنجاري الذي يرى أنَّ التصوف العملي في الإسلام يقوم على المرتكزات الثلاثة: الزهد، مراقبة الله، وعدم الغفلة عن ذكره.

وتخبرنا كتب التاريخ أنَّ التصوف الإسلامي كتجربة وكنظرية يمكن تقسيمه إلى نوعين أو تيارين: تصوف أطلق عليه أكثر من توصيف منهم من قال المعتدل، ومنهم من قال العقلي، ومنهم الشرعي وغيرها من توصيفات عكست بعض توازنه وهو ما أطلق عليه حامد حسن التصوف العملي.. وهو الذي استمد أصوله من القرآن والسنة وسيرة السلف طوال القرنين الهجريين الأول والثاني ويطلق عليه اسم (الزهد) وعلى أصحابه اسم العبّاد أو الزهّاد، والتصوف الآخر وصف بالنظري أو بالفلسفي.. التصوف المبني على علاقات وأسس خاصة يبنيها أو بناها الصوفي في بينه وبين العالم والناس والله..

التصوف الذي جاء نتيجة احتكاك الثقافة الإسلامية بالثقافات اليونانية والفارسية والهندية بعد اختلاط الأمم والعناصر ونقل ما لديها من حضارة وثقافة وتفاعل مع البيئة العربية والثقافة الإسلامية.. ويقسم الباحث حامد حسن الزهد أيضاً إلى زهدين ويقول: وعرفنا أنَّ الزهد زهدان زهد الغنى وزهد الرضا، بينما الزهد في مصطلحات الصوفية ومعاجمها كما عرفه السيد علي الجرجاني في كتابه (التعريفات) فهو بحسب اصطلاح أهل الحقيقة بغض الدنيا والإعراض عنها وقيل هو ترك راحة الدنيا طلباً لراحة الآخرة وقيل هو أن يخلو قلبك مما خلت منه يدك.

ويرى حامد حسن أنَّ زهد المكزون هو زهد الغنى وأنَّ تصوفه هو التصوف الذي جمع بين التصوف العملي والتصوف النظري الفلسفي لأنَّ المكزون هو أمير وابن أمير وغاز، يقود الجيوش ويكر على الأعداء ويغنم في المعارك، توافرت له كل أسباب الرفاهية، ومصادر الثراء، ورغادة العيش،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومتارف الحياة، ولكنه آثر الزهد والتقشف فترك الإمارة ونبذ مباهج الحياة واتجه إلى ربه مباهياً بالفقر، معرضاً عن الغنى، يقول:

يا راغباً بغنائه عن فقرنا
بالزهد فيك، الفقر قد أغنانا
ولو ذقت طعم طعامنا وشرابنا
ما عشت عمرك جائعاً ظمآنا
ولو استقمت على سواء سبيلنا
لم تمش في تيه العمى حيرانا

ويقول المكزون: إنَّ الزهد فيما أحله الله لعباده من النكاح والطعام والشراب ليس من الزهد في شيء لأنَّه مخالف لما أباحه الله لعباده، «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ» من الآية (٣٢)- سورة الأعراف. ويرى أنَّ الانقطاع في الربط والتكايا والصوامع وو.... ورقع الثياب إظهاراً للفقر والمسكنة والتواضع، وما أشبه ذلك.. فهو ليس من الزهد في شيء، لأنه تعطيل للكسب والعمل ومناف لما جاء به الكتاب وحض عليه الرسول(ص): «وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ والمؤمنون» من سورة التوبة الآية (١٠٥) وقوله: «فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ» من سورة الملك الآية (١٥).

ويقول: أمَّا الامتناع عمَّا أحلّه الله فهو الخروج عن وعلى حكمته وإرادته وشرعته.

المكزون قال بالتصوف العملي الذي قوامه الزهد في المتاع والاعتدال في المباح.

والمكزون من الذين قالوا وبحثوا في نظرية الفيض فلم يختلف مع من سبقه بتسلسل وتراتبية الخلق من الأعلى إلى الأدنى في العالم العلوي ومن الأسفل إلى الأعلى في العالم الأرضي.. الكل بدا بالواجب الوجود بذاته ولذاته وانتقل إلى ممكن الوجود بذاته واجب الوجود بغيره منتقلاً إلى.. وإلى العالم المركب إنسان نبات حيوان جماد.. وإن اختلفوا في التسميات..

والباحث حامد حسن يقارن بين قول ابن سينا والفارابي والمكزون في نظرية الفيض فيرى عشرة فوارق فيما بينهم وكلها جديرة بالدراسة ونذكر منها على سبيل المثال بعضها للتدليل على طبيعة العلاقة بين الرؤى ومدى توافقيتها واختلافاتها في آفاق مفتوحة فيقول مثلاً حامد حسن:

الفارق السادس: العقل الفعال عند الفارابي يشرق دائماً وينير العالم بالحقائق فتتلقاها النفوس الصافية لتعبّر عنها بلغة بشرية تجعلها في متناول حواس الآخرين ويستطيع الفيلسوف وحده بفضل المنطق والتأمل العقلي أن يرتقي حتى مصدر هذه الحقائق أعني العقل الفعال. ويدركها جلية واضحة، وبتعبير أوضح يستطيع الفيلسوف أن يفهم الصور العقلية القائمة في العقل

الفعال، وهذه نظرية أرسطو، وفي هذا يلتقي المكزون معه لأنه يرى الموجودات قائمة بإشراق العقل الفعال.

وسركم في الكل سار وإنما
على كل قلب ضل فهمه قفل

ص٣٨١.

ويقول في الفارق السابع بأنَّ الجميع اتفقوا على أنَّ العناصر الأربعة هي أصل العالم المركب وإن اختلفت التسمية فالمكزون يسميها أكواناً فهو يزيد على الأكوان الأربعة والتي هي (الماء، الهواء، التراب، النار) كوناً خامساً وهو كون (النور) وكون النور هذا خاص بالإنسان وهو الذي يميزه عن الحيوان والنبات.

ويرى في البند الثامن أنَّ عند المكزون والقائلين (بعرفانه) نوراً سادساً أو كوناً سادساً يسمونه (قدس المعرفة) وهو نور يشرق على نفوس الحكماء والفلاسفة فيمتازون عن البشر بما يفهمونه ويتصورونه عن عالم المجردات.. ليخلص حامد حسن إلى يقول في هذا الشأن: نرى المكزون يتميز عن الفارابي وابن سينا بالقول في تميز الإنسان عن الكائنات الأخرى.

فهو العلّية والسّببية بينما غيره يقول بتميز الإنسان والإنسان الحكيم ولكن من دون تعليل فلسفي. ومن بدهيات الفلسفة أنَّ لكل معلول علّة ولكل مسبّب سبباً.

والفارق العاشر هو: يرى أنَّ المكزون يتفق معهما بأن العقول والأفلاك العلوية هي ملائكة وأن الملائكة هم وساطة بين العالم العلوي والعالم الأرضي..ص٣٨٢-٣٨١

إذن، وكما هو ملاحظ نجد أنَّ فلاسفتنا المتصوفين أو المتصوفين الفلاسفة حاولوا التوفيق والجمع بين نظرية الفيض من حيث بذرتها الأولى عند أرسطو ومن ثم انطلاقتها من بين أنامل أفلوطين وتلمس تصاريحها الواضحة عند الصابئة وبين الدين، كما حاولوا ذلك بنظريات عدة مثل قدم العالم وحدوثه والنفس والروح..إلخ كي يتجنبوا ربما تقريظ واتهامات الفقهاء وعلماء الكلام، وبطش الأمراء والسلاطين..

فهل نجحوا فيما ذهبوا إليه أم بقوا في المنتصف لا هم كانوا فلاسفة أحراراً، ولا علماء كلام، ولا حتى نجحوا في حمل ذواتهم القلقة إلى بر الراحة والأمان كما نجحت بعض الصوفية؟؟

مراتب ودرجات وطرائق

المتصوفون أو المتصوفة درجات ومراتب وطرائق وتيارات وكما قلنا هدفهم كان ومازال وسيبقى واحداً وطريقهم المعبّد بالحب هو واحد أيضاً نحو المطلق، الحق والحقيقة، عملاً بقوله (وتبتل إليه تبتيلاً) وهجر كل ما يشغل عن السعي والإقبال

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نحو الله، تاركين الأرض ومن عليها في سبيل تحقيق اللذة المثلى المتأصلة والمتمثلة في المثول بين يدي المولى في الأعالي، بعد تزهّدهم في دنياهم الفانية وانقطاعهم إلى الله وهجر كل ما سواه، للولوج إلى الداخل إلى الصميم والإمعان المديد بهيولى الذات، للارتقاء بها وصقلها وتنقيتها من الشوائب بعد صهرها بنار المحبة الأسمى وركل الجسد والشهوات والواقع المادي ومغرياته، والسمو بهذه الذات لاستقبال الشارة والعبارة، الرمز والمرموز.. لاستقبال الأشعة النورانية والهيام بذراتها.. بفلكها، والانجذاب النقي نحو المطلق لارتياد عوالمه والاحتفاء بقبسات الملأ.. بذاك البهاء، ولكن المختلف هو السالك.. والسالك كذلك الأمر متغيّر ومتبدل بتغير وتبدل وتطور الحالة التي تعكسها التجربة المدججة والمكدسة (بالمكابدات والمجاهدات) التي تحدد قوة ورجاحة وتماسك القلب والعقل عند صاحبها وتبيّن مدى قدرتهما على تحمّل وتقبّل تلك الفيوضات الربّانية، فمنهم من تعثّر في الطريق الطويلة، ومنهم من توقف وتردد، ومنهم من وصل وحايث وشاهد..!! أو تهيأت له المحايثة والمشاهدة؟!! هل شاهد ذاته المتقدة بنورانية معرفته،أم أدرك ببصره بعض صفاته المنفوخة من روح الذات الأحادية فالدكتور أسعد علي في كتابه (معرفة الله والمكزون السنجاري) يقول إن الصّوفي ليشهد الله أوضح شهود في نفسه، لأن نفسه وإن لم تكن نظيرة الله فهي شبيهة به وصورة له، وأسعد ما يُسعد النّفس الإنسانيّة هو أن تبلغ من الله منزلة الشهود المباشر،الذي يفنيها فيه؛ بحيثُ يصبح العارف والمعروف حقيقة واحدة (١٥)

بين السلوكي والعرفاني

إنَّ المتتبع لسلوكيات المتصوفة بكل تياراتهم سواء أكانوا من المستندين في مرجعيتهم على الكتاب والسنة والشريعة والفقه أو القائلين بالعلم اللدني، ونظرية الفيض أو المشتغلين على تفعيل العقل وتنصيبه سلطاناً أو.. أو.. يلحظ أنَّ ثمة خلافات واختلافات فيما بينهم حول مسائل ومحاور دينية ودنيوية مثل الموقف من التكليف والعبادات..من الجنة والنار.. من حراكهم الاجتماعي، منهم من يدعو إلى الابتعاد وتحاشي وتفادي التعامل مع الخلق كافة،والتوحد والاندغام مع الحق مع المطلق والركون إلى السكون التام مع الإمعان في التأمل، تأمل واجب الوجود والتماهي بذاتية المعنى الأوحد،أي الانسحاب من العالم والعيش في عزلة وتفرد وتوحد مع الحق ونورانية الحق، وفي بعض الحالات نجد الدعوى بوضوح وصراحة للابتعاد عن حتى الأخيار

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

من الخلق وعدم مجالستهم لأن في ذلك بحسب زعمهم الابتعاد والإغفال عن بارئ الكوان.. عن حبّه والانشغال عنه. ولنا في السري السقطي الذي يرى فيه الدكتور محمد الراشد في كتابه (الاتحاد المستحيل) بأنه كان (يطلب السري من الصوفي عدم مجالسة حتى الأخيار، لأن مثل هذه المجالس تبعده عن الأنس بالوجود الإلهي.. وهذه خيانة وسقوط وتدهور للصوفي نفسه).[١٦]

ولما ادعيت الحب قالت كذبتني
فما لي أرى الأعضاء منك كواسيا
فما الحب حتى يلصق الجلد بالحشا
وتذبل حتى لا تجيب المناديا
وحتى لا يبقي لك الهوى
سوى مقلة تبكي بها أو تناجيا

وفي المثال الآخر ما أورده أيضاً الدكتور الراشد في الكتاب ذاته بأنَّ ذا النون المصري اعتبر (الأنس بالناس سم قاطع بينما الأنس بالله نور ساطع.. وهو القائل الأنس بالله، من صفاء القلب مع الله؛ والتفرد بالله؛ الانقطاع عن كل شيء سوى الله).[١٧]

ومن البدهي جداً أن يكون هذا السلوك وهذه الدعوات مخالفة لمبادئ الحياة والكون، مخالفة للعقل، مخالفة لمشيئة وإرادة الله ودعوته للإنسان بإعمار الأرض على اعتباره خليفته عليها بقوله في محكم تنزيله **(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)**.

ولكننا في الطرف المقابل نجد بعضهم الآخر على عكس ما أوردناه للتو، فعلى سبيل المثال معروف الكرخي دعا إلى العمل والابتعاد عن الخمول والكسل و..إلخ من سلوكيات تقود عضلات المرء وعقله إلى الضمور والمرض والهزل فقال الكرخي:

(إذا أراد الله بعبد خيراً فتح الله عليه باب العمل وأغلق عنه باب الجدل).[١٨]

إذن، الخلافات والتباينات بالرؤى يمكن اختصارها بمنحيين اثنين، أحدهما سلوكي والآخر عرفاني أو معرفي. ولا يمكننا مناقشة أي تجربة لأي متصوف إلا ضمن سياقاتها وبأحوالها ومقاماتها المتصاعدة والمتطورة في فضاءات زمكانية مفتوحة الآفاق.. منهم من كان سكونياً ومنهم من كان على شكل ريح صرصر.. منهم من أسدل فوق رأسه حجاباً تلو حجاب، ومنهم من حاول كشف الحجاب تلو الحجاب.. منهم المتوارب أو من أخذ التقية منهجاً داعماً آمناً لضمان مواصلة تجربته هذه ولو اضطر لادعاء الجنون حيناً.. ومنهم المتمرد الثوري، الحامل روحه على كفّه والصارخ بوجه القبح صرخته المدويّة.. منهم من تتلمذ على أبجديات التلميح فحفظ دمه.. ومنهم من تفوق على معلمي ومدرّسي أبجديات التصريح أنفسهم، فكان بوحهم رعداً وبرقاً زعزع تحته عروش الخراب من ملوك وفقهاء..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

منهم من عمّد تجربته بالآفاق الفلسفية وأخذ يطرح علائق خاصة بينه كإنسان وبين الله والخلائق، داعياً إلى تفعيل العقل وتمكينه من الموجودات والبحث في أسبابها – النفس، الموت، العدم..ومنهم الفارابي وابن سينا وابن الفارض وأبو حيان التوحيدي فعرفوا كصوفيين عرفانيين عقلانيين وفلاسفة..

منهم من اتجه للأعلى أكثر فأكثر قائلاً بالاتحاد أو الحلول وما يتبع ذلك من مجاهدات ومكابدات قد ينجح السالك أحياناً في الكشف ورفع الحجاب تلو الحجاب للوصول إلى العوالم والأسرار الإلهية..إلى المطلق واندماج الذات بالذات والعين بالعين والروح بالروح، وإدراك ماهية العالمين المادي المحسوس وعالم الملكوت الأعلى تاركاً الإنسان العادي يحبو على درجات سلمه الأولى في التطلّع إلى حياة مغايرة. فلماذا ينفون عنهم ويستكثرون عليهم هذه الرؤية والمجاهرة أوليس الرسول صلوات الله عليه هو القائل: **(اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)**

فهم أهل الكمال من النوع الإنساني، وهم العارفون الذين خصّهم الله بمقامات ودرجات من دون غيرهم، فتجردوا من جلابيبهم وأبدانهم وتساموا إلى عالم القدس فهم كذلك وأكثر بحسب ما جاء في كتاب (الإشارات) لابن سينا بالقول: إنّ للعارفين مقامات ودرجات يخصون بها وهم في حياتهم الدنيا دون غيرهم فكأنهم وهم في جلابيب من أبدانهم قد فضّوها وتجرّدوا منها إلى عالم القدس ولهم أمور خفيّة فيهم وأمور ظاهرة عنهم ينكرها من ينكرها ويستكبرها من يعرفها.[١٩]

نعم من خلال الرياضة الروحية والجسدية التي ديدنها الانقطاع عن كل ما يشغل القلب والفكر من الخلق ومظاهره كافة عن التبتل والذكر والتحليق كسرب فراش حول مصابيح الخالق.. يمكن للسالك الوصول إلى عالم الغيب والملكوت.. إلى عالم المعاني والأرواح.. إلى عالم الباطن.. فالدكتور نصر حامد أبو زيد في كتابه (مفهوم النص) يرى أن التبتل والانقطاع بملازمة الذكر وبمخالفة النفس والهوى من شأنه أن يؤدي عبر مراحل السلوك الصوفي المتعددة إلى الانتقال من عالم الحس والشهادة إلى عالم الغيب والملكوت ويؤدي بكلمات أخرى إلى الاتصال بعالم المعاني والأرواح ومفارقة عالم الصور والأجساد، وبهذا الانتقال يتم العبور من الظاهر إلى الباطن.. والعلاقة بين العالمين – عالم الملك والشهادة وعالم الغيب والملكوت – لا يمكن لغير الصوفي العارف والمحقق أن يعرفها ويظل الإنسان العادي سجيناً داخل أسوار العالم عالم الحس

والصور، عاجزاً عن إدراك حقيقة العلاقة بين العالمين، ناهيك أن يتجاوز قضبان السور الذي يحبسه.[٢٠]

إذن، يمكننا أن نجمل وأن نرجع أسباب الخلافات فيما بينهم إلى مستوى التجربة ومفرداتها من ملكات عقلية وقلبية. من قوة الحدس والشفافية والروح والحساسية والذوق.. وغير ذلك من أسس تقوم عليها أبجديات التجربة، في سعي لتحقيق توازن وتوافق ما بين ذاته المتماهية في الغيبيات وذاك الفيض الإلهي المتجلّي في ألق روحيّ إشراقي خلّاق.

فالحقيقة واحدة وواضحة وجلية إلاّ أنها تأخذ شكل ولون الوعاء الذي يحتويها على حد وصف محيي الدين بن عربي الذي يكثر من استخدام وتكرار هذا النموذج –الماء والإناء– كما يوضح الدكتور نصر حامد أبو زيد في كتابه (هكذا تكلم ابن عربي) فيقول: إنَّ الطرق إلى الحقيقة تتعدد بتعدد السالكين، هكذا يعلمنا الصوفية عامة وهكذا يؤكد ابن عربي بصفة خاصة. إنَّ الحقيقة في ذاتها واحدة لا تتعدد، ولكنها تتلون مثل الماء الذي يأخذ شكل الإناء الذي هو فيه ويتلون بلونه، هذا وعلى الرغم من أنَّ الماء في الحقيقة لا شكل له ولا لون.[٢١]

والحقيقة المطلقة لا يمكن امتلاكها أو ادعاء الوصول إليها، كما لا يمكن إدراكها إلا بشكل نسبي يتحدد بملكة العقل وطاقة روح السالك.. ومن هنا يمكننا فهم وتقدير أسباب التباين فيما بينهم حول مسائل ومحاور دينية ودنيوية.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الهوامش

١- سورة التغابن، الآية ١١.

٢- الدكتور جميل صليبا، من أفلاطون إلى ابن سينا، الهيئة العامة للكتاب، الكتاب الشهري العاشر، دمشق، اختيار وتقديم: د.نزار عيون السود ص ٩٨.

٣- ص١٦ البنية الجمالية في الفكر الإسلامي، الدكتور سعد الدين كليب، منشورات وزارة الثقافة دمشق، ١٩٩٧م، ص١٦.

٤- المصدر نفسه، ص٢١.

٥- الشهرستاني محمد بن عبد الكريم: الملل والنحل، ص١٧، نقلاً عن الدكتور سعد الدين كليب المصدر السابق ٢٢، ص٢٢.

٦- بيبيس: مذهب الذرة عند المسلمين، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو زيدة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٤٦م نقلاً عن المصدر ذاته، ص٢٣.

٧- المكـــزون السنجاري بين الإمارة والشعر والتصـــوف والفلسفة الجزء الأول، حامد حسن، دار مجلة الثقافة، دمشق، ص٣٧٢،٣٧٣.
٨- المصدر نفسه، ص٣٦٧.
٩- الدكتـــور جميل صليبا، من أفلاطون إلى ابن سينا، الهيئة العامـــة للكتاب، الكتاب الشهري العاشر، دمشق، اختيار وتقديم: د.نزار عيون السود، ص١١٥.
١٠- علـــي حـــرب، النص والحقيقة، نقد النصـــ، الصادر عن المركز الثقافي العربـــي في بيروت، ١٩٩٣م، في تعليقـــه على كتاب ما هي الفلسفـــة لجيل دولوزو وفيلكس غتاري، الصادر عن دار مينوي باريس ١٩٩١م، ص٢٤٥.
١١- الســـراج الطوسي (أبو نصر،ت ٤١٨) كتاب اللمع، نقلاً عن الدكتور إحسان عباس، (أبو حيان التوحيدي) وزارة الثقافة، دار البعث، برقم ٤٢، شهر آذار، دمشق، ٢٠٠٧م، ص٥٥.
١٢- سامي خرطبيل، أسطورة الحلاج الصادر عن دار ابن خلدون، بيروت، ١٩٧٩م، ص١٤٤.
١٣- الدكتور نصر حامد أبو زيد، هكذا تكلم ابن عربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب،٢٠٠٢م، ص٢٤٧.
١٤- الدكتور إحسان عباس، أبو حيان التوحيدي، وزارة الثقافة، دار البعث، برقم ٤٢، ٢٠٠٧م، ص١٢٥.
١٥- الدكتور أسعد علي، معرفة الله والمكزون السنجاري ج١ص٢١٩، بيروت، ١٩٨١م.
١٦- الاتحاد المستحيل، د.محمد الراشد، المنبر للدراسات والترجمة والنشر والتوزيع، دمشق، ١٩٩٩م ص٩٠.
١٧- المصدر نفسه، ص٩٣.
١٨- المصدر نفسه، ص٨٥.
١٩- ابن سينا، الإشارات، ص١٠١.
٢٠- الدكتـــور نصر حامد أبو زيد، مفهـــوم النص، ص٢٥٨، المركز الثقافي العربي، الـــدار البيضاء، ٢٠٠٥م، الطبعة الخامسة.
٢١- الدكتور نصر حامد أبو زيد، هكذا تكلم ابن عربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب،٢٠٠٢م، ص٦٥.
٢٢- د.حسن حنفي، التراث والتجديد، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨١م، ص١٣٧.
٢٣- علـــي حـــرب، النص والحقيقـــة، نقد النصـــ، الصادر عن المركـــز الثقافي العربي في بـــيروت، ١٩٩٣م ص٢٤٥.
٢٤- العهد الجديد، إنجيل متى الإصحاح ١٣.
٢٥- د.حسن حنفي، التراث والتجديد، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨١م، ص ١٣٦.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

دور الغساسنة في ثقافات حوران

د. علي أبو عساف ✽



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أثر الموقع الجغرافي لحوران في كثير من مناحي الحياة فيها وخاصة في منحى الهجرة إليها، فهي تتلازم من الجنوب والشرق مع البادية، التي تصلها مع الحجاز الذي ينفتح

✽ باحث ومؤرخ ومدير الآثار والمتاحف في سورية (سابقاً).

نحو الشمال. وتساير الطرق القادمة منه الوديان التي تسيل نحو الشمال. فالطبيعة هي الموجه لحركة الإنسان، والإنسان في العصور القديمة اتجه من الحجاز شمالاً إلى بلاد الشام. ولم يأبه بالمصاعب التي تمثلها البادية حين عبورها، بل استفاد مما توفره من غطاء نباتي متنوع ومياه جوفيه في تدبير شؤون معاشه، حتى يصل إلى السهول الخصبة ومواقع الاستيطان، التي كانت مبتغاه.

ولم تكف القبائل عن الرحيل شمالاً من بلاد اليمن والحجاز إلى مناطق بلاد الشام، فتوزعت فيها، وقد وصفت بعضها في الوثائق الآشورية بأنَّها عربية، وهي آخر من هاجر من الجنوب إلى الشمال إبان النصف الأوَّل من الألف الأوَّل ق.م. واختارت مرابعها على تخوم البادية في الشرق وأطراف الأراضي الزراعية في الغرب من الحجاز حتى تدمر. ونعرف منها «قيدار» التي لعبت الدور الأهم في حضارة حوران، وكشف على آثارها في مساكب والدبة، وهي خير شاهد على ذلك إبان الدور الممتد من ٧٠٠-٣٣٠ ق.م. وأعقبها الأنباط واليونان والرومان، وقد نسب من كان منهم في المشرق إلى بيزنطة ووصفوا بكتب التاريخ بالبيزنطيين.

فقدت القبائل العربية بعد سقوط المملكة النبطية عام ١٠٦ السيادة العامة، وتمتعت القبائل العربية في حوران وباديتها مثل تنوخ وكندة والضياغمة وغيرهم بما يشبه الحكم الذاتي.

ومع ظهور اللخميين في العراق والغساسنة في حوران وبلاد الشام الجنوبية في القرن الرابع والخامس بدأ عصر جديد في تاريخ هذه المناطق أي حوض الفرات الأدنى وبلاد الشام الجنوبية والبادية بينهما.

في هذا الزمن تشابك تاريخ الغساسنة مع تاريخ بيزنطة وطغت أعمال وأحداث بيزنطة على تاريخ المنطقة، ونهل الرومان الغربيون والشرقيون أي البيزنطيون من الحضارة اليونانية وحضارات شعوب المشرق مثل الكنعانيين في ساحل بلاد الشام والآراميين وقيدار والأنباط في الداخل وتفاعلوا معها كعادة بني الإنسان دائماً.

إلى جانب هذا العامل لعب الدين المسيحي أيضا دوراً فاعلاً ومؤثراً في ثقافة هذه الحقبة، فقد أخذت الأقانيم الدينية تلعب دورها في إدارة شؤون السكان على مستويات عدة، واستوعبت داخلها القبائل المتعددة والمتنافرة أحياناً، لكن ومن طبائع الأمور عند البشر، سرعان ما حلت الخلافات بين رجال الدين في تفسير أحكامه مما أدى إلى انشقاقات أثرت في وحدة الإمبراطورية، ففي عهد البابا الأول ٤٤٠ -٤٦١ حصل جدال حول طبيعة السيد المسيح الإلهية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والبشرية، فتبنت كنيسة روما الطبيعة الإلهية للابن فهو من جوهر الآب نفسه وفي المقابل تبنت كنيسة أنطاكية مذهباً آخر يقول أن الطبيعتين الإلهية والبشرية لم تتحدا اتحاداً كاملاً في السيد المسيح.

لا شك أن النزاع بين المذهبين قد تطور واتخذ أشكالاً مختلفة لا شأن لي به هنا، وأركز على دور الغساسنة فيه، وأبدأ من نظرة بيزنطة لهم.

فقد وصف العرب وغسان منهم في عهد الإمبراطور انستاسيوس ٤٩١-٥١٨ بأنهم أعداء لأنهم انتزعوا السلطة من كندة وتنوخ وبني صالح والضياغمة، غير أن جبلة الغساني ٥٠٠-٥٢٧ شارك بيزنطة في حربها مع الفرس واللخميين من ٥٠٢-٥٠٦، عندها تحققت مصلحة بيزنطة ووصف العرب وخاصة الغساسنة بأنهم حلفاء وليسوا أعداء. وتحدثت المصادر والوثائق التي كتبت بالسريانية واليونانية واللاتينية عن الحارث بن جبلة ٥٢٨-٥٦٥ والذي كان قد خلف والده جبله بإسهاب، ووصف بأنه أعظم ملوك غسان، وكانت باكورة أعماله أن هب لإنقاذ المسيحيين في السامرة من اضطهاد اليهود عام ٥٢٩ فغلب اليهود وأسر العديد منهم ونقلهم عبر البحر الأحمر إلى الحبشة وعرفوا هناك باسم الفلاشة نسبة إلى فلسطين.

والعامل الديني الذي وحد بين بيزنطة والغساسنة عاد وفرق بينهم، كما يحدث عادة بين أتباع الدين الواحد .عندما انحاز الغساسنة إلى كنيسة أنطاكية في النزاع العقائدي أي إلى حزب الخضر، اشتد النزاع بين الغساسنة وبيزنطة إلى حد دفع جبلة بأن يصف يوستنيان بأنَّه الشيطان. وأصبحت بلاد الشام بل العرب في صف أنطاكية وبيزنطة في صف روما.

تراجع الغساسنة إلى الصحراء وأداروا البلاد والحرب مع بيزنطة من مستوطنات خاصة، ولجأ إليهم الفارون من اضطهاد الإمبراطور وسلطانه. ومن هنا متنوا علاقتهم مع قبائل ومدن الحجاز وخاصة يثرب، وعملوا على انتشار المسيحية فيها، ومتنوا علاقاتهم مع قبيلتي الأوس والخزرج، ونظموا قواتهم المسلحة وأعدوها لمحاربة بيزنطة. وفي نقش جبل اسيس الذي يقول: أنا ابرهم بر(بن) مغيرة الأوسي أرسلني الحارث الملك على سليمان مَسْلَحة سنة ٤٢٣، الدليل على ذلك، فقد عين الحارث ابراهام بر (بن) مغيرة الأوسي قائدا لحامية جبل أسيس عام ٤٢٣ (تقويم بصرى = عام ٥٢٨) الذي يقع إلى الشمال الشرقي من خربة الإمباشي إلى الشرق من دمشق في الحماد، الذي نسب إلى سليمان في هذا النقش.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولا أدري من هو سليمان المنسوب إليه الموقع، وربما هو من شيوخ المنطقة. ويدل هذا على التحالف بين قبائل الحجاز القوية والغساسنة. وجبل أسيس كان يتبع ولاية فينيقية أي وسط لبنان ودمشق، فأخضعه الغساسنة لهم، أي أن نفوذهم امتد حتى الفرات شمالاً ودمشق غربا، تدعمه قوات عسكرية منظمة ومدربة. ومَسْلَحة حسب مقاييس ذلك العصر تعني مقر حامية عسكرية.

عند تبدل الأباطرة وصعود يوستنيان ٥٢٧- ٥٦٥ تغيرت سياسة بيزنطة وتوقف الإمبراطور عن ملاحقة حزب الخضر، ودفع نحو التصالح مع الغساسنة الذين عادوا إلى مناصرة بيزنطة ضد الفرس.

غير أن يوستنيان لم يكن مخلصا في علاقاته مع الغساسنة فاستمر في مضايقة أتباع مذهبهم، ولم ينتصر لهم ضد المناذرة الذين ادعوا ملكيتهم للأراضي الممتدة جنوبي تدمر في عهد المنذر اللخمي. غير أن الحارث هاجم ممتلكاتهم عام ٥٤١ ووصل إلى نصيبين في الجزيرة فحررها من الفرس، وأرغم اللخميين على التراجع.

وفي معركة قنسرين انتصر الحارث على المنذر فقتل واحتفل الغساسنة بهذا الانتصار في الجابية. سافر الحارث إلى القسطنطينية عام ٥٦٣ فتحققت طلباته، ولقب ملك البدو (العرب)، وساهمت تيودورا أخت الإمبراطور التي كانت تناصر مذهب اليعاقبة في إنجاح الزيارة. وفي عام ٥٦٧ جرد الغساسنة حملة عسكرية على خيبر لمناصرة أقربائهم الأوس والخزرج ضد اليهود الذين ما انفكوا يضايقونهم. كما سطر في نقش حران بالعربية واليونانية: أنا شرحبيل بر (بن) ظلمو/ ظليم شيد المرطرة= المارتيريون هذا في عام ٤٦٣/٥٦٣ بعد مفسد خيبر بعام. يرافق النص نقش يوناني.

أوّل ما نلاحظه أنّ الغساسنة قد استعملوا المفردات الآرامية مثل بر وصيغة اسمية مثل ظليمو ويونانية مثل مرطرة مما يشير إلى اهتمامهم باللغة الآرامية كالأنباط وكذلك باليونانية لغتي عصرهم، وذلك رغبة منهم في الاطلاع على ثقافات العصور التي دونت بالآرامية الكلدانية والسريانية، وأيضًا فيما بعد باليونانية التي سطرت بها كتب العهدين القديم والجديد أي التوراة وأخبار الملوك والأنبياء والأناجيل.

وقد لا يكون الدافع الديني فقط وراء تعلم اليونانية والسريانية كما يظن، فالمعروف عن ملوك غسان أنهم تكلموا اليونانية واللاتينية. ولا شك أنّ التدوين بالعربية واليونانية كان لإفساح المجال أمام الغرباء في الاطلاع على أعمال ملوك غسان، ويمكن القول إن أهل البلاد في العصر الغساني

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أحبوا الاطلاع على ثقافات الشعوب المجاورة بجميع صنوفها الأدبية والعلمية والتاريخية والفلسفية..إلخ. فتعلموا السريانية ومعها أيضاً اليونانية تلبية لحاجتهم للمعرفة، فهم بهذا يكونوا قد انغمسوا في أحوال وأجواء عالمهم ليعيشوا به بقوة واقتدار.

المرطرة هي تعريب للكلمة اليونانية/ اللاتينية مارتيرا أي مشهد، وبنيت تكريماً للقديس الشهيد يوحنا من أعظم الداعين للمسيحية، والحق أن تشييد مشهد في حران هذا الموقع الأثري الهام هو عمل حضاري بامتياز يمثل رغبة في المحافظة على قدسية المكان، الذي كان فيه هيكلان في العصر الكنعاني المتأخر ١٥٠٠-١٢٠٠ ق.م.

توفي الحارث عام ٥٦٩ وكرس الكتاب السريان مقالات كثيرة لهذا الحدث الجليل ووصفوا الحارث بأنّه قائد مهيب محب للسلام ورجل دولة من الطراز الرفيع.

خلف المنذر والده الحارث عام ٥٦٩ ومنح لقب ملك البدو/ العرب وفيلارش الشرق أي حاكم الشرق وسار على خطا والده في تدعيم استقلالية الغساسنة وهو يعلم أن بيزنطة لم تقدم أية مساعدة للغساسنة ضد اللخميين، وأنّ الغساسنة في عهد والده قد ارتدوا عن التحالف مع بيزنطة، فباشر بناء مملكة على أسس متينة وتقويتها في الكثير من المجالات حتى تستطيع الوقوف بوجه بيزنطة.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أنّ إدارة الغساسنة قد أولت الزراعة الأهمية القصوى فازدهرت في عهدهم زراعة الحبوب والكرمة والأشجار المثمرة وصدر القمح والنبيذ إلى المناطق المجاورة ووصفت حوران بأنّها أهراء روما. كل ذلك بفضل فلاحي المنطقة الأقوياء النشيطين وإدارة الغساسنة الذين قدموا من اليمن حيث كانت الزراعة مزدهرة بفضل بناء السدود وخاصة سد مأرب.

النزاع بين اللخميين والغساسنة ظل مستمراً، ولم يتوقف إلا لفترات فرضتها ظروف معينة اتسمت بالضعف عند أحد الطرفين. ففي عام ٥٦٩ هاجم قابوس اللخمي الغساسنة، مغتنماً فرصة الخلاف بين المنذر وجوستين الثاني، الذي أمعن في عدائه لليعاقبة.

غير أن المنذر تصدى له بشجاعة معتمداً على قواته المجهزة بالأسلحة الكافية والمدربة على أكمل وجه، وأجبره على التراجع. ولما عاود الهجوم مرة أخرى هزمه أيضا. طالب المنذر جوستين بمساعدته في تغطية نفقات الحرب فاعتذر بحجة أن معاهدة عام ٥٦١ لا تسمح بالحرب بين الفرس وبيزنطة وبين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اللخميين والغساسنة. ولم يقف عند هذا الموقف بل حاول اغتيال المنذر.

وهذه الإستراتيجية اتبعها الفرس أيضاً مع اللخميين، أي ترك اللخميين والغساسنة يتقاتلون فيرتاحون هم ويتجنبون خطر مطالبة أحد الطرفين بالاستقلال. وينصرفون لمعالجة أمورهم الأخرى.

وعلى الرغم من ذلك، باتت الخلافات بين الغساسنة وبيزنطة تنبعث بين حين وآخر، فموقف جوستين من الغساسنة ومذهبهم دفع المنذر إلى عدم الاعتراف بالتحالف مع بيزنطة، واستقل بسياسته وشؤونه العامة وقلد والده في بناء مملكة غسان على جميع المستويات لتصبح قادرة على مقارعة بيزنطة من عام ٥٧٢-٥٧٥.

استغل اللخميون هذا التوتر وهاجموا عام ٥٧٣ شمال بلاد الشام حتى أنطاكية وسلبوا ونهبوا ودمروا فتصدى لهم المنذر في البادية وبيزنطة تتفرج. وفي عام ٥٧٤ شارك تيبيريوس جوستين في الحكم فطرأ تحسن على العلاقات بين بيزنطة والغساسنة، وقرر المنذر في ضوء الخلاف مع اللخميين عام ٥٧٥ إعادة التحالف مع بيزنطة بعد أن تبادل ملوك غسان وقياصرة بيزنطة خلال سني الانقطاع الرسائل والمقترحات حول إعادة التحالف واتفق الطرفان على اللقاء في الرصافة وتمَّ الاتفاق على إعادة التحالف وزار المنذر بيزنطة عام ٥٨٠. فتناسى الطرفان خلافاتهما وعادت العلاقات إلى طبيعتها وذلك أيضاً بمساعدة وجهد ابنة جوستنيان الثاني واسمها عربية، وربما قلدت في مسارها هذا عمتها تيودورا التي ساندت الحارث أبا المنذر.

ومع ذلك ظل الأباطرة ينظرون إلى الغساسنة على أنهم أتباع لا يؤمن جانبهم. وحينما اشتعلت الجبهة الفارسية البيزنطية في عام ٥٧٨-٥٨٢ شاركت قوات المنذر مع قوات تيبيريوس عام ٥٨٠ فيها، ودعا القيصر المنذر لزيارة القسطنطينية فلبى الدعوة اعتقاداً منه بأنَّه سيخدم مذهب اليعاقبة ويبذل في العاصمة الجهد لحل الخلاف بين فئات اليعاقبة. وقد تمكن في ٢ آذار من عام ٥٨٠ من جمع الأفرقاء في القسطنطينية وتوصلوا إلى نتائج لاقت أصداء إيجابية في مصر والمشرق، وأصبح المنذر رئيساً للمينوفيزية (اليعاقبة) الخضر يعمل جاهداً على سيادة مذهبهم.

لم يكف تيبيريوس عن معاداة الغساسنة والمنذر بل عزم وأعوانه على تدبير المكائد لهم. وأثناء حرب الفرس والبيزنطيين وغزو عاصمة الفرس على الدجلة عام ٥٨٠ من قبل جيوش بيزنطة والغساسنة كما ذكرت وجدوا الجسر على الدجلة الذي سيعبرون منه إلى المدائن مدمراً فنشب خلاف

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بين المنذر وقائد جيوش بيزنطة موريس الذي اتهم المنذر بتدميره. ولما عاد إلى القسطنطينية شكاه إلى تيبيريوس.

وبما أنَّ الغدر كان من صفاتهم قرروا دعوته وليس إحضاره إلى القسطنطينية، فحمل الدعوة له أحد أقطاب السلطة ماكنوس. وعلى الرغم من أن الخدعة لم تنطل على المنذر إلا أنَّه سافر إلى القسطنطينية واستقبل بحفاوة ثم وضع تحت الإقامة الجبرية، وسمح له بأن يدعو من يرغب في الانضمام إليه من أفراد أسرته، التي ما إن علمت بما حدث حتى ثار الغساسنة على القيصر.

قاد الثورة النعمان بن المنذر عام ٥٨٠. وكعادتهم انسحبوا إلى البادية ومنها انطلقوا لمحاربة بيزنطة، فهاجموا بصرى التي أودع بها المنذر ما كان يمتلكه من أموال، فاحتلوها وأخذوا ودائع أبيهم، وهاجموا ولايات الإدارة البيزنطية في بلاد الشام وهي فينيقية وسورية والعربية وانتصروا في جميع معاركهم على بيزنطة، بعد أن أعدوا قواتهم وأحوالهم للحرب. لم تتوقع بيزنطة ردة الفعل هذه فطلبت المفاوضات وعينت عم النعمان الذي لم يذكر اسمه لتولي ملك غسان فلم يقبل بل اختفى.

وتوفي ماكنوس أيضاً الذي عهد إليه تيبيريوس بالتفاوض مع المنذر وفشلت الاتصالات. ومما يشير إلى استمرار الحياة الطبيعية في مناطق بلاد الشام رغم هذه الصعوبات نقش الهيات: تخص فلافيوس سينوس بن أوليانوس وابنه هو الذي بنى على نفقته مدخل البيت إلى الباحة من الأساس حتى السقف، وفي عهد المنذر عام ٤٧٣= ٥٧٨.

وأوَّل ما نلاحظه أنَّ النص كتب باليونانية واستعملت المفردات اليونانية مثل فلافيوس= تبارك، وكتبت الأسماء العربية بالأحرف اليونانية: سينوس= ساعي أوشوع واليانوس= عليان. وأنَّ حركة البناء مستمرة ومزدهرة.

بعد وفاة تيبيريوس وتنصيب موريس ٥٨٢-٦٠٢ قيصراً على بيزنطة استمرت سياسة بيزنطة في العداء للغساسنة ومذهبهم. وساهمت الإدارة البيزنطية ومن فيها من العرب في إحداث الانقسام بين القبائل العربية في بلاد الشام، فاستقلت خمس عشرة مشيخة عشيرة في أمورهم الخاصة، ومنهم من انضم إلى الفرس وآخرون تخلوا عن الميونوفيزية . إلا أنَّ النعمان غامر وقبل الدعوة لزيارة القسطنطينية وفيها لقي حفاوة بالغة.

وفي عهد فوكاس ٦٠٢-٦١٠ أدركت بيزنطة عقم سياستها وحاولت جهات عدة وخاصة البابا كريكوري، الذي شجع على فك

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أسر المنذر ودعوة النعمان إلى القسطنطينية كبادرة حسن نية نحو الغساسنة. أطلق سراح المنذر في عهد فوكاس ورجع النعمان إلى بلاده فأعاد تنظيم قواته واستعد لمساندة بيزنطة ضد الفرس.

وكما اضطربت الأحوال داخل قبيلة الغساسنة وبلاد الشام اضطربت أيضاً في بيزنطة، وبدأ الصراع على الحكم. فتمكن هيرقل من الوصول إلى الحكم عام ٦١٠ واستمر فيه حتى عام ٦٤١. كما استمرت الحروب في المنطقة بين الفرس وحلفائهم من القبائل العربية وبيزنطة وحلفائها من العرب أيضاً.

وبوساطة الفتح الإسلامي العربي، وبعد معركة اليرموك عام ٦٣٦، تخلصت البلاد من النزاعات والخلافات ولو إلى حين.

وما يمكن أن نستخلصه من هذا العرض الموجز في تاريخ الغساسنة أن تأثير الأفكار الدينية وما تقدمه من تحليلات في شؤون الحياة وضرورة تماسك أتباعها، هو الذي جعل ترابط أقاليم الدولة الرومانية البيزنطية ممكناً وخاصة أقاليم الشرق.

وعندما اتصل أتباع الدين المسيحي بالأفكار الدينية التي سبقتهم وكانت ما تزال متداولة في مناطقهم، وسعوا مداركهم في أفكارهم، ونشأ علم الشريعة، وحصل جدال حول طبيعة السيد المسيح أدى إلى انقسام جوهره ديني وظاهره جغرافي. فكان الشرق في صف المينوفيزية والغرب في الصف المعارض للطبيعة الواحدة.

ولا أظن أنَّ العواطف الدينية كانت وحدها وراء الانقسام، إنَّما أيضا أسباب أخرى سياسية دعت إلى تعميق الخلاف، فالشرق وخاصة كنيسة أنطاكية، وأتباعها من الآراميين والعرب تحفزوا لإثبات وجودهم في هذا المضمار، وإثبات صحة التفسيرات الشرقية لتعاليم السيد المسيح.

وجاءت سلطة العرب الغساسنة لتنتفع من هذه الأحوال فجندتها لاستقلاليتها، ومزجت بين الشعور الديني والقومي لإبراز شخصية شعوب المنطقة وقبائلها. فاستفادت من خبرة الرومان في الشؤون الدفاعية فأعدت قواتها إعداداً جيداً ومنظماً وزودتها بالسلاح للدفاع عن المعتقدات والسيادة، وبنت الحصون في الرصافة وجبل أسيس والجولان.

بعد هذا الذي قلناه في الشؤون السياسية، نتعرض لجانب آخر هو التحضر إبان الدور الغساني:

كان للملوك غسان مقران هما الجابية في حوران والجولان، وجلق على نهر بردى التي نجهل موقعها وربما قريبة من دمشق. ويخيل إلي أنَّ الغساسنة ربما تجنبوا الاستقرار في المدن العامرة مثل دمشق ودرعا والسويداء

ARCHIVE http://archivebeta.sakhrit.com

وأنَّ الإدارة البيزنطية شجعتهم على ذلك، حتى لا يكون لهم وجود في هذه المدن جانب حصونهم ومعسكراتهم. والمعروف والمتداول أنَّ الجابية كانت مقرهم وقد وصفها يوحنا الأفسي السرياني بأنها (حرتا أسرة الحارث بن جبلة) وتعني حرتا معسكر، حظيرة، مضارب. ومن يزور أطلال الجابية إلى الشمال من نوى قرب نبع ماء كبير يتبين له أنها لم تكن مدينة كبيرة وواسعة تليق بأن تكون عاصمة للغساسنة. ولا نشاهد في هذه الخربة التي تحمل اسم الجابية دلائل توحي بأنَّ الأطلال هي لقصر عظيم وكبير مثل الحجارة المنحوتة والمزوقة والمزخرفة أو عناصر مداخل ونوافذ..الخ.

ولعل هذه الخربة تخفي بداخلها بقايا بناء هام كالذي نشاهده في نوى وكفر شمس وإنخل وجاسم وغيرها.

وإلى الشمال من الجابية توجد قرية إنخل وتحوي بناءً ضخماً كبيراً واسعاً حالته جيدة نسبياً، ويدعو كل من يشاهده من المختصين خاصة إلى وصفه قصراً. وسواء كان قصراً وهو كذلك، أو منزلاً ضخماً واسعاً كبيراً فهو قد بني على طراز المباني النبطية. وهذا ليس مستغربا فالتطور الحضري في المنطقة حملته القبائل العربية من قيدار إلى الأنباط واللخميين والتنوخيين منذ مطلع الألف الأوّل ق.م.

نطلق على هذا الشكل من الأبنية المبنى الطولاني، أي الذي تصطف حجراته على نسق واحد مزدوج في وسطه المضافة حسب التعبير النبطي العربي بارتفاع يساوي ارتفاع الحجرات المجاورة من الجانبين، والتي تتوزع على طابقين، تستخدم الحجرات التي في الطابق الأسفل للأغراض المعيشية اليومية، والتي في الطابق العلوي للنوم ومتطلباته قبل الذهاب إليه وبعد الاستيقاظ. يصعد إلى الطابق العلوي بوساطة أدراج داخلية، وتنفتح أبواب القصر نحو الشرق، وتحقق هي والنوافذ دخول النور إليه. يبلغ عدد الحجرات ٢٢ حجرة، وتتسع المضافة لاستقبال الزوار بأعداد وفيرة. وقد بني هذا المبنى بالحجارة المنحوتة وزوق الباب بزخارف هندسية حسب المعتاد.

ومن الغرب جوار الجابية، حيث ذكرنا قصر إنخل، ننتقل شرقاً إلى الهيات، وهي قرية من أقدم قرى المنطقة، وفيها دار آبدة واسعة ومتميزة هي خير مثال على مساكن الأغنياء الأثرياء أو أصحاب السلطة في العصر الغساني.

ليس هذا فحسب، إنَّما يختلف مخطط الدار أيضا عن مخطط القصر وبيوت أخرى في الجبل، فهو مربع الشكل له مدخل وحيد مقبي ينفتح نحو الجنوب، ويقود إلى باحة داخلية فتحت نحوها أبواب الحجرات

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المجانبة لها من جميع الأطراف، ويحيط بالباحة رواق فخم يحمل سقفه أعمدة. يقود سُلمان إلى الطابق العلوي الذي يحوي حجرات النوم والحاجات الخاصة، بينما خصص الطابق السفلي للحيوانات والمستودعات ذات الأغراض المتعددة والمتنوعة.

يبلغ عدد الحجرات ٢٥ تتطابق في الطابقين غير أن مختلفة الأحجام. واجهات الحجرات المطلة على الباحة مبنية بحجارة منحوتة جيدا، أمَّا الواجهات الخارجية فقد بنيت بحجارة مشذبة وموجهة عادية.

وهنا يجب أن نتوقف عند هذه الظاهرة التي نلحظها في معظم مساكن الجبل القديمة، حيث يهتم البناؤون خاصة في نحت الواجهات الداخلية أكثر من اهتمامهم بالواجهات الخارجية. وفي نظري أن ذلك التركيز على الداخل مرده إلى أنَّ الإنسان الذي يقضي معظم وقته في الداخل يتوق إلى المنظر الجميل المحيط به. ناحية أخرى نلحظها أنَّ النوافذ في الطابق السفلي هي صغيرة وفي الطابق العلوي هي أكبر مراعاة لتحقيق الأمن، وقد وضعت فوقها واقيات حجرية بارزة لحمايتها من المطر، وقد بني وفق تقاليد موروثة في المنطقة تعود إلى الألف الرابع ق.م.

يعطينا هذان المثالان صورة عن جانب من فن العمارة في حوران. ولتكتمل الصورة نعرج على الأبنية الدينية كالكنائس والأديرة.

الكنائس:

فبعد أن اعترف القياصرة الرومان بالدين المسيحي عام ٣١٣ نشطت حركة بناء الكنائس، وفي القرنين الخامس والسادس لم تبق قرية في حوران إلا وبنيت فيها كنيسة، أمَّا المدن الكبرى مثل إزرع وقنوات والسويداء وشهبا وشقَّا فقد بنيت فيها كنيستان واحدة صغيرة ككنائس حوران التي تتألف من قاعة واحدة تسمى البيت، وأخرى كبيرة فيها شقة وسطى كبيرة تجانبها شقتان أصغر حتى تتسع للمؤمنين الذين يزداد عددهم طرداً مع ازدياد عدد السكان. وشاع استعمال هذا النوع من الكنائس الذي يسمى كاندرالا في الدور الغساني مثل كنيسة السويداء الكبرى.

الأديرة: قبيل نهاية القرن الرابع تجذرت في أذهان الناس فكرة التعبد في خلوة، واتخذ التعبير عنها وعن مطامحها شكلاً معيناً هو الدير، الذي غص بالمتعبدين الذين اختاروا الوصول إلى الرب عن طريق ممارسة مناسك عباداتهم في الدير. انتشرت الأديرة في جميع نواحي الجبل وزاد عددها على الـ٢٥، ولكن خارج حدود القرى.

وهـذا عدد كبـير بالنسبـة إلى عدد سكان الجبل وقراه وقتـذاك، ومرد ذلك إلى أن الدير قد خصص أيضـاً لاستقبال الضيوف ويجري فيـه تـداول الأخبـار والأفـكار والجديد في مختلـف نواحي الحياة، فهـو للسكن والضيافة والحوار. لذلك كان الدير كبيراً يلبي جميع هذه الاحتياجات.

وليـس لي هنـا سـرد أسماء الأديـرة إنما أشير إلى أن الأديـرة قد اتخذت في البادية إلى الجنوب الشرقي من السويداء أشكال الحصون لقربهـا مـن الباديـة ولأن الغساسنة وفي عهد النعمان ٥٨١-٦٠٠ اتخذوا منها مراكز قيادات عسكرية انطلقوا منها إلى محاربة قوات بيزنطة، ففيها وحولها جمعت القوات وتدربت وتسلحت وأعدت للمنازلة، كمـا جرت فيها الاستقبالات السلميـة فحضرت إليها وفـود الوساطات بين بيزنطة والغساسنة وبينهم وبين القبائل العربية الأخرى في المنطقة والحجاز.

وأرى من الحـق عند البحث في ثقافات بني غسـان أن نعرج على دورهـم في نشوء التحضر والتثقف في العصر الأموي، فدمشق التي اتخذها معاوية عام ٦٦١ عاصمة له، كانت عاصمة الولاية السوريـة في العهد البيزنطي وفيهـا إدارة قوية منظمة حديثة وقـوات عسكرية مدربة ومسلحة على أتمّ وجه، والرصافة التي ازدهرت في العصر الأمـوي كان الغساسنة فيها وتركوا هناك قصراً أو حصنـاً كما وجعلوا من قصـر الحير الغربي ديراً وحصناً وجده الأمويون أمامهم.

والأهـم من ذلـك أنَّ معاوية قد بذل جهداً كبير وصادقاً للتقـرب من السكان وحصل على دعمهـم وهـم في أكثريتهم من العرب والآراميين الذين أبدعـوا ثقافة وحضـارة في بلاد الشام استمـرت في العصر البيزنطـي وجدها معاوية أمامه فاستفاد منها في بناء الدولة العربية التي حمل عباها السكان القدماء.

المصادر

1- Irfan Shahid, Byzantium and the Arabs in the sixth century.

Dumbarton Oaks Research and Collection Washington D.C.بلا تاريخ

2- Le djebel al Arab, Histoire et Partimoine Au Musee De Suweida.-

P.2934- مع المصادر1991

1991 P.2934-

مدينة أنطاكية (Antiche)
عاصمة سورية في العهد الهلّينستي

د. خليل المقداد ✿



مدينة أنطاكية عاصمة سورية في العهد الهلّينستي وواحدة من أهم العواصم في العهد البيزنطي كما هي واحدة من أهم وأعظم مدن التاريخ والحضارة والآثار في العالم القديم، ولدينا الكثير من الشواهد على ذلك، فعلى سبيل المثال قد بلغ عدد سكانها في فترة من فترات العهد الهلّينستي مايقارب النصف مليون نسمة كما هو الحال بالنسبة إلى مدينة أفاميا القريبة منها على نهر العاصي؛ بمعنى أنَّه في جزء بسيط من الأراضي السورية بلغ

✿ باحث وآثاري سوري.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عــدد السكان حــوالى المليــون نسمة. وهي بذلك من أهــم مدن الميتروبــول أو أمهات المــدن، ولم تضاهها مدينــة في عراقتها في زمن أوجهــا، ولهذا السبب اختارها مؤسس المملكة السلوقيــة السورية سلوقس نيكاتور في بداية القرن الثالث قبل الميلاد وبالتحديد في عام ٣٠١ / ٣٠٠ق.م لأن تكون ليس فقط عاصمة لسورية بــل عاصمة للإمبراطورية السلوقيــة التي شملت ثلاث قارات وامتدت مــن الصــين إلى أوروبة والبحــر المتوسط وشمال الجزيرة العربية ونهر النيل. أمَّا في عهدها المتأخر فقد أخذ التاريخ والمؤرخون والباحثــون في الحضــارات القديمة يبكون على نهاياتها الوخيمة التي وصلت إليها، فقد غابــت عظمة هذه المدينة في أعماق جوفية من الأرض تجاوزت أحياناً ١٠ أمتار كما هو حال مدينة الإسكندرية في مصر.

كمــا أخذت المدينــة القديمة تغيب عن الوجود بشكلٍ بطيء تحــت مدينة العصور الوسطى ثم العصر الحديث والتي أصبحت تعرف باسم أنطاكية الشرق/ أنطاكية مدينة العاصــي؛ هذا النهر العظيــم الذي يخترق الحوضــ الكلسي في سورية ماراً بأهم المدن العريقة فيها إضافة إلى مدينة أنطاكية مثل مــدن: أفاميا – حمصــ– الرستن– حماة. وبفضــل هــذا النهــر أشيدت هــذه المدن وأصبحــت عبر التاريخ من أمهات المدن، ثم يصب النهر في البحر الأبيض المتوسط بعد أن يكــون قد تجاوز مــن منبعه حتى مصبه ٥٧٠ كيلومتراً.

وقد تأسست المدينة التي كان يطلق عليها قديماً اسم أنطاكية مارجيانا (Antiochia Margiana) منــذ بدايتها من قبل القائد (الإسكندر الكبير) علــى نهر العاصي على الطــرف الجنوبي الغربي مــن سهل العمق الخصيب فــوق موقع قديم يعود تقريباً إلى منتصــف الألف الأوَّل قبــل الميلاد، وبذلك فقــد أصبحــت في موقع تصالــب وتقاطع العديد مــن الطرقــات الدوليــة والمحلية التي تربــط الساحل بالداخــل وسورية مع هضبة الأناضــول وآسيا الصغرى ثم القارة الأوروبية، ثم تتفرع منهــا طرقات ساحلية تقــود إلى فلسطين ومصــر أو داخلية تقود إلى بــلاد مابين النهرين ثــم أواسط القارة الآسيويــة بأكملها، وهنــاك طرقات أخرى تقــود إلى مناطــق حلب أو جنــوب سورية والجزيــرة العربيــة، وبفضل هــذا الموقع الإستراتيجي أصبحت المدينة تضاهي مدينة الإسكندرية كما أرادها مؤسسها الإمبراطور سلوقس نيكاتور في وقتٍ لم تكن المدن الكبرى مثل أثينا وروما وغيرها سوى مدن متواضعة بالمقارنة معها.

وتقع المدينة على نهر العاصي وسط سهل العمق الذي يعتبر من أخصب المناطق زراعياً

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بحيث يحدها حزاما النهر من جهة والجبل من جهة أخرى، ويشكل الموقع في الأصل ذراعاً للنهر وجزيرة محاطة بالماء، والقسم الثاني منها على حافة النهر الأخرى.

وقد تمتعت المدينة بخصوصيات تجارية ومدنية وعسكرية لوقوعها في مركز شبكة مواصلات محلية ودولية، ونتيجةً لذلك فقد امتدت بين نهر العاصي وجبل سيلبيوس (silpius) بحيث بني حولها سور مع أبراج تحصينية عدّة مع وجود قلعة صغيرة في إحدى زوايا الموقع.

وتمَّ الكشف مؤخراً عن السوق الصغير فوق مركز المدينة القديم كما هو الحال في مدينة حلب؛ إلا أن أنطاكية كانت نظرتها تتجه نحو البحر، أما حلب فنظرتها تتجه نحو الداخل.

كما تميزت مدينة أنطاكية بوجودها في منطقة من أغنى مناطق سورية من حيث خصوبة الأرض وغزارة المياه متعددة المصادر من مياه الأمطار والينابيع ونهر العاصي، إضافةً إلى المناخ المعتدل والمشبع دائماً بالرطوبة الصالحة للزراعة، وقد ساعدت هذه العوامل السكان ومنذ القدم على تنوع المزروعات من الحبوب والخضراوات والفواكه.

كما أغنت المنطقة الجبلية المجاورة المدينة ووفرت لها الأخشاب بكثرة من أجل استعمالها في البناء وفي الأغراض المتعددة، ولهذا السبب فقد السكان يبنون المساكن الطابقية بحيث يكون بناء الطابق الأرضي من الحجر والطابق العلوي من الخشب، وقد تمت وراثة هذا التقليد على امتداد الساحل السوري منذ العهد الفينيقي.

وفي الوقت الحاضر يقوم سكان الريف في أنطاكية بنقل مزروعاتهم من الخضار والفواكه ومحاصيلهم الزراعية من الحبوب إلى المدينة لبيعها وشراء حاجياتهم الأخرى.

ومع أنَّ المدينة دخلت في مرحلة تاريخية جديدة في بداية العهد الهلّينستي إلا أنَّها كانت صورة مشرقة لسورية تنبعث منها إشراقة الحضارة السورية لتصب في مدينة قرطاج العاصمة السورية في شمال أفريقيا وروما العاصمة السورية في جنوب أوروبة والتي تأسست على أيدي الأخوين روموس ورومولوس وهما من أصلٍ سوري، ثم تكمل مشوارها على جميع المدن السورية في حوض البحر الأبيض المتوسط.

ومع بداية العهد السلوقي أصبحت المدينة عاصمة إقليم مارجيان أو ما أطلق عليه اسم ساتراب مارجيان الذي سميت المدينة باسمه، وقد توسع هذا الإقليم ليشمل كامل مناطق تركمانستان، وقد أكد على ذلك المؤرخ الإغريقي سترابون الذي عزا تأسيس هذه الولاية إلى القائد

أنتيوخوس سوتير (Antiochus Soter) ولهذا أخذت المدينة اسم هذا القائد الذي أصبح الملك الثاني في السلالة السلوقية بعد مؤسسها الملك سلوقس الأوّل نيكاتور.

وقد تابع الملك المشروع الذي بدأه القائد الكبير الإسكندر المقدوني في تطوير المدينة عمرانياً وبناء معظم أبنيتها العامة الكبرى والصغرى وتطوير مخططها العمراني.

ومع مطلع العهد الروماني وبالتحديد في عام ٦٤ق.م أُعلنت مدينة أنطاكية مدينة حرة، أي مدينة مستقلة مع تبعيتها للنظام السياسي الجديد حيث أصبحت العاصمة الأم وهي روما، ومع ذلك وعلى الرغم من هذه التحولات بقيت المدينة عاصمة الولاية السورية بعد التشكيل والتقسيم الجديدين للدولة الجديدة والتي تحولت لتصبح الإمبراطورية الرومانية.

ومن ثم استمرت المدينة في ازدهارها السياسي والاقتصادي والاجتماعي والديني والعمراني وعلى كافة الأصعدة، كما هيأتها هذه الإرهاصات لتلعب دوراً هاماً في تاريخ الإمبراطوريات المتعاقبة وخاصة الدور الريادي في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية وتاريخ الديانة المسيحية.

وعبر تاريخها الطويل تعرضت المدينة إلى العديد من المآسي والنكبات كان أهمها الهزة الأرضية التي تعرضت لها المدينة كباقي مدن المنطقة حيث ذكرت الوثائق أن حوالى الربع مليون من سكانها قضوا نحبهم ضحية هذه الكارثة.

ثم تكررت المصائب على المدينة نتيجة الصراع على المنطقة بين القوى العظمى المتنافسة في السيطرة على سورية مما أدى إلى انهيار العديد من أبنيتها وأسوارها التحصينية، ولهذا السبب اهتم الإمبراطور جوستينيان بالمدينة من جديد وبنى حولها أسواراً وأبراجاً تحصينية جديدة زادت من سعة المدينة وأعطتها مناعة أقوى بعد أن تقلصت في العهد الروماني السابق مما أعاد لها أهميتها وهيبتها ونشاطها المعتاد من جديد.

وبسبب هذه الأهمية ووضعية المدينة الحديثة بدأت الحفريات الأثرية في بعض المواقع القديمة من المدينة منذ وقت مبكر حيث كشفت عن بعض من روائع تراثها مثل اللوحات الفسيفسائية والتي استمرت بين القرن الأوّل والسادس بعد الميلاد والتي تعبر عن عظمة الفن السوري في هذا المجال، وكانت مدرسة الفسيفساء في أنطاكية من أهم المدارس في هذا المجال إضافة إلى مدارس المدن السورية الأخرى مثل مدن أفاميا وتدمر وشهبا وبصرى وجرش وغيرها الكثير الكثير.

كما تم الكشف في تلك الآونة عن معبد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

من أهم المعابد العالمية التي كانت مكرسة للإله أبوللون بالقرب من نبع دفنة والتي تعرف حالياً باسم حلابية حيث عثر في حرم هذا المعبد على أهم المعروضات الفسيفسائية التي عرض قسم منها في المتحف الأثري للمدينة ومنها لوحة إله البحر ولوحات المقنعات الشهيرة.

كما تمّ الكشف عن أهم وأضخم شارع رئيس في العالم حيث تجاوز عرضه في تلك الآونة الثلاثين متراً والذي كان يحيط به ٣٢٠٠ عمود تزييني كانت تزين وتتقدم الأروقة المحيطة بالشارع الرئيس للمدينة، ولهذا السبب أيضاً سوف يقتصر معظم بحثنا هنا على هذا الشارع ورواقه العظيم.

الأروقة والشارع المعمد في مدينة أنطاكية: يعتمد هذا البحث على الحفريات الأثرية التي قان بها البروفيسور جان لاسوس في مدينة أنطاكية ضمن فعاليات البحث الأثري في مدينة أنطاكية/ العاصي والتي استمرت في الفترة الواقعة بين أعوام ١٩٣٢- ١٩٣٨م بعد الحرب وتم نشر نتائج العمل في عام ١٩٦٨م في جامعة برينستون.

وتبين من ذلك أنّ المدينة شغلت منصب العاصمة السورية الهلّينستية لفترات زمنية طويلة وتعاقب حضارات وممالك وإمبراطوريات عدة، وعلى أثر زيارة ميدانية قمت بها لكل من مدينة أنطاكية ومدينة الإسكندرية في صيف عام ١٩٩٩م ومعاينة المواقع بعد دراسة كل ما نشر من أبحاث علمية عنهما تبين أنّ الحالة متشابهة في كلا المدينتين. ففي مدينة أنطاكية وكما هو الحال في مدينة الإسكندرية استمرت الحياة في المدينة التي كانت تخترقها الشوارع الكبرى ومنها الشارع الرئيس المعمد والذي يعتبر أشهر شارع معمد مع الأروقة في مدن العالم والتاريخ القديم، وأظهرت الدراسات والتحريات الأثرية أنّ الشارع الحديث في المدينة يأخذ توجه الشارع القديم نفسه تقريباً، إلا أن الشارع القديم يقع تحت مستوى الأرضية الحالية بعمق ٨م، وأرضية الشارع الهلّينستية بعمق ٩م وتصل أحياناً إلى عمق ١٠،٥م، وهذا الشارع ليس هو الشارع الوحيد في المدينة، وإنما يروي لنا هذا الشارع التاريخي قصة المدينة عبر تاريخها الطويل ومراحل تطورها.

وقد أظهرت الحفريات الأثرية التي قادت العلماء إلى التوسع في العمل للعثور على العديد من الكتابات التي تمت قراءتها؛ وهذه القراءة توافقت مع دراسة ما جاء في الصور الجوية الملتقطة حديثاً إضافة إلى ما نقلته الأجيال السابقة من سكان المدينة، كما ساعدت العديد من الكتابات التي ذكرت عن المدينة عند المؤرخين القدامى على معرفة المخطط التنظيمي القديم

للمدينة وشوارعها الرئيسة والمتفرعة وكذلك المخطط الشطرنجي للشوارع المتصالبة والمتعامدة والتي تحصر بينها الجزر التنظيمية والمعمارية المنتظمة بأبعاد ومقاييس دقيقة تنحصر تقريباً بين ١٢٦ م×٥٦م. وقد تم التأكد من هذا التنظيم من خلال المخططات العقارية في الحي الشمالي والشمالي الشرقي في المدينة، كما أكد هذا الأمر على وجود شارع محوري اتجاه شمال شرق/جنوب غرب. وهذا المحور يتوافق مع محور الطريق الدولي المار في المدينة والذي يربط بين آسيا الصغرى ومدينة حلب، وكانت أرضيات هذا الشارع إضافة إلى الشوارع الأخرى مزينة بلوحات الفسيفساء.

وكان الشارع منذ بداياته مؤسساً في اتجاه محوري كصلة وصل ليربط الطريق الدولي القادم من آسيا الصغرى والمتجه إلى بلاد الرافدين، ولهذا السبب كان يأخذ عرضاً واسعاً بلغ ٧،٢م قبل أن تتوسع المدينة وتأخذ شكلها التنظيمي المتكامل وأن يصبح الشارع معمداً ومحاطاً بالأرصفة والأروقة والأطاريف، التي بلغ عرضها في أوّل مرحلة ٤،٦٠م من كل طرف، وعندما بدأ التنفيذ في المرحلة التنظيمية أصبح الشارع أوّل شارع معمد.

وفي زمن الأباطرة كركلا وكلود أخذ الشارع مرحلته الرابعة في التنظيم المترافق مع تنظيم المدينة، وكانت تعتبر هذه المرحلة كمرحلة تمهيدية للمرحلة الخامسة التي كانت الأكثر دقةً وإتقاناً والتي بلغ فيها عرض القسم الأوسط من الشارع (الشوصة) ٩،٢٥م، وترافق هذا الأمر مع تبليط أرضية الشارع ببلاط حجري كلسي مضلع ومنتظم بشكل جيد، كما صف البلاط بشكل بالغ الإتقان في الالتصاق كما هو الحال في الشارع الرئيس في مدينة أفاميا المجاورة بمسافة غير بعيدة الواقعة على مسار نهر العاصي نفسه والذي يمر في كلا المدينتين.

كما تم تزويد الشارع في هذه المرحلة بشبكة من أقنية مياه الصرف الصحي ومياه الشرب نحتت وهيئت جميعها في الصخر الطبيعي تحت بلاط الشارع. وهذا التنفيذ تشابه مع ما نفذ في مدينة بصرى.

كما صفت فوق طرفي الشارع ركائز أعمدة نحتت لحمل الأعمدة التي يبعد كل واحد منها عن الآخر مسافة ٤،٨٢م. وهذا الشارع ذو عمق ٩م كان محاطاً بالأروقة والمحال التجارية المزينة بالمنحوتات والأعمال التزيينية الهامة التي نفذت زمن الإمبراطور تراجان بعد الهزة الأرضية التي تعرضت لها المدينة والمنطقة في عام ١١٥م، ثم تمت متابعة تلك الأعمال التحسينية في عهد الإمبراطور هادريان إلى أن تمَّ إنجاز

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

العمــل في زمــن الإمبراطــور أنطونين بعد عــام ١٣٨م. ثم تطــور الأمــر ليصبح بناء الرواق طابقياً، إذ بني فوق الطابق الأرضي طابق آخر، ومن أجــل ذلك تم تعزيز ركائز الحمل.

وقــد تشابهت هذه الأعمال مع الأعمال المنفذة أو التي نفذت في كل من مدن دمشق وأفاميا في سوريــة وسيدا في تركيا وغيرها الكثير. إلا أنَّ معظم هذه الأبنية تم تدميرها بسبب الهزات الأرضية إضافةً إلى الحملات العسكرية مــن قبل خسرويه عام ٥٤٠م. إلا أنَّ المرحلــة السادسة كانت مميزة من خلال إعادة إعمــار المدينة من قبــل الإمبراطور جوستينيان حيث أعيد تبليط أرضية الشارع بأحجــار كبــيرة ومتحاذية بشــكلٍ جيد في المجاورة مــن جهةٍ أخرى، كما تميزت أيضاً بنعومة ملمسها وتسوية وجوهها العليا، وتميز الأمر أيضاً بتنفيذ الأرصفة والأطاريف التي رصفت بدورها بالحجارة ووظفت في الرواق المزين بالفسيفساء في الوقت نفسه.

كما تبــين مــن دراســة ومعاينة بلاط الشــارع الرئيــس في مدينة بصــرى والذي عاصر تنفيذه الفترة التي نفذ فيها العمل في شارع أنطاكية وخاصةً القسم الواقع بين قوس النصر وساحة الترابيل والمحاذي في الوقت نفسه للسوق الأرضيــة من الجهة الجنوبية تبــين أنَّ كلا العملين كانــا متشابهين وكأن المنفذ هو المهندس والمعماري نفسه. وتماثل العمــل أيضاً مع ما نفــذ في مدينة تيمقاد في الجزائر. وهذا البــذخ والغنى في إعادة الإعمار يفرضان مشكلــة ومسألة تاريخية بعد الدمار الكبير الذي حل بالمدينة وعانت منه في فترات كثيرة ومرات عدّة.

وتميزت المرحلة السابعة في القرن السابع للميلاد بإنتاج ظاهرة تمت معرفتها من خلال دراسة أماكن ومدن أخرى كما أكد على ذلك الباحــث سوفاجيه في مدينة اللاذقية حيث نجد أنَّ الشارع المعمد في المدينة (البورتيك) قد تم تحويله إلى ســوق عامة وتمت إشادة محــال تجارية فوق مسار الشارع، وبالنتيجة تحــول الشارع الرئيس الكبــير إلى شارعين متوازيين. وإنَّ هذيــن الشارعين قد أحيطا وتمت مجاورتهما مــن الأطراف بالحوانيت والمحال التجارية القديمة.

أمــا في المرحلة الثامنــة والتي تنحصر في الفترة الواقعة بــين القرن الحادي عشر والثالــث عشر فقــد هجر الشــارع المعمد (البورتيك) الشرقي وأصبــح مهجوراً كلياً. وبقــي القســم الغربــي فقط هــو الوحيد الصامد بحيث أصبح لاحقاً الشارع الرئيس في المدينــة في مرحلتهــا التاسعة في القرن العشرين.

وبالطبع فجميع هذه الوثائق والمعلومات

تمت معرفتها من خلال الحفريات الأثرية حيث أكدت الصور الملتقطة في حينها وبينت بوضوح التجديدات والتحسينات والصيانة المميزة والصعوبات التي واجهت المشرفين على العمل ومنها وأهمها على سبيل المثال النزول إلى المستويات العميقة في الأسفل وتجاوز طبقات عدّة متراكمة عاشت مراحل التدمير والتخريب المتعاقبة والتي عاشتها المدينة وسببت بدورها تراكم وتعاقب الأبنية فوق بعضها لترتكز على أرضية مشتركة، ولكن مع الاختلافات والتبدلات في التأسيسات الأرضية والتي كانت جميعها تترافق مع التمديدات الصحية بشبكات من الأنابيب المختلفة.

كما أكدت اللقى الأثرية التي تم العثور عليها في بعض الطبقات أهمية كل مرحلة وحجم العمل الذي كان ينفذ. وقد أكد الباحث جان لاسوس حجم هذه الأمور والصعوبات التي كانت تواجه العاملين، كما أكدت على ذلك الكسر الفخارية والمسكوكات النقدية والأواني الفخارية وغير الفخارية المتراكمة والمتعددة والمختلطة، كما بينت وساعدت في نفس الوقت على تأريخ الجدران التي تعود إلى مراحل مختلفة وبكل سهولة.

ومن المؤكد أنه في حال القيام بحفريات أثرية ممنهجة ودراسات تتعلق بالتوضع الطبقي ودراسة المقاطع الستراتغرافيّة وخاصةً في المرحلة السادسة التي ترجع إلى فترة وصول الإغريق إلى المدينة حيث مرت المدينة في المرحلة الهلّينستية بست مراحل تنظيمية ستظهر نتائج مذهلة. أمَّا المراحل الأخرى فقد سبقت وصول الإغريق. ولا بد من الأخذ بعين الاعتبار في هذا الأمر النتائج الجيدة والوثائق الهامة التي تم التوصل إليها في معرفة تاريخ وحضارة المدينة وتنظيمها العمراني بشكلٍ عام والشوارع المعمدة التي تبرز بشكلٍ واضح المراحل الهلّينستية وتطور المدينة في تلك الحقبة والتقليد الهلّينستي المتبع.

وقد بين الباحث جان لاسوس (Jean Lassus) أثناء الندوة التي عقدت في مدينة تدمر من خلال البحث الذي ألقاه بعنوان: Quelques remarques sur les rues a portiques (بعض الملاحظات أو المشاهدات المتعلقة بالشوارع ذات الأعمدة في مدينة أنطاكية) أنّه وعلى ضوء الحفريات الأثرية التي أجريت في المدينة فإنَّ هذه الحفريات أظهرت ثلاثة شوارع ذات أعمدة بعمق ٩م، وأحدثها بعمق يتراوح بين ٦،٥ م إلى ٧م وأن تنفيذها يعود إلى عهد الإمبراطور جوستين وذلك بعد الهزة الأرضية التي حلت بالمدينة في الفترة الواقعة بين عامي ٥٢٦-٥٢٨م.

ونفذ الشارع في عام ٥٤٠م أمَّا «الشوصة»

فنفـذت فـوق المستوى الأقـدم بارتفاع ١م حيـث نصبت الأعمـدة وقواعدها، وبذلك فقد ارتفعت الأرضية السابقة تحت الأروقة (البورتيك) ثم أعيد رصف البلاط بمستوى جديد يتناسب مع الوضعية الحديثة.

وفي الأسفل توجد بقايا الشارع القديم. وهذا مـا أكده منذ القدم المـؤرخ مالالاس ليبانوس (Malalass Libanus) في عهد الأباطـرة تراجـان (Trajan) وهادريـان (Hadrian) وأنطونـين (Antonine) وذلك بعد الهزة الأرضية عام ١١٥م.

وبذلـك فقـد استعمل مجـرى الرواق (البورتيك) السابق ليكون قناة للشارع،وبهذا أصبـح عرض الشـارع ٣٦م بحيـث تكون الشوصـة في الوسـط يليهـا مـن كل جهة البورتيـك ثم البوتيـك. كما أصبـح لدينا مستوىً آخـر للمدينة الأصليـة التي بنيت من قبل أنتيوخوس إبيبفان (Antiochus Épiphane) ولكن في هـذه المرحلة توسع البنـاء إلى خـارج السور السلوقـي بعد أن كان يوجـد شارع يخترق المدينـة السلوقية على شكل شوصة محجرة بمعنى أنها كانت مبلطـة ببلاط حجري بشـكلٍ قوي ومتقن، كمـا أنها كانـت محاطة بأرصفـة وحجارة منتظمة ومنحوتة، وخلف هذا الرصيف ومن كل جهة أيضـاً بنيت الحوانيت، وفي الوقت نفسه فتحت محال للورش والحرفيين بشكل يتناسب مع المخطط التنظيمي للمدينة، إلا أن مقاييس هذه المحـال لم تكن كبيرة حيث بلغ طولهـا في العمـق ٤،٥م وكان عرضها متوسطاً بشكلٍ لم يتجاوز الثلاثة أمتار.

ومن المؤكـد أن هذا النظام قد طبق في مدينة سيلوس في العهد الروماني قبل قرنين ونصف من الزمن. وفوق هذا الطريق الذي كان يبلغ عرضـه ٢٧،٥م في العهد السلوقي مباشـرةً نفـذ هـيرود تيبـير (Hérode Tibére) الطريـق الجديـد مـع الأروقة، كما فرشـت الشوصة في هذه الأثناء ببلاط حجـري يجـاوره مسار قنـاة نحتت ضمن كتـل حجرية من الصخـور الكلسية بحيث أصبحـت تحاذي الرصيف الذي بلغ عرضه ٣،٢م أمام الحوانيـت. وقد خصصت هذه القناة لتصريف مياه الأمطار.

كمـا أصبـح يحـاذي الرصيـف بلاط حجريٌ جميل نحت بطريقـة متقنة بأبعاد ١،٧٠م×١،٢٧م وسماكة ٢٧سم. وقد رصف هـذا البلاط بشـكل يتناسـب ويتناظر مع الرصيـف السابق. كما تخلـل ذلك البلاط فتحات دائرية خصصـت لتثبيت دعامات خشبية تعطـي فكرة عن وجـود رواق كان محمولاً على ركائز وسقائل خشبية بمسافة ٦م تفصل كل واحدة عن الأخرى.

ويوجـد لدينا العديد مـن هذه النماذج في العالم والمدن الرومانية وخاصةً في مدينة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أوستيا وكذلك في مدينة روما خاصةً بعد حريق المدينة من قبل نيرون في عام ٦٩ق. م حيث كانت تنفذ الأروقة فوق دعامات ونصبات خشبية وخاصةً أمام المنازل على شكل شرفات، وهذا الأمر يقود المرء للتفكير بأنَّ هذا الإجراء نفذ عند الرومان قبل الإغريق وفي أروقة الشوارع أيضاً، ولهذا تم تنفيذ مثل هذا الإجراء في مدينة أنطاكية منذ عهد أغسطس.

ولكن من المؤكد أنَّ هذا الأسلوب تم تنفيذه في العديد من الأبنية في مدن بلاد الشام وحوض النيل وخاصةً في المناطق الغزيرة بالأمطار والتي يتوافر فيها الخشب بكثرة والمناطق التي تكون شديدة الحرارة في الصيف، ومما يؤكد ذلك أنَّ هذه الظاهرة انتشرت في مناطق حوض البحر المتوسط وأصبحت عرفاً عاماً مع تطور وتوسع الأبنية وبناء الشوارع ذوات الأروقة حيث استمر هذا التقليد حتى مطلع القرن الأوَّل للميلاد

مَّا بالنسبة إلى المناطق التي يتوافر فيها الحجر بكثرة وخاصةً الحجر البازلتي كما هو الحال في المناطق التي كانت تتبع إلى المملكة النبطية وخاصةً في حوران جنوب سورية فكان التركيز على استعمال الحجر بدلاً من الخشب.

ثم انتشر استعمال الأعمدة الحجرية في العهد الإمبراطوري الروماني في البلاد العربية وخاصةً في عهد الإمبراطور تراجان، وعلى سبيل المثال في مدينة تيمقاد في الجزائر (Timgad - Thamugadi) والتي تأسست كمستعمرة رومانية أفريقية من قبل الإمبراطور نفسه، إلا أن البناء بدأ فيها منذ عام ١٠٠ للميلاد من قبل الفرقة الثالثة التي كانت تتبع العاهل أغسطس. وقد أُنشئت المدينة فوق أرضية من الصخور البازلتية الصلبة والمنبسطة تقريباً، إلا أنَّ المدينة تأخذ بالانحدار إلى الغرب. وقد نفذ المخطط على شكل مربع بأبعاد ٣٥٠م×٣٥٠م ثم أحيط بسور من جميع الجهات تم تعزيزه بأبراج ومداخل حصينة، كما نفذت الشوارع المتعامدة على شكل شبكي متساوية في الأبعاد بحيث تقسم المدينة بجزر مربعة بطول ضلع ٢٠م ومتساوية المقاييس أيضاً. ثم شُق في المدينة شارعان محوريان مركزيان الكاردو يأخذ محور شمال/ جنوب والدوكومانوس محور شرق/ غرب نصبت على طرافيهما أعمدة حجرية.

وعند تقاطع المحورين تم بناء السوق العامة للمدينة (الفوروم) بمدخل يطل على الشارع مباشرةً. كما تميز شارع الدكومانس الذي يصل بين بوابتي المدينة الشرقية والغربية بكثرة الحوانيت التي يتقدمها الرواق المعمد (البورتيك) والتي بنيت ضمن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الجزر المقسمة بشكل دقيق، كما تم تبليط الشارع ببلاط بازلتي أملس يكاد المرء للوهلة الأولى أن يعتبره سيراميكاً رمادياً بأبعاد منتظمة وصقل جيد وتسوية متناسقة.

وما زالت فوق هذا الشارع أعمدة حجرية تتقدم الرواق وترتكز على قواعد وركائز على شكل مجموعات تتناسب مع الجزر وتقسيم الشوارع الفرعية منها مجموعة مكونة من خمسة أعمدة ارتفاع كل واحد منها ٣،٧م، بينما يبتعد كل عمود عن الآخر ٣،٣م. أمَّا الشارع فيبلغ عرض الشوصة فيه ٥م والأروقة ٣،٦٠م من كل جهة، بينما عمق الحوانيت نحو الداخل فيبلغ ٧م، كما نفذ هذا المنهج نفسه في شارع الكاردو المستعرض.

ومن الملاحظ أنَّ المدينة في بدايتها كانت صغيرة الحجم لذلك تمَّ تنفيذ التطور العمراني فيها سريعاً، فنجد على سبيل المثال أنَّ مسافة كلا الشارعين المركزيين متساوية في الطول بين البوابات الأربع المنفذة داخل السور، إلا أنَّ هذه البوابات شهدت تطوراً وتوسعاً مضاعفاً عن البوابات الأصلية بشكل يتناسب مع التوسعات التي شهدتها الشوارع لاحقاً؛ فبينما كان عرض البوابة في البداية ٣،٥م أصبحت بعرض ٧م في عام ١٦٧م أي في عهد الأباطرة ماركوس أوريليوس (Marcus Aurelius) ولوسيوس فيروس (Lucius Verus). كما تمَّ بناء البوابات في فترة نفسها بناء المسرح داخل السور ومقر الحكومة الكبير خارج السور حيث تحول هذا الموقع ليصبح حياً جديداً، ولهذا السبب لم يكن موقعه متعامداً مع الأبنية داخل السور وإنَّما انقاد إلى محور الطريق القادم من مدينة لامبس (Lambese) والمؤدي إلى المدينة من الخارج وليس نحو جهة الغرب متجرداً عن شارع الدوكومانوس.

وأصبح هذا الشارع الشارع الرئيس للمدينة مع تزيينه بمبانٍ أثرية جميلة، ولهذا السبب اختلف عن الشارع هو السابق الذي نفذ في عهد الإمبراطور تراجان الذي كان عرض الشوصة فيه ٥م بينما أصبح عرضها حالياً ٧،٢م، وكذلك بالنسبة إلى عرض الأرصفة فقد كان عرض الرصيف من كل جهة ٣،٦م ثم أصبح لاحقاً ٧،٢٥م، ونتج عن ذلك أيضاً أنَّ الأعمدة لم توضع بشكل محاذٍ مباشرةً للرصيف وإنَّما على شكل واجهات مستقلة بحيث يبتعد كل عمود عن الآخر ٣م وسطياً.

وبذلك يصبح العرض الكامل للرواق مع الرصيف ٢٢،٢٠م بدلاً من ١١م، بمعنى مضاعفة المسافة السابقة مع زيادة بسيطة.

كما نلاحظ في هذا التنفيذ مراعاة طبيعة الأرض في الجهة الغربية حيث نجد أنَّ الأعمدة الواقعة في الجهة الغربية من

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الشارع وحتى القوس لا تختلف عن السابقة التي تعود إلى فترة الإمبراطور تراجان حيث حافظت على الارتفاع نفسه البالغ ٣،٧م وكذلك نمط التيجان نفسه، كما انطبق هذا الأمر على المسافات الفاصلة بين الأعمدة.

والشيء الملاحظ أيضاً أننا نجد أن الشارع الجديد لم يكن مستقيماً في امتداده استقامة دقيقة؛ وإنما انحرف شمالاً منذ نقطة الانطلاق بحيث يتابع المسار نفسه الواقع خارج البوابة بمسافة ٢٥م، ولكن من دون أعمدة على الرغم من وجود بعض الحوانيت، أمّا تجميل الموقع ببناء بوابة جميلة وفخمة فذلك من أجل استقبال المسافرين القادمين من مسافات بعيدة، وسمي ذلك باسم قوس سيفير، كما تم لهذا الغرض بناء سوق عامة كبيرة خارج السور.

أمّا بالنسبة إلى البازيليك فقد تمت إشادته في وسط المركز التجاري للمدينة، وقد حدد سابقاً في وسط شارع الدوكومانوس مع ارتباطه ببناء الفوروم والسوق الشرقية. وقد اعتبر ذلك كسوق ومعرض عام للتجارة وخصص للبيع والشراء ولجميع الناس حيث يسير هؤلاء في الظل تحت الأروقة كما هو الحال في المدن السورية والتركية والمدن الشرقية التي ترجمت نموذج مدينة أفاميا السورية وشارعها العظيم بحيث أخذ الشارع استقامة تامة بمسافة ١كم، وأصبح هذا الشارع يحدد محور المدينة، كما زين بـ٦٠٠ عمود قطر كل واحد ٩٠سم وارتفاع ٩م يضاف إليها الطبقات الثلاث العليا الأنتابليمة (antablementes) والمكونة من الكورنيش والفريز والأرشتراف (archétraves)، وبذلك أصبح عرض الشارع ٢٢م، والرواق ٦،٥م من كل جهة، وبالنتيجة بلغ العرض الكامل للشارع ٣٥م.

وحسب نظرية سوفاجيه من خلال حديثه عن مدينة اللاذقية فإن المدن الشرقية وخاصة السورية وبشكل محدد عند تأسيس الشارع الرئيس في المدينة يجب أن يكون مسار الشارع فوق أرض بكر ويأخذ خطاً مستقيماً يحدد فيه محور المدينة الرئيس، الا أنَّ الحفريات الأثرية في مدينة انطاكية اظهرت العكس تماماً؛ والسبب في ذلك الظواهر الطبيعية المختلفة مثل الهزات الأرضية والزلازل والحروب والغزوات المدمرة وجميع هذه الأمور وغيرها، كانت هي المسبب الرئيس لتغيير هذه النظرية، كما حدث في حريق مدينة روما عام ٦٤ق.م.

وهذا ما شهدناه في العديد من المدن السورية وعلى رأسها مدن أفاميا وأنطاكية. ففي مدينة أفاميا انهارت جميع الأعمدة في الشارع الرئيس جهة الشرق ومن دون أي فاصل بينها، كذلك الأمر بالنسبة إلى الكثير من الأبنية الدينية من كنائس وأديرة

كما شهدناها في منطقة الحوض الكلسي في سورية.

وكما لاحظنا فإن مثل هذه الأمور كانت تقلق الأباطرة خاصةً عندما تكون لديهم الرغبة في تطوير مدينة وإجراء توسع وتنظيم جديدين من أجل تسهيل حركة المرور والناس والاستفادة من عناصر الأبنية السابقة ومواقعها، إلا أن هذه الأمور وبالطبع كانت تطرأ عليها التحولات والتبدلات المختلفة التي جعلتها تفقد هويتها وخصوصياتها الأصلية وخاصةً في الشوارع وعناصرها واستقامتها وأروقتها والمحلات والأبنية المحيطة بها خاصة عند وجود الرغبة في المحافظة على المحور نفسه.

أمّا بخصوص الشوارع ذات الأعمدة فلم تكن عرفاً مفروضاً أمام المنازل وإنما كانت موجودةً سابقاً كعرف مستقل ومتكامل بحيث تتوافق جميعها مع بعضها البعض لتشكل تنظيماً متكاملاً بحيث يصبح الشارع مع الأروقة المحيطة به والحوانيت والأبنية العامة كتلةً واحدة مع الأخذ بعين الاعتبار التراث السابق والتأقلم والتوافق والتنسيق مع المنهج الجديد للنسيج العمراني، ولدينا مثال جيد في هذا الأمر طبق كما ذكرنا قبل قليل في مدينة تيمقاد في الجزائر حيث نلاحظ التباينات التي ظهرت على الشوارع خلال فترة نصف قرن من الزمن.

أمّا من جهة النفقات والزمن فلم تؤخذ بعين الاعتبار بالمقارنة مع الهدف من التحسين والتزيين.

وكانت العادة هي جلب الأعمدة الغرانيتية والبلاط من مصر، وقد ظهر ذلك واضحاً بجلاء في شوارع مدينة أفاميا التي تمتد بطول ٣٥٠٠م مزينة بأعمدة ينفصل كل واحد عن الآخر بمسافة ثلاثة أمتار.

وكانت الأعمدة في هذه المدينة متطورة بشكلٍ أكثر من المدن الأخرى حيث كانت تنحت من الصخر الكلسي الصلب كما هو الأمر بالنسبة إلى البلاط الموظف في الشارع وفي الأبنية الأخرى، وقد لوحظ أنَّ مقاييس البلاط المستعمل في مدن أنطاكية وأفاميا وجرش تختلف فيه مقاييس العرض بين كل مدينة وأخرى، وبسبب ارتفاع الرصيف والرواق عن مستوى الشارع في مدينة جرش فقد بنيت أدراج من البلاط الكلسي ملاصقة للرصيف.

ومن ضمن الأعمال التي كانت تنفذ لتزيين المدن والشوارع بناء الأقواس والأعمدة التذكارية عند المصلبات وتقاطع الشوارع والأماكن الهامة، أو عند المناطق التي يكون محور الشارع فيها قد أصبح منحرفاً قليلاً لذلك تبنى الأقواس من أجل طمس معالم الانحراف كما هو واضح في الشوارع الرئيسة في كل من مدن بصرى وتدمر.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يضاف إلى ذلك تزيين الشوارع بواجهات المحال التجارية والأروقة التي كانت تستعمل من أجل راحة الناس القادمين لشراء حاجياتهم من الحوانيت، كما زودت الأروقة إضافةً إلى سبل المياه بأحواض حجرية صغيرة لمياه الشرب منحوتة ومزينة بأشكال حيوانية ونباتية من أوراق الأشجار أو أنواع من الزهور وصنابير للمياه بعروض جميلة، ومن أجمل هذه العروض لسبل المياه المتعددة الكبيرة والصغيرة تلك الموجودة في مدن بومبي وإيركولانوم في إيطاليا ولبدا الكبرى في ليبيا وبصرى في جنوب سورية.

وقد تميز بلاط الشوارع بطريقة رصفه المتقنة من أجل العربات التي تجرها الخيول والبغال وجريان مياه الأمطار، وقد نفذت شبكة من الأقنية والمجاري كانت تنفذ إمَّا في وسط الشارع أو في أسفل الأرصفة أو على أطراف الشوصة، كما كانت تستعمل الجمال داخل المدن لنقل الأحمال الثقيلة.

وتعتبر وظيفة الأروقة في المدن التجارية والمدن الكبرى (الميتروبول) هي الأكثر أهمية حيث تكون الحركة التجارية نشطة على مدار الساعة وحركة البيع والشراء متواصلة في الأسواق والمحال التجارية الصغيرة والكبيرة الواقعة بين الأعمدة والأروقة.

وملخص القول كانت التجارة (حركة البيع والشراء) تنشط المدن وتنميها، بالنسبة للمدن الداخلية، أمَّا المدن الكبرى والتي تقع على الطرق الدولية مثل أنطاكية أو بصرى أو طرق القوافل التجارية مثل مدن تدمر والبتراء وغيرها فكانت هي المسبب في البداية في إنشاء هذه المدن وتطويرها بشكلٍ تصبح فيه من أمهات المدن.

يضاف إلى ذلك العديد من العوامل الأخرى من إدارية واجتماعية وسياسية وعسكرية تلعب الدور نفسه كما هو الحال بالنسبة إلى مدينة أفاميا أو مدينة أنطاكية التي أصبحت كل واحدة منهما أنموذجاً يُحتذى به وقانوناً عاماً للتنظيم.

كما يكون للطرق التجارية دور هام في تحديد مسار الشارع الرئيس ومحاور الشوارع الأخرى، ففي مدينة بصرى كان محور الشارع يأخذ اتجاه الجنوب قادماً من البتراء ماراً بنبع المياه الرئيس في المدينة ومتجهاً إلى مدينة دمشق شمالاً، وعندما نشطت التجارة بين البحر الأبيض المتوسط والجزيرة العربية والخليج العربي تحول هذا المحور ليأخذ اتجاه الشرق قادماً من الجزيرة العربية ماراً بواحة الأزرق ثم مدينة صلخد ثم يسير غرباً متجهاً إلى مدينة درعا ثم مدن الحمة وطبريا ليصل إلى موانئ فلسطين في حيفا ويافا.

وكذلك الأمر بالنسبة إلى مدينة تدمر التي لعبت دوراً محورياً وإستراتيجياً على

طريق القوافل التجارية فقد حدد مسار القافلة توجيه محور الشارع الرئيس ذي الأروقة والأعمدة الأقدم كطريق للقوافل القادمة من البحر الأبيض المتوسط مروراً بمدينة دمشق لتصل إلى بلاد ما بين النهرين ثم الخليج العربي أو مناطق جنوب شرق آسيا والذي أصبح الشريان الهام في تجارة الحرير وأصبح الطريق المركزي لهذا الغرض. ولهذا السبب فقد زين الشارع الرئيس في مدينة تدمر بالمحال التجارية وسبل المياه والمعابد والأسواق العامة داخل المدينة وخارجها.

وجميع هذه الإجراءات جعلت من الشارع يأخذ العديد من الانحرافات أهمها الغربي الذي يربط بين بوابة دمشق وساحة المصلبة (الترابيل) ثم الأوسط الواقع بين الترابيل وقوس النصر وهو الجزء الهام حيث تحيط به مباني المدينة الكبرى مثل المسرح ومبنى سبيل المياه (النمفيوم) ومعبد نبو والحمامات وقد زين الشارع بالأعمدة الجميلة ذات القناصل لتنتصب فوقها التماثيل وكتابة النصوص التي تخلد ذكرى الشخصيات المرموقة والثرية في المدينة والتي كان لها دور هام في المساهمة في بنائها وتطويرها وكذلك تخليداً للآلهة، وهذا ما ظهر في القسم الثالث من الشارع الواصل بين قوس النصر ومعبد نبو.

وكان للضرائب التي يفرضها مجلس الشيوخ في المدينة على التجار وأصحاب المصالح أو الضرائب الجمركية أو التي تجبى من قبل المجلس البلدي دور هام في المساهمة في إغناء المدينة والترف في إظهارها بأجمل المظاهر العمرانية.

وثمة أمور أخرى تمَّ تنفيذها في مدينة أنطاكية ولا بد من ذكرها ومنها على سبيل المثال أنَّ الشارع المستقيم والذي كانت تحيط به الأروقة والحوانيت كان بناؤه طابقياً؛ بمعنى أنَّ معظم المحلات التجارية كانت تبنى من طابقين على الأقل، وفي بعض الأحيان يكون الطابق العلوي من الخشب، ثم تتفرع منه شوارع فرعية تمتد نحو الشمال باتجاه النهر والجنوب باتجاه سفح الجبل الذي يحاذي كامل المدينة حيث الأحياء السكنية. وبذلك يحاذي المدينة حزامان الأول النهر الذي حدّ نهايتها الشمالية والثاني الجبل الذي حدّ نهايتها الجنوبية. وهذان العاملان لعبا الدور الرئيس في توجيه محاور المدينة وتحديد اتجاه الشوارع.

ونتج عن ذلك أنَّ المدينة الأحدث أحيطت بالأسوار على شكل مربع وسور زود بأربع بوابات وشوارع وأروقة مزدوجة بلغ عددها أربعة مزينة بالتماثيل مثل تمثال للإله أبوللو ثلاثة منها تمتد حتى الأسوار والرابع والأكثر عرضاً والأجمل ينتهي عند القصر الملكي ببوابة ملكية فاخرة مع أروقة فاخرة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تحيط بها، ويقع هذا القصر وسط جزيرة تمتد حتى حافة النهر من الجهة الشمالية، وفي هذه المنطقة توجد أعمدة بدلاً من الفتحة، وقد نفذت الأعمدة لتشكل شرفة تطل على النهر من جهة وعلى الضواحي من جهة أخرى.

كما أقيمت على النهر خمسة جسور قوية تصل بين الجزيرة والمدينة، أمَّا بالنسبة إلى المنازل الخاصة والمبنية على طرفي الأروقة فقد زودت بمداخل على الشارع كما هو الأمر بالنسبة إلى المعابد والحمامات.. وكانت الفائدة المرجوة من الأروقة هي وقاية الناس من العوامل الجوية من المطر وأشعة الشمس وغيرها.

هذا بالنسبة إلى المنازل والأماكن التي تحيط بالشوارع، أمَّا المنازل التي تحد الطرقات وليس لها أروقة فكانت تمتلك البروزات التي نفذت على شكل شرفات أو (بلكونات أو برندات) والتي تحمي السكان حتى الوصول إلى الأروقة في الشوارع الرئيسة.

وهذا الأمر يقود للتساؤل فيما إذا كانت المناطق التي تحيط بالشوارع ذات الأروقة هي مناطق السكان الأغنياء والأخرى للسكان الأقل درجة في المجتمع؟. ولوحظ أيضاً أنَّ جميع الأحياء الواقعة على سفح الجبل كانت متساوية في المساحات.

أمَّا في وسط المدينة فقد شيّدت الأبنية العامة والأسواق الصغيرة منها والكبيرة في كل مكان. كما وجدت في المدينة القديمة أبنية القصر والحمامات.. وشمل التزيين بشكل عام كامل أحياء المدينة لدرجة أنه وكما ذكر فكل منزل كان يوجد أمامه محل تجاري تقريباً وأسواق المدينة تفتح ليلاً نهاراً.

دوار المصلبة (التترابيل tétrapyle):

زينت المدينة بساحة تترابيل مع قوس عند نقطة تقاطع الشارعين الرئيسين أحدهما يقود إلى القصر. ولكن نلاحظ أن الوضع في مدينة أنطاكية يختلف عنه في مدينة جرش، فنجد في جرش أنَّ ساحة التترابيل التي يبلغ قطرها ٣٩م غير محاطة بالأعمدة؛ لذلك نجد أنَّ الشوارع المتقاطعة معها لا يتجاوز عرضها التسعة أمتار، عكس ما نجده في شوارع أنطاكية حيث يوجد بلاط يثبت وجود ساحة مستديرة عند نقطة تقاطع الشارعين، وتحيط بهذه الساحة الأعمدة، وقد تميز هذا البلاط البازلتي بجماله الفائق وخاصة بعد ربطه بالبلاط الأقدم وكذلك بوجود بلاط رخامي آخر نفذ كمسارين مزدوجين يسيران بانحناء متقن بانفتاح دائري بدأ بطول ٥،٢م ليشكل دائرة ذات قطر ٣٩،٦م، وبذلك أعطى شكلاً

شعاعياً بحوالى ٨،٥٩م. وهذا الأمر يؤكد على وجود الساحة المستديرة، كما يؤكد على أنَّ عرض الشارع القديم قد تضاعف ليتناسب مع قطر الساحة، وهذا التنفيذ عكس ما هو منفذ في مدينة جرش.

وثمة اختلاف آخر أيضاً فيما يتعلق ببناء معبد آلهة المياه (النمفة) في مدينة أنطاكية حيث جاء مشرفاً على ساحة الترابيل ومخالفاً لما نفذ في كل من مدن بصرى وجرش وتدمر؛ وقد فرشت أرضية البناء ببلاط رخامي أعيد إصلاحه في زمن الإمبراطور جوستينيان بعد أن تم تزويد المكان بأقنية مسقوفة للمياه تحت هذا البلاط، وفي العصر المتوسط زود البناء بنافورة لمياه الشرب، وربما أن هذه النافورة جاءت تعويضاً عن نافورة قديمة كانت في وسط الساحة أو أنها كانت مرتبطة في الأصل ببناء مقدس أنشئ لهذا الغرض في المكان نفسه.

ومن الممكن الافتراض أنَّ ساحة المصلبة كانت في القرن الثالث للميلاد على شكل دائري تحيط بالترابيل الذي كانت تتوسطه نافورة لمياه الشرب على الرغم من الطبيعة الجغرافية والموقع الطبوغرافي غير الملائم لهذا المكان والذي يجعل من الصعوبة القيام بمثل هذه الإجراءات والأريحية في تنفيذها كما هو الحال في بعض المدن.

من جهة أخرى فقد تميزت الساحة بوجود بلاط بازلتي قوي جداً من كتل حجرية كبيرة بحيث تبلغ أبعاد البلاطة أحياناً ١،٥٤م×٤٨سم ومعدل وسط في المقاييس ٧٠سم× ٦٠سم، مع الوجود النادر للبلاط الصغير حيث وجد منه بعض البلاطات الصغيرة بمقاييس ٣٥سم×٣٥سم أو٤٥سم×٢٥سم، أمَّا سماكة البلاط فهي متقاربة في البلاط بحيث تتراوح بين ٤٠سم و٤٥سم، أمَّا سطح البلاط فقد نحت بشكل أملس جداً؛ وهذا يدل على أنَّ البلاط جذب بطريقة الحك والتمليس بعد عملية النحت أو الفلق، أمَّا الوجه السفلي فلم يكن بهذه الدرجة تقريباً وإنَّما ظهرت عليه الخشونة لدرجة أنَّه يأخذ بعض الأحيان الشكل الهرمي أو الخطوط المروسة لتعزيز تثبيته في الأرض حيث كان يثبت مباشرةً من دون أي حشوات بين البلاطة والأخرى.

وبالنتيجة فقد شهد الشارع الرئيس في المدينة كبقية الشوارع مستويات عدة بين مرحلة التأسيس والمرحلة الرومانية والبيزنطية والمتوسطة، وهذه المستويات كانت تتراوح بين ٥م إلى ٦م لتصل أحياناً إلى ١١متراً.

وكانت أرضيات الأبنية غنية باللوحات الفسيفسائية المتنوعة(Megalopsychia) كغنى الجدران باللوحات الجدارية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(الفريسكو) ومنها لوحة ربما كانت تظهر المخطط العمراني للمدينة كما هو الحال في لوحة كنيسة مادبة. وكانت أكثر هذه اللوحات غنىً تلك التي نفذت في قصر الوالي. وفي العهد البيزنطي زاد الاهتمام باللوحات الفسيفسائية في الأبنية الكنسية من أديرة وكنائس ومعمدانيات.

المياه في المدينة: كانت المياه السبب الرئيس لوجود مدينة أنطاكية وازدهارها، وكانت تُزود المنازل بالمياه الصالحة للشرب والتي يتم جلبها من نبع دفنة الذي يبعد عن المدينة مسافة ٦كم.

وكان جلب المياه إلى المدن الكبرى ظاهرة دارجة في الزمن الإمبراطوري؛ فقد جلبت المياه إلى مدينة شرشال الجزائرية عاصمة شمال أفريقيا من مسافة ٢٨كم ومدينة تيمقاد من مسافة ١٠كم، ومدينتي أرل ونيم الفرنسيتين من مسافة ٥٠كم. وكانت تبنى الجسور وتمد فوقها القنوات مثل جسر أفنيون العظيم في فرنسا والذي يعتبر أعظم جسر في العالم في تلك الآونة.

كما بنيت البرك في المدينة لجمع المياه داخل الأسوار ثم توزع في قنوات فرعية لتزويد المنازل والأبنية العامة مثل الحمامات وسبل المياه وغيرها، وتطور هذا الأمر في العهد الروماني بسبب اهتمام الرومان بذلك لدرجة أن نصيب الفرد من استهلاك المياه في المدينة التي كان يقارب عدد سكانها في تلك الفترة ربع مليون يفوق استهلاك الفرد في مدينة روما والبالغ عدد سكانها ٧٠٠ ألف. بحيث كان يستهلك السكان في مدينة أنطاكية كمية من المياه تبلغ غزارتها ١٥٠ لتراً في الثانية، بينما في مدينة روما كانت غزارتها ١١،٦٩٢ لتراً في الثانية. وقد زودت المدينة بـ٩ قنوات تصب في ٧١ خزاناً القسم الأكبر منها كان يتم جلبه من خارج المدينة.

وقد أظهرت الدراسات أنَّ عدد سكان أنطاكية كان يتراوح بين ٢٠٠ إلى ٦٠٠ ألف نسمة فوق مدينة بلغت مساحتها ٣١٥ هكتاراً في وقت كان عدد سكان مدينة الإسكندرية ٥٠٠ ألف وروما ٧٠٠ إلى ٧٥٠ ألف حيث كان العبيد يسكنون مع أسيادهم في المدينة، كما كان عدد سكان مدينة قرطاج ٦٠٠ ألف نسمة أيضاً فوق مساحة تقدر بـ٣١٥ هكتاراً ومدينة لبدا الكبرى يفوق المئة ألف فوق مساحة تقدر بـ٤٠٢ هكتار.

وقد تطلب الأمر في مدينة كبرى مثل أنطاكية أن يبنى فيها العديد من الأبنية الهامة مثل المسارح الدائرية (الأنفتياتر أو الستاد-stade amphithéâtre) أو المسارح نصف الدائرية (التياترthéâtre) أو قاعات الطرب (أوديون odéon) والحمامات الشتوية والصيفية المسقوفة والمكشوفة، إضافةً إلى ميدان أو ميادين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

للفروسية (هيبودروم hippodrome) والسوق العامة (الأغورةagora) التي بنيت بعيدة عن الشارع الرئيس وكذلك بناء مجلس المدينة بوليتيريوم (bauleterriem) في الحي الجديد بالقرب من السور الشرقي، وقد سمي باسم المؤسس إيبيفانيا (Epiphania) نسبةً إلى أنتيوخوس إيبيفان (Antiochus Épiphane). كما تمَّ بناء بازيليك وسمي كيسونيون (Kaisonion) إلى الشرق قليلاً من تقاطع الشارع الجديد شمال/جنوب – شرق/غرب. وكان باب المدينة الشمالي على شكل بوابة فاخرة محاطة ببرجين تحصينيين قويين، وزينت البوابة من الداخل بواجهات معمدة. وجميع هذه الأبنية ستكون موضع أبحاث لاحقة.

الهوامش

1- Guy Rachet. Dictionnaire de l,archeologie. Paris 1983.

2- J. Weulersse. Essae de geographe urbaine. BEO. T. 47 1934.

3- A.J. Festugiére, Antioch païenne et chréttienne. Paris, 1959 pp 2338-

4- Lassus. Antioche on Orontes. V. Les portiques d,Antioch d,A , Prinnceton , 1972.

5- MUKDAD ,KH, L,Aprovisionnement Hydrique dela Ville de Bosra ,XXXV Corso Di Cultura Sull Arte Ravennate e Bizantina , Ravenna, 1988, P.17704-21-.

6- MUKDAD ,KH, L,URBANISME DE BOSRA. A L,Epoque Romaine ,Thèse de Doctoral de 3 Cycle. Universite de Paris I. 1984.

L,Aprovisionnement Hydrique dela Ville de Bosra ,XXXV Corso Di Cultura Sull Arte Ravennate e Bizantina , Ravenna, 1988 , P.17704-21-.

٧- في زيارة بحثية قمت بها للمدينة في صيف عام ١٩٩٨م ذهلت وأعجبت بهذا الشارع وخاصةً البلاط الذي لم أجد له مثيلاً في جميع المدن الأثرية في العالم، وفي تلك الآونة حضرنا حفلاً بمناسبة مهرجان تيمقاد للتراث للمطربة السورية ميادة الحناوي على مسرح المدينة الأثري والجميل والذي يشبه المسارح في سورية و صباح اليوم الثاني انهمرت الأمطار بغزارة منقطعة النظير، ولكن ما هي إلا فترة قصيرة إلا وحتى جرت جميعها في أقنية الصرف التي نفذت أسفل الشوارع منذ تأسيس المدينة.

8- A.J. Festugiére, Antioch païenne et chréttienne. Paris , 1959. pp 2338-.

٩- جان لاسوس بورتيك أنطاكية ص ص ١-١٥.

10- Lassus. Les portiques d,Antioch d,A, Prinnceton, 1972. pp 1415-. J.

١١- المياه والقنوات، ترجمة: جورج حداد، الحولية الأثرية السورية عام ١٩٥١م.

12- F. Lot. Recherche sur la population et la superficie des cites remontant a la periode gallo – romaine. Paris 1945 p 351.

المصادر والمراجع

- مقـداد. خليل: الفسيفسـاء السورية والمعتقدات الدينية القديمة (الميثولوجيـا)- وزارة الثقافة - دمشق - ٢٠٠٥م.

- A.J. Festugiére, Antioch païenne et chréttienne. Paris. 1959.
- G.Downey. A. History of Antioch in Syria. Prinnceton. 1961.
- Guy Rachet. Dictionnaire de l.archeologie. Paris.1983.
- Lassus. Antioche on Orontes. V. Les portiques d.Antioch d.A. Prinnceton. 1972. J.
- D.Levi. Antioch Mosaic Pavements. Londres. 1947.
- Jean Lassus.Quelques remarques sur les rues a portiques. collogue de Strasbourg. 1973. pp 175189-.
- MUKDAD.KH. L.Aprovisionnement Hydrique dela Ville de Bosra, XXXV
- Corso Di Cultura Sull Arte Ravennate e Bizantina. Ravenna, 1988. P.17704-21-.
- MUKDAD.KH. L.URBANISME DE BOSRA. A L.Epoque Romaine.Thèse
- de Doctoral de 3 Cycle. Universite de Paris I. 1984
- J. Weulersse. Essae de geographe urbaine. BEO. T. 47 1934.

ARCHIVE

قرطاج

المهندس ملاتيوس جبرائيل جغنون ✿

مقدمة، ما قبل التأسيس: عوتيقا ثم قرت حدشت (قرطاج).

في اليوم السابع والأخير من رحلتنا إلى تونس في الفترة مابين ٢١ وحتى ٢٧ تشرين الأوّل ٢٠٠٩م استضافنا المكتب السياحي الذي تولى الاهتمام بشؤون رحلتنا لاستراحة قصيرة في مكاتبه الرئيسة في تونس العاصمة. وأثناء هذه الاستراحة القصيرة، خطر ببالي أن أسأل مستضيفنا وزوجته القائمَيْن معاً على إدارة أعمال مكتبهما السياحي، عن موقع هام لم تُتَحْ لنا زيارتُهُ لأنَّه لم يكن مدرجاً على برنامج الرحلة.

وكان هذا الموقع هو مدينة عوتيقا Utica أو Utique. ولشدة ما كانت دهشتي كبيرة حين استغربا سؤالي وكأنهما لم يسمعا باسم المكان من قبل، فأشارا إلى سكرتيرة المكتب التي قالا إنَّها تعلم ولا شك بهذا المكان، ولكنها هي الأخرى جادلتني بأنَّها لم تسمع بهذا المكان من قبل وراهنت بابتسامة واثقة أنَّه غير موجود. فما كان مني إلاّ أن طلبت منها، وبكل لباقة، خريطة سياحية لتونس فلبَّت. وبعد أقل من ربع

✿ باحث ومترجم سوري.

دقيقة كنت أشير بسبابتي إلى موضع عوتيقا التي تُعْرَفُ بالكتابات الأوروبية باسم Utica و Utique بالفرنسية. وهي لاتبعد أكثر من ٣٥ كيلومتراً إلى شمال - غرب تونس العاصمة كما هو واضح على الخارطة (الشكل ١). وكانت تلك المرة الأولى التي سمع بها هؤلاء التونسيون من العاملين في قطاع السياحة باسم عوتيقا !!!!؟؟؟ فاستغربوا الأمر واندهشت أنا واستغربت أكثر.

سبقت عوتيقا «قرت حدشت» = (المدينة الجديدة) أو قرطاج، في تأسيسها، بما لايقل عن ٣٠٠ سنة. وكانت أقدم محطة تجارية معروفة، أو من أقدم المحطات التجارية التي أقامها الفينيقيون نحو العام ١١٠٠ق.م على الساحل الشمالي للبلاد والتي أصبحت تعرف بتونس فيما بعد. أي أن الحضور الفينيقي على الساحل التونسي سبق تأسيسهم لقرطاج بفترة طويلة. والمؤكد، أنَّ المدينة لم تحمل اسم عوتيقا إلا بعد تأسيس غريمتها قرطاج.

وعلى خلاف ما تُظْهِرُهُ الخريطة لنا اليوم، فإنَّ عوتيقا بُنِيَتْ أساساً عند مصب النهر الوحيد دائم الجريان في تونس اليوم الذي يُعْرَفُ اليوم بنهر مَجْرَدا Medjerda كمحطة تجارية ساحلية صغيرة سرعان ما تطورت إلى مستعمرة فينيقية عامرة. إلاَّ أنَّ التوضع المتتالي للمجروفات السلتية (الطمي النهري) عند المصب، أدى، قرناً تلو القرن، إلى ابتعاد الساحل داخل البحر وإلى انحراف مجرى النهر بحيث باتت عوتيقا اليوم مدينة داخلية تبعد حوالى خمسة عشر كيلومتراً عن البحر ولم تعد كسابق عهدها مدينة ساحلية كما أُرِيدَ لها أساساً.

وكما كانت عوتيقا السباقة تاريخياً (أي زمانياً) لقرطاج، فقد ظلت تنافسها على الصعد التجارية والعمرانية والعسكرية أيضاً. وقد لعبت عوتيقا دوراً مؤثِّراً في الأدوار الفونيقية كان أبرز ما فيه أنها انحازت إلى روما في الحروب الفونيقية التي دارت رحاها بين قرطاج وروما على ثلاث مراحل: الأولى ما بين ٢٦٤ و ٢٤١ ق.م والثانية ما بين ٢١٨ و ٢٠٢ ق.م، أما الثالثة والأخيرة فكانت ما بين ١٤٩ و ١٤٦ ق.م. ولم تنس روما «جميل» عوتيقا فكافأتها على خدماتها بأن جعلتها عاصمة لإقليم أفريقيا الروماني بعد سقوط قرطاج عام ١٤٦ ق.م على يد القائد الروماني سكيبيوس أميليانوس. وبقيت كذلك حتى القرن الثاني الميلادي حيث قام الرومان بنقل مقر العاصمة إلى قرطاج بسبب انحسار البحر عن عوتيقا كما أسلفنا ما ألغى دورها كمرفأ كان الرومان يعولون عليه.

عوتيقا اليوم هي بالكاد قرية سياحية خطفت أضواءها قرطاج وتقع إلى شمال غرب العاصمة تونس بمسافة ٣٥ كم وإلى جنوب شرق مدينة/أو خليج بيزرت (أو

بنـزرت) بمسافة ٣٠ كم. وفيها خرائبها الدالة على بعض أمجادها ومتحفها أيضاً ولـن نستفيض في الحديث عنها بأكثر من هذا التعريف السريع.

هـذا عـن عوتيقـا. أمَّا عـن قرطاج، فدونها حديث آخر سنكرس هذا البحث له بالشواهد والوثائق.

التأسيس: الأسطورة والتاريخ.

لدينا قصتان عن تأسيس قرطاج: الأولى أسطورية والثانية تاريخية. ولن نستفيض لا في عرض الأولى ولا الثانية.

الأسطورة: أليسار أميرة صور وملكة قرطاج

يقـول فرجيل، شاعـر الرومان الشهير، وكاتب ملحمة الإلياذة، إن أليسا، أو أليسار، أميرة صور كانت وأخوها بيغماليون ولدين لأبيهمـا بيلوس الثاني ملـك صور الآشوري الأصـل نحـو أواخـر القـرن العاشر قبل الميـلاد. وقد ورثا العرش بعـد وفاة أبيهما ولكّن أخاها بيغماليون انفرد بالسلطة ودبر اغتيال زوج أختـه الكاهن سيخايوس. فما كان لها سوى الهرب بحراً من صور مع عدد من حاشيتها وجنودها وخدمها ومعها الكنوز التي خلَّفَها لها والدها إلى أن استقرت على ساحل ما أصبحـت فيما بعد تُعْرَفُ بتونس حيث تدبرت أمرها بتفاهم مع ملك السكان الأصليين للمنطقة بـأن حصلت على أرض حُدِّدَت مساحتُها «بما تستطيع أن تحيط بها بجلد ثور؟!» لقاء كمية من الذهب تمَّ الاتفاق عليهـا. فقامت بتقطيع جلد ثور وحولته مع خدمها إلى خيوط رفيعة بالغة الدقة، (هكذا تقول الأسطورة؟!)، بحيث تمكنت بوساطتها مـن الإحاطة بأرض مساحتهـا تفوق بكثير مـا تخيله ملك الجماعة المحلية، وقد أُطلِقَ على هذه الأرض المرتفعـة التي لها شاطئ بحري اسـمُ «بُرصا» أي جلد الثور[1] حسب الاجتهادات كافة. وهي ما زالت تُعْرفُ بهذا الاسم إلى اليـوم. كان ذلك نحو العام ٨١٥ ق.م

قامـت أليسـا وحاشيتهـا ومرافقوها بتأسيـس مدينـة جديـدة لها علـى رقعة الأرض تلك نحو العام ٨١٥ ق.م وكما سبق وقلت، أطلقت عليه اسم «قرت حدشت» أي «المدينة الجديدة أو المحدثة» بالكنعانية (أو الفينيقيـة). هذا الاسم الـذي وصلنا اليوم على شكله المحـرف «قرطاج» عن اللاتينية Carthago وعرفـت باليونانيـة باسـم كارخيذون.

وخلال سبع سنـوات فقط من خروجها من صور أسس القرطاجيون مملكة عظيمة تحت سلطانها.

التاريخ:

يمكن رصـد حضور كنعانيـي الساحل السوري (أو الفينيقيين لمن يرغب بتسميتهم كذلك) في بلدان حوض المتوسط إلى ما قبل

ARCHIVE http://archivebeta.sakhrit.com

القرن الثاني عشر السابق للمسيح. وعند قيام ما يُعرَفون بشعوب البحر بموجات غزواتهم الشهيرة على ممالك ومدن شرقي المتوسط في القرن الثاني عشر ق.م، فقد خسر الفينيقيون الكثير من أراضيهم، ما دفعهم لجوب المتوسط بحثاً عن مناطق احتياطية لتوفير المعيشة والبحث عن أسواق لبضائعهم. ولم تكن شواطئ المتوسط خالية من السكان، بل مأهولة بطبيعة الحال وبعضها خاضع إما للسيطرة المصرية (حول دلتا النيل) أو للسيطرة المينوئية (في بحر إيجة).

ونحو نهايات القرن الثاني عشر ق.م عندما أتت الغزوات الدورية Doric Invasions من الشمال على أراضي اليونان وجزيرة كريت وجزر بحر إيجة فقد تزعزعت سيطرة المينوئيين[٢] على بحر إيجة ما خَلَقَ فراغاً وَفّرَ ظروفاً أكثر مواتاة لانتشار الفينيقيين على شواطئ ليبيا وتونس فوصل هؤلاء بمحطاتهم التجارية إلى أقصى غرب المتوسط على الساحل الإيبيري. وإلى تلك الحقبة الزمنية يعود تأسيس عوتيقا على الساحل التونسي وترشيش قريباً من الشواطئ الإيبيرية التي أعاد تسميتها اليونانيون Tartessos عند قدومهم إليها أواخر القرن الثامن ق.م.

وفي الأزمنة التي تلت القرن التاسع السابق للمسيح، بدأت تتنامى قوة جديدة ساهمت بدفع الفينيقيين غرباً إلى المتوسط، وهي الإمبراطورية الآشورية التي لم تسلم ممالك الآراميين ولا الفينيقيين من سطوتها. فاختار أهل صور، مُؤَسِّسو قرطاج، مهادنة آشور بدفع الجزية لهم، ولكنهم فتشوا عن بدائل احتياطية لهم ليلجؤوا إليها ويلوذوا بها كانت قرطاج أهمها.

ولدينا شهادة تاريخية للحضور التجاري المؤثر للفينيقيين الذين وصلوا إلى إيبيرية وأسسوا فيها محطاتهم التجارية قبل اليونانيين والرومان في بلدان شواطئ المتوسط. يقول المؤرخ ذيوذوروس الصقلي وفق تعريبنا له:

«تحتوي أرض الإيبيريين على أكثر مناجم الفضة عدداً وجودة. ولم يكن السكان المحليون يستخدمونها. غير أن الفينيقيين، كانوا يتاجرون ويتعاملون مع السكان المحليين الذين كانوا يجهلون استخدام الفضة، وكانوا يشترونها مقابل كميات قليلة من بضائع متنوعة. وهكذا، فقد كان الفينيقيون يحملونها إلى اليونان وإلى آسيا وإلى كل الأمم الأخرى، وكانوا يحصلون بذلك على منافع جمة». انتهى قول ذيوذوروس الصقلي.

كما نملك شهادة أخرى على تأسيس الفينيقيين للعديد من المدن هناك، إذ يقول المؤرخ الروماني Sallust الذي عاش في القرن الأول قبل الميلاد في كتابه Libri

Punici أي «كتاب الفونيقيين» ما ترجمته: «ثم إن الفينيقيين بعد ذلك، بعضهم مدفوع ليخفـف الاكتظـاظ السكاني عــن بلاده، والبعض الآخر مدفـوع بروح المغامرة لفتح أراضٍ جديـدة، جمعـوا حولهـم بسطاء الناس وأولئـك التواقين للمغامرة، وأبحروا ليؤسسوا على الساحل مدن Hippo هيبّو و Hadrumetum هادروميتوم و Leptis ليبتيس ومدناً أخرى سرعـان ما ازدهرت وأصبحت مصدر دعم واعتزاز للمدن الأم». «أما بالنسبة لقرطاج»، يتابع Sallust «فأنا أُفَضِّلُ أن لا أقول شيئاً على أن أقول القليل عنها، ذلـك أنَّ موضوع بحثي سيقودني إلى مكان آخر». انتهى قول Sallust.

ونذكـر هنـا أنَّ مدينـة Hippo يمكـن تعريفها اليـوم بموقـع بنـزرت و Hadrumetum ليسـت إلاّ مدينة سوسة اليـوم أمَّـا بالنسبـة لــ Leptis فهناك Minor Leptis أي ليبتيـس الصغـرى جنوب مدينة سوسـة على الساحل الشرقي لتونس وهناك أيضاً Magna Leptis أي ليبتيـس الكبرى المعرَّفـة بلبدة الكبرى على الساحل الليبي.

كان البحر الأبيض المتوسط يُعْرَفُ باسم «البحـيرة الفينيقية» في الألـف الأولى قبل الميلاد.

أهم الأحداث والشخصيات في تاريخ قرطاج:

بعـد أن استعرضنـا تأسيـس قرطاج، أسطـورةً وتاريخـاً، سنتعرَّضُ لأهم ما في تاريخها الفونيقـي، تمييزاً له عن الفينيقي الأم، ثـم ما بعـد الفونيقـي، أي الروماني أقصد بعد سقوط قرطاج على يد الرومان. وبطبيعـة الحال سنتحدث، عـن الأحداث مـن خـلال الشخصيـات لأنَّ الأحـداث مرتبطـة بالشخصيات والعكـس صحيح، وسنوجـز ما أمكن ذلك لأنَّ المجال لا يسمح بالاستفاضة.

منذ العام ٨١٥ قبل المسيح، وهو التاريخ التقليدي المعتمـد لتأسيسها، خطت قرطاج خطوات جبارة نحو الازدهار والتوسع خلال القرون الخمسـة التي تلـت التأسيس إلى الدرجـة التي بسطت سلطانهـا أو نفوذها علـى كل مــن المـدن المنتشرة علـى شمال أفريقيـا وعلـى صقلية وسردينيـا ومالطة وكورسيكا، كما بسطت سلطانها على معظم أراضي شبه الجزيرة الإيبيرية.

لعَّـل القرنين الثالث والثـاني السابقين للمسيـح، وهما الأخيران مــن عمر قرطاج الفونيقية، همـا الأكثر إثارة بالنظر لتسارع الأحـداث فيهمـا في العداوة بـين قرطاج ورومـا. ففـي العـام ٢٦٤ ق.م، قامـت روما، مدفوعـة برغبتها الحـد من سطوة القرطاجيين وتوسعهـم في حوض المتوسط

وسيطرتهم على خطوط التجارة والملاحة البحرية، بشن أولى ما بات يعرف بالحروب الفونيقية على قرطاج. وقد مُنِيَتْ قرطاج في هذه الحرب التي استمرت بين عامي ٢٦٤ - ٢٤١ ق.م أي طوال ٢٣ عاماً بخسائر فادحة أهمها تجريدها من جزيرة صقلية، ثم تلتها خسارتها لجزيرتي سردينيا وكورسيكا لدى نشوب الحرب الأهلية القرطاجية.

«هانيبال»، «هانيبعل»، «حنوبعل»، «حنيبعل» و«حنابعل» (الشكل ٢) كلها اجتهادات للكيفية التي كان يُنْطَقُ بها اسمُ القائد القرطاجي الكبير. ولا نملك هنا أسباب ترجيح أو تصويب أو تخطئة أي منها. غير أننا سنعتمد اسم حنيبعل بالقرعة وليس بالتفضيل طوال هذا البحث. غير أنه من الراجح أنَّ معنى الاسم هو «حنان بعل» أو شيء من هذا القبيل.

والواقع أنَّ الفصل الأخير من حياة قرطاج الفونيقية يرتبط ارتباطاً وثيقاً باسم هذا القائد إذ لا يمكن التحدث عن تلك الفترة من تاريخ أو أحداث قرطاج التاريخية من دون ذِكرِ اسمه تكراراً. فمن كان حنيبعل هذا؟

وُلِدَ حنيبعل عام ٢٤٧ ق.م لوالده القائد القرطاجي حميلقار برقا في مدينة قرطاج في زمن كانت قرطاج تدنو فيه من خسارة حرب وشيكة، ولكنها طويلة الأمد ومصيرية. وكانت المدينة أثناءها أكثر مرافئ المتوسط ازدهاراً وتملك الكثير من المقاطعات الغنية. غير أنها كانت قد خسرت عام ٢٤١ ق.م، أي حين كان الطفل حنيبعل لم يبلغ السادسة من عمره بعد، كلاً من صقلية وسردينيا وكورسيكا. وقد تركت هذه الأحداث في نفس حنيبعل أثراً عميقاً ستجعل ارتكاساتُها منه بطلاً تاريخياً قلَّ نظيره.

اصطحب القائد القرطاجي حميلقار بَرقا ولده الأكبر حنيبعل الذي لم يكن بعد يبلغ السنوات العشر من عمره إلى إيبيريا عام ٢٣٧ ق.م. حيث كانت العديد من المدن الفونيقية التي سبق للقرطاجيين وأن أسسوها هناك في ما بات يُعرف اليوم بأندَلوسيا (أي الأندلس) مثل غادير «الحصن» المعروفة اليوم بـ«قادس» ومَلَكة «المدينة الملكية» التي تُعْرَفُ اليوم بـ«مالقة» وقرطاجينا «قرطاج الجديدة» و«قرطبة» التي لا نملك تأويلاً موثوقاً لاسمها.

تمكن حميلقار برقا من التعويض عن خسارته صقلية وسردينيا وكورسيكا بإضافة أراضٍ جديدة إلى سلطانه. ويذكر المؤرخ الروماني تيتيوس ليفيوس (ليفي) أنَّ حميلقار أرغم ابنه حنيبعل على أن يُقْسِمَ بالكراهية الدائمة للرومان. وعلى الرغم من أنَّ تلك الرواية هي محض ابتداع على الأغلب، غير أنَّها لا تخلو من شيء من الحقيقة ذلك أنَّ للقرطاجيين أسبابُهُمُ الوجيهة ليكرهوا أعداءهم.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وعندما توفي حميلقار والد حنيبعل عام ٢٢٩ ق.م، تولى القيادة صهره حصروبعل الأشقر حيث لم يكن عمر حنيبعل حينها قد بلغ الثامنة عشرة من عمره. وكان حصروبعل هذا رجل سياسة أكثر منه قائداً عسكرياً. وقد أضاف هذا بوسائطه الديبلوماسية تحسينات على الموقف القرطاجي تجاه روما. وقد تزوج حنيبعل من أميرة إيبيرية حيث قضى فترة شبابه هناك إلى جانب والده حميلقار برقا.

وفي عام ٢٢١ ق.م، حين اغتيل حصروبعل، اختار الجنودُ القرطاجيون المُعَسْكِرون في إيبيريا حنيبعل قائداً عسكرياً لهم، وقد صادقت حكومة قرطاج على هذا الاختيار. وكان حنيبعل حينها قد بلغ السادسة والعشرين من عمره.

عاد حنيبعل إلى أسلوب والده الحربي التوسعي وكانت باكورة أعماله مهاجمة الأهالي المحليين في إيبيريا لتمكين سلطته واستولى على مدينة سَلامانكا عام ٢٢٠ ق.م. ثم قام بمحاصرة مدينة ساغونتوم حليفة روما العام التالي وسقطت هذه بيده بعد حصار دام ثمانية أشهر. وساعده في ذلك انشغال روما في الحرب الإلّيرية الثانية حيث لم تتمكن روما من تقديم الدعم الكافي لساغونتوم. وكان في ذلك نقض للمعاهدة السابقة التي تمت عام ٢٢٦ ق.م بين روما وقرطاج التي تكون بموجبها هذه المدينة الواقعة على نهر إيبرو الحد الفاصل بين أراضي الرومان وأراضي القرطاجيين.

كان حنيبعل (٢٤٧ – ١٨٢ ق.م) واحداً من أعظم القادة العسكريين في التاريخ. وكانت أهم حملاته وأكثرها شهرة هي تلك التي حدثت إبان الحرب الفونيقية الثانية (٢١٨ – ٢٠٢ ق.م) حيث الْتَفَّ حنيبعل من وراء حاجز جبال الألب (الشكل ٤) وباغت الرومان من حيث لم يخطر ببالهم أو يتوقعوا وقد تميزت بجسامة الخسائر في الأرواح والجياد والفيلة التي استخدمها لترويع جياد العدو التي دفعتها جيوش حنيبعل أثناء عبور حاجز جبال الألب شديد الوعورة والبرودة وتصميم حنيبعل على مواصلة الحملة وبالخسائر الفادحة التي ألحقها حنيبعل بجيوش روما التي كانت نهايتها في موقعة زاما الشهيرة ٢٠٢ ق.م. ولكن سبقه إلى هناك القائد الروماني Scipio Africanus فما كان لحنيبعل بد من مواجهته بجيشه المنهك في معركة زاما الشهيرة التي وقعت عام ٢٠٢ ق.م والتي لم يقيّض له فيها النجاح. ولكن نهاية قرطاج المأساوية كانت عام ١٤٦ ق.م على يد القائد الروماني Scipio Aemilianus الذي اقتحم أسوارها، فانبرت له حاميتها وأهاليها بدفاع مستميت في قتال من شارع إلى شارع ومن بيت إلى بيت خلال حرب الأيام الستة، سقطت المدينة بعدها وأضرم الرومان فيها النار

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لعشرة أيام وفرشوا أرضها بالملح حقداً كي لا تعود أراضيها قادرة على الإنبات وأهلها على إنجاب المزيد من الأبطال .

وكلمة حق نقولها إنَّ صورة حنيبعل تُذكِّرُنا، بشيء من التشابه، بصورة الإسكندر الذي ما زال يحظى حتى اليوم بلقب أعظم القادة العسكريين في التاريخ بلا منازع. غير أنَّ الفارق الأساسي بين الأول والثاني أن حنيبعل ربح جميع المعارك التي خاضها ضد روما، ولكنه خسر الحرب نهاية المطاف في زاما ولم يحقق غايته، في حين أنَّ الإسكندر ربح جميع المعارك التي خاضها ضد غريمه الأساسي داريوس الكبير الفارسي وسواه من الملوك والقادة الآخرين على مدى البلاد التي اجتاحها، ولكنه ربح الحرب في النهاية وحقق أهدافه، هذا ناهيكم عن الفرق الشاسع في اتساع رقعة الأراضي التي استولى عليها الإسكندر مقارنة بتلك التي أرادها حنيبعل من دون أن يستولي عليها بالمحصلة.

قرطاج المدينة:

ليس ميسوراً ولا مجدياً في بحث مكثف كهذا الخوض في تطور مخطط مدينة قرطاج لأنه، وببساطة لم يتوصل الآثاريون ولا الباحثون بعد إلى الصورة المتكاملة لهذا التطور بدءاً من التأسيس وعبوراً بالعصور التي تعاقبت على قرطاج. لذا، فإننا سنكتفي هنا بإعطاء تصور معقول لما يُرَجَّح أنَّ المدينة كانت تبدو عليه في عصور متقدمة بعد تأسيسها المفترض في القرن التاسع قبل الميلاد، وتحديداً في القرن الثاني للميلاد .

يُظْهِر (الشكل ٥) منظراً جوياً تخيلياً باتجاه الجنوب لقرطاج في الدور الروماني. بينما نشاهد في (الشكل ٦) منظرين جويين تخيليين آخرين باتجاه الشمال يُظهران المدينة والميناء. فيمثل منظراً جوياً حقيقياً باتجاه الشمال لمدينة قرطاج اليوم.

بعد هذا التعريف بالصورة التقريبية الإجمالية لمدينة قرطاج التاريخية القديمة سنقوم بزيارة موقعية سريعة على أهم ما تبقى اليوم من أوابدها مع الإشارة إلى العصور التي تنتمي إليها هذه الأوابد حيث يلزم..

نبدأ جولتنا من ساحة الأكروبول على قمة تل برصا حيث يمكننا الإطلال مباشرة على الحي الفونيقي.

الحي الفونيقي المدعو أيضاً «حي حنيبعل؟؟؟».

مشاهد من بقايا الميناء الحربي والتجاري:

الـ«توفيات» Tophets :

يُجْمِعُ عدد من علماء الآثار اليوم على أنَّ القرطاجيين كانوا يمارسون تقديم القرابين من الأطفال. غير أن الأدلة الأثرية لا تؤيد هذا الإجماع بالمطلق وما زال الجدل قائماً حول مدى واقعية هذه المسألة وصدقيتها.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد عُثِرَ على مقبرة لا تبتعد عن الميناء الفونيقي إلا بضعة مئات من الأمتار تحوي بضعة مئات مما يُطلَقُ عليه الآثاريون اسم الـ«توفية» Tophet وهي عبارة عن شواهد قبرية لما يُفتَرَضُ أنهم قرابين (أو أضاحي) بشرية من الأطفال؟؟؟.

وقد عثر على بقايا عظام بشرية لأطفال وحيوانات في هذه المقبرة. ومع أن احتمال تقديم الأطفال كأضاحٍ بشرية يبقى قائماً حتى يثبت لنا خلاف ذلك، فإنَّ هذا الطقس ربما اقتصر على حالات الأزمات فائقة الحرج. ففي العديد من الحالات، كان القرطاجيون يستعيضون عن (التضحية بالأطفال؟؟) بقرابين من الحملان والماعز أو حتى من الأطفال المتوفين.

وتبقى مسألة إن كان القرطاجيون يمارسون هذه الطقوس موضع جدل لم يحسم بعد بشكل نهائي.

ونشير هنا بالمناسبة أنه عُثِرَ صدفةً في مدينة صور على الساحل اللبناني على مقبرة «توفيات» في موقع «صور البص».

حمامات أنطونينوس والحي المجاور لها:

(الشكل ٧) مخطط لموقع حمامات أنطونينوس والمنطقة الأثرية المجاورة له من جهة الغرب.

نطل على خليج تونس بمواجهتنا إلى حيث حمامات أنطونينوس

تغطي الحمامات مساحة تزيد على ٤ هيكتارات بنيت في عهد الأباطرة الأنطونيين (١٣٨-١٦١م) ولم يبق منها اليوم إلا المستوى الأول والمستوى المبني تحت الأرض والذي يضم حجرات مقبية ترتكز عليها قاعات الاستحمام العملاقة. ومنها القاعة الباردة الكبيرة التي يستند سقفها إلى ثمانية أعمدة ضخمة من الغرانيت.

المشاهد الباقية اليوم هي، في معظمها، من الطابق السفلي، إذ لم يبق من الطابق العلوي إلاّ النذر اليسير.

إلى محطتنا الأخيرة لنزور متحف قرطاج القائم على تل«بُرصا».

تأسس متحف قرطاج الوطني عام ١٨٧٥م على قمة تل بُرصا بجانب كاتدرائية القديس لويس على يد الكاردينال شارل مارتيال لافيجيري Charles Martial Lavigerie وقد بقي يُعْرَف باسم متحف لافيجيري حتى العام ١٩٥٦م حين قامت الدولة التونسية بإعادة تسميته بـ«متحف قرطاج الوطني».

يضم المتحف مجموعات كبيرة من التحف المتنوعة التي تتراوح بين الفسيفساء والتماثيل والسُرُج والفخاريات والنواويس إلخ. من العصور الفونيقية والرومانية.

كاتدرائية القديس لويس على تل بُرصا بجانب متحف قرطاج الوطني.

بنيت الكاتدرائية عام ١٨٩٠م على الموقع الذي توفي فيه الملك لويس التاسع

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

عام ١٢٧٠م أثناء حملته على تونس. لم تعد الكاتدرائية مستخدمة اليوم للأغراض الدينية، بل هي مقتصرة على الأنشطة الثقافية.

يلاصق الكاتدرائية مبنى صغير يحمل اليوم اسم الأكروبوليوم وهو مخصص لأغراض السياحة الثقافية.

المحطة الأخيرة: مسرح قرطاج الأثري الذي يستضيف العديد من فعاليات مهرجان قرطاج الدولي سنوياً.

خاتمة:

كانت تلك وقفة موجزة على أهم ما تجب معرفته عن قرطاج، هذه المدينة التي زينت صفحات التاريخ بأمجاد سطرتها بأيدي أبنائها وقدراتهم. وأرجو أن أكون قد وُفِّقْتُ إلى التعريف بها.

الهوامش

٢- تُصِرُّ المصادر كافة التي استشرتها، دون أي سند فيلولوجي مقنع، على تفسير لفظ «بُرصا» ب«جلد الثور»؟؟!! وحيث إنَّ الأسطورة تحدثُنا عن عملية إحاطة اليسار للأرض بجلد الثور التي لا تدخل في العقل العلمي لا من قريب ولا من بعيد، فإنَّ هذا الأمر دعاني للبحث عن معنى اللفظ حقيقة الأمر بعيداً عن المنحى الأسطوري. وأنا أرى، بعد البحث والتقصي، أن لفظ «بُرصا» بِحَدِّ ذاته هو الحقيقة الوحيدة الباقية الممكن الركون إليها بمنأى عن تفسيرها «الأسطوري». وبرأينا أن «برصا» لا تعني إلا «الحصن» ولا شيء آخر. فالمكان المرتفع من المدن القديمة كان مخصصاً لبناء الحصن كونه الأكثر أهلية لهذه الوظيفة الحيوية العسكرية، وهذا ما ينطبق على الموقع الذي يحمل الاسم إياه في قرطاج. ولنا من «بصرى» أكبر دليل على ما نقول، هذا اللفظ الذي يعني، حسب بعض فروع ما بات متعارف على تسميته باللهجات «السامية؟؟!!»، «المَعْقِل» أو «المكان الحصين» أو «الحصن» ولا شيء آخر (انظر LITTMAN، Enno: Ancient Semitic Inscriptions الصادر عن جامعة Princeton كحصيلة لأعمال التنقيب والدراسات التي نفذتها «حملة جامعة برنستون الأركيولوجية إلى سورية»

Princeton University's Archaeological Expedition to Syria (PAES)

. فبالنسبة لبناة المدن والممالك القديمة، كان أوَّل وأهم شيء يفعلونه هو بناء مكان يلوذون به ويتحصنون على مواقع مرتفعة تفضيلاً. أمَّا عن تسبيق حرف «الصاد» على حرف «الراء» في «بصرى» فهذا أمر جد مألوف باختلاف اللهجات. فهناك من يقول «مسرح» وهناك من يقول «مرسح» ليفيد المعنى ذاته، وأيضاً هناك من يقول «سجّاد» وهناك من يقول «سدّاج». فلا عجب، إذاً أن نقول «بُرصا» و«بُصرا» أو «بصرى» لنفيد المعنى ذاته. ونذكر هنا، بالمناسبة أيضاً، مدينة بورصا Bursa (في ما هو تركيا اليوم) التي لا نستبعد أن تكون أخذت اسمها بطريقة مماثلة.

١- المينوئيون تاريخياً هم الكريتيون الذين قامت حضارتهم على جزيرة كريت وشملت كل ماهو جزر بحر إيجة في القرون الثلاثة السابقة للقرن الحادي عشر السابق للميلاد. وقد اكتسبوا اسمهم هذا نسبة للملك الأسطوري مينوس الولد الأكبر من اقتران زفس كبير الآلهة اليونانيين مع أوروبا أميرة صور اقتراناً إلهياً. وكان زفس هذا قد أحال نفسه إلى ثور أبيض وحمل أوروبا من على شاطئ مدينة صور مختطفاً إياها إلى جزيرة كريت حسب الأسطورة اليونانية.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الاستعمار بين احتلال الأرض واحتلال العقل

د. يوسف جاد الحق ❂

ما أحسب أنَّ أحداً من أبناء أمتنا يجهل ما هو (الاستعمار)، بعد أن عانينا من ويلاته وشروره الكثير، إبان احتلاله عسكرياً لمناطق مـن ديارنا، ونحن مازلنا نعاني آثار احتلاله وتبعاته حتـى يومنا هذا، علـى الرغم من جلائه عنها.

ربمـا كان علينـا أن نحـدد تعريـف (الاستعمـار) كمصطلـح لهـذه الظاهرة. الاستعمـار (colonialism) حسب معجم أكسفورد الإنكليزي هو: (مجموعة من البشر تستقر أو تستوطن بلداً جديداً، تشكل جماعة تخضع للبلد الأم، وهي مرتبطة بها، وتتألف من المستوطنين الأوائل وأحفادهم وورائهم مادامت العلاقة مستمرة مع الوطن الأم).

هذا التعريـف الفضفاض والغامض أيضـاً، حافـل بالمغالطـات القانونيـة والأخلاقيـة عن عمـد، إذ يتجاهل السكان الأصليين للبلاد التي جرى استعمارها، وهو لذلك يتجاهـل لا قانونية الاستعمار، الذي لا يمـت بأي صلـة للطـارئ المستعمر. إن تعمّد التطويل -كما هـي العادة الإنكليزية لكي يحتمل النص التوسع في التأويل وخلق الاختـلاف والاضطـراب حولـه- لخدمة

❂ أديب وروائي وقاص فلسطيني.

المستعمر، وتجاهله التام لمصالح سكان أهل البلد، وكأنَّ هؤلاء لاوجود لهم. هذا النوع من الاستعمار القديم يعتمد في وجوده على قوة احتلاله العسكرية المباشرة، متذرعاً على الدوام، بحجج واهية، كأن يزعم بأنَّه إنَّما جاء ليخرج البلد وأهله من التخلف، ولكي يمكِّنهم من حكم أنفسهم بأنفسهم(..!!)، عند بلوغهم سنّ الرشد..!

بمعنى أنَّه يعرف عنهم، فضلاً عن معرفته عمَّا ينفعهم أو يضرهم، أكثر مما يعرفون هم أنفسهم.

هذا الضرب من الاستعمار عفا عليه الزمن أو كاد- باستثناء الحالة الفلسطينية في ظل الاستيطان الصهيوني- من ناحية الشكل والمظهر، إلاَّ أنَّ أصحابه الذين لم يتخلوا عن أهدافهم ومراميهم، لجؤوا -مختارين أو مضطرين بحكم المتغيرات الاجتماعية والدولية الناظمة لأكثر من منحى في حياة البشر- إلى تغيير قواعد اللعبة، فعمدوا من ثم إلى اجتراح أنموذج جديد لاستعمارهم، من ناحية الشكل الظاهري، مع الإبقاء على الجوهر واللباب، ولم يعدم هؤلاء *بطبيعة الحال القدرة الفذة* على ابتكار مصطلحات ونظريات تخدم التوجه الجديد، وهو (أي الغرب) لايرى في الشرق خاصة -أرضاً وشعوباً- سوى كونه مصدراً للثروة الطبيعية من جهة واليد العاملة الرخيصة، إلى حد السخرة أحياناً أو ما يقاربها، من جهة أخرى.

وهو كذلك يرى أنَّ الذين يحظون بهذه الثروات تمنحهم إياها طبيعة بلادهم، ولاسيما تحت أقدامهم بأنَّهم لايستحقونها، وأنَّه هو الأحق بالاستيلاء عليها. وبالتالي، فهو يعطي لنفسه الحق في أن يشنّ عليهم حروباً وغزوات لكي يستأثر بها من دونهم.

أمَّا الاستعمار الجديد الذي يعرف اصطلاحاً بالإمبريالية (Imperialism) فقد شرع، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية- من أجل الوصول إلى النتائج والأهداف ذاتها- إلى احتلال العقل، بدلاً من الأرض، وعن طريق الإعلام والتعليم ونشر الثقافة المغرضة، وأكثر ما يهمه، في سائر الأحوال، هو الجانب الاقتصادي أولاً وأخيراً. أمَّا ذريعته هذه المرة فهي الزعم بحرصه على نشر (العدالة والحرية والديمقراطية والحفاظ على حقوق الإنسان..!) إلى آخر ما هنالك من تلك المعزوفة المعروفة التي ثبت للملأ، وعلى مدى العقود المنصرمة مجافاتها للحقيقة، وما من غاية له من ورائها *غير التضليل والتعتيم على الحقائق*.

لذلك عمد الغرب إلى (الاستعمار الجديد) تسهيلاً لمهمته، لتقسيم العالم إلى شمال غني وجنوب فقير، وإلى شرق (متخلف وبدائي)، وغرب (متقدم وحضاري). وقد

لجأ إلى هذا التصنيف الجديد مستعيضاً به عن التصنيف السياسي القديم الراهن (سايكس بيكو وأخواتها). وكانت وسيلته إلى تحقيق مبتغاه هذا استخدامه لوكلاء من أبناء البلد نفسه، ينصبهم حكاماً وقادة. ولكي يدينوا له بالوفاء والإخلاص يمنحهم امتيازات يسيل لها لعابهم على حساب شعوبهم موضوع الصفقة.

للاستعمار -قديمه وجديده- نظرة فوقية استعلائية على الشعوب الأخرى، يقول الفيلسوف الألماني (كونور): (إنَّ الأنكلو ساكسون هم أكثر القوى الاستعمارية الأوروبية تعمداً لإبادة الشعوب وإفراغ الأرض من أهلها والاستعماريون يؤلهون ذاتهم ويعطون أنفسهم الحق في تقرير مسألة الموت والحياة لكل من عداهم).(١)

ولقد عزز هذه الأفكار والتوجهات (نظرة استعلائية لدى معظم فلاسفة ومؤرخي الغرب تتسم بالنظرة العرقية بحجة التفوق العرقي).(٢)

لابدَّ لنا من التنويه بدور المستشرقين، قديماً وحديثاً، في المسألة الاستعمارية، واحتلال الدول الغربية لأقطار في القارتين الآسيوية والأفريقية. لقد لعب المستشرقون دوراً هاماً وخطيراً بما قاموا به من دراسات وأبحاث مهدت السبل للمستعمرين الغربيين للوصول إلى أهدافهم المنشودة، وذلك عن طريق تعريفهم لجغرافية البلاد المستهدفة، طبيعتها وتاريخها وتراثها ومجتمعاتها. وقد اعتمدت أعمالهم كمواد دراسية بحثية في جامعات أوروبة فأمست جزءاً من ثقافة الشخصية الغربية عموماً. بل إنَّ كثيراً من المفكرين العرب والمسلمين أنفسهم راحوا ينهلون ويستقون معلوماتهم عن تاريخهم وتراثهم من تلك الجامعات عينها، كالسوربون في فرنسا، وكمبريدج، وأكسفورد في بريطانيا. من هؤلاء، على سبيل المثال، د.طه حسين، ود.محمد حسين هيكل، ود.علي عبد الرزاق، وتوفيق الحكيم وغيرهم. وفي زمننا الراهن الدكتور مصطفى السيد، ود.أحمد زويل، ود.أسامة الباز، ود.فاروق الباز (الأخيرون هؤلاء أتموا دراساتهم في جامعات امريكا). لقد كان حرياً بالعرب والمسلمين أن ينقبوا هم في ذلك التاريخ، وتحقيق مخطوطات التراث بدلاً من العبث بها لمن يريد ذلك. والغريب المؤسف أيضاً أن معظم الدارسين هؤلاء يتبنون ما خرج به المستشرقون من دراساتهم التي لم تكن بريئة تماماً في معظم حالاتها، دونما تمحيص يفضي إلى إقرار ما كان في محصلته صادقاً وسليماً، ودحض ما كان مغرضاً ومشوِّهاً لنا كأمة وكتاريخ. صحيح أن بين المستشرقين من أنصفوا الحقيقة عندما تبينت لهم، ولكنه صحيح أيضاً أن من بينهم من تحكمت فيهم

نزعاتهم الموروثة وأهواؤهم الشخصية، وأحكامهم المسبقة لما ترسب في وعيهم من ثقافة الغرب المعادي لأمتنا تقليدياً منذ الحروب الصليبية (الفرنجة). بحكم النشأة والتربية، ومناهج التعلم والدراسة، وكتب التاريخ الملفقة في أغلب الأحيان. فالتاريخ عرضة للتغيير والعبث والاختلاق، يكتبه المنتصر عادة، يثبت ما يشاء ويحرف وفقاً لمقتضيات أهوائه ومصالحه.

من الكتب التي عالجت موضوع الاستشراق والمستشرقين كتاب «الاستشراق»، استعرض فيه مؤلفه تاريخ الاستشراق الغربي، ومراحله التطورية. (وقد عمل على تحليل الخطاب الاستشراقي تفكيكاً وتشريحاً وتعويضاً، متأثراً في ذلك بمنهجية «جاك دريدا» و«ميشيل فوكو»، و«أنطونيو غرامشي»، خاصة تاريخ الاستشراق الإنكليزي والفرنسي والأمريكي).[٣]

ومن التعريفات المعتمدة لمعنى الاستشراق وتوجهاته وتاريخه ماهو غربي وما هو مشرقي. من التعريفات الغربية قولهم مثلاً إنَّ (مصطلح الاستشراق ظهر في الغرب منذ قرنين من الزمان، والأمر المتقن هو أنَّ البحث في لغات الشرق وأديانه، وخاصة الإسلام قد ظهر قبل ذلك بكثير وفي رأي arbery أن المدلول الأصل لاصطلاح مستشرق كان في سنة (١٦٣٨م).[٤] ويعرف قاموس أكسفورد المستشرق بأنَّه (من يتبحر في لغات الشرق).[٥]

ويرى إدوارد سعيد الذي يعرف الاستشراق بأنَّه (المجال المعرفي لموضوع الاكتشاف والتعليم والتطبيق. وأنَّ الاستشراق نوع من الإسقاط الغربي على الشرق وإرادة حكم الغرب للشرق).[٦]

اختار الدكتور أحمد عبد المجيد غراب هذا التعريف «دراسات أكاديمية». (يهدف الاستشراق إلى تشويه الإسلام ومحاولة تشكيك المسلمين فيه، وتضليلهم عنه، وفرض التبعية للغرب عليهم، ومحاولة تبرير هذه التبعية بدراسات ونظريات تدعي العلمية والموضوعية وتزعم التفوق العنصري والثقافي للغرب المسيحي على الشرق الإسلامي).[٧]

يقول ديفيد كارتر أنَّ (إدوارد سعيد يرى أنَّ الاستشراق قد خدم أغراض الهيمنة الغربية لإضفاء الشرعية على الإمبريالية، وإقناع سكان هذه المناطق بأنَّ قبولهم للثقافة الغربية هي عملية تمدين إيجابية، ومن خلال تعريف الاستشراق للشرق فإنَّه يعرف أيضاً كيف تصور الغرب نفسه وذلك من خلال المعارضات الثنائية، فالتشديد على الشهوانية والبدائية والاستبدادية في الشرق يؤكد على الصفات الرشيدة والديمقراطية عند الغرب).[٨]

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الاستعمار الفكري هو احتلال العقل نفسه، وهو يبدأ عادة و(أولاً)، بالتشكيك في قدرات الأمة والشعب -أفراداً وجماعات- بنفسها. وهو (ثانياً) إظهار تفوقه عليها حضارياً لكي تتقبل توجهاته ودعاواه وإفكه. ومن شأنه هذه الأفكار أن تتسرب إلى العقل تحت أغطية وغشاوات وتمويهات براقة خادعة، ولا يغفل في هذا الصدد عن تشكيلتها في تراثها وتاريخها وحضارتها، هادفاً إلى إشعارها بالضعف والدونية إزاءه. والمحصلة من ثم هي أن تستجيب لأهوائه ونوازعه، عن وعي أو عن غير وعي، بحيث يقع في روعها أن ما يقع لها وعليها إن هو إلا قضاء وقدر لا راد لهما.

وتحصرنا هنا مقولة (كبلنج) القديمة التي يلخص فيها بعبارة وجيزة الفارق بين المشرق والغرب من وجهة النظر الغربية (الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا).[٩]

ضضات

من المعروف أن الأطراف المتحاربة تلجأ، في العادة، إلى ما ندعوه اليوم بالحرب النفسية. من ثم فإنَّ الكثير من أعمال الغرب ودعاواه التي سلفت الإشارة إليها، تدخل في هذا الباب. ذلك أنَّ الهدف من نسبة تصرفات مشينة إلى قيادات بارزة شهيرة في زمانها إنَّما تهدف إلى دفعنا للإحساس بالنقمة والخجل مما فعل الآباء والأجداد، بما أقاموا بينهم من حروب ضارية تعصباً للقبيلة والعشيرة تارة، وللطائفة والمذهب تارة، بعد انتشار التمذهب ونشوء الطوائف، وهي قضايا لم يكن لها وجود حقيقي، على الصورة التي رسمها لنا أولئك في واقع الحياة المعيشة، لكنه وجد فيها تربة خصبة يزرع فيها النبات السام الذي يرغب في أن نتناوله ونحن في غفلة من أمرنا عن المصدر وعن الجاني.

من هذا القبيل أن عمد الغرب إلى حقب من ذلك التاريخ العربي والإسلامي ليعمل فيه تشريحاً وتحريفاً وتأويلاً، متظاهراً بحيدة الدارس الباحث عن الحقيقة والموضوعية. ومما يؤسف له أن حيله تلك انطلت علينا لزمن غير قصير، بحيث استقرت في الأذهان والوجدان، وأمست كأنها مسلمات لا يرقى إليها الشك، ولايأتيها الباطل من خلفها وبين يديها. وها نحن نشهد ما يجري اليوم من لعب على أوتار الطوائفية في البلد المتعدد الطوائف. وعلى العرق والهوية في البلد المتعدد الأعراق والأجناس والهويات. وكأنموذج عن هذا استغلاله لوقائع معينة حدثت في حقب مختلفة من التاريخ. كالحروب بين الإمام علي ، -رضي الله عنه- ومعاوية والخوارج. وكالمؤامرات في قصور الخلفاء الأمويين والعباسيين والحكام كالمماليك والسلاطين، والمؤامرات

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والدسائس في قصور هؤلاء وبين ردهاتها، بصيغ المبالغة والغرائبية التي بلغت في كثير من الأحيان حدود اللامعقول. ولكنها أمست مع الزمن أيضاً وكأنها حقائق مسلَّمة.

أمَّا تلك الجوانب المشرقة والإبداعية التي اجترحها الشرق -عربياً وإسلامياً- والتي كان من شأنها أنها غيرت مجرى التاريخ الإنساني، حضارة ومدنية وسموّا -بما في ذلك الغرب نفسه- فقد تعمد تجاهلها والتعتيم عليها.

هناك حقيقة لا ينكرها إلا الجاهل أو مكابر أو حاقد، هي أنَّ الحضارة العربية والإسلامية هي التي أسست للحضارة الغربية الراهنة عن طريقين (أولاهما) مراكز الإشعاع الفكر والعلم في أماكن عديدة أوروبية، مثل صقلية والأندلس وجنوب إيطاليا واليونان و(ثانيتهما) ما قدمه العلماء العرب والمسلمون في شتى مناحي العلم وآفاق المعرفة. أليسوا هم الذين تصدوا لنقل تراث أساطين الفلسفة اليونانية من أرسطو وأفلاطون وسقراط وغيرهم؟ وهل ينكر ما قدمه علماء منا أمثال ابن الهيثم، والرازي، والفارابي، وابن سينا، وابن رشد، وغيرهم كثير يضيق بنا المجال عن حصرهم وتعدادهم، ممن كان لهم الفضل الكبير على نشوء الحضارة الغربية المعاصرة بدءاً بعصر النهضة المعروفة بالـ(renaicence). بل إنَّ الغرب ذهب إلى أبعد من ذلك عندما راح ينسب الكثير من هذه المنجزات إلى نفسه زوراً وبهتاناً. لقد نسب -على سبيل المثال- اكتشاف الدورة الدموية الصغرى إلى العالم (وليام هارفي)، في حين تمَّ اكتشافها من قبل ذلك بكثير من قبل العالم العربي (ابن النفيس)، فيما ذهب إلى نسبة علم البصريات إليه، (أي الغرب) متجاهلاً العالم ابن الهيثم، والطب لابن سينا.. وهكذا..

أيّاً ما كان الأمر فليس لنا أن نغفل حقيقة أن بعض المستشرقين والمفكرين الغربيين اعترفوا بفضل الشرق العربي الإسلامي على الحضارة الغربية. لقد كان لدى هذا البعض من يقظة الضمير ما دفعه إلى قول الحقيقة عندما وقع عليها. بل إنَّ منهم من دخل في الإسلام إثر ذلك. من هؤلاء، على سبيل المثال: العالم روجيه جارودي الفرنسي[10] وله العديد من الكتب ذات الأهمية التي لا يمكن إنكارها منها: (الإسلام دين المستقبل) عام ١٩٨٥م و(نداء إلى الأحياء) عام ١٩٨١م، ولماذا أسلمت عام ١٩٨٦م..إلخ.

وهناك العالمة الألمانية زيغريد هونكه[11] ولها أكثر من كتاب في هذا الشأن أهمها كتابها (شمس العرب تشرق على الغرب)، تناولت فيه التاريخ الإسلامي وتأثير المسلمين في الحضارة الغربية، معددة اختراعاتهم

وإنجازاتهم في سائر حقول المعرفة والعلوم الإنسانية.

صحيح أن القوم تجاوزوا، منذ عصر النهضة الأوروبية في القرن السادس عشر وما بعده، منجزات حضارتنا، بعد أن بنوا عليها وتوصلوا إلى سائر المعارف والعلوم التي يعيشها العالم اليوم. ما كان في وسعنا مجاراتهم فيها لأسباب منها:

١- ظروف سادت الشرق عامة، والعرب والمسلمين خاصة، كان من شأنها التخلف عن ركب المدنية.

٢- سيادة الاستعمار المتعددة المصادر بدءاً من (العثماني) الذي استمر زهاء أربعة قرون متتالية. تبعه الاستعمار البريطاني والفرنسي، ومؤخراً الأمريكي.

ولقد سعى هؤلاء جميعاً، وعلى الدوام، إلى إبقائنا على حال من التأخر والتخلف، زاعمين أن مبدأ الحضارة الإنسانية ومنتهاها إنما كان في الغرب.

إمعاناً في الإنكار والتنكر -توطئة لغسل الأدمغة، من ثم ملئها بالأباطيل -يصرون على أن منشأ الحضارة على الأرض حدث في اليونان عند الإغريق، ثم عند الرومان في إيطاليا. ثم وبقفزة واحدة فإذا بهم في عصر النهضة الأوروبية، متجاهلين عمداً قروناً من تاريخ البشر سادت فيها حضارات مشرقية استمدت الحضارة الأوروبية نسغها من جذورها الضاربة في أعماق التاريخ البشري، من الفرعونية والبابلية والكنعانية والأكادية إلى العربية.

كيف يتفق هذا مع أي منطق..؟ كيف لأوروبة أن تنهض فجأة من الفراغ، في عصر النهضة إياه، مغفلة فجوة زمنية هائلة بينها وبين ما سبقها..؟ كيف يمكنها (تجسير) هذه الفجوة..؟ ألم يكن العرب -كما أسلفنا- هم الذين ترجموا ونقلوا عن سقراط وأفلاطون وأرسطو و و..إلخ، ثم أضافوا إلى ما نقلوه ما أبدعته قرائحهم لتنطلق، من ثم حضارة تمتد بمعطياتها وإنجازاتها حتى يوم الناس هذا؟!..

لقد حدث هذا في وقت سادت فيه -باعتراف المنصفين منهم- في أوروبة حجب الظلام والجهل في القرون الوسطى. حتى إنهم كانوا قبل ذلك يخشون الإبحار في المحيطات لاعتقادهم، بأنها موطن الشياطين، وقد سادت يومئذ مقولة (بحر الظلمات) عن المحيط الأطلسي.!

يعمل المنظرون للاستعمار الجديد، (احتلال العقل لتوجيه الفكر)، أن يدخلوا في روع الشعوب المستهدفة أن الغربيين جبلوا من طينة خاصة متميزة غير تلك التي صنع منها سائر البشر، مما ولَّد لديهم (عقدة التميز والتفوق)، التي تتبدى في ظواهر الممارسات العنصرية المتغطرسة المتعالية

على الآخرين والتمييز بين الناس على أسس ومعايير عجيبة وسقيمة (كلون البشرة أبيض وأسود وأصفر)، وفي هذه وحدها ما يدين الحضارة الغربية ويدحض دعاواها الكاذبة حول (الحرية، والديمقراطية، والمساواة).

لقد نصّب الغرب -نتيجة لهذا كله- من نفسه مصدراً للحكم على الآخرين وتقييمهم. وهو يتناسى مثالبه وخطاياه وسلبياته التي سادت مجتمعاته نفسها حقباً طويلة من التاريخ، ولم تكن أقلها شأناً حروبه الدينية بين الكنيسة البابوية والدعوات الناقدة والمعارضة مثل حركتي كلفن ومارتن لورثر وغيرها، وحروب المئة سنة، والأرمادا، وسائرها بين الأوروبيين أنفسهم، وفي العصر الحديث حروب نابليون والحربين العالميتين الأولى والثانية وقد بلغ عدد ضحاياها ما ينوف على الخمسين مليوناً في كل منهما.

لقد أسفر ذلك كله عن فشل ذريع منيت به توجهات الغرب نحو الآخرين مما أفضى إلى ما أصبحت عليه اليوم صورة العالم المعاصر، بعد أن غدت أمريكا الوريث (الشرعي) للاستعمار القديم، ورائدة الاستعمار الحديث، تسيرها نظريات عجيبة وشريرة، في الوقت عينه، لمفكرين تميزوا بالفكر المنحرف عن جادة الحق والعدل والتساوي بين البشر. الأمثلة هنا أكثر من أن تحصى. من أبرز روّادها على سبيل المثال (صموئيل هنتغتون) ونظريته الشهيرة حول (صراع الحضارات)، و(فوكوياما) حول نظرية (نهاية التاريخ)، وآخرين أمثال (برنار لويس)، و(دونالد رامسفيلد)، و(ريتشارد بيرل)، و(بول ولفتز)، و(ديك تشيني)، و(جورج بوش الأب والابن)، و(جون ماكين) و(بولتون). و(كونداليزا رايس)، وعدد من الحاخامات اليهود في ردهات البيت (الأبيض). والخارجية الأمريكية، والكابيتول مقر الكونجرس الأمريكي الذي ينصّب نفسه حاكماً على العالم، يقرر مصائر البشر والدول، كأنه الوصيّ المشرع والشرطي العالمي المنفّذ للقرارات والأحكام التي منح نفسه حق إصدارها وتقريرها.

ما أحسبنا نذهب بعيداً إذا ما قلنا أن من أسباب ما يسود مجتمعاتنا في المشرق من أوضاع مؤسفة على كل صعيد ما هو إلاَّ نتاج حقبة طويلة من التسليم للغرب بأنَّه السيد في هذا العالم. ولقد زاد هذه الحالة تفاقماً طوفان إعلام مغرض، ولكنه مقتدر، تتحكم فيه جهات نافذة علنية وخفية، على رأسها الصهيونية العالمية بفروعها ومؤسساتها وأجهزتها المختلفة كالماسونية، والروتارية، و... وما خفي أعظم.

هؤلاء هم سدنة الفكر السياسي الأمريكي الراهن، الموجهون لسياساتها الدولية، لمواصلة المهمة إياها (الهيمنة على العقول) والأفكار

لسائر البشر، لتحقيق الهدف الاستعماري الأزلي نفسه لصالح أمريكا و(إسرائيل) ولايتها الثالثة والخمسين. وهناك أسماء غير مَنْ ذُكر تؤثر الابتعاد عن الأضواء، إذ إن همها ليس الظهور بل خدمة الهدف المنشود والمبتغى. هؤلاء شعارهم (نريد العنب وليس الناطور). اكتشاف هذه الحقائق من قبل النخبة الواعية المخلصة من أبناء الأمة، وانكشاف الجناة المخططين لخراب العالم - العربي والإسلامي العقلاني - كفيل بالخلاص من أوزار هذا المرض المستشري - احتلال العقول - على أيدي المقاومين المتصدين لمخططاتهم ومؤامراتهم، لتحل في نهاية المطاف، في وطننا العربي، والعالم كله، سيادة الحرية الحقة، والديمقراطية السليمة، والمساواة التامة بين البشر، بمعنى تكريس هذه القيم الحقيقية، وليس الزائفة.

قد يخطر على البال، بالتداعي، السؤال التالي:

أي النوعين من الاحتلال، المنوه عنهما، هو الأشد خطراً، والأبعد أثراً على الجهة المستهدفة..؟

قد يبدو للوهلة الأولى أنهما متساويان في آثارهما المدمرة من حيث النتيجة، على الرغم من اختلاف المظهر والأسلوب والظروف المحيطة بكل منهما، غير أن احتلال العقل هو -على الرغم من كل شيء- الأبعد أثراً على المدى البعيد، نظراً لخفائه وصعوبة الوعي عليه ومن ثم التنبه، والتصدي له. وهما مترابطان عضوياً بسبب وحدة الهدف والغاية لدى المحتل لأنَّه هو نفسه في الحالتين.

الاحتلال التقليدي المباشر صنع التجزئة وأقام الكيانات التي تحقق مصالحه، فهو الذي وضع الحدود عن طريق معاهدات وممارسات فرضها على المنطقة فرضاً، منها سايكس -بيكو، ووعد بلفور، وإيجاد الكيان الصهيوني (كدولة) قوية قادرة أدى وجودها بين ظهرانينا إلى ما نشهده ونعيشه اليوم على مدى الساحة العربية كلها.

لقد عمدت قوى الاحتلال (الاستعمار) الغربي لبلادنا إلى خطة جهنمية تبقي لها السيطرة (ولو خفيّة غير علنية) على المنطقة بحيث يمكنها دائماً إخضاعها لتحقيق أهدافها ومراميها، وقد اعتمد المحتل في هذا على وكلاء وأعوان له، ينوبون عنه في حكم شعوبهم، يعملون لمصلحته، وينفذون مخططاته على سائر الصعد في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسة لقاء مكتسبات مادية ومعنوية، أهمها كراسي الحكم ومواقع السلطة.

عن طريق هؤلاء: ١- أقام الكيان الصهيوني وعزّز وجوده، على النحو الذي نراه بأم أعيننا اليوم.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٢- أوقف التنمية والنمو وحال (لاسيما بوجود إسرائيل هذه) بين هذه البلاد العربية وبين التطور ومواكبة الركب العالمي نحو الأفضل والأجدى والأكرم.

٣- واصل تحكمه واستغلاله للثروات التي تزخر بها من النفط ومشتقاته وغيره من المعادن والكنوز والتراث، التي قل مثيلها في العالم كله.

٤) التحكم في أهم بقعة في العالم تتحكم بموقعها الجغرافي بين القارات في أهم طرق المواصلات العالمية بين سائر قارات المعمورة.

التحكم في المصائر، سواء مصائر الشعب العربي في أقطاره المختلفة، أو في مصائر من نصبهم وكلاء عنه، وما ظاهرة (الربيع العربي) -المهزلة وما حدث لعديد منهم سوى الشاهد الحي على ذلك.

لقد سخر الغرب وسدنته -وهم الرأسماليون والصهيونية العالمية- الثقافة والفكر لاحتلال العقل العربي، عن طريق أولئك الحكام، الذين مرروا مخططاته المؤثرة والفاعلة في مناهج التعليم والتربية والثقافة المجتمعية عامة لكي تنشأ أجيال مغيبة الوعي جاهلة بحقائق الأمور، فمنها ما وقع في شرك الانبهار بالغرب بمساوئه وسلبياته أكثر من تأثره بإيجابياته، ومنها ما وقع تحت تأثيره الخفي، بإحساسه بالدونية إزاء كل ما هو أجنبي عنه، وكأنه يربي فيه (عقد النقص والقصور الذاتي)..

ناهيك عن نشره -بفضل ما وصلت إليه علوم الاتصال والتواصل الاجتماعية والوسائل المستخدمة في التوصيل والوصول إلى كل كائن على ظهر الأرض، من فضائيات وإنترنت وكمبيوتر ومشتقاتها وأخواتها، الهائلة التأثير، القادرة على (غسل الأدمغة والعقول) على النحو الذي نشهده اليوم.

أجل، لم يرحل الاستعمار بجيوشه عن ديارنا قبل أن يزرع في حدائقنا الشوك والحنظل، لكي تؤتي هذه ثمارها فيما بعد، مهيئة له المناخ والأجواء والظروف التي تمكنه من الوصول إلى أهدافه الإجرامية الاستغلالية الحرام.

إذن، السبيل إلى مواجهة هذا كله يتمثل في:

١-التصدي للغزوة الاستعمارية الغربية القائمة الآن على قدم وساق، من ناحية الفكر والثقافة والتعليم بإقامة الندوات والمؤتمرات التثقيفية التوعوية على نطاق واسع وشامل، على مدى الساحة العربية، موجهة للشعوب العربية في كافة أقطارها،

لكشف مخططات الأعـداء هؤلاء، وإحلال الوعي السليم والفكر المبدع والمنتج والمعافى في العقول.

٢-مواصلـة النهـج المقـاوم لـوكلاء الاستعمـار وأعوانه وأدواتـه بشتى صوره، بعـد أن تكشفت الحقائـق، وظهرت النوايا الخفيـة والممارسات الفعليـة على الأرض. ولعل هذا مما يسهل المهمة إلى حد كبير في قـادم الأيام. ولعله أيضـاً من قبيل (الحظ الحسن) و(رب ضارة نافعة) على الرغم من كل شيء. فمعرفـة المرض وتشخيص الداء هي الوسيلة الوحيدة للشفاء منه..

المرحلـة الراهنة في رأيـي هي المخاض الحقيقي الذي، مهما كانت ولادته متعسرة، إلا أنها سوف تسفر عن ولادة سليمة معافاة، يصنع مواليدها الأقوياء مستقبلهم المعافى ووطنهم العربي السليم المنتصر.

لتحـلَّ نهايـة أسطـورة (القطـب المهيمن الأوحد) علـى العالم المعاصر. مـن ديار الشام، دمشق وبيـت المقدس، وأنصارهمـا. من هذه الديار تشرق أنوار الفجر الآتي وهو غير بعيد.

الهوامش

١- كونور كلاوس: كتاب نظريات الاستعمار البريطاني.

٢- يوبخ روبرت: كتاب (مابعد الاستعمار) مقدمة تاريخية.

٣- إدوارد سعيد كتاب (الاستشراق) -ترجمة كمال أبو ديب ص٣٨.

٤- ج.أربري: كتاب (المستشرقون البريطانيون) لندن- ولام كولنز ص٨.

٥- المصدر نفسه ص٨،

٦- المصدر نفسه ص٩٢.

٧- أحمد عبد المجيد غزال (رؤية إسلامية للاستشراق- بيرمنجهام) ص٧.

٨- ديفيد كارتر (النظرية الأدبية) ص٢٦.

٩- كبلينج: (روديارد كبلنج -الشاعر البريطاني.

١٠- د.روجيه جارودي -فيلسوف فرنسي- توفي عام٢٠١٢م.

١١- د.زيغريد هونكه- مستشرقة ألمانية توفيت عام١٩٩٩م.

دراسة النجوم

المهندس فايز فوق العادة *

تحتشد النجوم في مجموعات وزمر مكونة المجرات.

نتطرق فيما يلي إلى الأسس المعيارية المعتمدة في دراسة النجوم يختزل الفلكيون دراساتهم للنجوم فيما يُعرف في أدبيات علم الفلك بمخطط هرتز برونغ- راسل نسبة للفلكيين اللذين أبدعاه للمرة الأولى.



يُمثل النجم على هذا المخطط بنقطة تُحدد بإحداثيتين هما درجة حرارة سطح النجم وسطوع النجم. نجد في هذا المخطط حزاماً ضيقاً يقطعه من أعلى نقطة في يساره إلى أخفض نقطة في يمينه يضم النقاط الممثلة لمعظم النجوم ويدعى السلسلة الرئيسية.

تتغير مواقع النقاط الممثلة للنجوم أثناء

* رئيس الجمعية الكونية السورية.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

فترات حياتها المختلفة وتغادر هذا الحزام عند تقدم النجوم بالسن.

يوجد نوعان رئيسيان من الحشود النجمية: الحشود النجمية الكروية والحشود النجمية المفتوحة. يضم الحشد النجمي الكروي عدة مئات من آلاف النجوم ويتشكل في هيئة كرة هائلة. تتوزع الحشود النجمية الكروية في هالة واسعة حول مجرة درب التبانة التي تنتمي إليها الشمس. يتراوح عدد النجوم في التجمع النجمي المفتوح بين مئات إلى آلاف عدة. تكثر الحشود النجمية المفتوحة في المستوى الرئيسي لمجرة درب التبانة ذات الهيئة اللولبية والتي يصل تعداد النجوم فيها إلى أربعمئة ألف مليون نجم. تمتد مجرة درب التبانة حوالى مئة ألف سنة ضوئية في الفضاء. السنة الضوئية وحدة لقياس المسافات الكونية تساوي المسافة التي يقطعها الضوء في سنة زمنية كاملة مرتحلاً بسرعته المعهودة ثلاثمئة ألف كيلو متر في الثانية.

تكافئ السنة الضوئية حوالى عشرة مليون مليون كيلو متر. هكذا إذا ذكرنا على سبيل المثال وليس الحصر أن نجماً يبعد عن الشمس مئة سنة ضوئية فيعني ذلك أن الضوء استغرق في رحلته من النجم إلى تخوم الشمس مئة سنة زمنية وأننا إذا رصدنا النجم فإنما نقع على حاله كما كان قبل مئة سنة.

يقسّم الفلكيون النجوم حسب وفرة العناصر الثقيلة فيها. تضم الجمهرة من النوع الأول نجوماً فيها نسب لا بأس بها من العناصر الثقيلة. إنَّ نجوم الحشد المفتوح هي من هذه الجمهرة.

أمَّا الجمهرة من النوع الثاني فتتميز بنسب بالغة الضآلة من العناصر الثقيلة. تصنف نجوم الحشود الكروية في هذه الجمهرة. يضيف بعض الفلكيين جمهرة ثالثة من النجوم تنعدم فيها العناصر الثقيلة بشكل كامل. لم تقع الأرصاد حتى الآن على نجم من هذه الجمهرة. لربما أنَّ نجوم هذه الجمهرة هي النجوم الأولى بالغة القدم التي شهدها الكون. يُعرّف الفلكيون الحشد النجمي المعياري بأنَّه ذلك الحشد الذي نستطيع حساب بعده عنا بدقة جيدة وبوسائل مختلفة. من تلك الوسائل مثلاً قياس الزاوية التي يُرى ضمنها الحشد المعياري في فترات زمنية متتالية قد تمتد لعدة عقود ولأكثر من قرن.

تمَّ تحديد بعد الحشد المفتوح هياديس وتبين أنَّ هذا البعد يكافئ ١٤٠سنة ضوئية. تتحول مشكلة تحديد أبعاد الحشود المفتوحة الأخرى إلى مسألة مقارنة بسيطة فما على الفلكي إلاَّ أن يزلق حزام نجوم السلسلة

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

الرئيسيــة من حشــد مجهــول البعد على المخطط المقابل لنجــوم السلسلة الرئيسية في حشــد هياديســ إلى أن ينطبــق حزاما السلسلتين الرئيسيتين في المخططين.

يعطي مقدار الانزلاق الضروري في هذه الحالة البعــد المطلوب للحشد بدلالة البعد المعروف لحشد هياديســ. يطبق الفلكيون في دراســة الحشود النجمية خاصة الكروية منهــا القانون الثاني للحركة الحرارية الذي ينصــ على أن تحول الطاقة من شكل لآخر لا يمكــن أن يتــم من دون إنتــاج طاقة غير منظمة فوضوية لاجدوى منها.

يتصور الفلكيون النجوم باعتبارها ذرات غازية عند تطبيق القانون. يُعزى دوران أي جسم كــوني حول نفسه إلى تنــازع قانونين كونيــين أساسيين. الأوّل هــو القانون الذي أتينا علــى ذكره للتو والذي يسعى إلى بعثرة الموجــودات الكونية في شتــاتٍ واسع تنعدم الروابط بين مكوناته بشكل كامل.

أمّــا القانون الثاني فهــو قانون الجذب الثقــالي. وفق هــذا القانون تتجــاذب كل الأجســام الكونيــة فيما بينهــا مهما كانت طبيعتها حيث يحاول القانون ضمّ الأجسام المذكورة ودمجها في تكتل واحد.

ومــن النجوم، ننتقــل إلى أشباه النجوم التي تُعــرف بالكــوازارات. إنَّ الكوازار هو جسم كوني يبدو على لوحات التصوير أشبه بنجــم عادي في حــين أنَّ الخصائص التي يمتلكهــا تجعــل إمكان تصنيفــه كنجم من الأمور المستحيلة.

إنَّ كلمــة الكــوازار كلمــة مختزلــة من عبارة أجنبية تعنــي المصادر الراديوية شبه النجميــة. يُطلق الكــوازار أثناء حياته التي تتجاوز ملايين عــدة من السنوات كمية من الطاقة تكافئ مــا تطلقه مجرة تضم مئات عــدة من آلاف ملايين النجــوم. تشير هذه الحقيقــة إلى أنَّ كتلة الكــوازار قد تتجاوز آلاف ملايين المــرات كتلة الشمس، بينما لا يشغــل الكوازار من الفضاء إلاَّ حيزاً صغيراً يُقارن بحجم فضاء المنظومة الشمسية.

يتســاءل العلماء عن الآليــة التي تدفع بالجسيمات في الكــوازار إلى التسارع حتى سرعة قريبة من سرعة الضوء تقريباً، وأولاً وقبــل كل شيء يحيرهم مصدر هذه الطاقة الهائلة التي تتدفق من الكوازار. واقع الأمر إنــه لا توجد إجابة حاسمــة حتى الآن عن هذين التساؤلين المرتبطين ببعضهما.

على الرغم ممــا تقدّم، نتطرق فيمايلي إلى بعضــ الآراء التــي تتنــاول ظاهــرة الكــوازارات الملغــزة. هل يُمكــن أن تكون الكــوازارات متجددات جبارة أو ربما هائلة الجبروت تحدث في أعقاب الانهيار الثقالي لنجوم بالغة الكثافة والتكدس.

المتجــدد الجبــار كما يعرفــه الفلكيون

هــو نجم كبير الكتلة دخل الطور الأخير من حياته فانفجر وتمزق مضيئاً المجرة التي ينتمــي إليها بما يتجــاوز إضاءة كل النجوم الأخرى في تلك المجرة مجتمعة.

يُخلق المتجــدد الجبار موجودات ضغط هائلة هي المسؤولة عــن دمج نوى العناصر الخفيفــة لتكويــن نــوى العناصــر الثقيلة التي تقع بعد الحديــد في الجدول الدوري للعناصر. لاحــظ الفلكيون في أواخر القرن التاسع عشر انفجاراً متجدداً جباراً في مجرة الأندروميدا التــي تقع على مسافة مليونين ومئتــي ألف سنــة ضوئية عــن مجرة درب التبانة.

كان الانفجار يعــادل إضاءة ألف مليون شمــس ولو حــدث في مجــرة درب التبانة لأضــاء المتجدد الجبار ليــل كوكب الأرض لمئات عــدة من آلاف السنوات. تندفع مجرة درب التبانــة ومجــرة المــرأة المسلسلة نحو بعضها بسرعة ثلاثمئة كيلو متر في الثانية. تصطدم المجرتــان بعد حوالى خمسة آلاف مليون سنة.

مــاذا لو كانت ثقوب ســوداء جبارة هي المسؤولة عمَّا نراه من تصرفات الكوازارات؟ الثقــب الأسود ميتة متفــردة لنجم عظيم الكتلــة تتميــز بتجمع كتلــة النجم في حيز بالغ الضآلة. .تتغلب في هذه الحالة أضعف القوى الكونية وهي قوة الجذب الثقالي على باقي القــوى الكونية الأخــرى ولاتجد أية مقاومــة في رص بقايا النجــم ضمن نقطة نظرية هي النقطة المتفردة. تتحول المادة في باطن الثقب الأسود إلى أشكال بالغة الغرابة ويفقد المكان أي تعريف ممكن له أمَّا الزمان فيتوقف تماماً عن الجريان.

وفق الأبحاث المتأخرة، إن من يدلف إلى الثقب الأسود إن قُدِّرَ له النجاة من قوة المد الثقالي الهائلة، يــبرز من طرف آخر للثقب في الماضــي أو في المستقبــل. علــى مسافة بعيدة من الثقب، تتصــرف المادة تصرفات عنيفــة بسبب الدوامــات المحيطة بالثقب. إن مــن يسقط في الثقب الأســود، ينفصل عن الكون وتستحيل عودته إلى الكون. يرى المرتحل إلى باطن الثقب الأسود الكونَ وقد اندثر وانتهى. هل يُمكن أن يقبع ثقب أسود في الكوازار.

أوليــس من الممكــن أن يفضــي دوران عدد كبير جداً من النجــوم النيوترونية إلى مجــال مغنطيسي بالغ الشــدة يُسرّع بدوره الجسيمات الصغيرة في الكوازار. ومثل فعل النجوم النيوترونية الكثــيرة، يستطيع اللف الذاتي السريع لجسم كبــير أن يخلق مجالاً مغنطيسياً مشابهاً.

أمَّا النجم النيوتروني، فكما يدل الاسم، يتكون بأكمله مــن نيوترونات مكتظة ويدور حول نفسه بسرعــات كبيرة مطلقاً ومضات

من الطاقة الكهرومغنطيسية بالغة الانتظام. إنَّ للنجم النيوتروني مجال جذب ثقالي كبير ولايستطيـــع أي جسم الإفـــلات منه إلاّ إذا اكتسب بسرعة ابتدائيـــة قدرها مئتي ألف كيلـــو متر في الثانيـــة. لايتجاوز قطر النجم النيوتروني عشـــرات قليلة من الكيلو مترات واكتشف للمـــرة الأولى عام ١٩٦٨م على يد الفلكيـــة جوسلين بيل التـــي حسبت للوهلة الأولى أنهـــا وقعـــت على إشـــارات راديوية قادمة من حضارات كونية بالغة التقدم.

نذكـــر للمقارنة، أن الإفلات من الجذب الثقالي للأرض يلزمه سرعة ابتدائية قدرها ١١،٢ كيلـــو مـــتر في الثانيـــة. لا نستبعد أن يكون الكوازار نواة مجرة شديدة الاكتظاظ، وإن اصطـــدام النجوم بعضها ببعض نتيجة الازدحـــام النجومـــي الشديد هـــو السبب الرئيسي في نشـــاط الكوازار. نشير هنا إلى أن اصطـــدام النجوم في الكـــون أمر ضئيل الاحتمال جداً وأن تحققه وفق هذا الفرض يخلق الحالة الاستثنائية للكوازار.

تصنـــف الكوازارات وفق هـــذا الفرض ضمن ما يعرف بالنـــوى الفعالة للمجرات. نجد في قائمة هذه النوى مايدعوه الفلكيون مجرات (سيفرت) والمجرات الراديوية التي تتميز بإصـــدار كهرومغنطيســـي شديد في القطاع الراديوي وكذلك (البلازارات) التي يطـــال إصدارهـــا تغيرات سريعـــة وشديدة والكـــوازارات المحاطة بسحب بالغة الكثافة من الغبار والمجرات التـــي تتميز بانبثاقات نجومية شديدة وسواها.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الهوامش

1- Carroll and Ostlie: An Introduction to Modern Astrophysics: (2007): Addison-Wesley.

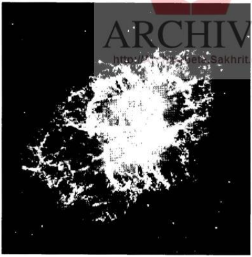
2- Munch-Mampaso- Sancheg (editors): The Univese at Large: (1997): Cambrige University Press.

3- Stmman: Mysteries of The Universe: (1978): Aldus Books London.

4- Sagan: Cosmos (1980): Random House.

الانفجارات النجمية الكبيرة
أو «السوبرنوفا»

✪ موسى ديب الخوري



يظهر فجأة في السماء ضوء ساطع، فنعرف أنَّ نجماً مات متفجراً ومطلقاً طاقة هائلة. إنَّ هذه الانفجارات الأخيرة للنجوم تطلق العناصر الكيميائية في الكون بعد أن يكون النجم قد صنعها. أمَّا ضوؤها فهو ثمين جداً من أجل سبر الكون البعيد.

✪ باحث وعضو الجمعية الكونية السورية.

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

ما هي السوبرنوفا، أو المتجدد الجبار؟

في الثلاثينيات من القرن الماضي اخترعت هذه التسمية من قبل فلكيين مهاجرين إلى الولايات المتحدة، والترباد Walter Baade وفريتز زويكي Fritz Zwicky. كان العلماء يعرفون في ذلك الوقت وجود «متجددات»، وكانت تعتبر عبارة عن أحداث فلكية فائقة الغموض حيث يظهر نجم فجأة في السماء ثم يختفي. وكان الفلكي الدانمركي تيخو براهي Tycho Brahe هو من أشار إلى هذه الظاهرة منذ القرن السادس عشر معتقداً أنه رأى فيها ولادة نجم جديد (نوفا ستيلا novae stellae أي نجوم جديدة). غير أن رصد مثل هذا السطوع المفاجئ في مجرات أخرى غير مجرتنا، على بعد عدة مئات ملايين بل وعدة مليارات السنوات الضوئية، جعل كلا من والتر باد وفريتز زويكي يعتقدان بأنّ الأمر يجب أن يتعلق بظهورات ذات طاقة فائقة بحيث يمكن رؤيتها على مسافات بعيدة. ومن هنا جاء المصطلح الجديد «سوبرنوفا supernova أو المتجدد الجبار»، ليصف ظاهرة انتقالية فائقة السطوع. واقترح الفلكيان في ذلك الوقت آلية يمكن أن تنتج مثل هذا الحدث، وهي عبارة عن انفجار نجم في نهاية حياته. لكن قلة من الفيزيائيين أخذوا كلامهما على محمل الجد آنذاك. لكنهما كانا قد أصابا شيئاً من الحقيقة في رؤيتهما تلك. فالسوبرنوفا هي فعلاً موت نجم بشكل انفجاري. لأن هذه الكرات الغازية، أي النجوم، ليست كرات دائمة أو خالدة. بل هي تحترق كما نعلم بالاندماج النووي لعناصرها (الهيدروجين والهليوم، إلخ.) على مدى حياتها وتموت عندما تستنفد مخزونها من هذه العناصر، بعد حياة قد تدوم بضعة ملايين سنة أو قد تمتد مليارات السنوات.

غير أن النجوم لا تنتهي كلها في حالة انفجار كمتجدد جبار. فالانفجارات الكبيرة لا تحدث إلا بالنسبة للنجوم الأكبر التي تزيد كتلتها عن ثمانية أضعاف كتلة الشمس على الأقل. كذلك هناك حالات خاصة من النجوم تسمى الأقزام البيضاء، وهي نجوم أقل كتلة بكثير لكنها تكون قد امتصت الكثير من المادة خلال حياتها.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

منذ متى بدأ رصد هذه المتجددات الجبارة؟

إنَّ الطاقة الهائلة التي تحررها السوبرنوفا يمكن أن تجعلها مرئية أحياناً بالعين المجردة، حتى في وضح النهار عندما تنفجر في مجرتنا درب التبانة. ولهذا فقد تمَّ رصدها مرات عدة من قبل فلكيين قدماء، من دون أن يعرفوا طبعاً أنها نجوم تنفجر. وأقدم ظهور مسجل في التاريخ يمكن أن يكون عبارة عن سوبرنوفا يرجع إلى عام ١٨٥ للميلاد في الصين. وقد سجل الحدث في كتاب الهان Han (إحدى السلالات الحاكمة) ويسمى هو هانشو Hou Hanshu.

وقد رُصد هذا النجم الجديد على مدى ثمانية أشهر على الأقل، وربما عشرين شهراً، وفقاً لتفسير الكتابة القديمة. وقد سُجلت أحداث مماثلة يمكن أن تكون لسوبرنوفا أيضاً وكلها في الصين في الأعوام ٣٦٩ و٣٨٦ و٣٩٣.

أمَّا أوَّل سوبرنوفا معروفة بشكل مؤكد فقد ظهرت في سماء عام ١٠٠٦، وشوهدت في كل من آسيا والشرق الأوسط وأوروبة. وعثر على تسجيل لها في وقائع ديري سانت غال Saint-Gall في سويسرا وبنيفانتو Benevento في إيطاليا، ويبدو أنَّ هذه السوبرنوفا ظلت تشع على مدى ثلاث سنوات.

وهناك سوبرنوفا أخرى انفجرت عام ١٠٥٤م ولا تزال بقاياها مرئية حتى اليوم: إنها سديم العقرب في برج الثور، على بعد ٣٠٠ سنة ضوئية عن الأرض. أمَّا السوبرنوفا التاليات فقد حدثت في عام ١١٨١م و١٥٧٢م و١٦٠٤م. وقد رصد الفلكي الدانمركي تيخو براهيه سوبرنوفا عام ١٥٧٢م في حين درس يوهان كبلر Johannes Kepler سوبرنوفا عام ١٦٠٤م. وهي آخر سوبرنوفا تسجل في مجرتنا.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

سوبرنوفا شهيرة

أصبحت السوبرنوفا SN ١٩٨٧ A من السوبرنوفات الشهيرة كونها لا تزال حتى اليوم آخر سوبرنوفا تمَّ رصدها بالعين المجردة من الأرض، كما لا تزال واحدة من السوبرنوفات المرجعية للدراسات بعد أن رصدت في ٢٣ شباط من عام ١٩٨٧م في سحابة ماجلان الكبرى، وكانت أوَّل سوبرنوفا يتم رصدها منذ القرن السابع

عشر، فأثارت اهتمام العلماء والراصدين والباحثين على حد سواء.

وفي عام ١٠٥٤م رصد الصينيون واليابانيون سوبرنوفا ظهرت في برج الثور، وكان سطوعها كثيفاً إلى درجة أن النجم كان يرى في كبد النهار طيلة أسابيع عدة. وعلى الرغم من أنَّه كان يبعد ٧٠٠٠ سنة ضوئية، لكن سطوعه كان أشد من سطوع الزهرة، وكان ألمع نجوم السماء بعد القمر، ونحن نعرف اليوم هذا الانفجار باسم سديم العقرب (M1).

وفي عام ١٥٧٢ رصد تيخو براهيه انفجار نجم في ذات الكرسي، ونشر في إثر ذلك كتابه «في النجم الجديد De Nova Stella». وفي عام ١٦٠٤م رصد كبلر سوبرنوفا في كوكبة الحواء وكانت آخر سوبرنوفا يتم رصدها في مجرتنا. وقد استفاد منها غاليليو غاليليه للرد على المقولة الأرسطية التي كانت سائدة في ذلك الوقت ووفقها فإنَّ الفردوس والسماء لا يتغيران ولا تحدث فيهما أحداث جديدة!

وفيما يلي جدول بالسوبرنوفا التي رصدت بالعين المجردة:

مكان الرصد	المدة (بالشهور)	السطوع	التاريخ	المكان في السماء
الصين	٢٠	-٨	١٨٥	القنطور
الصين	٨	-١	٣٩٣	برج العقرب
الصين واليابان	٢٤	-٧,٥	١٠٠٦	كوكبة الذئب
الصين واليابان	٢٢	-٥	١٠٥٤	برج الثور
الصين واليابان	٦	٠	١١٨١	ذات الكرسي
الصين وكوريا وأوروبا	١٨	-٤	١٥٧٢	ذات الكرسي
الصين وكوريا وأوروبا	١٢	-٢	١٦٠٤	الحواء
نصف الكرة الجنوبي	١	٦	١٩٨٧	كوكبة الشبوط

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كم عدد السوبرنوفا التي نعرفها اليوم؟

نجد اليوم على الإنترنت فهارس تضم آلاف السوبرنوفا. مثل فهرس المكتب المركزي للبرقيات الفلكية Bureau central des télégrammes astronomiques، في مركز علم الفيزياء الفلكية في هارفرد. سميثونيان Harvard-Smithsonian في كامبريدج في الولايات المتحدة. أو كما في الشبكة الدولية للسوبرنوفا Supernova l'International

Network٢. وهذا المكتب هو الذي يسميها وفقاً لترتيب ظهورها في السنة (مثل SN٢٠٠٨A و SN٢٠٠٨B، إلخ.) حيث تشير SN إلى سوبرنوفا، ثم تلي السنة ٢٠٠٨، ثم أحد الحروف الأبجدية اللاتينية للإشارة إلى ترتيب ظهورها خلال السنة من A إلى Z، ثم aa، ab، ac، إلخ.

في عام ٢٠٠٨م، اكتشفت ٢٥٤ سوبرنوفا جديدة. وهكذا سميت الأخيرة بينها SN٢٠٠٨it. وإن كانت السوبرنوفا تكتشف في البداية صدفة كلما وقع فلكي على إحداها، فإنَّه توجد اليوم برامج لرصدها والبحث عنها. إنَّ أهمية السوبرنوفا بالنسبة لفهم الكون جعل منها هدفاً لعدة برامج بحث مثل Supernova Sloan Digital Sky Survey في مرصد Apache Point في نيومكسيكو، أو Supernova Legacy Survey في مرصد كندا فرانس هاواي CFHT في هاواي، والذي انتهى إعداده منذ نحو سنتين. وترتكز برامج البحث هذه على أرصاد مستمرة لقطاعات واسعة من السماء (درجة مربعة، أي أربعة أضعاف مساحة القمر الظاهرية تقريباً، بالنسبة لـ CFHT على سبيل المثال) وذلك في قطاعات عدة من طول الموجة، ترافقها قياسات طيفية تتم على أكبر التلسكوبات.

هل تشع كافة السوبرنوفا بالطريقة نفسها؟

صنفت السوبرنوفا تاريخياً وفق مواصفات الضوء الذي تصدره، أي وفق طيفها. ويكشف الطيف في الواقع أو لا يكشف عن وجود عناصر كيميائية معينة. وفي عام ١٩٤١م وصف الفلكي رودلف مينكوفسكي نمطين عامين من السوبرنوفا: النمط I، الذي لا نجد في طيفه أي أثر للهيدروجين، والنمط II الذي يحتوي طيفه على الهيدروجين. بعد ذلك، سمح تحسين تقنيات الرصد بتمييز فئات تحتية في كل من النمطين. ففي النمط الأوَّل I توجد سوبرنوفا يشتمل طيفها على السيليسيوم (النمط Ia)، وسوبرنوفا يشتمل طيفها على الهليوم دون سيليسيوم (النمط Ib) وعلى سوبرنوفا لا تشتمل على أي من العنصرين (النمط Ic).

وفي كوننا المحلي (أي على مسافة أقل من نصف مليار سنة ضوئية تقريباً عن الأرض) نجد ضعف عدد السوبرنوفا من النمط الثاني II مما نجد من النمط الأوَّل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

Ia ، كما وضعف العدد من النمط Ia من النمطين Ib وIc.

كم يدوم إشعاع هذه السوبرنوفا؟

أياً كان نمط السوبرنوفا، فإن انفجارها يحصل في أقل من ثانية. وعندها يزداد السطوع بسرعة هائلة ليصل إلى أقصاه بعد نحو أسبوعين إلى ثلاثة أسابيع.

أما الطاقة التي يتم تحريرها فهي طاقة فلكية بكل معايير الكلمة: فهي تساوي الطاقة التي تشعها مجرة كاملة. بعد ذلك يحتاج السطوع إلى أشهر عدة لكي يخبو. ويتبع تغير السطوع عبر الزمن بالنسبة للسوبرنوفا من النمط Ia هذا السيناريو نفسه دائماً.

بالمقابل، يختلف سطوع السوبرنوفا الأخرى بشكل غير منتظم، ولا نعرف تماماً حتى الآن سبب ذلك. ففي بعض الحالات، يكون سطوع هذه السوبرنوفا مستقراً طوال أشهر عدة بعد الانفجار، وفي حالات أخرى يتناقص السطوع بسرعة أكبر. والحقيقة أن هذا الفرق بين السوبرنوفا من النمط Ia وباقي أنماط السوبرنوفا يكشف عن تقادم التصنيف الطيفي.

وفي الواقع، حتى وإن كان العلماء لايزالون يستخدمونه حتى اليوم، لكنهم يعلمون أنه لا يأخذ بعين الاعتبار الآليات التي هي أصل انفجار هذه النجوم. فما هي هذه الآليات؟

إذا أخذنا فيزياء الانفجار بعين الاعتبار، يمكن القول إنَّه توجد فئتان من السوبرنوفا: السوبرنوفا الحرارية النووية، التي توافق النمط Ia في التصنيف القديم الطيفي، والسوبرنوفا ذات القلب المنهار جاذبياً، وهي تنتمي إلى الأنماط الأخرى كافة Ib و Ic و II.

إن الآلية المعروفة لدى العلماء بشكل أفضل اليوم هي آلية السوبرنوفا الحرارية النووية. فعندما يستنفد نجم خفيف نسبياً مثل الشمس مخزوناته من الهيدروجين والهليوم، يبدأ بالانضغاط على نفسه ويصبح قزماً أبيضاً، مكوناً من الفحم والأكسجين.

غير أن عدداً من هذه الأقزام البيض تنتمي إلى منظومات ثنائية ولها نجم ثان، غالباً ما يكون عملاقاً أحمر، ويمكن أن يكون مساراهما متقاربان جداً. وفي هذه الحالة يمكن أن يمتص القزم الأبيض مادة رفيقه ويكبر حتى يبلغ كتلة تصل إلى ١،٤

كتلة الشمس. وعند هذه الكتلة، التي تسمى حد شاندراسيخار، وهو اسم الفلكي الهندي الذي اكتشفه والحائز على جائزة نوبل عام ١٩٨٣م، فإن النجم يصبح غير مستقر وينهار على نفسه. وتزداد فجأة الحرار والكثافة. وما تلبث أن تنطلق بسرعة التفاعلات النووية بحيث أن النجم ينفجر في أقل من ثانية. وتكون الطاقة المتحررة نتيجة ذلك ظاهرة استثنائية: فنحو ٤٤١٠ جول يتم إطلاقها، بشكل حركي أساساً، أي بتفجير الغاز (بنسبة ٩٩٪). أما الجزء المضيء أو السطوع فهو النسبة الأقل من نتيجة هذا الانفجار ويساوي نحو ١٪. وبالمقارنة، فإن الشمس تحرر نحو ٤×٢٦١٠ جول في الثانية. والسوبرنوفا من النمط Ia تصدر بالتالي في جزء من الثانية كمية من الطاقة تعادل ما تطلقه الشمس خلال ثمانية مليارات سنة من حياتها.

كيف تنفجر إذاً النجوم الكبيرة الكتلة؟

إنَّ النجوم التي تعادل ثمانية أضعاف كتلة الشمس على الأقل تنتج سوبرنوفا تسمى ذات الانهيار الثقالي في قلبها. ففي نهاية حياتها تكون هذه النجوم قد شكّلت في باطنها قلباً من الحديد نجم عن تحول السيليسيوم الناتج هو نفسه من سلسلة طويلة من التفاعلات الاندماجية النووية. وعندما يتحول السيليسيوم كله إلى حديد يتوقف التفاعل ولا يندمج الحديد ليكون عنصراً جديداً أثقل منه. ولا يعود ثمة ما يوازن الثقالة الهائلة التي تعمل في قلب هذا النجم، فينهار هذا الأخير على نفسه. وتكون الكثافة عندها مرتفعة جداً في المركز بحيث أن الإلكترونات تُمتص بواسطة البروتونات، التي تتحول إلى نوترونات، وعندها يظهر نجم نيوتروني لا يتعدى قطره العشرين كيلومتراً. وبما أنَّه لا يعود بإمكان مركز قلب النجم أن ينضغط أكثر من ذلك، فإنَّ الانهيار يتوقف عند هذا الحد. ويلي ذلك ما يعرف بالارتداد: ويحرض هذا التوقف المفاجئ موجة صدم. وهي تمتد وتنتشر عبر طبقات النجم الخارجية نافخة النجم حرفياً. وعند هذه اللحظة بالذات يصبح الانفجار مرئياً بالنسبة لمراقب خارجي، ويتحول النجم من نجم ميت إلى سوبرنوفا، أو متجدد جبار. وفي بعض الحالات الحديثة، يكون القلب النيوتروني كبير الكتلة جدّاً إلى درجة أنَّه يعود فينهار على نفسه من جديد ويتحول

إلى ثقب أسود. ويطلق هذا النمط من السوبرنوفا طاقة تقدر بحدود ١٠٤٦ جول، وتكون بشكل أساسي على شكل نوترينوات. وتكون نسبة الطاقة المضيئة في هذه الحالة أقل منها في نوع السوبرنوفا من النمط Ia بحيث لا تتجاوز أو تكاد ٠،٠١ ٪.

هل يستطيع العلماء إنتاج نمذجة رقمية لانفجار سوبرنوفا؟

ليس حتى الآن، رغم أنَّ الجواب المتوقع هو أنَّهم يستطيعون، خاصة مع انتشار ظاهرة النمذجة الرقمية لكل شيء بما في ذلك الكونيات والظواهر الفلكية. فمع أن الآلية التي هي أصل انفجار السوبرنوفا الحرارية النووية باتت مفهومة بشكل جيد نسبياً، لكن يبقى بعض الجوانب الغامضة التي تمنع النماذج الرقمية من تقديم إعادة تشكيل للظاهرة بشكل كامل. فعلى سبيل المثال، ما زلنا لا نعرف تماماً كيف يبدأ الاحتراق النووي لقزم أبيض. كذلك لا يعرف العلماء سرعة انتشار الانفجار. أمَّا بالنسبة للسوبرنوفا التي ينهار قلبها تثاقلياً، فإن الآليات الدقيقة التي تولد انفجار نجم ابتداء من موجة صدم لا تزال كذلك غير معروفة. وبالتالي فقد بينت النمذجات الرقمية أنَّه عندما تجتاز موجة الصدم النجم، الذي يكون في طور الانهيار بينما يكون قلبه قد تحول إلى نجم نيوتروني، فإنها تحرض تفككاً للذرات. وهذه الظاهرة تمتص الكثير من الطاقة إلى درجة أنَّه يتعين على موجة الصدم معها أنْ تتوقف بعد ١٠٠ أو ٢٠٠ كلم فوق النجم النيوتروني.

والسؤال هو كيف تعود موجة الصدم فتجد القدر الكافي من الطاقة لكي تنطلق من جديد وتولد الانفجار الأخير بشكل سوبرنوفا؟ إن النمذجات الرقمية اليومية تستكشف ثلاث آليات في محاولة للإجابة على هذا السؤال.

النموذج الأوَّل يأخذ بعين الاعتبار النيوترينوات التي تنتج أثناء انهيار قلب النجم. ويمكن أن تكون هذه النيوترينوات، بسبب الكثافة العالية جداً التي تصل إلى رتبة مليار طن في السنتمتر المكعب)، هي التي تتفاعل مع المادة، على الرغم من أن ذلك ليس من طبيعتها، مما يؤدي إلى إطلاق الطاقة اللازمة الكافية لإعادة إطلاق الانفجار.

أمَّا الآلية الثانية فتأخذ بعين الاعتبار التذبذبات الصوتية التي تحرضها حركات

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المادة في النجم. أمَّا النموذج الثالث ويسمى التناوب المغنطيسي، فيقترح وجود ظاهرات مغنطيسية تمتص الطاقة من دوران النجم في طور موته وتنقله إلى حالة الانفجار. وعلى الرغم من أنَّ هذا النموذج فعال جداً لكنه يتطلب نجوماً كبيرة الكتلة جداً وتدور بسرعة كافية (من رتبة دورة في الثانية حول نفسها). ويبدو من الصعب حتى اللحظة حسم المسألة لصالح هذا النموذج، ولا بد من انتظار تطوير النماذج ثلاثية الأبعاد لتفضيل أحدها.

ما الذي يبقى بعد الانفجار؟

يتعلق الأمر بنمط السوبرنوفا. فبالنسبة للسوبرنوفا الحرارية النووية، لا يبقى شيء من القزم الأبيض. فيكون احتراقه كاملاً! أمَّا بالنسبة للسوبرنوفا التي ينهار قلبها، فإنَّ النجم النيوتروني يستمر ويبقى. ويدور هذا النجم بسرعة عالية حول نفسه ويطلق إشعاعاً كهرمغنطيسياً كثيفاً على امتداد محور دورانه. وعندها فإنه يشكل ما يسمى النجم النابض (بولزار pulsar) الذي لا يمكن اكتشافه إلا إذا كان هذا المحور يتجه نحونا. والنموذج الأفضل على ذلك هو سديم العقرب، الناشئ عن سوبرنوفا عام ١٠٥٤م، ويوجد في مركزه نجم نابض هو بقية النجم الأساسي المنفجر. أما بالنسبة للنجوم ذات الكتلة الأكبر فما يبقى منها هو ثقب أسود.

إنَّ السوبرنوفا تترك وراءها، أكانت من النوع الحراري النووي أو ذات القلب المنهار، ما يدعوه العلماء بقايا، وهي بقايا المادة المقذوفة أثناء الانفجار. وهي يمكن أن تكون «بقايا حقيقية» أو «بقايا شبه مفرغة أو وهمية»، وتصدر الضوء في أطوال عدة للموجة.

لماذا يترصد العلماء الانفجارات النجمية؟

لأنَّ السوبرنوفا الحرارية النووية، أي من النمط Ia، تقدم للعلماء معلومات هامة جداً حول هندسة الكون. فهي تشكل ما يسميه علماء الفلك «منارات معيارية»، أي أنها أجسام ذات سطوع ذاتي معروف. لهذا، يكفي رصد سطوعها الظاهري لحساب بُعدها عن الأرض. وبما أن آلية انفجار السوبرنوفا الحرارية النووية معروف نسبياً أيضاً، فمن السهل بالنسبة لعلماء الفلك حساب سطوعها الخاص.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وبالطبع فإنَّ هذه السوبرنوفا لا تظهر كلها متطابقة بشكل دقيق: فيمكن للسطوع الأقصى أن يتغير من سوبرنوفا إلى أخرى، كما أنَّ السوبرنوفا التي تنفجر في المجرات العدسية تبدو أقل سطوعاً من تلك التي تنفجر في المجرات الحلزونية مثل مجرتنا (ويمكن لهذا الاختلاف أن يرجع إلى الاختلافات في التركيب الكيميائي لكل من هذين النوعين من المجرات). بل إنَّ العلماء استطاعوا أن يضعوا حتى الاختلاف بين السوبرنوفا ضمن معادلات، ومن الممكن تصحيحها بحيث يمكن الحصول على قيمة السطوع الذاتي الموحّد. وهكذا، فإنَّ حساب بعد السوبرنوفا الحرارية النووية على مدى فترات زمنية مختلفة من عمر الكون سمح، في عام ١٩٩٨م، لفريق بلموتر Saul Perlmutter من مختبر لورانس بركلي الوطني Lawrence Berkeley National Laboratory وفريق شميدت Brian Schmidt من الجامعة الوطنية الأسترالية، باكتشاف تسارع التمدد الكوني ووجود طاقة سوداء في الكون.

هل لانفجار السوبرنوفا آثار على البيئة النجمية المحيطة بها؟

الجواب هو نعم طالما أنَّ السوبرنوفا هي التي تغني الكون بالعناصر الثقيلة. فعندما تتشكل النجوم تكون مؤلفة من الهيدروجين والهليوم بشكل رئيسي. وخلال حياتها، تحول التفاعلات النووية المعقدة التي تغذيها بالطاقة الهيدروجين إلى هليوم والهليوم إلى كربون وأكسجين. وفي قلب النجوم الأكبر كتلة، تكون الكثافة والحرارة كافيتين لإطلاق تشكل كافة العناصر الثقيلة حتى الحديد، مثل السيليسيوم والنيون والكوبالت والنحاس إلخ. وعندما تنفجر السوبرنوفا، يتم قذف كافة هذه العناصر في الفضاء ما بين النجمي. كذلك يؤدي عنف الانفجار وشدته إلى تصنيع كافة الذرات الأخرى الأثقل من الحديد. إنَّ العناصر الكيميائية التي تتشكل منها هي وليدة هذه الانفجارات الهائلة التي نسميها سوبرنوفا. ولهذا يقول هوبرت ريفز إنَّنا أبناء النجوم، ويقول الفلكيون اليوم إننا جميعاً مكونون من غبار النجوم.

هل نعرف متى يمكن أن نشهد انفجار سوبرنوفا جديدة في مجرتنا درب التبانة؟

إنَّ آخر سوبرنوفا معروفة حصلت في جوار مجرة درب التبانة تعود إلى عام ١٩٨٧م وقد انفجرت في سحابة ماجلان الكبرى، وهي تعد مجرة تابعة لمجرتنا. ولا بد من العودة إلى عام ١٦٠٤م لكي نجد أثر سوبرنوفا في مجرة درب التبانة. ويبدو أن هذه الأحداث نادرة الوقوع. ويقدر تواتر حدوثها بمرتين أو ثلاث مرات في القرن الواحد وفي المجرة الواحدة. ولكن حتى في إطار هذا الإيقاع، كان لا بد من وقوع انفجارات كبيرة أخرى منذ انفجار عام ١٦٠٤م. ففي عام ٢٠٠٦م أثبت قياس كمية الألمنيوم ٢٦ المتشكل في السوبرنوفا، والذي تم رصده بوساطة القمر Integral، أنه كان يجب فعلاً أن يكون قد وقع انفجاران كبيران في القرن في مجرة درب التبانة. فأين اختفت هذه الانفجارات؟ إن كمية الغبار الكثيفة في مجرتنا يمكن أن تكون هي السبب في حجب هذه الانفجارات. ولهذا فإن المفارقة تكمن اليوم بأنه وإن كان من السهل رؤية السوبرنوفا في مجرة درب التبانة بالعين المجردة بسبب قربها، لكن من الأسهل رصدها في المجرات الأبعد حيث تكون كميات الغبار أقل على خط رؤيتنا لها.

كانت أبعد سوبرنوفا تم رصدها تقع على بعد ٩,٨ مليار سنة ضوئية عن الأرض. وهذا يعني أنها انفجرت عندما كان عمر الكون نحو ٣,٩ مليار سنة فقط. لكن هذا الرقم تم تحطيمه حيث تم رصد سوبرنوفا أبعد منها، بل وهي تعد أكبر انفجار تم رصده حتى الآن من حيث إطلاقه للطاقة. وقد رصده هوائي (Large Area Telescope) المرصد الفضائي الأمريكي فرمي غاما راي سبيس تلسكوب Fermi Gamma-Ray Space Telescope في ١٦ أيلول عام ٢٠٠٨م، واعتبر أنَّه الانفجار الفائق الشدة الذي لم يسبق رؤية مثيل له! وقد فاجأ جميع الفلكيين العاملين في مجال جمع المعطيات حول السوبرنوفا.

وبينت التقارير الأولية لهذا الرصد أن إصدارات أشعة غاما الناتجة عن الانفجار الذي يقع في اتجاه كوكبة كارينا، على مسافة ١٢,٢ مليار سنة ضوئية عن الأرض، تكافئ ما يعادل انفجار ٩٠٠٠ سوبرنوفا، الأمر الذي لا يمكن تخيله!

لقد حرر انفجار هذا النجم GRB ٠٨٠٩١٦C في الفضاء المحيط به ما يكافئ طاقة خمسة كتل شمسية في أقل من دقيقة واحدة. وبلغت شدة بعض أعنف الإشعاعات

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الصادرة عنه ٣٠ مليار ضعف طاقة الضوء المرئي. وكانت سرعتها قريبة من سرعة الضوء. إنه انفجار غامض وفائق الكثافة، حصل على تخوم الكون، وأثار تساؤلات كثيرة حول تلك المرحلة السحيقة من عمر الكون. ويتساءل العلماء اليوم حول هذا المصدر الغريب للأشعة السينية ولأشعة غاما، والذي كشف عن تأخر مقداره ٥ ثوان في إصدار هذه الأشعة. وهي مدة طويلة نسبياً يمكن تفسيرها ربما بسبب البيئة المحيطة بهذا النجم المنفجر.

هل يمكن التنبؤ بانفجار نجم ما؟

إنَّ انفجار بعض النجوم كبيرة الكتلة يكون مرئياً بشكل واضح. وكذلك هو الأمر بالنسبة للعملاق الأحمر في كوكبة الجبار، الذي بلغ المليون سنة الأخيرة من حياته حالياً.

أما في نصف الكرة الجنوبي، فإنَّ نجم إيتا كارينا، الذي تصل كتلته إلى مئة ضعف كتلة الشمس، فيعدّ غالباً على أنَّه السوبرنوفا القادمة بين النجوم القريبة من الأرض. وهو يعاني بشكل دوري من فقدان عنيف لمادته، وقد بلغ ربما المئة ألف سنة الأخيرة من حياته. لكن لا يمكن للتنبؤ أن يكون أكثر دقة من ذلك. فالأعمار النجمية لا تتوافق فعلاً مع درجات الزمن البشرية: فعشر سنوات تمثل جزءاً من مليون من حياة نجم كتلته عشرة أضعاف كتلة الشمس. فهل يمكن التنبؤ بمصير نجم ما بمثل هذه الدقة؟ ليس ذلك محققاً أبداً حتى الآن. وهل توجد إشارات تدل على قرب حصول الانفجار؟

كذلك لسنا نعرف بعد مثل هذه الإشارات إذا كانت موجودة. إنَّ الكارثة تبدأ في قلب النجم، الذي يكون قطره أصغر بعشرة آلاف إلى مئة ألف ضعف حجم النجم. فإلى ما بعد كتلة معينة حرجة، حد شاندراسخار Chandrasekhar، ينهار القلب على نفسه حتى تصل الكثافة المركزية حد كثافة المادة النووية، أي نحو ١٠٠ مليون طن لكل سنتمتر مكعب! إن التفاعلات النووية تعارض عندما مقاومة هائلة للانضغاط، وينتفض القلب نفسه، منتجاً موجة صدم تنتشر باتجاه الخارج. ولا يظهر السطح شيئاً مما يحصل في الداخل في الأعماق حتى اللحظة التي تصل فيها موجة الصدم إلى سطح النجم.

ولكي نستطيع الوصول إلى إشارة مسبقة تنبئ بفعالية بالحدث يجب أن نتمكن من الكشف عن إصدارات من النيوترينوات القادمة من المناطق المركزية للنجم. إنَّ هذه الإصدارات تزداد بشكل كبير خلال السنوات الأخيرة التي تسبق انهيار القلب

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

النجمي، لكنها لا تزال غير قابلة للكشف ضمن الوسائل الحالية. بالمقابل، وخلال الثواني القليلة التي تلي الانفجار، يصبح إصدار النيوترينوات هائلاً، بحيث أمكن الكشف عنه للمرة الأولى في عام ١٩٨٧م في حالة سوبرنوفا سحابة ماجلان الكبرى.

فيما يتعلق بالسوبرنوفا من النمط Ia، فإنَّ الوضع أكثر تعقيداً من ذلك، طالما أن الطبيعة نفسها للمنظومات الثنائية من النجوم التي تكون سابقة للانفجارات غير معروفة تماماً. فلكي نجعل من قزم أبيض نجماً غير مستقر لا بد من زيادة كتلته بتضخيمه حتى يصل إلى جوار حد شاندراسخار مباشرة، أي إلى ١,٤ من كتلة الشمس. فهل علينا بالتالي البحث عن منظومات مزدوجة من الأقزام البيض الثنائية، بحيث يكون النجمان متقاربان بدرجة كافية من بعضهما بعضاً ليدخلا في النهاية في حالة تلاصق والتحام coalescence، أو عن قزم أبيض مقترن بنجم عادي إنما ينقل كتلته بنسبة عالية، أم ربما علينا البحث عن شيء آخر؟ إن قزماً أبيض كبير الكتلة، اقترب فعلاً من حد شاندراساخار، يجعلنا نفكر بأنّه سوف ينفجر قريباً، لكن من المستحيل أن نقيس كتلة النجوم بالدقة المطلوبة من أجل وضع تشخيص محدد على مستوى بضع سنوات فقط.

كيف يستعد العلماء لاحتمال حدوث انفجار سوبرنوفا في مجرتنا؟

عندما يحصل انفجار السوبرنوفا القادمة في مجرتنا، من النمط SN I أو SN II، فإن سيناريوهات كثيرة سوف تكون جاهزة للكشف عنه. تتميز السوبرنوفا من الأنماط II أو Ib أو Ic بالإصدار الهائل من النيوترينوهات الذي يلي الانفجار. إنَّ العديد من التجهيزات الهامة تعمل بشكل متصل فيما بينها من أجل التقاط النيوترينوات المعلنة عن هذا الحدث. ومنها على سبيل المثال سوبر كاميوكاند SuperKamiokande في اليابان. وهذا الكاشف هو عبارة عن حوض ضخم يشتمل على ٥٠٠٠٠ طن من المياه التي يتم تفحصها باستمرار بوساطة بطاريات خاصة هي عبارة عن مضخمات ضوئية photomultiplicateurs. وتتأثر هذه اللواقط بومضات من ضوء سرنكوف Cerenkov، وهو نوع من موجة الصدم المضيئة التي تنتج عندما ينتشر جسيم بسرعة أكبر من سرعة الضوء في وسط ما (نحو ٢٠٠٠٠٠ كلم في الثانية في الماء). إنَّ سوبر كاميوكاند يلتقط إلكترونات أو بوزيترونات سريعة. وهي تنتج عن تفاعل مضاد نيوترينو إلكتروني للسوبرنوفا مع بروتون هيدروجين الماء. وبهذه الطريقة، يجب الكشف عن ٥٠٠٠ نيوترينو في حال

حدوث انفجار يقع على بعد يقارب بعد مركز مجرتنا، أي نحو ٢٦٠٠٠ سنة ضوئية. وفي جزء من النسبة المئوية من الحالات ينتج الإلكترون السريع بطريقة مختلفة، عبر الصدم المباشر مع النيوترينو. وعندها يظل ارتداد الإلكترون مقترناً تقريباً مع خط النيوترينو الصادم، الأمر الذي يسمح بإعادة تشكيل تقريبية لمسار واتجاه السوبرنوفا بخطأ بضعة درجات فقط.

وثمة طريقة أخرى للعثور على اتجاه السوبرنوفا تكمن في استخدام اختلاف زمن وصول الإشارة بين مختلف الكواشف المرتبطة فيما بينها في إطار تعاون نظام الإنذار المبكر للكشف عن السوبرنوفا SNEZS (Supernova Early Warning System).

تكون معرفة الاتجاه سهلة إذا كانت السوبرنوفا ساطعة، أي إذا كان امتصاص ضوئها بوساطة الغبار بين النجوم قليلاً. يبدأ ازدياد الضوء أو السطوع عندما تصل موجة الصدم إلى سطح النجم. ويحصل ذلك بين بضعة دقائق ويوم أو يومين من إشارة النيوترينو، بحسب حجم النجم المنفجر. بالمقابل، في حال الامتصاص الشديد للضوء، فإنَّ معرفة موضع النجم المنفجر بخطأ بضع درجات بفضل النيوترينوات سيسمح بالبدء بالأبحاث بوساطة كاميرات ذات حقل رؤية كبير. وتكون أفضل الحظوظ بالتقاط صورة النجم في الأشعة الحمراء وتحت الحمراء، لأنَّ أطوال الموجة الكبيرة هذه تتفاعل بدرجة أقل مع الغبار. ومع ذلك فإن إشارة النيوترينو نفسها هي التي ستستأثر باهتمام العلماء. فهي تنبئ بالانفجار، لكنها أيضاً مصدر فريد للمعلومات حول الكارثة التي حدثت في قلب النجم. فمع ٥٠٠٠ أو ١٠٠٠٠ نيوترينو يمكن التقاطها بدلاً من عشرة فقط في حالة سوبرنوفا SN ١٩٨٩ A، سيصبح من الممكن القيام بتحليل طيفي نيوترينوي، ووضع منحن دقيق للكثافة.

ويأمل العلماء أنَّ مثل هذه المعطيات سوف تسمح بأن نفهم بشكل أفضل الفيزياء العميقة للانفجار وحسم بعض الشكوك التي لا تزال موجودة اليوم في النماذج الفيزيائية. وأخيراً، يمكن أن تصلنا أيضاً من هذه الانفجارات أمواج ثقالية قادمة مباشرة من قلب النجم. ولكن لا بد في هذه الحالة من أن يكون الانهيار غير متناظر بشدة، وذلك على سبيل المثال بسبب اللاإستقراريات المرتبطة بدوران سريع. وقد جهز من أجل استقبال مثل هذه الأمواج كاشفا الأمواج الثقالية الفرنسي الإيطالي فيرغو Virgo والأمريكي Ligo.

إذا كانت السوبرنوفا من النمط Ia، فإننا ننتظر القليل من النيوترينوات ومن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الأمــواج الثقالية. وبالتــالي لن يمكن التنبؤ بها وتحديــد موضعها كمــا في حالة أنواع السوبرنوفــا الأخــرى SN II و Ib و Ic. فالكشف الــذي يتم بفضل ازديــاد المؤشر الضوئي سوف يكون بالتأكيد أبكر كلما كان الامتصاص أضعف. والسماء اليوم أصبحت مراقبة باستمــرار بمجموعة من الكاميرات والمراصــد ذات الحقــل الواســع، وبالتالي باتت فرص اكتشاف السوبرنوفا كبيرة جداً حتى وإن كانت أشعتها عرضة لامتصاصات شديدة. غــير أنَّ العلماء يحلمــون بالتأكيد بإمكانيــة متابعــة كاملة ومفصلــة لمنحنى الضوء. تُستخدم السوبرنوفا من النمط SN Ia في الحقيقــة من أجــل تحديد المسافات الكونية، لأنَّ خصائصها القياسية الضوئية تختلف كمــا يبدو قليلاً من حدث إلى آخر. وهكذا فقــد أدى رصد السوبرنوفا من نوع Ia علــى مسافات بعيــدة إلى إثبات تسارع التمدد الكــوني. وللتأكيد بشكل حاسم على هذه النتيجة، ومعرفة السبب الذي يمكن أن يؤدي إليها، لا بد من فهم أفضل لهذا النوع مــن السوبرنوفا Ia. فإذا حصل انفجار Ia في مجرتنا فإنّه سوف يسمح بالقيام بتحليل أدق لتركيب وسرعة الغاز المنقذف، وسيعطي بالتأكيد إيضاحات لا سابق لها حول النماذج الكونية الحالية.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الهوامش

1- Bac to Basic, »les supernovae«, La Recherche, Mars 2010.

2- « The Historical supernovae », David A. Green et F. Richard Stephenson, Lecture Notes in Physics, Supernovae and Gamma Ray Bursts, 2003.

3- www.cfa.harvard.edu/iau/lists/Supernovae.html et http://www.supernovae.net/isn.htm

4- Dossier « L>énergie noire défie la cosmologie », La Recherche, septembre 2008, p. 31.

5- Giacobbe, F. W. (2005). »How a Type II Supernova Explodes«. Electronic Journal of Theoretical Physics 2 (6): 30–38.

6- »Introduction to Supernova Remnants«. NASA/GSFC. 200704-10-. http://heasarc.gsfc.nasa.gov/docs/objects/snrs/snrstext.html. Retrieved 201115-03-.

7- Schawinski, K.; et al. (2008). »Supernova Shock Breakout from a Red Supergiant«. Science 321 (5886): 223–226.

العرب ومركزية الشمس منذ القرن ١٨ق.م

نزار مصطفى كحلة ❁

لطالما قدَّمت لنا الأبحاث العلمية والمكتشفات الأثرية الحديثة مفاجآت سارة، وخاصة على مستوى كشف إنجازات العرب والمسلمين في سائر المجالات العلمية.

ولطالما كان للتنقيبات الأثرية التي يقوم بها علماء الوطن العربي من الشرفاء، دور بارز في إماطة اللثام عن إنجازات حقيقية تعطي الحضارة العربية عمقاً في التاريخ، يتجاوز بقِدَمِه وأهميته إنجازات الغرب بمئات لا بل بآلاف السنين في إنجازاته وإبداعاته الحضارية، حتى بتنا نعتقد نحن، المطّلعين، على حضارة العرب قبل الإسلام وفي العصور الإسلامية، أن الغرب، طوَّر، ولكنه لم يأت بجديد!!!، وكلما ساد الاعتقاد بأن إنجازاً ما كان السبق فيه للغرب، نكتشف فيما بعد أنه مُكتَشَفٌ لدينا قبله بمئات السنين على الأقل، وإنَّما غاب أو غُيِّبَ عنّا بقصد أو بغير قصد!!!؟

ولنا هنا باكتشاف الدورة الدموية الصغرى خير مثال على ذلك، فبعد أن نسبها الغرب إلى الإسباني ميخائيل سارفيتوس عام ١٥٥٣م، تم التحقق أنها من اكتشاف ابن النفيس، الطبيب العربي الشهير الذي ولد عام ١٢١٠م في دمشق، وربما نكتشف

❁ باحث سوري.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

يوماً ما أنها من اكتشاف طبيب بابلي أوإيبلاوي...إلخ.

وليس هذا بالمستغرب إذا ما علمنا أن العرب قد عرفوا أنَّ الشمس هي مركز الكون وليس الأرض كما كان شائعاً، ومنذ ٤٠٠٠ سنة تقريباً، فهم بذلك أصحاب الفضل في ذلك، وليس كوبرنيكوس ١٤٧٣-١٥٤٢م الذي ينسب إليه عادة اكتشاف هذه النظرية.

لقد كان شائعاً أن الأرض هي مركز النظام الشمسي، وأن الشمس والكواكب الأخرى تدور حولها، وذلك منذ أن طرح هذه النظرية الجغرافي اليوناني بطليموس[١] في النصف الأوَّل من القرن الثاني الميلادي، في كتابه الشهير /المجموعة الرياضية/ وهو الكتاب الذي عُرِفَ فيما بعد بكتاب /الفلكي العظيم/ والذي قام العلماء العرب المسلمون فيما بعد بترجمته إلى العربية عام ٨٢٧م في عهد الخليفة العباسي المأمون، وأطلقوا عليه اسماً آخر وهو /المجسطي/.

تلك المقولة لم ينتقدها أيٌّ من علماء أوروبة قبل كوبرنيكوس، فقد كان كوبرنيكوس في كتابه /الأجرام السماوية/ قد نقض نظرية بطليموس، واعتبر أن الشمس هي مركز الكون وليس الأرض كما كان شائعاً، وقد تعرض كوبرنيكوس بسبب نظريته «الجديدة» هذه إلى سخط الكنيسة، وذلك لخروجه عن معتقداتها التي تتوافق مع رأي بطليموس، في وقت كان فيه التفكير العلمي في أوروبة، يُعدّ جريمة يُعاقَبُ عليها صاحبها بالموت.

وقد كان شائعاً في الأوساط العلمية والثقافية إرجاع هذا الاكتشاف إلى كوبرنيكوس، وقد دَرَجَ علماء الغرب على التفاخر به منذ ذلك الزمن،بأنهم أصحاب هذا الاكتشاف، وكأنه ليس للآخرين من دور في كشف هذه الحقائق العلمية، إلا أن الأبحاث العلمية والمكتشفات الأثرية الحديثة، قد أماطت اللثام عن حقائق مذهلة، أعادت هذه المعرفة إلى العرب سكان بلاد الرافدين حوالى ١٨٠٠ق.م، وهذا ما سنتعرف عليه لاحقاً، بعد إلقاء نظرة سريعة على تاريخ الأرض ورؤية بعض الشعوب عبر التاريخ لها، ومن ثم سنتعرف على كل الأبحاث العلمية التي أدت إلى الكشف عن هذه الحقيقة، وكل هذه النتائج كان قد تمَّ التوصل إليها قبل ولادة كوبرنيكوس بمئات لا بل بآلاف السنين كما ذكرنا سابقاً.

لقد لفت شكل الأرض وتضاريسها وتعاقب الليل والنهار، إضافة إلى وجود القمر والكواكب والشمس ودورهم في الحياة، أنظار الشعوب القديمة كافة، فقدموا فيها الكثير من النظريات والرؤى العلمية حيناً والأسطورية أحياناً.

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

فقد جعل اليونانيون الأرض العرق الأصيل، أو العنصر الأساسي، الذي تولدت منه الآلهة «أو القاعدة الثابتة لكل كائن»، وفي معتقداتهم الشعبية كانت الأرض ومنذ القرن العاشر قبل الميلاد مسطحة منبسطة تعلوها قبة النجوم، وينيرها ضوء الفجر دفعةً، وكان الأفق هو مكان ارتكاز تلك القبة، وإنَّ قوة سماوية تجعل الشمس والنجوم تطلع من المشرق صاعدةً ببطء وصعوبة في السماء، ومنحدرة بسهولة وسرعة إلى المغرب، قاطعة أرضاً تحتية سمَّوها أرض الظلال المجهولة.

فيما تبدو الأرض في نظرية صينية قديمة، ترقى إلى القرن الرابع قبل الميلاد، مساحةً مسطحةً، أو هرماً مربع الزوايا مقطوع الرأس، تحيط به المياه من جهاته الأربع، مكوِّنة البحار الأربعة، أمَّا السماء فتشبه كوباً يغطي الأرض، وهي كروية لأنها تدور دائماً، بينما الأرض المربعة تبقى ثابتة، ولما كانت السماء قبة جامدة مكورة تغطي الأرض، أصبحت محتاجة إلى أعمدة تسندها، كما في البيوت الصينية المسنودة سقوفها بالأعمدة، ومن هنا كان القول: بأعمدة السماء المنتشرة على مدار الأرض.

أمَّا الهنود القدماء، فقد نظروا إلى الأرض على أنها أيضاً مسطحة ومستوية ومركبة من سبع جزر راكزة.

فيما جعلت الأساطير المصرية القديمة للأرض جسوراً، وجعلت السماء تستند إلى أربعة جبال أو أعمدة، وقد أحاطت بالأرض دائرة مائية كبرى.

أمَّا ما يقال عن رؤية البابليين للأرض، فإنهم تصوروا الأرض وما فيها على شكل صورة أو نسخة لما في السماء، فالفرات ودجلة وكل الأرض بما فيها البلدان وحتى المعابد، ما هي إلا صور ثابتة لأصول موجودة في السماء، فقد تصوروا الأرض بهيئة نصف كرة مقلوبة، وتعلوها السماء، التي لها ثلاث أو سبع طبقات، وهي كذلك بهيئة القبة، وتقوم السماء كالبيت فوق أساس موضعه في الأفق الذي نراه، ودعوا القسم العلوي من السماء بالمركز أو (كبد السماء) وقد قسموا الأرض إلى ثلاث مناطق، هي: المنطقة العليا، هي الظاهرة التي يسكن فيها البشر، والمنطقة الوسطى، وهي موضع المياه، ومنطقة إله المياه (أيا)، ويلي ذلك منطقة الأرض السفلى التي فيها تسكن أرواح الموتى، كما قسموا الأرض إلى أربعة قطاعات أو أركان، وأربع جهات أصلية، تقابل كل جهة قطراً عظيماً من الأقطار يسمى باسمه.

ويبدو أنَّ العرب المسلمين لم يكونوا بعيدين عن هذه الرغبة في معرفة ماهية الأرض، ومعرفة أسرار علم الفلك، ومعرفة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ما وراء العالم، وهذا ما عبَّر عنه الشاعر ابن البغدادي بالشعر حينما قال:

بربِّك، أيها الفَلَكُ المُدار
أقَصْدٌ ذا المَسيرُ أم اضطرارُ؟
مَدارُك، قُلْ لنا، في أيِّ شيءٍ؟
ففي أفهامنا منك انبهارُ
وفيك نرى الفضاءَ، وهل فضاءٌ
سوى هذا الفضاءِ به تُدارُ
وعندكَ تُرفع الأرواحُ، أم هل
مع الأجساد يُدركها البوارُ؟

...إلخ من هذه الرؤى الأسطورية للأرض عند مختلف الشعوب، وفي مختلف الثقافات والحضارات السابقة.

ويبدو أن الذين وعوا هذه القضية (أي قضية مركزية الشمس) قبل كوبرنيكوس هم كُثر، فقد كان علم الفلك قد ظهر على ضفاف دجلة والفرات منذ حوالى ٤٠٠٠ سنة، وقد جرى اكتشاف رسالة في علم التنجيم يعود تاريخها إلى العام ١٨٠٠ ق.م، وفي بابل الثانية (الكلدانية) كانت ترتسم الظواهر السماوية وتقاسيم الشمس الكبرى على الألواح الفخارية (الرُّقم) والتي تقدم الدليل على أن البابليين كان لهم الفضل الأول في ظهور وتبلور علم الفلك عبر التاريخ.

أمَّا الإنجاز الأهم في هذا الموضوع، والذي يشكل الكشف الأعظم في مجال علم التاريخ، فهو معرفة أنَّ العرب كانوا قد توصلوا إلى معرفة أنَّ الأرض ما هي إلا مجرد كوكب يدور حول الشمس الثابتة، ومعها تسعة كواكب أخرى، وذلك منذ القرن ١٨ق.م مما يشكِّل إنجازاً علمياً جديداً، لا بد لنا من تسليط الضوء عليه وإخراجه من دائرة المختصين بعلم الآثار والمؤرخين، وإدراج التقارير العلمية المنسية، إلى دائرة العلن.

فقد توصل العرب إلى معرفة أنَّ الشمس هي مركز المجموعة الشمسية، وأن هناك تسعة كواكب تدور حولها، وذلك منذ حوالى ١٨٠٠ سنة قبل الميلاد، لكن كيف ذلك وما هو الدليل؟؟؟

لقد جاء ذلك أثناء البحث والتنقيب عن مدينة (ميتُران) وهي إحدى المدن التي كانت تتبع مملكة أشنونا الأمورية، والتي عاصرت آشور وبابل في النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد، وكان حمورابي البابلي قد قضى عليها بعد ذلك عام ١٧٦٠ ق.م، وهي أي أشنونا المدينة (العاصمة) تقع في منطقة نهر ديالى، ولكن الملوك الذين حكموا فيها لم يكونوا منفردين بحكم المنطقة على التوالي، إنما كان هناك عدد من الحكام المحليين على درجة كبيرة من الاستقلال، في عدد من المدن المهمة في منطقة حوض ديالى.

وفي هذه الظروف برزت مدينة ميتُران لتكون مركزاً رئيساً في القسم الغربي من حوض

حمرين، وقد وجدت آثار مدينة ميتّران في تل السيب وتل حداد، وقد أثبتت التنقيبات الآثارية في تل السيب وجود سور المدينة، حيث اكتشفت أجزاءً منه بعرض ٣،٥م، ولقد جاء الدليل الحاسم على كون تلال السيب وحداد هي موقع مدينة ميتران التاريخية القديمة من نتائج التنقيبات الآثارية التي أجراها د.نائل حنون(٢)، وقد استغرق إثبات هذا الدليل ما يقارب السنتين.

تقع تلال السيب وحداد على بعد ١،٥ كم إلى الغرب من منطقة نهر ديالى، وتشتمل هذه التلال على تلين صغيرين باسم السيب في الجهة الشرقية من الموقع، وتل حداد الأكثر اتساعاً وارتفاعاً من التلين الآخرين في الجهة الغربية، وقد بلغت مساحة هذه التلال الثلاثة ٩٠٠٠٠ م٢.

وفي الحارة الثالثة في تل حداد، وجدت قطعة فخارية دائرية، عُثِرَ عليها في الزاوية الشمالية الغربية من الغرفة /٢٠/.

وهذه القطعة غير مكتملة الاستدارة، إذ إن قاعدتها تأخذ شكلاً مستقيماً، ولما كان على ظهر القطعة مسندان صغيران، أمكن القول: إنَّ الوضع الذي تكون عليه هذه القطعة، هو بارتكازها على القاعدة المستقيمة والمسندين، مما يجعلها تعرض بشكل مائل.

يبلغ قطر القطعة حوالى ١٢سم وطول الضلع المستقيم منها حوالى ٩سم، وكذلك قطرها في منتصف الضلع المستقيم. وهذه القطعة مقعرة، ويبلغ عمق مركزها ١،٥سم، وتحتل هذا المركز الشمس التي صُوِرت بتجسيم بارز تحيط بها هالة من الأشعة ثم دائرة تحيط بالهالة نفسها، وكل ذلك مصور بالتجسيم البارز، كما أنَّ الحافة الخارجية للقطعة تظهر بشكل حلقة من الأشعة، تفصل فيما بينها وبين الدائرة المحيطة بالشمس مساحة دائرية مسطحة.

وتتوزع في هذه المساحة المسطحة، حول الشمس تسع كرات صغيرة نافرة قطر كل منها حوالى٠،٥سم وقد ألصقت بالقطعة قبل شيّها، والقطعة خالية من أي نقش كتابي، انظر الشكل المرافق آخر البحث. والتفسير الذي توصل إليه د.نائل حنون لهذه القطعة وللأشكال المصورة عليها لم يُعلن ولم ينشر شيء عنه خلال العقدين من الزمن، اللذين تبعا اكتشافه لهذه القطعة في الحارة الثالثة /ط٣/ في تل حداد، ولكن، وبعد مستجدات عدة أصبح بالإمكان الكشف عن تفسير د.نائل حنون لهذه القطعة، والذي سيترتب عليه تغير الكثير من الأفكار عن الفضاء والفلك، وتأريخ تطور العلوم الخاصة بهما.

إنَّ كون القطعة دائرية ومقعرة وتتوسطها الشمس دلالة على أنها قبة السماء، وإن ما صُوِّرَ عليها يكون بالطبع خارطة فلكية،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد تأكدت هذه الوظيفة لهذه القطعة حينما نُشرت قطع فخارية مشابهة في الشكل والحجم لها من محفوظات المتحف البريطاني في عام ١٩٩٢ م، أي بعد ١٢ سنة من اكتشاف د.نائل حنون لهذه القطعة ووضعها في متحف بغداد.

ولا تقتصر قطع المتحف البريطاني على رسوم النجوم والكواكب، وإنَّما تحمل أيضاً نصوصاً مسمارية تشرحها، وهذا ما ينفي نفياً قاطعاً أي شك في وظيفتهن كخرائط للقبة السماوية.

وإنَّ القطعة السابقة الموجودة في المتحف البريطاني تعود إلى العصر الآشوري الحديث في الألف الأول قبل الميلاد. وقد وجدت في نينوى (تل قوينجق) وهي مشابهة لشكل القطعة التي وجدت في تل حداد، والتي نحن بصددها، وبالتدقيق في القطعة (نينوى) نجد أنها دائرية مقسمة إلى ٨ قطاعات متساوية وكل قطاع يتضمن رسماً بين مواضع النجوم، مع الأبراج، مع نص مسماري يشرحها، وهناك تلف في القطاعات ٣- ٤ - ٧ ومعظم القطاع ٨، انظر الشكل المرافق آخر البحث.

ونعود للقطعة الفخارية السابقة /تل حداد/ باعتبارها خارطة فلكية للقبة السماوية وقد وضعت في تأريخ متأخر ومعاصر لنصوص الطبقة الثالثة في تل حداد، والتي تعاصر عهود ملوك أشنونا قبل السنة ٣١ من حكم حمورابي ١٧٦١ ق.م، وهذا ما يدفعنا إلى وضع الملاحظات التالية:

١- إنَّ الشمس تحتل مركز الخارطة الفلكية، أي إنَّها عُـدَّت مركز الكون، وهذا يعني معرفة سكان هذه المنطقة أن الشمس مركز الكون حوالى ١٨٠٠ق.م أي قبل قيام عالم الطبيعيات الفرنسي فوكو بتقديم الدليل القاطع على حركة الأرض في القرن التاسع عشر الميلادي بحوالى ٤٠٠٠ سنة.

٢- وجود الكرات التسع حول الشمس في القطعة يثير في الذهن مباشرة حقيقة وجود الكواكب التسعة في المجموعة الشمسية، والمهم هنا عدد الكواكب. فمن المعروف لدينا حتى الآن أنَّ الحضارات القديمة كانت تعرف فقط خمسة كواكب إلى جانب الأرض فقط، وهي عطارد، الزهرة، المريخ، المشتري، زحل، وقد كان وليم هرشل قد اكتشف أورانوس السابع عام ١٧٨١م، فيما اكتشف الفرنسي أوريان لغريبه كوكب نبتون عام ١٨٤٥م وذلك عن طريق الحسابات الرياضية، فيما حدد موقعه في برلين يوهان جوتفريد عام ١٨٤٦م حيث استطاع رصده.

وقد كان الفلكي الأمريكي بريسفيال لوويل قد حدد موقع الكوكب التاسع بلوتو، الذي لم يرصد بالرؤية إلا بعد مرور ١٤

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عاماً على وفاة لوويل أي عام ١٩٣٠م وذلك بعد صنع التلسكوب، حيث أثبت كلايدتمبو وجود ذلك الكوكب وأطلق عليه بلوتو حيث (ب) نسبة إلى بريسفيال و(ل) نسبة إلى لوويل.

ومن هذا نستطيع أن نقول: إنه يمكن اكتشاف مواقع الكواكب عن طريق الحسابات، وهذا يعني أنَّ سكان مدينة ميتران ربما اكتشفوا هذه الكواكب من دون تلسكوب متطور، أي عن طريق الحسابات الرياضية.

إنَّ قطعة مدينة /تل حداد/ الفخارية تعود إلى حوالى ١٨٠٠ق.م فهي بذلك قبل ٣٧٠٠ سنة من عام ١٩٣٠م أي بفارق تقريبي حوالى ٣٧٨٠ سنة تقريباً.

٣- لقد استخدم سكان مدينة ميتران الحسابات وقياس مدارات كواكب أقرب إلى الأرض لحساب التغيرات الطارئة عليها بفعل تأثير جاذبية كواكب أبعد وتكون خارج نطاق الرصد بالنظر، ولكن هذا لا يتم إلا بتوافر ثلاثة أمور هي:

١- مستوى متطور في العلوم الرياضية.

٢- مستوى متطور في العلوم الفلكية.

٣- تطور علمي عام يساعد على توافر القدرة على البحث والاكتشاف، وهذا مما لاشك فيه قد توافر لسكان هذه المنطقة قبل ٤٠٠٠ سنة تقريباً.

هذا ما كان من اكتشاف د.نائل لهذه القطعة الأثرية الهامة جدّاً في تاريخ العلوم الفلكية عند العرب. وهي لن تكون الفريدة في سبق كوبرنيكوس إلى معرفة مركزية الشمس ودوران الأرض حولها، بل هناك الكثير ممن قالوا بهذا الأمر قبل كوبرنيكوس، ولكن بكل تأكيد بعد مئات السنين من كشف العرب لها.

ففي مرحلة ما بعد أفول نجم العرب قبل الإسلام، أي بعد سقوط بابل على يد الفرس عام ٥٣٩ق.م، ظهر بعض من علماء اليونان، ممن أثبت أنَّ الشمس هي مركز الكون وليس الأرض، وكان في مقدمتهم الفيثاغورثيون(٣)، والذين قالوا كلاماً كان في حينه غاية في الجرأة، ألا وهو: «أن لا يكون مركز العالم هو الأرض، بل نار مركزية، وما الأرض إلا كوكب يدور حول هذه النار، ولكن هذه الأخيرة غير مرئية لأن الجانب الذي نعيش فيه من الأرض بعيد دائماً عن المركز، وقد نظروا إلى الشمس بدورها على أنها كوكب يتلقى نوره بالانعكاس من النار المركزية» أي إنهم لم يميزوا بين الشمس وبين هذه النار المركزية، وقد كانت هذه النظرية خطوة جريئة باتجاه الفرض القائل بمركزية الشمس، وأن الأرض ليست مركز الكون، والتي قال بها أرسطارخوس(٤) فيما بعد.

وكان العالم هراكليدس، وهو أكاديمي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ينتمي إلى القرن الرابع قبل الميلاد قد عَرفَ أن الأرض تدور حول محورها مرة في اليوم.

فيما استطاع أرسطارخوس الساموسي[٥] ٣١٠ - ٢٣٠ق.م وهو تلميذ ستراتون اللمبساكي الفيلسوف المشائي المعروف، من الوصول إلى الحقيقة، بمزجه بين الرياضة والملاحظة، فقد اجتهد في تحديد المسافة الحقيقية بين الأرض والشمس وبين الأرض والقمر، كل ذلك بوساطة حساب المثلثات، كما أنه قد كشف عن نظرية مركزية الشمس، وبشكل مفصل وكامل، حيث قال: «إنَّ الأرض والكواكب الأخرى تدور حول الشمس التي تظل ثابتة هي والنجوم، وإنَّ الأرض تدور حول محورها مع سيرها في مدارها».

كما كان العالم الفلكي الكلداني (سلوقس) الذي عاش في بداية القرن الثاني قبل الميلاد في مدينة سلوقية على نهر دجلة، قد قال إنَّ الشمس هي مركز الكون، واتَّبع في ذلك فرضية أرسطارخوس، وحاول أن يجد البراهين لها، كما أتى سلوقس بآراء صحيحة علمياً عن علاقة المد والجزر بالقمر التي ذكرها بوسيدونيوس السوري المعروف.

هذا ما كان من شأن العلماء قبل الإسلام حول نظرية مركزية الشمس ودوران الأرض حولها. أمَّا فيما يتعلق بالعلماء المسلمين، فقد كان العالم أبو عبد الله محمد البتَّاني ٨٤٩- ٩٢٩م من أوائل من بحث في علم الفلك، وكان قد بنى مرصده في بلدة الرقة في سورية، حيث بدأ رصده للكواكب هناك،وكان ينتقل ما بين الرقة وأنطاكية من أجل أعمال الرصد، وقد قال عنه العالمان بالرياضيات، كاجوري وهاليه: «كانت جداوله من أدق ما سجله علماء الفلك». فمن أهم إنجازاته التي فتحت الباب لمعرفة نظرية مركزية الشمس، إن لم يكن قد قال بها صراحة:

فهو أول من أبدع (السمت)[٦] و(النظير) وحدد نقطتهما في السماء، كما أنه أبدع فكرة الظل كنسبة مثلثية، واصطلاح جيب التمام، وهو أول من استخدم المثلث المستوي لمعرفة ارتفاع الشمس بالنسبة لارتفاع شيء ما، والظل الذي يرسمه على الأرض، وكتب قانوناً بذلك، وهو أول من أوجد طول السنة الشمسية وقدرها بـ٣٦٥ يوماً و٥ ساعات و٤٦ دقيقة و٣٢ ثانية والفارق بين حسابه والحساب عند علماء العصر الحديث المتطور جداً حوالى دقيقتين اثنتين وأربع عشرة ثانية، كما استطاع إثبات الكسوف الحلقي للشمس، وحدد مواقع العديد من النجوم، وصحح بعض حركات القمر والكواكب السيَّارة، وقد خالف بطليموس في ثبات الأوج الشمسي، كما أنه استخدم آلات رصد مبتكرة، لم يستخدمها أحد من

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

قبله.. إلى ما هنالك من الكشوفات العلمية في مجال علم الفلك، والتي تؤكد معرفته بنظرية ثبات الشمس ودوران الأرض حولها، أو أنه على الأقل مهَّد لها بشكل جلي.

فيما استطاع أبو سعيد أحمد بن محمد السجستاني من القرن العاشر الميلادي أن يدرك أنَّ الأرض متحركة، وأنَّ الفلك بجميع ما فيه، سوى الكواكب السبعة ثابت، فاستنبط إسطرلاباً خاصاً عُرِفَ بالإسطرلاب الزورقي.

وقد كان البيروني[٧] ٩٧٣- ١٠٤٨م العالم المسلم، وهو من مواليد خوارزم، قد أثبت خطأ نظرية بطليموس السابقة، وأثبت أن الشمس هي مركز الكون وليست الأرض، وأن الأرض ما هي إلا كوكب يدور حول الشمس، وأن الشمس لم تكن هي سبب تفاوت الليل والنهار، بل إنَّ الأرض ذاتها هي التي كانت تدور حول نفسها، وتدور مع الكواكب الأخرى حول الشمس، وإنَّ جميع الأجسام تنجذب نحو مركز الأرض، ولاحظ أن ما يُعلم من الظواهر الفلكية، قد يمكن تعليله بافتراض أن الأرض تدور حول محورها مرة كل يوم، وتدور حول الشمس مرة كل سنة.

فيما كان ابن طفيل[٨] ١١٠٠ - ١١٨٥م العالم العربي الأندلسي يثبت بالبرهان من جديد: إنَّ الأرض ليست وحدها الكروية، بل إنَّ العالم كله كروي، وقد قدَّم على ذلك برهاناً يدل على قوة ملاحظته واتساع خياله العلمي، عندما قال في مؤلفه الشهير (حي ابن يقظان): «فنظر (حي بن يقظان) أولاً إلى الشمس والقمر وسائر الكواكب فرآها كلها تطلع من جهة المشرق وتغرب من جهة المغرب، فما كان منها يمر على سمت رأسه رآه يقطع دائرة عظمى، وما مال عن سمت رأسه إلى الشمال أو إلى الجنوب رآه يقطع دائرة أصغر من تلك. وما كان أبعد عن سمت الرأس إلى الجانبين كانت دائرته أصغر من دائرة ما هو أقرب... ولما كان مسكنه على خط الاستواء... كانت هذه الدوائر كلها إما قائمة على سطح أفقه أو متشابهة الأحوال في الجنوب والشمال... وكان يترقب إذا طلع كوكب من الكواكب على دائرة كبيرة وطلع كوكب آخر على دائرة صغيرة -وكان طلوعهما معاً- فكان يرى غروبهما معاً. واطّرد له ذلك في جميع الكواكب وفي جميع الأوقات، فتبين له بذلك أن الفلك على شكل كرة...».

وكان العلّامة ابن خلدون قد نقل في مقدمته، نقلاً عن الشريف الإدريسي ١٠٩٩-١١٦٤م حيث قال: «اعلم أنه قد تبين في كتب الحكماء الناظرين في أحوال العالم أنَّ شكل الأرض كروي، وأنَّها محفوفة بعنصر الماء، كأنها عِنَبَة طافية عليه، فانحسر الماء عن بعض جوانبها.. وقد يتوهم من ذلك

أنَّ الماء تحت الأرض وليس بصحيح، وإنما التحت الطبيعي قلبُ الأرض، ووسط كُرتها الذي هو مركزها والكلّ يطلبه بما فيه من الثقل، وما عدا ذلك من جوانبها. وأمَّا الماء المحيط بها فهو فوق الأرض، وإن قيل في شيء منها إنه تحت الأرض إضافة إلى جهة أخرى منه، وأمَّا الذي انحسر عنه الماء من الأرض فهو النصف من سطح كرتها، في شكل دائرة، أحاط العنصر المائي بها من جميع جهاتها بحراً يسمى (البحر المحيط)»

وقد كان الإدريسي قد قال بكروية الأرض، كما أبدع خريطة للأرض نافرة المعالم على كرة من الفضة، فُقدت في حروب صقلية، كما أبدع كرة سماوية من الفضة أيضاً.

وكان المؤرخ ابن الأثير ١١٦٠-١٢٣٤م قد أورد في كتابه (تحفة العجائب وطرفة الغرائب) أنه: «في أيّ موضع وقف الإنسان فيه على سطح الأرض، فرأسه أبداً مما يلي السماء، ورجلاه مما يلي الأرض، وهو يرى من السماء نصفها، فإذا انتقل إلى موضع آخر، ظهر له من السماء ما خفي من الجانب الآخر، لكل ١٩ فرسخاً درجة، وإنَّهم اعتبروا خسوفاً واحداً فوجدوه في البلاد الشرقية والغربية مختلف الأوقات، ولو كان طلوع القمر وغروبه في وقت واحد بالنسبة إلى الأماكن، لما اختلف، وقالوا لو حُفر في الوهم، وجهُ الأرض، لأدى إلى الوجه الآخر، فلو نُقبَ بأرض بوشنج مثلاً لنفذ بأرض الصين» ويبدو أنَّ منطقة بوشنج مقابلة للصين بالنسبة للكرة الأرضية.

ويبدو أنَّ العرب كانوا قد استوعبوا هذه الأفكار، وخاصة في مجال الجغرافية الفلكية، وسادت بينهم فكرة كروية الأرض، ومعها فكرة بطليموس الخاطئة حول كون النجوم في الفلك تدور حولها، وقد بلغ من انتشار الفكرة الصحيحة حول كروية الأرض لدى العرب، انسيابها على ألسنة الشعراء، ومنهم من قال في أشعاره لإيمان البعض بها، بقوله:

والأرض كَوريَّةٌ حفَّ السماء بها
فوقاً وتحتاً وصارت نقطةً مثلا
صيف الجنوب شتاءٌ للشمالِ بها
قد صار بينهما هذا وذا دولا

لذلك نستطيع القول: إنَّ فلكيي العرب كانوا قد تحققوا من كروية الأرض وأنها سابحة في الفضاء، وفسروا دورانها وحركات جميع الكواكب السيّارة، كما قاسوا خط الهاجرة أي خط دائرة نصف النهار، وتمكن أحدهم وهو الفلكي ثابت بن قرة الحراني الذي توفي عام ٩٠١م من استخراج حركة الشمس وحساب طول السنة النجمية، فكانت معه ٣٦٥ يوماً وست ساعات وتسع دقائق وعشر ثوان، كما قاسوا محيط الأرض، ورسموا خرائط القبة السماوية،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

واكتشفوا اختلاف سير القمر بين سنة وأخرى، وأوجد أبو الوفاء البوزنجاني الذي توفي عام ٩٩٨م، إحدى المعادلات الضرورية لتقويم مواقع القمر، سميت معادلة السرعة، كما درس العرب الكلف على وجه الشمس، وعرف ابن رشد الذي توفي ١١٩٨م، بوساطة الحساب الفلكي وقت عبور عطارد على قرص الشمس، فوجده وشاهد بقعة سوداء على قرصها في الوقت المعين، وقد توصل العرب أيضاً إلى معرفة نسبة مساحة الكواكب بعضها إلى بعض، وعرفوا أنّ الأرض أصغر من الشمس، وانتقدوا نظام بطليموس الفلكي وأصلحوا أخطاءه الكثيرة.

وقد كان كوبرنيكوس، وهو الكاهن البولوني الشهير بـ نيقولاي كوبرنيك ١٤٧٣– ١٥٤٢م أوّل من قال بنظرية ثبوت الشمس ودوران الأرض حولها من العلماء الأوربيين في عصر النهضة، فبعد دراسته في جامعة كرافيه، ثم في جامعة بولونيا في إيطاليا، وأخيراً في روما، توضحت له منذ سنة ١٥٠٧م أخطاء القدماء(بطليموس) بجعلهم الأرض مركز العالم الثابت، وأنَّ الشمس وسائر الكواكب تدور حولها. وبعد أن ألح عليه الكاردينال شومبرغ ظهر مؤلفه مطبوعاً في نورمبرغ بعنوان: (دورات الأفلاك السماوية) سنة ١٥٤٢م، وهي سنة وفاته، ففي الكتاب الأول من مؤلفه، ينفي كوبرنيكوس ثبات الأرض، ويبرهن على أنها تدور على نفسها وتدور حول الشمس.

ومن بعد كوبرنيكوس جاء غاليلو غاليلي ١٥٦٤– ١٦٤٢م وهو العالم الرياضي والفيزيائي والفلكي الإيطالي الشهير، والذي يُعدُّ رائداً في مجال الفيزياء الحديثة وعلم الفلك. فعندما كان بصدد إعداد كتاب له في الرياضيات عام ١٦٠٩م بلغه أنّ هولندياً ابتكر (تلسكوباً) فعكف على بناء (مِقراب) أي تلسكوب من صنعه تقريبه ٢٠ مرة، وقد تمكّن بفضله من رؤية الجبال والوهاد على سطح القمر، كما ظهرت لـه مجرة درب التبانة على أنها تجمع نجوماً عدّة، وشاهد أقماراً تدور حول كوكب المشتري، فنشر في عام ١٦١٠م اكتشافاته هذه على الملأ، فأثارت ضجة في الأوساط العلمية، وغدا مدافعاً عنيداً عن نظرية كوبرنيكوس في اعتبار الشمس مركز العالم وليس الأرض، ولدى نشره كتاباً بهذا الشأن عام ١٦٣٢م، استُدعي إلى محكمة التفتيش وهُدِدَ بالقتل إذا لم يُكذِّب نفسه، ووضع في السجن عام ١٦٣٣م، ومُنع من نشر أي كتاب لاحق له، أو إعادة طبع كتابه المنشور الذي تُرجم إلى اللاتينية وإلى لغات أوروبية أخرى.

وهكذا أُجبر غاليلو المسكين على تكذيب نفسه، فأعلن أمام أعضاء محكمة التفتيش

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

«المحترمــين» أن الأرض لا تــدور وإنما هي ثابتة!!!.

ولا نعتقـد أن كوبرنيكوس أو غاليلو قد عرفا هـذه النظرية بعبقريتهما فقط، فقد درسا بكل تأكيد علـوم السابقين، وقد كانا على معرفة بالجهود التي بذلها هراكليدس وأرسيتارخوس، ومـن بعدهمـا البيروني والبتّاني وغيرهم من علماء العرب المسلمين، فـكان كوبرنيكوس وغاليلو قـد عبّرا عن ضمير هـؤلاء، إذ أحييـا آراءهم من جديد وبكل عناية.

كلمة الختام

يتبـين جلياً ممـا سبـق أنَّ المجهودات العربيـة كانـت أصيلـة، وتدل علـى تقدم هائل في هـذا العلم، وأن العـرب منذ أول عهدهــم بالاشتغال بالعلوم، قد تفوقوا على ما قدمه بطليموس وأبطلوا مفاعيله، فقد عـرف العرب أنَّ الأرض مـا هي إلا كوكب صغير يدور ضمن مجموعـة شمسية مؤلفة من تسعة كواكب أخـرى، كل هذا، من دون الاعتماد على تلسكوبات حديثة أو مركبات فضائيـة متطورة، وإنمـا بفضل عبقريتهم الخلّاقة، وأسبقيتهم في علـوم الرياضيات والفلك، قبل كل الحضـارات الأخرى. وأنَّ أوروبة قد بنت نهضتها في هذا المجال على أكتاف العرب وليس على أكتاف اليونان كما هو شائع، فما قدمه كوبرنيكوس وغاليلو في هـذا المجال، ماهو إلا إعـادة لما كان علماء العرب قد ذكروه منذ زمن طويل جداً.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الهوامش

١- كلوديوس بطليموس، فلكي وعـالم رياضيات إغريقي الأصل مصري المولد، عاش واشتهر في الإسكندرية أعـوام ١٢٧-١٥١م، تُعده الدراسات الحديثة الرابع بـين الرياضيين القدامى، كل من إقليدس وأبولنيوس وأرخميدس، ويعتقد مؤرخو علم الفلك أنَّ النتائج التي توصل إليها بطليموس في كتابه ارتكزت أساساً على نتائج سبق أن توصل إليها سلفه هيبارخوس الفلكي الإغريقي العظيم، والذي ولد في نيقيا بآسيا الصغرى وعاش في الإسكندريـة أيضاً في القرن الثاني قبل الميلاد، حيث يـرى بطليموس أن الأرض ثابتة، وهي لا تتحـرك، فيما تدور الشمس والكواكب الأخرى حولها، تلك النظريـة التي بقيت مقبولة عند علماء العالم حتى سنة ١٥٤٢م حيث نقضها كوبرنيكوس.

٢- الأستـاذ الدكتور نائل حنون: عراقي الجنسية، يحمل شهـادة ماجستير آداب في الآثار القديمة من جامعة بغداد ١٩٧٦م، وماجستير آداب في الكتابات المسمارية من جامعة تورنتو، كندا ١٩٨٢م، ودكتوراه فلسفة في اللغة الأكادية وآدابها من جامعة تورنتو، كندا ١٩٨٦م. درّس في جامعات بغداد والقادسية وواسط والكوفة ودمشـق. شغل منصب عميد كلية الآداب (جامعة القادسيـة) وعميد كلية التربية (جامعة واسط)، أصدر أول ترجمـة عربية للنصوص المسمارية لشريعة حمورابي، وملحمة جلجامش، وقصة الخليقة البابلية، كما

أصدر أول معجم عربي للغتين السومرية والأكادية. وله أكثر من ثلاثين كتاباً وبحثاً منشوراً، يأتي على رأسها كتابه الهام جدّاً (حقيقة السومريين)، كما أشرف على العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه، وكان قد نقّب في العديد من التلال الأثرية في العراق وسورية، وله العديد من المكتشفات الهامة.

٣- نسبة إلى فيثاغورث، الرياضي الشهير، والذي عاش في جزيرة ساموس حوالى ٥٣٢ق.م.

٤- أرسطارخس: فلكي يوناني عاش في مدرسة الإسكندرية في القرن الثالث قبل الميلاد، وهو من أوائل واضعي نظرية حركة الأرض حول الشمس ودورانها حول محور مائل على مستوى دائرة البروج، مما يسبب فصول السنة والليل والنهار، كما أنه عاد إلى مذهب الفيثاغورثيين الذي اعتنقه هيراكليد البونتي، فقال بأنَّ الأرض كوكب سيَّار، وليست من النجوم الثوابت، وأنَّ الشمس توجد في نقطة المركز وسط هذا العالم، ولم يبق من مؤلفاته سوى أحجام وأبعاد الشمس والقمر.

٥- أي من مواليد مدينة ساموس (جزيرة ساموس) وهو معاصر لأقليدس وأبولونيوس.

٦- السمت ما كان فوق الرأس تماماً على خط عمودي.

٧- هو محمد بن أحمد أبو الريحان البيروني الخوارزمي، وهو من مواليد خوارزم عام ٩٧٣ م وتوفي عام ١٠٤٨م، وكان قد تنقل بين خوارزم وغزنة والهند وأخذ العلم فيها جميعها، حيث نبغ في الرياضيات والفلك والفيزياء والحيَل والتاريخ، وقد امتاز بابتكاراته في بحوثه العلمية، وكان يتقن إلى جانب العربية كلاً من اللغات السريانية والسنسكريتية والفارسية و«العبرية».

٨- صاحب الكتاب الشهير (حي بن يقظان)، وهو الفيلسوف الأندلسي ابن طفيل القيسي القرطبي الإشبيلي، والذي ولد في مدينة كواديش قرب غرناطة ١١٠٠م، ومات في مدينة مراكش المغربية سنة ١١٨٥م، وهو أحد أشهر ثلاثة فلاسفة أندلسيين إلى جانب ابن باجة وابن رشد.

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

المراجع

١- أحمد بدر: الحضارة العربية الإسلامية، دمشق، ٢٠٠٤- ٢٠٠٥م.

٢- ألبير ريفو: الفلسفة اليونانية أصولها وتطورها، ترجمة عبد الحليم محمود وأبو بكر زكرى، مكتبة دار العروبة، القاهرة، ١٩٥٩م.

٣- الموسوعة العربية الميسرة، المجلد الأول، بيروت، لبنان، ١٩٨١م.

٤- الموسوعة العربية الميسرة، المجلد الثاني، بيروت، لبنان، ١٩٨١م.

٥- الموسوعة العربية، الجمهورية العربية السورية، هيئة الموسوعة العربية، المجلد الخامس، مقالة بعنوان: بطليموس، مفيد رائف العابد، ط١، ٢٠٠٥م.

٦- أنور الرفاعي: الإسلام في حضارته ونظمه، دار الفكر، ١٩٧٣م.

٧- برتراند رسل: حكمة الغرب، عالم المعرفة، العدد ٣٦٤، ج١، الكويت، ٢٠٠٩م.

٨- جاك ريسلر: الحضارة العربية، ترجمة أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط١، ١٩٩٣م.

٩- جلال مظهر: أثر العرب في الحضارة الأوروبية - نهاية عصور الظلام وتأسيس الحضارة الحديثة،

منشورات دار الرائد، بيروت، ط١، ١٩٦٧م.

١٠- جورج سارتون: تاريخ العلم، ت. لفيف من العلماء، دار المعارف، مصر، القاهرة، ج٤، ١٩٧٠م.

١١- زهير حميدان: أعلام الحضارة العربية في العلوم الأساسية والتطبيقية، المجلد الثاني، وزارة الثقافة، دمشق، ط١، ١٩٩٦م.

١٢- زهير حميدان: أعلام الحضارة العربية في العلوم الأساسية والتطبيقية، المجلد الخامس، وزارة الثقافة، دمشق، ط١، ١٩٩٦م.

١٣- زيغريدهونكة: شمس العرب تسطع على الغرب، ت. فاروق بيضون وكمال الدسوقي، دار الجيل، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٨، ١٩٩٣م.

١٤- طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة- القسم الحضاري، بغداد، ج١، ١٩٥٥م.

١٥- عمر فروخ: عبقرية العرب في العلم والفلسفة، منشورات المكتبة العلمية ومطبعتها، بيروت، ط٢، ١٩٥٢م.

١٦- فؤاد أفرام البستاني: دائرة المعارف، المجلد العاشر، بيروت، لبنان، ١٩٧٣م.

١٧- فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج١، ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق، دار الثقافة، بيروت، ط٣، ١٩٨٢م.

١٨- محمد أحمد: الحضارة الأوروبية الحديثة والمعاصرة، دمشق، ٢٠٠٧-٢٠٠٨م.

١٩- نائل حنون: حقيقة السومريين ودراسات أخرى في علم الآثار والنصوص المسمارية، دار الزمان، دمشق، ط١، ٢٠٠٧م.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قصرٌ كدمعك

منير محمد خلف ✿



فكرتُ يوماً
أن أزورَ قصيدتي
فلمحتُ دمعي عالقاً
بثياب محنتها
وكانت زبدة الكلمات
تحبسُ في معاجمها الكثيرَ من القديم
ليفلتَ المعنى النحيف
من الحداثةِ
حاولتْ روحي انتقاءَ حمائم الياقوتِ
من ألق تشهّى صبحها،
ورأيتُ نفسي في أزقتها
تحاولُ أن تكوّنَ نفسها،
ورأيتُ في محراب نكهتها
هديلاً شارداً

✿ شاعر ومدرّس سوري.

العمل الفني: الفنان مطيع علي.

ونواحَ ساقيةٍ
يقي أطيارَ نهر الرّوح
من بردِ ضرير الحلم
يسكب أنبلَ الأشواق في روحي
ويزرعني على أطراف مملكة الرحيق
صريرَ وقتٍ لا يكلُّ
ولا ينامْ

ورأيتُ مالا يستطيعُ العشقُ
أن يحصيْ خسائر ورده
المطعون بالغسق المحلّق
في ارتباكِ الريح،
ألمحُ في سويداء الحروفِ
أراملَ الأفراحِ
زنبقة الوداعِ
وأبجديتها الخبيئة في رواق الجرحِ
زمّلني نداءُ شحوبها
بمسيل غيم قاتم الأضواء
زاوج بينَ غفلةِ دمعتي
وملوحةِ الأرض السقيمةِ
بارتفاع الضغطِ،
عمّر حزنهُ المكبوت
فوق ركام قلبي
والقصيدةُ ما تزال
حبيسة النهر العقيم
تحتّ خطوتها الكسيحة
نحو أنداء الكلامْ.

ستفيض من قلبي الحروف
وأشتهي قمراً صغيراً
سوف يكبر
عندما أحميه من غيري
سيكبر بعد عام
أو أرى شبهي قبالته
يدوّن ذكريات
لم يعشها بعد،
ثم يلمّ صمتاً
لم يجد شيئاً كنكهته
يدور بنبضه الصافي،
سيصغر قلبيَ المخزون بالكلمات
حين تفيض كلُّ ورود وجهك،
أنزوي خلف اللغات
لكي تفسّرني جهاتُ القلب
كي تحمي هواء حنينها
حمّى القصائد،
أنزوي متأبطاً أياميَ الأولى
وحبر خسارتي
متأبّطاً ذكرى الحياة
فربّما ستعيدني نحو الطفولة
عالماً بالحلم أكثرَ
متخماً بالحبّ..
أصفى..
أو أرقّ من انتماء غزالة
لقطيع آهتها
وصبح دعائها.
أهديك هذا القلب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ليس لأنه من صنع نبضك
إنّما ليزيح عن درب الهطول
غيومَ أحزاني،
سألفت ما تخبئه عنايتكم
إلى حلم يخبّئه كلام قصيدتي
منْ مرمرٍ في السرّ
يفتك في مهابته
سقام رحيقه الأعلى،
سأفضح ما يخبّئني عن المعنى
وأخرج هاجسي السفليّ من تابوته
وأطير نحوك عاشقاً أو شاعراً
أو حارساً متبركاً في توبة
منعته أو حال الطريق
من الوصول
ورملُ حزنٍ غارق
في جبّ محنته
لأقرأ كنهَك المغروس
في ليل انهدامي.

فكّرت يوماً
أن أزور قصيدتي
فرأيت عمري شاحباً
في بابها الخلفيّ
قلتُ: هل القصيدة تنحني..؟
كي ندرك الأسرار في صلواتها
وخشوع تفعيلاتها
هل نصف قلبي
في شوارعها حريقٌ هاطلٌ؟

أم نجمةٌ
تنعي سماء سؤالها؟!

جرّبتُ يوماً
أن تقود قصائدي دمعي
وقلتُ: أنا وأنت
يشدّ بعضهما
زمامَ سقوط صاحبه
فقالتْ: لستُ مثلك
لستَ مثلي
قد أنام
وأنت توقظ نفسك العمياءَ
لاستحضار نكهتي الفريدة
أو لإنشاء المعاني،
غير أني لا أرى غيري
فهل ستصير غيركَ؟
قلتُ: ويحكِ!
أنتِ لي
وأنا كأنتِ
وأنت أنّتيَ المديدةُ
أنتِ
أنت نداؤها
.. وأنا خريف الصوت
أحرق هالة الكلمات
حزن النهر
أوجاع النوارس
سكتة الأحلام،
باب القلب أفتحه

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

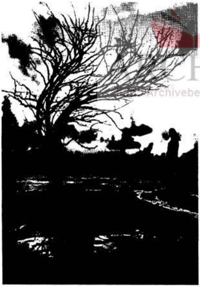
وأسكن ناسَك الغرباءَ
في جنّاتٍ: أصعد
ثم نصعد
نحو ما لا يستطيع البعد
أن يجد انتماء مفرداً،
كالنصّ يفتحني
وأركض بعده شجراً طويلاً
من مراث لا تحدّ
ولا تقالُ.
«معنى» هو الدمع الكثيفُ
هو جارُ قلبي
واحدٌ من عشرة
أنا لا أبشّرهم بشيء
إنما الأرضُ الصغيرةُ
وهي تندف ظلّها
وتهيل حسرتها عليّ دماً
ستُنشئني
وأصعد هامة الذكرى
لتحميني
وتعصمني من النسيانِ.
.. جارَ عليّ
وجهُ صغار روحي
فانكمشتُ عليّ
صرتُ أنا الذي باعدتُني عنّي
فأحرقني السؤالُ
وأنت يا قلبي كفيفٌ!

حتّامَ يصمتُ في
قنديلٌ كثيف الجرح
يأخذني إلى دربٍ
طلائعه انغماسُ الفجر
في غسقٍ يسافر في تعلّقهِ
بأشباح تبادلني سواد الفهم،
تفتح قبلها
نهراً عميق الحزن
في ليل الخيالْ.
دمعٌ يلغّزني
كبيت الشعر
أسكنهُ،
فتهجرني بناتُ خياله القزحيّ
تُخرجُ من تويجات الكلام تساؤلاً
يفضي بما في صمته المهزوم
تأويلاً حداثياً
رحيقاً ناعساً
أملاً قتيلَ البوح
ناقوساً يلمّ خوابيَ الأعراس
يهطل فوق أرض الشعر
ياقوتاً..
بلابلَ من فراتٍ أخضر المسعى
سلاماً بارداً
مطراً نحاسيّاً
تفيض على شذاه الأحجيات.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وَيَضِيعُ مَعَ الرِّيحِ الصَّوْتُ

محمد بسام الجندلي *



فِي آخِرِ مَرْحَلَةٍ مِن هذي الصَّحْراءِ نَزَلْنا،
كُنّا خَمْسَه،
جِئْنا نَبْحَثُ عن شَيْءٍ مَجْهُولٍ فِي أَرْضٍ مَنْسِيَّة،
كُلٌّ مِنّا يَتَأَبَّطُ هَمّاً يَشْغَلُه،
وَمَصِيراً ظَلَّ طَوِيلاً يَحْمِلُه،

يَرْسُو الزَّمَنُ المَشْرُوخُ بِعَيْنَيْه،
وَقوارِبُهُ قَصَبٌ، وَالشَّاطِئُ صَخْرٌ مَمْسُوحٌ،
تَعْوِي فيه الرِّيحُ.
كانَ الأَوَّلُ دَمُّوزِي القادِمَ من آفاقٍ مجهولَة،
بَحْثاً عَن مَعنىً لَم يُدْرِكْهُ العالَمُ بَعْدُ،
دَمُّوزِي القادِمُ من أعماقِ المَوْتِ،

* أديب وشاعر سوري.

ARCHIVE
Archivebeta.Sakhrit.com

فِي كَفٍّ يَحملُ غُصْناً والأُخرى جَمْرًا،
يَنْوي أن يَبْنيَ بينَ جَهَنَّمَ والجنَّةِ جِسْرًا.
يَسْخَرُ منهُ جِلْجَاميشُ –وكانَ الثاني–:
«أَلْقَيْتَ إلى الغَدْرِ قِيادَكْ، وَرَبَطْتَ على أَعْتابِ
المحْبُوبِ جِيادَكْ،
كُنْتَ ضَحيَّةْ».
يَنْفُخُ دَمُّوزي مُعْتَرِضاً.
يَحْسرُ أوزيريسُ –وكانَ الثَّالثَ– عَنهُ قِناعَهْ،
وَيَمُدُّ إلى الشَّفَقِ المَرْسُومِ على الأُفُقِ شِراعَهْ.
يَتَمطَّى فَيُهَسْهِسُ شَيْءٌ كَالنَّبْعْ،
وَيُساقِطُ قَطَراتٍ كَالدَّمْعْ،
يَسْجُدُ للشَّمْسِ وَيَكْتُبُ بالهيروغْليفِ،
كَلِماتٍ وَإشاراتْ،
يَنْسَخُها مِن سِفْرِ الأَمْواتْ،
وَيُتَمْتِمُ: «جِلْجَاميشُ الجَبَّارَ اتَّئِد،
لَمْ تَغْدُرْ عِشْتارُ وَلَمْ تَنْوِ الغَدْرْ،
لكنْ يَحْكُمُها قانونٌ ما منهُ مَفَرّ».
يُعْرِضُ عَنهُ جِلْجَاميشُ وَيَقُولُ لِدَمُّوزي:
«أَسْلَمْتَ على البابِ رِماحَكْ،
وَغَدَوْتَ لِعِشْتارَ سَبيَّةْ،
وَهَجَرْتَ المِحْراثَ فَعافَتْكَ الأَرْضْ،
وَطَوَتْكَ الظُّلْمَةُ فَتَمَرَّغْتَ على الأَعْتابِ الوَحْشيَّةْ،
تَتَنازَعُ رُوحَكَ رَغَباتٌ شَيْطانيَّةْ..»

يَقْفِزُ دَمُّوزي مُحْتَدِمًا،
تَتَضَرَّجُ وَجْنَتُهُ كَالجَمْرِ دَمًا:
«جِلْجَاميشُ الجَبَّارُ لَقَد جَاوَزْتَ القَصْدْ..».
يَمْضي جِلْجَاميشُ يَقُولُ وَلا يَلْتَفِتُ:
«دَمُّوزي يَتْبَعُ عِشْتارَ الفانِيَةَ إلى الأَعْماقْ،
يَخْتارُ النَّفْيَ المَوْتْ،
تَبْهَرُهُ فِي عَالَمِ عِشْتارَ الأَضْواءْ،
يَهْجُرُ مَنْبَتَهُ الأَرْضَ فَيَخْرُقُ نامُوسَ الأَشْياءْ».
يَنْطِقُ أُوزيرُ: «وَأَنْتَ؟!
أَبْحَرْتَ إلى المَجْهُولِ فَضَيَّعْتَ المَعْلُومْ،
وَكما غادَرْتَ رَجَعْتَ وَلَم تُفِدْ».
وَاهْتَـزَّ الرَّابِعُ أُدُونيسُ كَزَنْبَقةٍ سَكْرى.. نَبَتَتْ فِي
البَرِّيَّةْ،
تَرَكَتْ شَفَتا فينوسَ عليها لَوْعَتَها الحَرَّى،
وَدُموعاً كَالطَّلِّ شَقيَّةْ.
يَسْأَلُ أُوزيرَ: «أَتَعْرِفُ كُنْهَ الأَشْياءْ؟
ما الشَّهْوَةُ؟ ما الحُبُّ؟ وَما كُنْهُ البَغْضاءْ؟
مـا العَـدْلُ وَمـا الجَـوْرُ؟ وَمَـن يَرْسُـمُ حُكْمَ
الأَهْواءْ؟..».
دَمُّوزي يُنْصِتُ فِي غَضَبٍ مَكْتُومٍ ثُمَّ يَقُولُ:
«أُدُونيسُ ابنُ الشَّهْوَةِ وَالعِشْقِ المَلْعُونْ
يَسْأَلُ عَن سِرٍّ مَكْنُونْ،
أُدُونيسُ اللُّغْزُ ابنُ الأُمِّ الأُخْتِ الشَّجَرَةْ،

يَخْنُقُهُ الإِثْمُ الطّافِحُ في دَمِه النّابِت في الطّين
شَقائِقَ نُعْمان،
دَنَسٌ أَمْلاهُ هَوىً دَنِسٌ،
وَتَلَقَّتْهُ رَحِمٌ نَجِسٌ،
نَبْتَةَ إِثْمٍ في حَمْأَةِ رِجْسٍ مَسْعُور،
لِيَمُوتَ ضَحيَّةَ خِنْزير..».
يَلْتَفِتُ إِلَيْه جِلْجَامِيش: «وَأَنْتَ؟
أَقْفَرَتْ مِنَ الرُّوح فَأَمْحَلَتِ الأَرْض،
ما عُدْتَ لَها سِرًّا،
تُعْشِبُ حيناً إِنْ أَعْشَبَتِ الذِّكْرَى،
وَتَعودُ تَمُوتُ.. تَمُوت».
جِلْجَامِيشُ الجَبّارُ يُؤَرِّقُهُ اللُّغْز،
ما بَيْنَ المَوْجُودِ وَغَيْرِ المَوْجُود،
وَيُعَذِّبُهُ سِرُّ الزَّمَنِ الضّارِبِ في أَعْماقِ الأَبَدِ
المَمْدُود:
«مَن ماتَ مَضَى،
مَنْ يَمْضِ فَلَيْسَ يَعُودْ،
وَالمَوْجُودُ.. أَو مَن كانَ المَوْجُودْ،
قَد صارَ بِغَيْرِ وُجودْ.
كانَ وَصارَ.. مَوْجُودٌ لَيس بِمَوْجُودٍ..!
دَمُّوزِي! كَيْفَ حَلَلْتَ اللُّغْزَ؟! وَكَيْفَ خَرَقْتَ
السِّرّ؟!
وَكَيفَ عَبَرْتَ الجِسْرَ؟!».

فيقولُ لَهُ أُوزيرِيس:
«ماذا يَعنيكَ مِنَ الزَّمَن؟
هذا النَّهْرِ الجاري دُونَ نِهايَة،
يَحْفُرُ في المَوْجُوداتِ مَيَاسِمَهُ،
هذا الرّاحِل في أَعْمارِ الأَشياءِ بلا غايَة،
يَمضي أَبَداً لا يَتَمَلّى،
يُبْلي الأَشْياءَ ولا يَبْلَى.
لا مَجْدَ تُحَقِّقُهُ في هذا البَحْثِ وَلا مَعنَى،
المَجْدُ بِأَنْ تَمْتَطيَ الزَّمَنَ إِلى الآتي،
رُوحاً تَمْتَدُّ وَتَفْعَلُ في المَوْجُودات..».
يَهْتِفُ جِلْجَامِيش: «وَمَنْ عَلَّمَ أُوزيرَ خَفايا الأَشْياء؟
يَنْطِقُ بِكَلامِ الحُكَماء!
جَمَعَتْ إيزيسُ رُفاتَكَ من بَيْنِ الأَشْلاء،
مَنَحَتْكَ الصُّورَةَ والأَسْماء،
لَوْلا إيزيس..»
يُقاطِعُهُ دَمُّوزي: «يَصْنَعُنا الحُبُّ فَتَتَكَشَّفُ
الأَسْرارُ،
ماذا حَقَّقْتَ بِدُونِ الحُبِّ وَأَنْتَ المَلِكُ الجَبّار؟».
وَيُتابِعُ أُوزيرِيس: «لَقَدْ ضاعَ المُلْكُ وَضاعَ
الجَبَرُوت،
مَجْدُكَ زَيْفٌ وَخُلُودُكَ مَحْضُ سَراب،
وَسَيَبْقَى الدَّهْرُ وَأَنْتَ تَمُوتُ.. تَمُوت».
يَخْطُو أُدُونيسُ إِلَيْهِ ثُمَّ يَقُول:

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

«هذا الميزانُ تَقيسُ بِهِ الأفعالَ بلا مَعنَى؛
يَزِنُ الغاياتِ وَلا يَزِنُ الأسبابَ،
وَالغايَةُ -قَبْلُ- هِيَ السَّبَبُ،
فِعْلٌ لَمْ يَفْعَلْهُ المَحكُومُ بما تَزِنُ؛
ميزانكَ مُعْوَجٌّ وَقياسُكَ مَقْلُوبُ،
وَالغالِبُ فيهِ المَغْلُوبُ.
يا مَلِكاً يَحْكُمُ في دُنْيا الأمْواتِ،
وَالأرضُ صَدىً وَالخَلْقُ رُفاتٌ!
أنتَ المَحكُومُ المَغْبُونُ،
ألْهَوْكَ عَنِ السِّرِّ المَكْنُونِ بِهذا العَرْشِ المَيِّتِ،
وَكَأنَّكَ طِفْلٌ مأفُونٌ».

❁ ❁ ❁

وَأنــا كنتُ الخامِسَ، وَحْدي بَيْنَ الآلِهَةِ وَأنْصافِ
الآلِهَةِ وَهذا التِّيهُ،
وَحْدي كنتُ الإنْسانَ،
أبْحَثُ في آفاقِ المَجْهُولِ،
عَن خَيْطٍ يَرْبِطُ بَيْنَ العِلَّةِ وَالمَعْلُولِ،
وَالعاقِلِ وَالمَعْقُولِ،
مَن يَحْكُمُ مَنْ.. في هذا الكَوْنِ؟
وَلِماذا القاتلُ وَالمَقْتُولُ؟
وَمَتى يَتَكَشَّفُ للعَقْلِ المَجْهُولُ وَكَيْفْ؟
وَإلامَ يُغَطِّي جَوْهَرَ هذي المَوْجُوداتِ الزَّيْفْ؟
يا مَنْ يَخْتَصِمُ بِهذي البَرِّيَّةْ،
مِن بَعْدِ المَوْتِ!
ما البَعْثُ إذا ضَيَّعْتَ الحُرِّيَّةْ،
وَقَنِعْتَ بِصورَةِ مَوْجُودٍ دُونَ هُوِيَّةْ؟!
وَيَضِيعُ مَعَ الرِّيحِ الصَّوْتْ..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

القـــربان

عبد الباقي يوسف ✿



هل سيكون بوسعها أن تعيش يوماً يكون فيه بونجغ غائباً عن الحياة، وأي حياة جافة ستكون تلك التي لاتتفوح برائحة بونجغ، كأنَّها تعيش فقط من أجـل أن تراه كل يـوم وتطمئن على وجوده سليماً، وعندما يغيب يوماً عن البيت، تلبث مستيقظة، مشتتة الذهن إلى أن يعود.

لم يسبق لهـا أن ذاقت لذة النظر إلى وجـه مخلوق كمـا تتذوقه وهي تضـع أنظارها علـى محيـاه، كأنه سيهرب بعد لحظات ولن تراه ثانية.

تأنـس حواسها لرائحتـه، ترتاح أذناها لسماع نبرات صوته.

✿ أديب وقاص وناقد سوري.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عندما يكـون نائماً، تنظـر إليه بعمق كأنَّها تنظر إليه أوَّل مرة،

عندما يكون جالساً، لاتملك نفسها إلا أن تنظر إليه،

عندما يكون واقفاً ولو بين مئة شخص لايلفت نظرها غيره،

حتى عندما يكون غائباً فإنَّها تسترجع نظراتها إليه،

تسترجع رائحته،

تستعيد نبرات صوته.

عندما بلغ الخامسـة من عمره كانت أحيانـاً تحبسـه في البيت حتـى لايخرج، وكانت تتحجج بأنَّها تخاف عليه من عيون الحسّاد، لكـن الحقيقة التـي لاتملك أن تخفيها عن نفسها هي أنَّها لاتحتمل غيابه ولـو لساعة واحدة عندمـا يلعب فيها مع أطفال القرية في الشارع.

- بونجـغ، هـل سينتهـي كل هـذا ياولدي؟

اليوم صباحـاً قال لها الطبيب هذا الكلام المزلزل، قال الكلام الذي كان لابد أن يقولـه حتى يخرج بونجـغ من المشفى بعـد مكوثه أسبوعاً مـن دون فائدة، فقد استفحـل به الداء، وهـي ساعات معدودة حتى يفارق فيها الحياة.

- لا أمل.. لا أمل.

لفظها الطبيب وهو يدرك مدى وقعها على أقـرب الناس إليه، ثم مـا لبث أن أضاف بسحنتـه الجادة: أقول هذا الكلام حتى لا ترهقـوا أنفسكم بأخذه إلى أماكن أخرى للعلاج، أقول لكم بأسف أنَّ كل شيء انتهـى، هذه هي الحقيقـة وليس أمامكم غير الرضا بواقع الأمر.

لحظتذاك خارت بجسدها المنهك على سريره وهـي تطبع قبلاتهـا الدافئة على يديـه الباردتين لتعود بهـا الذاكرة ثلاثين سنـة، اليوم الأوَّل الـذي أخبرتها الطبيبة فيـه بأنَّها تحمـل ذكراً بعـد ست بنات، الحلم الذي تحقق أخيراً.

يومهـا لم تملـك نفسهـا مـن الفرحة فراحت تضم الطبيبة إلى صدرها وتقبلها على رأسها، ثم خرجت وهي تنذر خروفين تـوزع لحمهما على سـكان القرية إذا ولد المولود بسلام، وعندمـا وصلت إلى البيت قالت لبناتها وهي تخبرهن النبأ بأنَّها أيضاً سوف تمشـي حافية القدمين إلى قرية / حانـون/ التي تبعد مسـير خمس ساعات عن قريتها وتعود سيراً على الأقدام.

بعد ذلـك غدت كل مطلع شهر تمضي يومـاً كاملاً في الذهاب والإياب حتى تأتي المدينـة لتراجـع طبيبتهـا وتطمئن على صحته.

وفجـأة، قبل الأوان، ذات ليلة عاصفة بالغة البـرودة أحست بأنَّها ستضعه، ظنت أنهـا في حلم، فهـي للتو دخلـت الشهر الثامـن، ولم تمض ساعة حتى ملأ صراخه البيت، البنات الست تحلقن حوله، ورغبن فيما لو كان الأب حاضراً ليشاركهن فرحة سماع نبرات المولود الأولى، كان لسوء حظه يبيت الليلة في بيت أحد إخوته في المدينة، ولم يخطـر في باله أنَّ ابنـه المنتظر سوف يفتح عينيه على العالم هذه الليلة.

قالت: أريد أن أزداد يقيناً، هل هو حقاً ولد؟

ولد يا أمي.. إنَّه ولد.

قالتها ابنتها الكبرى /كنز/ المتزوجة في القرية نفسها ملء الفم.

ثم راحت تنظر إليه كأنها أصبحت أماً لأوَّل مرة.

عندما عاد الأب ظهـيرة اليوم التالي، أطلق عليه الاسم الذي سوف يلازمه مدى الحياة: بونجـغ.. إنَّه بونجــغ. وراح يقبل بناته واحدة تلو الأخرى قائلاً: أصبح لكن أخ سوف يحميكن، أصبح لأبنائكن خال.

وعنـد الصبـاح ذبح عجـلاً ودعا كل سكان القرية لتناول الغداء احتفالاً بقدوم بونجغ.

بـدأ بونجغ يكـبر يوماً بعـد يوم على يديها، وهي متفرغة له من دون أن يشغلها أي شيء عنه، وقـد خصصت دفتراً كتبت اسمـه عليه، تكتـب فيـه كل مرحلة من مراحـل حياته، وتأخذ صـورة له في تلك المرحلة تضعها في ألبوم خاص بنموه.

في الشهر الأوَّل كانـت تنظر إلى يديه القريبتين من بعضهما، وتشابك أصابعه.

في الشهر الثاني بدأ يرفع رأسه، وينظر إلى الحركات من حوله، وترتسم على شفتيه بسمة صغيرة.

في الشهر الثالث يحرك قدميه، ويمص أصابعه، يكثر البكاء.

في الشهر الرابع يرفع رأسه بشكل جيد، ويريد أن يتحـرك في محاولة ليتقلب على يمينه أو يساره، يضحك بصوت ملفت.

في الشهر الخامس يستقيم ظهر بونجغ وهي تحـاول أن تجلسه، يحدق في الوجوه وكأنه يبدأ في تمييزها.

في الشهـر السادس ينقلب على بطنه ويحـاول أن يرفع جسـده بوساطة يديه، وتتشكل أسنانه اللبنية المؤقتة.

في الشهـر السابع توقفـه على قدميه فيلبث واقفـاً بمساعدتهـا، ينتزع الدمى والألعـاب مـن يديها، وتسمعـه لأوَّل مرة يلفظ: مم.. أي.. آه.

في الشهـر الثامن توقفـه على قدميه،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وتدعه لبريهات فيميل، تمد يديها لتسنده وهي تدربه على الوقوف، يعتمد على يديه في مسك زجاجة الحليب، ينقلها من يد إلى أخرى.

في الشهر التاسع يزحف بونجغ بشكل جدي على يديه وقدميه، يقول: ما.. با.. دا.

في الشهر العاشر يقف على قدميه بمساعدة أقل منها، يحاول أن يقلدها في بعض الحركات، يبحث بيديه عن الدمى والألعاب.

في الشهر الحادي عشر تمسك به من الخلف فيمد خطواته نحو المشي وهو يقول: ماما.. دادا.

تضع خيطاً في أسفل قدميه ليقطع الخيط ويمد خطواته، وتفرّق السكر على أطفال القرية بسخاء.

بعد شهر يمد خطوات المسير بشكل أفضل ويبتعد عنها، يرفع الملعقة ويأكل بها، ويصفق لأوّل مرة.

في الشهر الخامس عشر يرفع جسده إلى الأرجوحة، وينزل منها، يصر على بعض الأشياء التي يريدها.

بعد ثلاثة شهور يركض بونجغ في الحوش، يسمي بعض الأشياء التي يراها. كل هذا ونساء القرية يقلن أنّ ونيسة تربي ابنها في عينيها ولاتدعه يطأ الأرض.

حتى إنّ فطينة التي /بها العين/ كما هو شائع في القرية لم تتمكن من أن تنظر إليه قبل بلوغه السادسة من عمره، كانت عندما تضطر لإخراجه من البيت، حتى يذهب إلى المدرسة، تمد رأسها إلى الشارع، فإن رأت فطينة تجلس أمام أحد الحيطان، عادت وجعلت إحدى بناتها يراقبنها إلى أن تذهب إلى البيت حتى تخرج به.

عندما حصل بونجغ على /البكالوريا/ لم تستطع أن تتخيل بأنه سوف يذهب إلى مدينة أخرى ليكمل دراسته، فاضطر بونجغ أن يذعن لها عندما رآها على وشك الانهيار وهو يلمح للسفر والدراسة.

وتذرعت بأنّ البيت يحتاج إلى وجود رجل لأن الأب لم يعد قادراً على متابعة أحوال الزراعة كما كان.

وعندما بلغ الخامسة والعشرين راحت تخطب له أجمل فتاة في القرية حتى ترى أحفادها، وتطمئن بأن بونجغ قد استقر في الحياة وأصبح رجلاً حقيقياً، وكان شرطها الأوّل على الفتاة أن تقبل العيش معه في بيت أهله من دون أن تطالب يوماً ما بالخروج من البيت.

وكما أنَّه تأخر في المجيء، فإن حفيدها منه أيضـــاً جعلها تنتظر أربع سنوات حتى تراه.

سنوات طويلة حافلة بالأحداث والوقائع مضت كأنها كانت غفوة ظهيرة، الآن سوف يرحل بونجـــغ عن الحيـــاة برمتها، يرحل كأنه لم يكن.

لم يكن أمامهم إلا أن يجلبوه من المشفى حتى يقضي في البيـــت كما نصح الطبيب المشرف على علاجه، وقال بأنَّ ذلك لا يتجاوز صباح الغد بحسب الحالات المشابهة التي بلغت هذه المرحلة من الخطورة.

جلـــس الجميع في الغرفـــة ذاتها التي يتمدد فيها بونجغ على فراشه في غيبوبة مـــن دون أن يدري ما يحـــدث حوله، تاتي أخواته الست المتزوجات لتطبع كل واحدة قبلة على جبهتـــه، ثم تقبله زوجته، وتضع طفله في حضنه.

عندما بلغت الساعة الثانية ليلاً، ولبث بونجغ من دون حراك، طلبت أمه أن يخلوا الغرفة حتى تبقى وحدها معه، لم يكن بوسع أحد أن يعصـــي الأمر، حتى زوجها السيد عقيل لم يملك إلا أن يمتثل لهذا المطلب.

جلست الأخـــوات الست وزوجة بونجغ وطفله برفقة الأب عند عتبة باب الغرفة المحكم، ليمضي الليـــل من دون أن يصدر منهـــا صوت، تبادلـــت الأخـــوات نظرات الســـؤال فيما بينهن، بينمـــا السيد عقيل ينظر في الأرض من دون حراك، والزوجة تهدهـــد طفلها وتدندن لـــه بحرقة تاركة الدموع تسيل على خديها.

بعد قليل ومـــع بزوغ الشفق لفت سائل أحمر اللـــون أنظارهن، يرافق ذلك صدور أصوات من الغرفة المحكمة.

رفع الأب رأسه لـــيرى السائل الأحمر يتسرب من تحت باب الغرفة المغلق.

تتالت الطرقات علـــى الباب من دون أن يجيب أي صوت، ومع تصاعد الحركات غـــير المألوفة وتسرب السائـــل الأحمر من تحت البـــاب لم يبق أمـــام السيد عقيل إلا أن يحطـــم الباب ليلج الجميع دفعة واحدة ويقعـــوا على منظر رهيـــب، كانت السيدة ونيسة قد بـــترت أذنيهـــا ووضعتهما على أعلى اللحاف الذي يتغطى به ابنها، وكانت تـــدور على شكل حلقات بالدم حوله قائلة بشـــكل نحيب رافعـــة كفيهـــا إلى الأعلى: يـــارب، إنَّه ابني الوحيـــد، خذ عمري بدلاً عنه، يا رب اجعلني قرباناً لبونجغ.

كانـــت تلـــك اللحظـــات هـــي الأخيرة والحاسمة بالنسبة لحياة بونجغ، فقد طلع الضوء، وحان موعد الفراق، والأم شاحبة ينز العرق والدم منها، تدور بجدية بالغة

كأنها في حالة عبادة من دون أن يجسر أحد على الدنو منها، وبونجغ يرقد وسط دوائر الدم والعرق.

عند سماع الأصوات المفزعة من الغرفة، فتح بونجـــغ عينيه كأنه يفتحهما لأوّل مرة ليرى نفسه في ذاك المشهد، عندذاك هدأت الأم وهـــي ترى عينيه المفتوحتين لأول مرة منـــذ أسبوع، جمدت في أرضها وهي تنظر إليـــه، ثم بعد لحظات خارت على ركبتيها وهـــي تنظر إليه مبتسمة، ثـــم ما لبث أن زحفت وطبعت قبلتين على خديه ناسية ما هـــي به، كما نسي الجميـــع ماهي به وهم ينظـــرون إلى بونجـــغ الذي تحـــرك قليلاً وما لبـــث أن نهض من الفراش كأنه ليس مريضاً وبدأت العافيـــة تعود إلى سحنته، نسي الجميع أمر الأم تماماً لينشغلوا بما طرأ على بونجغ من تغيير مباغت.

وقـــف بونجغ على قدميـــه قائلاً بأنه لايشعر بأي أعراض مرضية، ثم طلب كأس ماء من أخته الصغـــرى لأنه يشعر بعطش شديد.

عند ذاك رفعت السيـــدة ونيسة يديها إلى السماء قائلة: يارب لاتحرمني من رؤية بونجغ بعد أن عافيته.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اعتــراف

إسكندر نعمة ✿



ظلَّ الصمت يفرد جناحيه مكلّلاً أرجـاء الغرفـة. لم يكـن يقطع حبل الصمّـت إلّا صوت ارتشـاف ذرات القهـوة السّاخنة، مع حركات هامسة مخنوقة من الشّعـور بالتّلذّذ والطّعم العـذب.. لم يطل الصمّـت المسيطر كثـيراً. كانت نوال تشعـر أنّ شيئاً ما يتردّد في حناياها، يضغط صدرها في محاولة عنيفة للخروج إلى العلانية.. مزّقت نوال ستار

الصمّـت المسدل علـى الجلسة الهادئة، ورشفـات القهوة المشاكسة. استدارت نحو صديقتها لمياء. تابعت

✿ أديب وقاص سوري.

العمل الفني: الفنان مطيع علي.

مسيرة فنجان القهوة بين أناملها وشفتيها. ابتسمت ابتسامة شاحبة، وقالت بصوت هادئ متوتّر: «منذ أيّام قليلة خلت، كنت على وشك أن أطلب الطّلاق بحزم وإصرار».. سكتت قليلاً. غاضت الابتسامة من بين شفتيها. احتقن وجهها بمسحة من الشّحوب والانفعال، ثمّ تابعت بصوت أعلى: «ولكنّني أقلعت عن ذلك في اللّحظة الأخيرة»..

أصلحت لمياء من جلستها، رفعت حاجبيها، توسّعت حدقتا عينيها، امتلأت صفحة وجهها بالذّهول، فاضت عيناها بالدّهشة والتّساؤل: «لماذا؟!! أيّ شيء تعنين؟؟»..

تسمّر فنجانا القهوة عن الحركة المكّوكيّة. تراجعت الأنامل اللدنة عن الحركة والتّناول. اشتجرت العيون الأربعة.. قالت نوال:

– أذكر وبشكل يتمرّد على النّسيان، أنّ حبّاً عظيماً ربط بيني وبين سالم. وقد تتوّج هذا الحبّ بعد مغامرات عاطفيّة ممتعة، بالزّواج.. عشنا معاً أجنحة السّعادة. كنت موظّفة في سلك التّعليم الابتدائي، وكان هو موظّفاً صغيراً في مكتب للسّياحة.. تراءى لي أنّنا نكتب قصائد حبّ بأناملنا، ونرسم لوحات ملوّنة بألوان الثّقة وأطياف الأمل. نستشرف نبضات مستقبل ممتع آسر..

كانت لمياء تحدّق في وجه صديقتها. تختزن حديثها حرفاً حرفاً. وتقرأ في عينيها ما بين الكلمات. امتدّت يدها وتناولت فنجان القهوة.. سكتت نوال. تراجعت الكلمات في حنجرتها. خربش الصّمت صوت ارتشاف القهوة. أصلحت لمياء من جلستها. منحت صديقتها ابتسامة رقيقة تنطوي على أكثر من معنى. قالت بصوت مبحوح هادئ:

– أعرف ذلك.. لقد حدّثتني عنه أكثر من مرّة.. وماذا بعد؟..

احتقن وجه نوال. لعقت شفتها السفلى مرّات عدّة.. كان صوت فيروز المخمليّ، يكلّل هامة الجلسة بينهما. يصدر عن مذياع صغير مركون في زاوية الغرفة، وفنجان القهوة لم يزل ينضح بقطراته اللّذيذة.. ملأ رحاب الغرفة الصّامتة غناء يعطّر الهدوء من حولهما:

«يا جبل اللي بعيد
خلفك حبايبنا

بــتـــمـــوج مـــتـــل الـــعـــيـــد
وهـــمَـــــك مـــتـــعَـــبـــنـــا
اشـــتـــقـــنـــا لـــلـــمـــواعـــيـــد

....

استجمعـت نوال شتـات نفسها. بلّلت لسانها ببعض قطرات من القهوة السّاخنة.. تابعت:

- لسـت أدري كيـف تحـوّل سالم من موظّـف صغير إلى تاجر كبير. وكنت أنا ما أزال معلّمة أتفاعل مع تلك الأرواح الغضّة الناشئة.. في السّـوق الرّئيسية افتتح سالم مكتباً فخماً تعلوه يافطة إلكترونية تخطف الأنظار ببريقها وحروفها الوهّاجة: تجارة عامّــة.. استيراد وتصديــر.. كومسيون.. استرحنا في أعطاف تلك البحبوحة الماديّة.. سيّــارة فارهة وأموال تنصبّ على الجيوب والمصــارف.. نزهات ومطاعــم وفنادق.. وجاء يوم آخر..

سقطـت نــوال في أحضــان الصمّت من جديد. أغمضــت عينيها وغاصت في دهاليز ذكريـات متشابكــة.. وقفت لمياء وقــد استبــدّت بها حيرة وذهــول. حملت ركوة القهوة إلى المطبـخ المجاور. أصلحت مــن شأنها وأعادت لهــا السّخونة والحياة من جديــد. كانت أغنيات فــيروز المنبعثة عن شريــط الكاسيت ما تزال تبعثر الكآبة والجمود عن العيون والأعصاب.. غرست لميــاء عينيهــا الحائرتين في عينــي نوال. سكبت فيهما الكثير من التّساؤل:

- حتّــى الآن لا أرى في الأمر سوءاً. كلّ شيء جيّد ورائع، فَلِمَ الطّلاق؟!..

امتدّت يد نوال المرتعشة، وسكبت القهوة السّاخنة في جوف الفنجانين.. تعالى صوت ارتشاف القهوة من جديد. الصّوت يشاكس الصّوت، والهدوء يغمر المشاكسة.. عقدت نــوال ذراعيها أمام صدرها، واستلّت نفساً عميقاً، تدحرجت الكلمات من بين شفتيها واهنة:

ARCHIVE
http://Archivebeta.sakhrit.com

- فاجــأني سالم ذات مساء، بأنّ وضعنا الماديّ لا يقتضي بأن أظلّ منهمكة بشؤون البيت وخدماتــه، وأنّه أسوة بــكلّ التّجار والأغنيــاء يرغــب في أن يجلــب خادمــة تساعدني في أعمال البيت. بل تكون تحت تصــرّفي.. فكّرت كثــيراً في الأمر ووافقت أخــيراً.. ولم لا.. الأموال كثــيرة والتّجارة طائشة.. والخادمــات الآسيويات كثيرات وعلى «قفا مــن يشيل». هكذا هي الحياة. إنسان يخدم وآخــر يدفع. والمجتمع اثنان

أجير وسيّد.. هكذا صـوّرت لي خواطري وأفكاري وأموال زوجي..

سكتت نوال لحظة عن الكلام. تلمّظت. أسنـدت جسدها إلى الوراء. لعلّها تريد أن تختصر الزّمـن والأيّام. تابعت.. في مكتب الاستخـدام عرضـت علينا صـور كثيرة، صور لفتيات من سيريلنكا ومن أندونيسيا، ومـن الفيليبين، ومـن تايلاند ومن ومن.. كلّ صورة مشفوعـة بمعلومات عن العمر والوضـع الاجتماعيّ والرّاتـب الشّهريّ.. انصبّ اختيارنا على فتاة من أندونيسيا.. لمـاذا؟ لست أدري. كان الاختيار عائداً لي. سالم لم يتدخل مطلقاً. وسريعاً ما كتب العقد ودفعـت الأموال اللازمـة والفرحة تقطر من وجهينا وعيوننـا.. عندما خرجنا من المكتب. ضغط سالم على كفيّ، وملأ عينيّ بنظـرات حنونة وقال: «عمّا قريب ستصل الخادمة الأندونيسيّة وبعدها لاأريدك إلاّ سيّدة مطاعة»..

وجاءت الخادمـة الأندونيسيّة. احتلّت مكانها في البيت. فتاة لا تزيد عن العشرين من العمر إلّا قليلاً. لست أدري لماذا شعرت بغصّـة في الحلق وارتعاشـة في الأعصاب وأنـا أستقبلها للمـرّة الأولى. لكنّ ذلك لم يطـل، لأنّنـي أصبحت السيّـدة المطاعة، الآمـرة النّاهية. كلّ شـيء يجري بميزان وفق أوامري الطّائشة منها والصائبة.

ظللت معلّمة. رفضت أن أستقيل. الحالة الماديّـة العابثة قادتني إلى كل شيء، إلّا أن أتخلّى عن عملي. كنت معلّمة ناجحة أحبّ عملي وأطفالي.. في كلّ يوم أصدر أوامري للخادمة الأندونيسيّـة، وأغادر البيت إلى المدرسة. كان سالم يسبقني في مغادرة البيت إلى مكتبه الأنيق والكبير. في ساعة محدّدة أعود إلى البيت. أصـدر أوامري لإحداث اللّمسات الأخيرة بانتظـار سالم الذي كان يعود في وقت متأخّر..

كان الحماسـ قد دبّ في أوصال نوال، فارتفعت نبرة صوتها وراحت ترسل كلماتها متوتّرة متداخلة:

- عشنـا هكذا سنوات عـدّة، خلت أنّ السّعادة طرقـت أبوابنا من شتّى جوانبها، وأنّ الفرح قد غمـر أوقاتنا بكلّ ثوانيها.. بيـت جميـل، كلّ شيء فيـه متقن محكم. زوجان وخادمـة وطفلان صغيران يرتادان مدرسة الحضانة في كلّ يوم.

أفرغـت نوال كلّ مـا تبقّى من ذرّات القهوة في فمها، وراحت تتذوّق طعم القهوة

اللذيذ. جارتها لمياء في ذلك. كانت القهوة قد ابترِدت، وشريط الكاسيت قد أقفل فمه وتوارى صوت فيروز. لم يبق في الغرفة إلّا همس امرأتين متجاورتين، وهسيس الهواء العليل من حولهما يداعب ستائر النّوافذ.. قالت نوال وقد ازورّت عيناها:

– وجاء يوم.. كم كنت أتمنّى ألّا يأتي.. عدت في أحد الأيّام من مدرستي مبكّرة جدّاً بسبب صداع ألمّ بي.. كان للمفاجأة وقع الصّاعقة.. شاهدت سيّارة سالم تجثم أمام مدخل البناية!! لم أصدّق عينيّ.. ليس من عادة سالم أن يأتي مبكّراً.. في كلّ يوم يأتي بعدي..

يا الله!! هل ألمّت به هو الآخر وعكة، أم ماذا؟.. هل هو على أهبة سفر وجاء يريد إعداد أموره؟ هل حصل مكروه للأولاد؟..

بتّ أنتظر مفاجأة مرّة.. اصطكّ قلبي وابترِدت أطرافي.. دخلت البيت بهدوء والعواصف السّوداء تعصرني من الدّاخل.. كاد قلبي يقفز من مكانه. لم أجد أحداً في بهو الشّقة. قصدت المطبخ، لم أجد أحداً، عندما وصلت قدماي إلى قرب باب غرفة النّوم سمعت صوت «الدّردكة».. كان الصّخب والفحيح واللهاث المحموم يتسلّل عبر شقوق الباب ونافذة الغرفة.. تسمّرت في مكاني كجذع شجرة هرمة مقطوعة. توقّفت الخواطر عن القفز في داخلي. ظللت واقفة فترة لا أدري مداها. قطعت أنفاسي عن الوجيب، وتثلّجت أطرافي، ووجدتني أستدير وأعود من دون أن أصدر أيّة حركة.. قضيت ساعات عدّة خارج البيت، وقد احتقن صدري بحقد وألم لا حدود لهما..

كانت علامات المفاجأة قد ملأت وجه لمياء، فتجهّم وجهها، وضاقت حدقتاها، وراحت تسأل في ألم ورعونة:

– وماذا بعد ذلك؟ ..ألم تفاتحيه بالمسألة؟!

– لا.. بعد أسبوع من الصّمت المطبق، أصررت على التخلّي عن الخادمة الأندونيسيّة وإعادتها لمكتب الاستخدام ودفع كامل حقوقها. عارض، لكنّه أذعن.

استلّت نوال نفساً عميقاً. تطلّعت حولها. تجوّلت عيناها في أرجاء الغرفة. قالت بصوت مرتعش:

– بعد أسبوع آخر قلت له: «لقد أصبنا بالتّخلّي عن الخادمة، فقد أنبأني المكتب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بأنَّهـا كانت مصابـة بالإيــدز».. قلت له ذلــك وأنا مستسلمة لارتخـاء أبله وعبثيّة طائشة..

جحظت عينا سالم.. امتقع لونه.. تخثّر اللّعــاب في حلقه وعجز عن الكلام. حاول أن يقــول شيئــاً فلم يستطع. لكــنَّ عينيه وملامــح وجهــه نطقت بالشــيء الكثير.. انسحبت بكلّ هدوء ورحت أرقب تحرّكاته وسقوطه..

سألتهــا لميــاء: «ولمــاذا لم تكشفــي له الحقيقــة؟ لماذا لم تغادريــه؟.. ألم يكن ذلك أفضل؟!..

صمتت نوال طويلاً. تنحنحت. أطلقت كلمات جافّة:

- لا.. لــن أفعــل.. سألفّــه بمفاجآت أخرى. لم أشف غليلــي منه بعد.. وعندما يحــين ذلك الوقت، سأكشــف له الحقيقة التي أعرفها..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هي الحرب..

✪ د. هزوان الوز

قد تتعرض الدول -كما الأفراد- في حياتها لظروف وأزمات وحروب تبعاً لموقعها ولموقفها وهذا ليس حكماً أخلاقياً فالدول التي لا تتعرض لذلك ليست بالضرورة دولاً بلا موقف. أمّا لماذا سورية في عين الحدث لا بل هي التي تصنعه أحياناً؟ لم يكن من باب المبالغة أن يشير غير سياسي من كبار الساسة في العالم إلى أنّ سورية تظهّر صورة مستقبل العالم القادم وتعطيها تفاصيلها وألوانها، سورية في عين العاصفة لأنّها عملت

ومنذ استقلالها مع المؤمنين بأمّة عربيّة مستقلة سيدة على تحرير هذه الأمة والحفاظ على هويتها المبرقشة وطنياً في إطار عربي وأرضية عربية تحتضن نضال الحالمين ببلاد حرة وشعب سيّد ومجتمع إنساني وتجمعهم حول قضية العرب المركزية فلسطين، قطب رحى النضال العربي التحرري ورافعته، وعلى الرغم من الإخفاقات والنكسات فلقد حققت الأمة نجاحات في هذا المجال أبرزها تحقيق الوحدة العربية بين مصر وسورية وانطلاق المقاومة الفلسطينية وحرب تشرين، والمقاومة اللبنانية والمقاومة العراقية وانتصار تموز وصمود غزّة، وكانت

✪ باحث وناقد ووزير للتربية.

سورية حاضرة في تلك النجاحات على نحو أساسي لا بل كانت تصنعها، ووصلت النجاحات إلى مدى جدي يبشر بعودة زمن الانتصارات العربية، ولهذا تنادت قوى الشر والاستعمار التي لم تتوقف شهيتها للاستعمار يوماً واحداً، وبدأت ترسم الخرائط وتطلق المصطلحات والتصنيفات وتقرر المصائر. وفي اللحظة المناسبة أطلقت قطعان القتلة والإرهابيين وكانت الحرب في سورية وعليها.

ولئلا أبدو ممن يعتقدون بنظرية المؤامرة ويروجون لها. مع أنني لا أنفيها مطلقاً فسأحاول إيضاح الأمر.

الحرب في سورية التقاء إرادة الخارج مع إرادة السوء والفساد في الداخل، وهذا لا يعني أنّ الإرادتين من طبيعة واحدة ولقاؤهما يشبه إلى حد كبير لقاء اللهب بالزيت يشعل الحريق مع أنّ كلاً منهما من طبيعة مختلفة.

واشتعل الحريق في سورية وكانت الحرب، ولن أتعب نفسي الآن بالسؤال أو التساؤل عمَّن صبّ الزيت أو جمع الحطب ولا عمَّن رمى اللهب، لن أتعب نفسي الآن لأصنع من الأسئلة حائط مبكى، بل سأسال عمّا وعمَّن يطفئ النار ويبني سورية القادمة. وأعود لأؤكد ثانية أنّ الغرب الاستعماري (وعلى رأسه أمريكا والكيان الصهيوني) هو الحاضن الرئيسي للحرب التي شُنت على العرب وعلى سورية بشكل رئيسي، ولُزمت هذه الحرب لأغبياء أملاً بدور مستقبلي أو ضماناً لحاضر يعرفون أنّه لن يبقى، وغاب عنهم أنّ أسيادهم لا يصنعون لهم مكانة أو دوراً، وواقع الحرب التي نعيشها في سورية خير دليل على ذلك.

واشتعلت الحرب في سورية، وما قيل فيها لم يُقل في غيرها من حروب العالم، وما حدث فيها تجاوز ما حدث في الحروب الأخرى، ومع ذلك فهناك حتى اليوم من لا يراها حرباً، ومن لا يريد أن يراها كذلك.

نعم يا صديقي إنّها الحرب وعلينا أن ندرك حقيقتها ونعيها، إنَّها قتل وإجرام وسرقة واغتصاب وجوع وتشرد، وهدم بيوت ومدارس وحرق وسرقة للمعامل والتاريخ والحضارة، وهي كما قال شاعرنا زهير بن أبي سلمى

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم

وما هو عنها بالحديث المرجَم

نعم إنّها الحرب تستهدفنا وتستهدف حضارتنا ودورنا، حرب أعدّت لها العدّة لضربنا في عزتنا وهويتنا وقيمنا.

نعم إنّها الحرب، إنّها واقع وعلينا أن نعيها وندركها ونواجهها ونتعامل معها على نحو يتجاوز اللفظ أو معايشة الأحداث والجرائم. الحرب أكبر من كل ما ذكرت وما

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لم أذكر، الحرب هي أيضاً معان وأهداف بعيدة.

هي معنى أن يرفع مواطن سوري العلم الإسرائيلي على الأرض السورية. هي معنى أن يقابل السفير الأمريكي بالورد وأن يهلل لشارون صديقاً. هي معنى أن يؤجر الأعراب هويتهم القومية للغرب زمناً طويلاً لتغيب عن مواجهة الصهاينة والتصدي لجرائمهم، وتستنهض الآن شعاراً يستغل لضرب الأصدقاء.

الحرب هي في ضراعة الأعراب يستجدون الأجنبي ضرب سورية وشعبها، ومع أنَّ الأمر ليس سابقة عند الجامعة العربية فلقد فعلتها من قبل. فما الذي بقي من الجامعة العربية، ومن مفهوم الأخوة العربية والتضامن العربي؟

معنى الحرب أن تصبح الطائفية والمذهبية معياراً وأساساً للمواطنة.

معنى الحرب أن تقسّم سورية ولو كان التقسيم تحت أي مسمى أو عنوان.

معنى الحرب أن نشوّه الدين وقيمه ونزوِّر باسم الله الذي صنع قيمنا قيم الدين الحنيف، وأن نجعل من كتاب الله سواطير لنحر الأخوة وسفك دمهم ظلماً وعدوانا ودم الأعداء مصان.

معنى الحرب أن تُذلَّ نساءٌ حرصنا مدى تاريخنا وحياتنا على عفتهن، ليفتى لهن اليوم بـ(جهاد النكاح) بعد أن أُفتي بسفك الدم أيضاً تحت مسمى الجهاد في سبيل الله. معنى الحرب أن تُنصَبَ لها منصات للقصف الإعلامي ومواقع الإعلام الانتحاري ويتنادى لها جهابذة للإفتاء في تحليل القتل والتدمير.

معنى الحرب أن نجعل من أطفالنا، مستقبل الغد، عنواناً للإجرام والجريمة.

الحرب ستتوقف، لابدّ أن تتوقف، فالحرب العالمية الأولى توقفت وكذلك الثانية وحرب (داعش) والغبراء كذلك. وماذا بعد أن تضع الحرب أوزارها في سورية.. وهناك من يتمنى ألاّ تتوقف تلك الحرب قبل أن تكسر آخر فقرة في ظهرها؟

بعد الحرب يمكن أن نعيد ترميم المدارس، وما تهدم من بيوت، ونعيد بناء الاقتصاد وما تخرّب من البنى التحتية، وقد نجد في الولادات عزاء عن شهدائنا الذين دافعوا عنّا وعن أرضنا وعن دين الله فيها، لكنّ الفاقد في الحرب الذي لا يعوض بسهولة يتطلب منّا وقفة غير التي وقفناها أمام الحرب وحوادثها -على روعتها – ولئن نجحنا في التصدي لحوادث الحرب، فإنَّ مواجهة معانيها ومراميها أمر آخر.

نجحنا أيام الحرب في إبقاء مدارسنا مفتوحة تستقبل الأبناء وتعلمهم رغم القتل والترهيب، وبعضها تستقبل المتضررين من أعمال القتلة للإيواء والدعم والحماية.

وبقيت جوامعنا وكنائسنا تدعو الله وتصدح بالأخوة والمحبة، وما نجا من مصانعنا يهدر، وشوارعنا تنبض بالحركة والحياة، وبما هو أكثر من ذلك.

ولم يقصر أبناء الوطن الغيارى ببذل الجهود وتقديم ما من شأنه حماية الوطن، لكنّ مواجهة ما تتطلبه مفاعيل الحرب وأهدافها ومراميها أبعد من القرار المكتوب وهي الأخطر والأصعب، وتشكل تحديات خطيرة وجدية علينا مقاربتها على نحو واع ومسؤول.

الإسلام مكون رئيسيّ من مكونات مجتمعنا ووجدان أبنائه وهذا يدعونا لوقف تحريف الدين وارتكاب العصبيات باسم الله وممارسة القتل وتشويه القيم، مطلوب منا مواجهة التطرّف في الدين، وإذا كان عدد كبير من علماء الدين يقولون بأنّ القرآن حمّال أوجه، فنحن نريد الوجه الأيسر، نريد إسلام الأخوة والمحبة، وعلينا ألا نتهاون في ذلك وأن نضع الأسس والضوابط، ففي زمن ما سمي «الربيع العربي» أصبح الإفتاء في الإسلام وعند بعض المسلمين (وكالة من غير بواب) كما يقول الأخوة المصريون.

ولأنّ التربية الدينية قضية مجتمعية فتعليم الدين لا يقتصر على وزارة التربية، لذلك لا بدّ من الحرص على أن نعلّم دين الله السمح باسم الله وتحت رقابته، منطلقين من أنّ المعيار الأساسي الذي يقيّمُ الفردُ على أساسه في الوطن هو مدى انتمائه الوطني، فمن لا يعرف السير إلى الوطن لن يعرف الطريق إلى الله.

المعنى الآخر الذي يجب الوقوف عنده والوقوف في وجهه بدا جلياً مع بداية ماسُمّي «الربيع العربي»، وكان قبله على شكل إرهاصات هنا وهناك في دعوات قُطرية حيناً وانعزالية حيناً آخر وعدوانية أيضاً، برزت على ألسنة النخب الثقافية وفي أجهزة الإعلام وأحاديث عدد من المسؤولين السياسيين أحياناً. وكانت هذه الدعوات تطرح ويروج لها لتبدو كأنها صحوة وعودة للرشد بعد تيه وتشتيت لوعي ضل في الإطار الأوسع الإطار العربي.

وتكمن خطورة هذه الدعوات في أنّها تسعى لتسفيه ما استهدفنا من أجله ويستهدف كلّ عربي مؤمن به، ولم يعد خافياً على أحد السعي الحثيث للدول الاستعمارية إلى تفتيت الوطن العربي وتحويله إلى كيانات هزيلة، تصبح الكيانات القطرية الموجودة الآن حالة متقدمة عليها على الرغم من السوء الذي يكتنفها، هذا إضافة إلى تحقيق الهدف الأساسي بتصفية القضية الفلسطينية التي تراجعت في زمن «الربيع العربي» إلى الصف الخلفي، لكنّ القوة الكامنة في عمق الدول العربية وفي عمق شعوبها لاسيما في سورية بدأت تتحرك لتصحيح المسار والانطلاق إلى تكوين شرق

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عربي لا يشبه الشرق أوسطي الذي بشروا بـه، ومع أنني لا أنكر بأن الفكر القومي في أزمة وهو بحاجة للمراجعة لكن هذا لايبيح مناصبته العداء، وكذلك مواقف الأعراب من قضية العرب الأساسية فلسطين وتفريطهم بسيادتهم أو سلوكهم العدواني تجاه العرب ولاسيما سورية لايسوّغ إدارة الظهر للعروبة.

ولأنّ الانطلاق يحتاج إلى أرضية وعلينا تحديدها، الحرب في سورية مكنتها من الظهور كقوة قادرة على لعب دور مؤثر عربياً وإقليمياً ودولياً. وعرفت كيف تحمي سيادتها وتدافع عن مشروعها، وجعلت العالم لاسيما قوى الاستعمار العالمي يعرف أنّه لا يستطيع أن يكرّس القوة والعنف أسلوباً في حلّ المشكلات بين الدول، ولم يكن تحقيق ذلك سهلاً، فلقد دفعت سورية في سبيل ذلك دماً ودمعاً وبنى تحتية وبنياناً فوقياً، وماحققناه بالدم والدمع لن نفرط به بالميوعة والفساد وانعدام الرؤى وضياع الأهداف.

من نحن؟ ومـاذا نريد؟ وكيف نحقق ما نريد؟ من هم الأعـداء؟ ومن الحلفاء ومن الأصدقـاء؟ هذه الأسئلـة ليست ضرباً من السذاجـة، فالشعـب صمد ومـن حقه أن يبنـي سوريـه الغد. يستحق هـذا الشعب الذي ضحى وطناً يحيا فيه بكرامة، وينتمي إليه، ويعيش هـذا الانتماء، ويقيّم فيه على أساسه.

سوريـة من الوطن العربـي وشعبها من الأمة العربية، ومن حقوق الشعب أن يعيش هـذا الانتماء ويدافـع عنه، مـن حقه أن يدافـع عن الله باحترام دياناته التي عاشت في الوجـدان محبة وتآخياً وتسامحاً وطريقاً واضحـاً، وعلينـا أن نـدرك أنّ أيامنا الآن ليست من عصر الجاهلية. وعدونا ليس أبا جهل وأبا لهب وأبا مصعب..، عدونا هو من اغتصب فلسطين. عدونا من ينهب خيراتنا ويسخر من شعوبنا ويدعم أعداءنا، ويرى في أمنهـم أولوية لا ينسى أن يؤكدها ليل نهار. أليـس من العار أن تـرى النخب في بلداننا الـدول الاستعماريـة قدوة لهـا وأنموذجا ومرشداً وهاديـاً؟ وفيها من بنى دولته على أرواح وأجسـاد الآخريـن وقصف الشعوب بالقنابل الذريّة، وشنّ الحروب الظالمة على الدول الآمنة، وأقام السجون ذائعة الصيت غوانتانامو.. أبو غريب وأنصار..، وتجسس علـى الشعـوب وتنصـت علـى أحاديثهم بخسة ودناءة، وعلـى الأصدقاء منهم قبل الأعداء، ويـرى أنّ من واجبه أن يدافع عن أمنه القومـي بالسلاح في أي بقعة من بقاع العالم، إذا كانت في تلـك البقعة مصلحة له أو عميل يحميـه أو رافض مقاوم لسياسته الاستعمارية.

وهل بعد كل ما جرى في سورية شك بأن معاركنا تنطلق من أرضية قضايانا العربية، والحـروب اليوم علـى العرب تشـنّ باسم

الإسلام، والإسلام مستهدف بها أيضاً. نريد ثقافة تحمي هويتنا وتصنع هوية أبنائنا، وتعدّهم ليصنعوا هوية الأحفاد.

نريد إعلاماً لشعبنا يحمي ظهره وألاّ يكتفي بعد العصي عندما يجلد. نريد نخباً ترى قضايانا في بعدها الحقيقي.. في بعدها الوطني والإنساني، في البعد الذي يتجاوز حدود سورية، فالحرب التي تشن على بلادي حرب ظالمة واستعمارية تقودها قوى الشرّ في العالم، وتصطف فيها جماعات الإرهاب، وجميعهم يعرفون جيداً لماذا يحاربوننا. لقد تعاونوا على الإثم والعدوان. فيا قوى الخير في العالم اتحدي معنا فحربنا عادلة، ونحن أبناء أمّة كبت خيلها مرات في ملاعب النضال لكنها ما تركت الساح أبداً، وستبقى ترفع الصوت دائماً:

بلاد العرب أوطاني من الشام لبغدان
ومن نجد إلى يمن إلى مصر فتطوان

وسيبقى النيل أروع الأنهار، ونخيل العراق أطيب الثمار، وأرز لبنان أجمل الأشجار، وفلسطين مهد السلام، وجبل قاسيون أكثر الجبال شموخاً يبث نجوم السماء نجواه وحبه وحنينه لأيام العزة والفخار، الوحدة بين مصر وسورية.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

سليمان العيسى.. واللغة العربيّة

د. محمد رضوان الداية ✿



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هذه قصيدة قصيرة، كانت لمحةً بارقةً من الشاعر، ونظرةً محبّةً مشفقةً إلى هذه اللّغة ذات التاريخ العريق، والخصائص العالية، والغنى المُعجب، والرنين الموسيقي؛ المتألقة مع الزّمن، المنفتحة على الحضارة، الثابتة الجذور، المنطلقة الفُروع..

لغة الأمة من غابر الزمان، ولغتها اليوم، ولغتها ما دام على الأرض بشر..

حَيّى الشاعر في أواخر الأصيل: لغته، وأشاد بها، وأعلن محبّته القديمة المتجدّدة، وأهاب بالأمّة أن تلتفّ حولها. فلما آن أوانُ

✿ أديب وناقد وأستاذ الأدب العربي في جامعة دمشق.

الغـروب كانت اللغة الفصحى من أواخر ما غنّى وأنشد ونظم، وتركَ من أثَرٍ فني..

* * *

سليمان العيسى (أبو معن) في سُطور

• ولد الشاعر، الكاتب، المترجم، الباحث سليمـان العيسـى سنـة ١٩٢١م في قريـة النُعَيريّة، وهي تبعد عن أنطاكية غرباً بنحو عشرين كيلومتراً. وتوفي بدمشق ٢٠١٣م.

• استفـاد من عناية والده الشيخ أحمد، وحصـل على ثقافة عربيـة واسعة، وحفظ من النصوص قدراً كبيراً، أغنى لغته، وأعدَّ لشاعريته معجماً واسعاً، و«أرضية» غنيّة من إبداع شعراء العرب في عصورهم المختلفة.

• غادر لواء اسكنـدرون بعد سلخه عن سورية (باتفاق بين فرنسة المستعمرة، وتركية في أواخر أيام أتاتورك).

• تابع دراسته في دمشق وبغداد وحصل على مؤهل في اللغة العربية.

• مارس التعليم، وانتقل إلى دمشق (من حلب) موجّهـاً أوّل للغة العربيـة في وزارة التربية.

• أصدر مجموعة من الدَّواوين الشّعرية، واهتمّ بشعر الأطفال.

• كان مـن مؤسّسـي اتحـاد الكتّـاب العرب.

• صار عضواً في مجمع اللغة العربيّة.

• لسليمـان العيسى شعـر كثير، غزير، وفيه جزء مهمّ، غَنّى فيه آلام الأمّة وآمالها. واعتنى باللغة العربيّة عناية خاصّة.

• هذا النّص، يمثّل متابعةً لعنايته باللّغة العربيّة، ودفقةَ أملٍ قويّة بمجيءِ غَدٍ مشرقٍ للّغة والأمّة معاً.

• وهو آخر نصّ للشاعر نشره على النّاس في شـأن اللغة العربية؛ فكأنّه كان منه تحية للغة العربية، ووداعاً أيضاً.

القصيدة:

لُغَتُنا العربيّةُ

١- أنـا مـا بَـرِحَـتْ تَـألُّـقـاً وَسَنـا
لُـغَـةُ الـعُـروبَـةِ والـبَـقـاءِ أنـا

٢- في بُـرْدِيَ الـتّـاريـخُ أنْـسُـجُـهُ
شِـعـراً ونَـثـراً أبْـهَـرَ الـزَّمَـنـا

٣- أطْوِي العُصورَ وما شَكَوْتُ بها
في بُـنـيـتـي ضَـعْـفـاً ولا وَهَـنـا

٤- عُـمْري هو التّاريخُ لا تَسَلُوا
عـن مَـوْلـدي؛ في فَـجْـرِهِ اقْـتَـرَنـا

٥- ضِعْتُمْ عَنِ الدّنيا وضَيَّعَني
عَـنْـكُـم سَـوادُ الـلّـيـلِ مَـرْبِـنـا

٦- هـو عـابِـرٌ؛ لُـموا شَـتـاتَـكُـمُ
وتَـشَـبَّـثـوا بـروائِـعـي وَطَـنـا

٧- عُـودُوا إلى صَدْري أوَحْـدُكُـمْ
أنَــا أُمُّــكُــم... أمُّ الـلّـغـاتِ أنَـا
٨- وسَلُوا الحَضارَةَ أيُّ ساطعة
فِي الفِكْرِ لمْ أصْلُحْ لَها سَكَنا؟

في لُغَةِ النَّصّ

١- أنـا مـا بَـرِحـتُ تألُّقاً وسَنَا
لُـغَـةُ الـعُـروبـةِ، والـبَـقـاءِ، أنـا

- **التألّق** مصدر تألّق، ومادتها «أ ل ق».

و: ألَــقَ البرقُ: لَمَعَ. وائتلَقَ البرق، وتألّق: لمَعَ وأضاء. (وتألّقت المرأةُ: تزيّنتْ وبرَقَت).

- **والسَّنا**: ضوء القمر، والضوء الساطع.

في التنزيل العزيز: «يَـكـادُ سَنا بَرْقِه يذهبُ بالأبصار».

- و: **مـا بَـرِحَ**: أصل معنى «بَرِحَ» من برح المكان: زال عنـه، فلّما جاءت مـا النافية أفادت معنى بَقِيَ.

٢- في بُـرْدِيَ الـتّـاريـخُ أنْسُجُـهُ
شِـعـراً ونَـثْـراً أبْـهَـرَ الـزَّمَـنـا!

- **البُرْدُ**، في كتب اللغة، كساءٌ مُخطَّطٌ يُلْتَحَفُ به. وقد درَج استعمال الكلمة للثّوب مُطلقاً. ومنه قول بشار:

إنَّ في بُــرْدَيَّ جِـسْـمـاً نـاحـلاً
لـو تـوكّـأتَ عـلـيـه لانـهَـدَمْ

وذلك على سبيل التوسُّع.

- **أبْهَرَ**: لفعل أبهر معان؛ فيقال: أبْهَرَ أي صار وسطَ النّهــار؛ و: تزوّج كريمةً ماجدةً؛ وجاء بالعَجَــب، وتلوّنَ في أخلاقه؛ واستغنى بعـد فقر. وظاهــر أن المعنــى المقارب هو معنى المجيء وبالعجب. على أن معاني (بَهَر) الثلاثي: بَهر الشيءُ فلانــاً: أدْهَشَهُ وحَيَّرَهُ، وبَهر القمرُ النجوم: غمرها بضوئه..

وعبــارة: **بَهر الزَّمَن**، عنــدي، يُوافقُ ما قصد إليه الشاعر.

٣- أطْوي العُصورَ وما شَكَوْتُ بها
في بُـنْـيـتـي ضَـعْـفـاً ولا وَهَـنـا

- **طوى الشيءَ**: ضمّ بعضه على بعض، أو لـفّ بعضه فوق بعض. وفي التنزيل العزيز: «**يَوْمَ نَطْوي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجلِّ للكُتُب**».

- طـوى الأرْضَ: قطعها وجازَها. ومنه عبارة: «طيّ المراحل».[1]

- وقولــه: **أطوي العصور** مَقيسُ على طيّ الأرْض. وهــو مجازٌ. والعبارة مستعملة في الشعر والنـثر، ومنه قــول أحمد رامي في منظومتــه «على غصــون البان»: يطوي الزمان...

- **وماشكوتُ بها**: الباء في: «بها» للظّرفيّة الزّمانية.

- **البُنيـة** (بضمّ الباء): ما بُنِيَ. والجمع بُنى، ومنه قول الحطيئة:

أولئك قومٌ إن بَنَوا أحْسَنُوا البُنى....

والبِنْيَةُ (بكسر البــاء): ما بُنِيَ، و: هيئة البناء، ومنه بِنيَةُ الكلمة، أي صيغَتُها. وفلانٌ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

صحيح البنية. وهي المقصودة في الشعر هنا.

- **الوَهَنُ**: الضعف، وذُبول الحيويّة. والفعل: وَهَنَ.

٤- عُمري هو التّاريخُ لا تَسَلُوا

عن مَوْلِدي؛ في فَجْرِهِ اقْتَرنا

- التاريخ في تعريف مجمع اللغة العربية (نقله المعجم الوسيط: «أ ر خ»):

- «جُملةُ الأحوال والأحداث التي يمرّ بها كائنٌ مّا؛ ويصدقُ على الفرد والمجتمع، كما يصدقُ على الظواهر الطبيعيّة والإنسانية» وفعل أرَّخَ الحادث ونحوه: فصّل تاريخه وحدّد وقته.

- «في فجره» أي في فجر التّاريخ.

- **اقْتَرَن الشيءُ بغيره**: اتّصل به، وصاحَبه. ويقال: اقترنا: تَلازما.

٥- ضِعْتُمْ عَنِ الدّنيا وضَيَّعَني

عَنكُم سَوادُ اللّيلِ مَرّ بِنا

- معنى ضاع الشّي (يضيعُ) ضياعاً: فُقِدَ وأُهمِلَ.

- وعَدّى الشاعر فعل ضاع بالأداة (عن) وهي تفيد هنا المجاوزة فكأنه ضمّن(ضاع) معنى: ابْتَعد، فعدّاه إلى الحرف المناسب لابتعد وهو معنى المجاوزة.

٦- هو عابرٌ لُمّوا شَتاتَكُمُ

وتَشَبّثوا بروائعي وَطَنا

- **لُمّوا من فعل**: لَمّ، يقال لم الشيءَ يَلُمُّه (بضم ميم المضارع) لمّاً: جمعه جمعاً شديداً؛ ولَمّ اللّهُ شَمْلَهُ: جمع ما تفرّق من أموره وأصلحه.

- **والشّتات**: التفرّق. وأمْرٌ شتاتٌ: متشتّت.

- **وتشبّث بالشيء**، وشَبِثَ به: تعلّق به ولَزِمه، فهو شبث.

- **الرَّوائع**: جمع الرائع: ما جاوز الحدَّ في نواحي الفن والأخلاق والفِكر. يقال هذه القصيدة من روائع فلان؛ وهي رائعة.

- «وعابر»: فاعل من (عَبَر): عَبَر النهر: قطعه من شاطئ إلى شاطئ. وعبر الطريق: قطعه من جانب إلى جانب.

٧- عُودُوا إلى صَدْري أُوَحِّدُكُمْ

أنا أُمُّكُمْ... أُمُّ اللّغاتِ أنا

- أُمّ اللغات: أصلها القديم الذي ترجع إليه، وتتفرّعُ منه.

٨- وسَلُوا الحَضارةَ أيُّ ساطعةٍ

في الفِكرِ لمْ أصْلُحْ لها سَكَنا؟

- **السّاطِعَةُ**: من سطع الشيء يَسْطَعُ: انتشرَ وارتفع. يقال: سَطَعَ البرق في السماء، وسطع الغبارُ، وسطع النور، وسطعت الريح.

- والساطعة في البيت صفة لموصوف محذوف مُقَدَّر.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بين يدي النص

جاء عنوان القطعة مباشراً، من اختيار الشاعر نفسه، وجعله شركة بينه وبين اللغة، فَسجّل هو تصدّي اللغة للكلام بنفسها عن نفسها، وأعلن أنها تنشد في تتمّة العُنوان. وأدخله هذا العنوان إلى اختيار القافية، وحرف الروي (النون) ليكون أول بيت في القطعة مختوماً بكلمة (أنا).

وقد تنازل الشاعر من البيت الأول عن شخصيّته، فلم تظهر حتى آخر بيت ليترك الكلام للغة، بلسانها، ولينطقها بما يراه من حال اللغة قديماً وحديثاً.

وحديث الشاعر عن اللغة موجز مختصر، أراده دالاً كافياً على حال اللغة في تاريخها، وعلى أملها في تحقيق ذاتها، ويقينها من عودتها إلى غابر عزّها.

واختلط التّحليل التاريخي –على بساطته، وسرعته– بالأمل العارم، والعاطفة القويّة، حتى قالت اللغة لأبنائها، كما أراد لها الشاعر أن تقول: إنها أمّ العرب، واختلطت قضيته ليلتفت إلى قضية الأمة الملحة في العصر الحديث، وهي التوحّد والتماسك، وطلب القوة اللازمة للوقوف أمام الأمة في قضايا الحياة عامة، وفي صيانة حياض الوطن، وطرد المحتلّ الغاصب..

«عودوا إلى صدري أوحّدكم...».

وهذا الملمح من ربط قضية اللغة بقضية الأمة نهج قديم أتقن الشاعر معالجته، والدفاع عنه، انطلاقاً من أثر اللغة في جمع الأمة وتوحيدها..

– واكتفى الشاعر في عرض قضية اللغة على (لسانها) بهذه الأبيات القليلة، وكأنّه يشير إلى القارئ ليعود إلى ما نظمه وكتبه في «اللغة العربية» على امتداد عقود طويلة.

وإذا لم تكن القطعة قادرةً على بسط موضوع اللغة فإنّها جاءت لتلبي أمرين:

أحدهما: **الإسهام في الكلام على اللّغة**، وقضيتُها الآن تشغل جهات كثيرة في سورية من التربية والتعليم العالي والثقافة والإعلام، ومجمع اللغة العربية ولجنة التمكين، وغير هذه الجهات– ممّا يضطلع – أو يحاول أن يضطلع – بجزء من وجوه النشاط المختلفة لتعود اللغة إلى مكانتها.

والثاني: **إرضاء الذّات بالاستمرار على نهج قديم أصيل في نتاج الشاعر**، فكأنّ القطعة مذكرة من الشاعر إلى القارئ، وقد اختار أن ينشرها في جريدة يومية[٢] ليكون لها انتشارٌ واسع عريض... وكأنها أيضاً مذكرة من الشاعر إلى نفسه ليقول لنفسه: أما تراني ما زلت على العهد؟...

في مجرى النصّ

– هذه القطعة، وما ينهج نَهجها، تعتمد كثيراً على إثارة الحماسة، وتحريك

العواطف، والاعْتصاب بالتّاريخ، وتتخذ رفع الصّوت عالياً صادحاً وسيلةً لمساندة اللهجة الخطابية...

- وبسط معاني القطعة ومقاصدها ميسورٌ لا يكاد يحتاج إلى تطويل، أو تفصيل. غير أن الشاعر كان يستدير حول المعنى المراد لتحقيق ما قلته في الفقرة السابقة.

١- أنا ما بَرِحتُ تألقاً وَسَنَا
لُغَةَ العُروبةِ، والبَقاءِ، أنا

- بدأ الشاعر البيت بالضمير (أنا) وختمه به أيضاً. والكلام على لسان اللغة العربية التي وصفت نفسها بـ(لغة العُروبة) و: (لغة البقاء)، وقرّرت بأسلوب يدل على الاستمرار والتجدّد (ما برحْتُ) وجَمَعَتْ بين مزيّتي التألق والسناء.

٢- في بُرْدِيَ التّاريخُ أنْسُجُهُ
شِعراً ونثراً أبْهَرَ الزّمَنا!

- ترتيب الكلام: التاريخ في بُردي: أنسجُه شعراً ونثراً من الأدب الراقي الباهر الذي خلد مع الزّمان... (أو هو من الأدب الذي بهر الناس الذين عرفُوه أو اطلعوا عليه)

- وبقي شيء: النّسيجُ للبُرد -كما تقتضي الحال- أم للتّاريخ كما يُوحي المَقال (بناء العبارة)؟؟

٣- أطْوي العُصورَ وما شَكَوْتُ بها
في بُنيتي ضَعْفاً ولا وَهَنا

- لغة قويّة ممدودة الجذور في الماضي البعيد، استمرت على أحوالها جيلاً بعد جيل وزماناً بعد زمان.

٤- عُمْري هو التّاريخُ لا تَسَلُوا
عن مَوْلِدي؛ في فَجْرِهِ اقْتَرنا

- يقول إن اللغة العربية -مع أصالتها- عريقة في القِدَم. وعبّر عن ذلك بقوله: إن مولد اللغة كان مع بدء التاريخ (تاريخ البشرية).

٥- ضِعْتُمْ عَن الدّنيا وضَيَّعَني
عَنْكُم سَوادُ اللّيلِ مَرَّ بِنا

- بعد الخطاب العام الذي يتوجّه به إلى أبناء العربية وإلى سائر أبناء الدنيا، التفت إلى أبنائها وحدهم...

- «ضعتم عن الدُّنيا» أصل معنى: «ضاع» فُقِدَ وأُهْمِلَ ولو قال: «ضيعتم الدنيا» لوصل المعنى الذي قصد إليه: والمراد: تخلفتم عن ركب الحضارة، فكأنكم ضعتم، وابتعدتم عن دنيا الألق والسَّناء والحضارة...

وعَمّى الأسباب التي ضيعت اللغة (أو جَمَّدتها، أو أخّرتها) ووضَع الوزر على «سواد الليل» الذي مَرّ بالأمّة وباللغة معاً...

واكتفى الشاعر بهذا البيت المكثّف، الذي اعتمد على الإبهام حتى لا يخوض في

الأسبـــاب، وليتجنّب زيادة لــوم الأبناء بعد قوله: «ضعتم»

٦- هــو عـابـرٌ لُـمُّوا شَـتـاتَـكُـمْ
وتـشـبَّـثُـوا بـروائِـعـي وَطَـنـا

- واستراح الشاعر إلى عبارة «هو عابرٌ» في إشـارة إلى سواد الليل الذي داهم الأمة، واللغة، والناس في ضوء نهار.

- ودعت اللغــة أبناءهــا إلى لمّ الشتات وجمع الشمل، واتخاذ اللغة حصناً يجمعهم، ويمنعهم.

- و«الروائع» في البيــت واسعة الإطار، وأَصْرِفُهـا إلى خصائص اللغة، لأنّه يتحدّث عن أهم مقومات وحدة الأمّة...

- وعَــبّر عن مــراده بقولــه: «وتشبَّثُوا بروائعــي وَطَنـا» فالمقصد العـام مفهوم. والعبارة فضفاضة.

٧- عُـودُوا إلى صَـدْرِي أوَحِّـدُكُـمْ
أنَـا أمُّـكُـمْ... أمُّ الـلُـغـاتِ أنـا

- وأعاد صياغــة الفكرة التي في البيت السادس، وفي البيت السابع وكرر معنى «في بُــردي التاريخ» و«عمري هــو التاريخ» على وجه آخر فقال: «أمّ اللغات أنا»

٨- وَسَلُوا الحَضارَةَ أيُّ ساطعة
في الفِـكْرِ لمْ أَصْلُحْ لَها سَكَنا؟

- واختصر كلاماً طويــلاً قيل في قدرة اللغــة العربية على الاستيعــاب الحضاري حــالاً بعد حال، وجيلاً بعــد جيل... وترك (التاريخ) ليذكر الحضارة وهي مناسبة لكي يسألها أبنــاء اللغة عن مقدرة اللغة العربية وخصائصها العظيمة.

- ولَخص ما أنجزته اللغة العربية، وما أبدعته بعبــارة: قصيرة مباشرة: إنَّ العربية استطاعــت أن تستوعب روائــع الفكر وأن تنهضــ بمقتضيات النتاج العلمــيّ والفنيّ مــن الآلات والأدوات ومقتضيات الصّناعة وسائر مرافق الحياة.

- لقــد كانــت العربية وعاء لمــا أبدعه الفكر، وأنتجته مهــارات الإنسان، وما كان يطرأ على حركة الحياة..

- وجعل الشاعر ذلــك كله على طريقة التحــدّي: «وسَلُوا الحضارة»؛ لأنه واثقٌ مما تصف اللغة نفسها به، على لسانه..

لقد نــاب الشاعر عن اللغــة، وتحدث باسمهــا ليوصل فكــرةً إلى القــارئ طالما عالجهــا الشاعر شعراً ونثراً. وكان عمله في ظــلال اللّغة العربية ومــن خلالها محرّضاً دائماً علــى حمل قضيّة اللغة العربية: التي هي -كما يقــول- أمّ العرب، وأم اللغات في وقت واحد.

ونضع بــين يــدي النصــ الملاحظات الآتية:

١- الشّعور الصّارخ بالذّات، فقد تكررت كلمة (أنا) أربع مرّات

٢- الربط بين القومي واللّغوي «أنا أمكم...» «عودوا إلى صدري...» والتشابك الذي أدّى إلى الاندماج والتماهي.

٣- الاستظهار بالتاريخ (في البيتين الثاني والرابع) وفي التاريخ إشارات إلى: قدمَ اللغة العربية، والأثر الحضاري للّغة، والإبداع اللغوي والأدبّي الباقي: من العصر الجاهلي وهلم جرّا...

٤- الانتقال من التاريخ الذي اتكأ عليه إلى الحضارة، وهي بابٌ واسع

٥- الإشارة إلى مدّة عانت فيها اللغة. وهي المدة نفسها التي عانت منها الأمّة (الضعف الحضاري) واكتفى بإشارة دالّة عابرة: (سواد الليل)

ويَثْبُتُ في ذهن قارئ القطعة:

- تألق العربية على امتداد التاريخ

- أهمية ما ذخرت الأمة من نتاج اللغة والأدب

- تمتع العربية بالعوامل الكفيلة باستمرار التألّق (أنا ما برحتُ تألقاً وسناً: البيت الأول).

في الإخراج الفَنّي

١- هذه القطعة مبنية على بحر الكامل: نوع منهُ يعْرَف بالأحذّ، ووزنه: «متفاعلن متفاعلن متفا» وهذه الأخيرة تقلب إلى فَعِلن في عمل العروضيّين.

هذا الوزن - في متابعات الدّكتور عبد الله الطيب[٣] - قد أكثر الشعراء المعاصرون من استعماله، وهو عنده بحرٌ «لا يلائم مذاهب الغموض والتعمق والاستعارات.. لأنه بحرٌ وسطٌ غير كثير المقاطع والأنغام..».

وقد سبق إلى هذا الوزن و: رُوِي في العصر الحديث شاعر الشام خير الدين الزركلي في قصيدته الطنانة:[٤]

العينُ بعد فراقها الوطنا

لا ساكناً ألفت ولا سكنا

وفيها البيت الفرد:

لو مثّلوا لي موطني وثناً

لهممتُ أعْبُد ذلك الوثنا!

ثم عارضه محمد البزم في قصيدة عنوانها «كلهم أبتّ» ونصّ على أنه يعارضها، أوَّلها:[٥]

لا تبك أوطاناً ولا سكناً

يا «خير» وأنْشُدْ غيرها وطنا

فبذا جرى حكم القضاء بنا

أنت الغريبُ معذباً وأنا

٢- القطعة تقريرٌ حماسيّ، مكتوب بمفردات، وعبارات مألوفة. فالقضيّة اللغويّة، من أهم قضايا الفكر والثقافة والعلم في العصر الحديث. وقد وُجد من يشكّك في طواعية اللغة العربية، وفي صلاحيتها لاحتواء أسماء ومصطلحات وترجمات

مناسبة لما تنتجه الأمم «المتقدّمة».

ووُجِدَ من يدعو إلى إحلال العامية، بدلاً عن الفُصحى.

واشترك بعض المستشرقين، وبعض «أبناء الأمّة» في الترويج لهذين الموقفين من اللُّغة العَربيّة(٦)

٣- ولمّا شخّص الشّاعر اللّغة، وأدار الحديث كُلّه على لسانها كان لابد من ظهور بعض الاستفسارات: «ضيعني سواد الليل»، و«تشبّثوا بروائعي وَطنا» - وهي صورة غريبة -....

٤- انشغل معظم الشعراء العرب في العصر الحديث باللغة العربية وقضاياها بأكثر مما كان في سائر العصور السَّالفة. وذلك بأنَّ أموراً كثيرة جرت عليها أسهمت في إعاقة تقدّمها الذي شهدته أيام عزّ الدولة من البعثة النبوية إلى نهاية الدولة العبّاسية في المشرق، ونكبة سقوط غرناطة في الأندلس. ولم يكن عصر المماليك استمراراً لعصر ألق اللغة العربية وتقدّمها، وإن نشط التأليف فيه والتصنيف، وفي ذلك ظهور بعض المعاجم المختصرة والمطوّلة، وما يسمّى الموسوعات... ولم تكن حال اللغة في العصر العثماني بأحسن من ذلك.

ولما جاء العصر الحديث بظروفه السّياسيّة والاجتماعيّة والثّقافية، عادت إلى اللغة وظيفتها الثّقافية والاجتماعية، أضيفَ إلى ذلك بُعْدٌ وطني، وقوميّ، وحضاري.

وصار من «هَـمٍّ» الشعراء -والكتاب في مجالاتهم- الكلام على العربية، وخصائصها، وتاريخها الحضاري، واستيعابها (بعوامل مختلفة) لكل طارئٍ جديد. ونذكر ما بدأه حافظ إبراهيم في قصيدته:

وسعت كتابَ اللّه لفظاً وغايةً ....

٥- وقد شغلت قضية «أُمّ اللغات» التي قيلت كناية عن اللغة العربية: اللّغويين، والأدباء، والشعراء. وللمختصين بالدراسات الأعرابية (الساميّة) كلام مطوّل في قِدَم العربيّة، ونترك مثل هذه القضية لأولئك المختصين الذين يقدم بعضهم الأدلة على أنّ العربية أم اللغات الأعرابية (السامية) والباب مفتوح على إطلاق العبارة أيضاً(٧).

وقد قال محمد البزم في قصيدته المعنونة بـ (مصر)(٨)

أُمُ اللُغاتِ وما لانَتْ لِنَازلَةٍ
ولا اسْتَكانَتْ لِشَدَاتِ المُغيرينا
عادتْ وعُذْتُم بها منكم بشامخَةٍ
عند الفَراقِدِ تُعْيي المُسْتَبيحينا
تخيَّرَ الحُسْنُ منها كُلَّ ناحيَةٍ
فكيفما اعْتَرَضْتْ لاحَتْ تحاسينا

وشعر سليمان العيسى ينحو هذا النّحو، ويسايُر الموقف نفسه.

ARCHIVE http://archivebeta.sakhrit.com

الهوامش

١- شــاع، في العصــر الحديث، استعمال عبارة «حَرْق المراحل» وقولنا: طيُّ المراحل أدق من جهة المعنى، وأعلى من جهة الصياغة والأسلوب. وفي قولهم: «حرق المراحل» استعارة بعيدةٌ.

(انظر كتابي: معجم الكنايات المعاصرة)

٢- نشــرت علــى صفحة كاملة. وهي الصفحــة الأخيرة من ملحق جريدة الثورة الثقــافي. وكان ملحقاً خاصاً بالشاعــر: منه وعنه (الثورة العدد ٨١٥ في ٢٠١٣/٣/١٢م) ونشــرت مصورة عن صفحة كتبها بخط يده. وضبطهــا بالشــكل من العنوان إلى الأبيات جميعــاً وقد أثبت نص القصيدة كمــا ضبطها الشاعر - ثم شرحتُ وعلقت.

٣- المرشد إلى فهم أشعار العرب ١: ١٦٨ - ١٧٠.

٤- ديــوان خــير الدين الزركلــي. وقد صدّر الناشر بهــا الديوان، ثــم أوردها في موضعها (نشــر في مؤسسة الرسالة).

٥- ديوان محمد البزم ١: ٣٤٠ وفي أبيات القصيدة:

لا عيش للعربي في وطنٍ

ربُّ السيادة فيه مَنْ رَطنا!

والإشارة واضحة إلى الاستعمار الفرنسي في سورية.

٦- انظر ما كتبناه عند معالجة قصيدة حافظ ابراهيم.

٧- قــال الدكتور عمر فرّوخ في تاريــخ الأدب العربي ١: ٣٥: «واللغة العربية أقدم اللغات الحيّة؛ فليس ثمّة في العالم لغة محكيّة أقدمُ منها...».

٨- ديوان محمد البزم ١: ٢٦

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الأديب الأوزبكي الكبير غفور غلام

د. محمد البخاري ✪



ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

غفور غلام أديب أوزبكستاني كبير. وجد تاريخ الشعب الأوزبكي مكانة لائقة في أعماله الشعرية والنثرية. وتنوعت إبداعاته ما بين: الشعر، والأغاني، والقصائد، والقصص، والروايات. وتمتعت أعماله الإبداعية بشهرة واسعة خلال الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، ولعبت دوراً كبيراً في تطوير الأدب الأوزبكي.

سيرة حياته

اشتهر غفور غلام بمواهبه الأدبية وترجماته لأعمال بوشكين، وليرمانتوف، وغيربابييدوف، وماياكوفسكي، وناظم

✪ أستاذ جامعي سوري مقيم في أوزبكستان.

حكمت، وروستافيلي، ونظامي، وشكسبير، ودانتي، ولومارشيه، وغيرهم من الأدباء إلى اللغة الأوزبكية.

ولد غفور غلام بتاريخ ١٩٠٣/٥/١٠م في أسرة ميكانيكي بمدينة طشقند. وكان أبوه إنساناً متعلماً. قرأ مؤلفات الأدب الكلاسيكي الأوزبكي والطاجيكي، وتمكن من اللغة الروسية، وكتب الشعر. وكان يزوره في بيته شعراء كبار أمثال: مقيمي، وفورقت، وعسيري، وخصلت، وغيرهم من الأدباء الأوزبك.

وفي خريف عام ١٩١٦م ترك غفور غلام الدراسة بالمعهد المتوسط. بعد وفاة أمه (توفي والده قبلها)، واضطر للعمل، وجرب الكثير من المهن، وفي النهاية اشتغل في صف الحروف بالمطبعة، وبعدها درس في الدورات التربوية. ومن عام ١٩١٩م وحتى عام ١٩٢٧م مارس التعليم المدرسي، وأصبح مديراً للمدرسة، ورئيساً لاتحاد العاملين في التعليم المدرسي، ومشاركاً نشيطاً في منظمات دور رعاية الأطفال اليتامى.

وبدأ غفور غلام من عام ١٩٢٣ بنشاطاته الأدبية، وأخذت تظهر أشعاره، وقصائده، ومقالاته، وقصصه الساخرة في الصحف والمجلات المحلية، وفي عام ١٩٢٣م كتب قصيدته الشعرية «أطفال فيليكس»، التي صور فيها حياته وحياة اليتامى، وتحدث عن معاناة الأطفال اليتامى، ونشر في مجلة «المعارف والمعلمين» قصيدته الشعرية الثانية «بماذا يكمن الجمال؟»، وبالتسلسل صدرت مجموعاته الشعرية: «دينامو»، و«اللوحات الصينية»، و«نحن معكم بشر أحياء»، و«أغنيات حية»، و«لكم»، و«هدية»، و«أغنية الفجر»، وقصيدته «كوكان»، وغيرها من الأشعار.

والأشعار التي كتبها غفور غلام في بداية ثلاثينيات القرن الماضي كانت نقطة تحول إلى أشكال شعرية جديدة في الأدب الأوزبكي، شجعت إلى حدٍّ كبير على دراسة الشعر الكلاسيكي الروسي. إضافة لوصفه التبدلات الرائعة التي جرت في المنطقة التي يعيش فيها، من: التصاعد العاصف للصناعة، ومد خط السكك الحديدية توركسيب، وغيرها من المشاريع الضخمة، والتي احتاجت لمفردات لغوية جديدة، وألوان شعرية جديدة، ونغمات وإيقاعات جديدة.

وكانت مؤلفاته: «دينامو» (١٩٣١م)، و«أغنيات حية» (١٩٣٢م)، الأولى من مجموعاته الشعرية، التي عكست بسطوع أسلوب الشاعر الشاب. والخلفيات الإنسانية، التي انعكست في قصائده الشعرية «الشتاء والثلج» (١٩٢٩م)، و«الخبز» (١٩٣١م)، و«طشقند» (١٩٣٣م)، و«الانتخابات في

القطب الشمــالي» (١٩٣٧م)، و«أنا يهودي» (١٩٤١م)، و«الشتــاء» (١٩٤١م)، و«امــرأة» (١٩٤٢م)، و«لســوء الحــظ، مــع الأسف لم يدفنــوه» (١٩٤٥م)، و«الحديقة» (١٩٣٤م)، و«الحنــين» (١٩٤٢م)، و«ذهــب الخريف» (١٩٤٥م)، و«شتــلات الخريف» (١٩٤٨م)، وغيرها من الأشعار عن أبدية الحياة، وأبدية خضرة الأشجار.

وأوجــد في كل أشعــاره رمــز الحكيــم الشرقي، أوتــا (الأب): «سين يتيم إماسان» (أنت لســت يتيمــاً) (١٩٤٢م)، و«الحنين» (١٩٤٢م)، و«مــن يتعلــم، هــو مــن يعلم» (١٩٥٠م)، و«لكــم يــا شبــاب» (١٩٤٧م)، و«أنغــام الربيــع» (١٩٤٨م)، وغيرهــا من الأشعار التي ألفهــا. وفي رواياته: «أنيتاي» (١٩٣٠م)، و«يدغار» (١٩٣٦م)، و«الفهلوي» (١٩٣٦-١٩٦٢م)، وقصصــه: «الحيــل في الشريعة» (١٩٣٠م)، و«ابني لص» (١٩٦٥م)، تحدث فيهــا عن شخصيات شعبية حقيقية عكست النكهة الروائية القومية.

وروايــة «أنيتاي» هــي مؤلف رائع مليء بأوسع الصــور الاجتماعية. واعتمد جوهر الروايــة على أحــداث واقعية. تحدثت عن آخر أمراء بخــارى الذي توقف في طشقند بطريقه إلى بيتربورغ. وقام الأغنياء بفعل كل مايرضي الأمير ويسعده. وللتسلية أحضروا له الفتاة أنيتاي.

ووصــف أنيتــاي بأنها فتــاة لطيفة من أوســاط العمال البسطــاء، أخذها سميون وزوجته في رعايتهما وهــي فتاة يتيمة تبلغ من العمــر عشر سنوات، وعلــى الرغم من صعوبات الحياة، كانــت غنية روحياً في كل تفاصيل أحاسيسهــا. وعكست الرواية تنوع وليونــة مواهب غفــور غــلام وعبرت عن مهارته في فن النثر.

وغفــور غلام عضــو أكاديميــة العلوم في أوزبكستــان (١٩٤٣م)، قــام بدراســة «الجديد ومرحلتنــا» (١٩٤٨م)، و«الفلكلور مصدر لا ينضب» (١٩٣٩م)، وكتب مقالات «مأساة جــلال الدين» (١٩٤٥م)، و«مقيمي» (١٩٤١م).

وتمتعت قصيدتــه «يولداش» بأهمية كبــيرة في كل الأوقــات، وتحــدث فيها عن القوة الكبــيرة لتربية الجيل الصاعد. وفقد يولداش أباه خلال الحرب.

وعن هــذا الصبي وغيره مــن اليافعين اليتامى، الذيــن بقوا من دون رعاية الأهل، الذيــن اهتمت بهــم الدولة، وهيــأت لهم المدارس الداخلية ودور رعاية اليتامى، حيث وجد الأطفال الملجــأ والرعاية. وكبر أولئك الذيــن تلقوا الرعاية في دور رعاية اليتامى، وأصبحوا مستعدين دائماً لحماية استقلال وطنهم. وصــور في القصيدة وبمهارة كبيرة ودفء لقــاء يولداش مــع أبيه، وبعمق كامل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كشـف ملامح الناس المخلصـين لواجبهم. وموضوع حمـاة الوطن حصـل على تطور لاحق في إبداعات غفور غلام العميقة أثناء الحرب التي استمرت من عام ١٩٤١ وحتى عام ١٩٤٥م. وتوجه للناس يدعوهم للإسهام في عملهـم المبدع في رفعة الوطـن، منادياً بـ«كل التحمل، وكل المواهـب»، و«في البناء، لأنه عمل مجيـد»، للانتصار على الفاشية. وغنى الشاعر لـدور النساء الأوزبكيات في تطـور البلاد الاقتصـادي في المرحلة التي تلت الحرب.

وفي قصيدتـه «فصلـين» مجـد إعادة بناء القرى، وعبر عـن أحاسيس الفلاحين الأوزبـك وأحلامهـم بالمستقبـل الأفضل. وكانـت القصيـدة قوية بإيمانهـا بحقيقة الحياة الصعبة، وذكائه العميق. ورسم فيها وبصدق كامـل لوحة تاريخية صادقة لحياة الفلاحـين الـ(ديخـكان) الأوزبك. وانعكس هذا الموضوع أيضاً في قصيدته «كوكان». و كانت مشهورة بوقتها في الأوساط الشعبية، ولعبت دوراً كبيراً في الدعوة إلى النضال من أجل تطوير الزراعة.

واشتهر غفور غـلام كأستاذ في القصة القصـيرة ذات المواضيـع الحـادة، وأدخله كأسلوب روائي، حيـث يتوجه المؤلف بكلام حر إلى القراء على شكل أحاديث ومناقشات حية معبرة عـن الصداقة، ومليئـة بأسئلة وأجوبة المؤلف نفسه. وأكثر المؤلفات النثرية، التي ألفهـا غفور غلام في ثلاثينيات القرن الماضـي، كانـت مكرسة للإنسـان الجديد والعلاقـات المتبادلة. والقضايـا الرئيسية التي وضعها ووضع الحلـول لها في أعماله النثريـة، وهـي النضـال من أجـل التربية الأخلاقيـة للإنسـان، ومن أجـل التطور الأخلاقي والثقافي.

وأنشأ المؤلف في مؤلفاته النثرية أشكالاً ساطعـة وإيجابية، للبطـل الإيجابي، الذي صوره بشخصية الإنسان ذي الصدر الواسع جوره في رواية «يادغار». وهـو الذي ربّى طفلاً غريبـاً عنه. وصـور خاصة العلاقة بين الإنسان العادي والطفل الغريب، وصور مستوى جوره الأخلاقي العالي.

وكرس غفور غلام الكثـير من مؤلفاته للأطفـال. وتعتبر من أكـثر قصصه نجاحاً «الفهلوي». التي تحـدث بطل القصة فيها عن نفسـه وعن حياتـه المأساوية. وهروب الصبي من البيـت إلى منزل خالته، وتلقيه للعقـاب من أمه، بسبب أخذه مواداً غذائية مـن البيـت مـن دون إذنها. ومـع ذلك لم يوفق: لأنه قتـل صدفة طير «بيدانه» الذي يملكه قريبه، ولهـذا اضطر لمغادرة البيت. ليهيـم على وجهـه متجولاً. وركـز المؤلف علـى تصوير حيـاة وأحاسيس الفهلوي، وعلى أوضاعـه الروحية الداخلية. ووصف

الأحداث الخارجية، والأشياء بدقة، ووصف كل ما يحيط بالصبي بطل القصة، لتعميق تصويره للأحاسيس الإنسانية. وكلها خضعت للأشياء، ووصف الظواهر والطبيعة، في شكل حبكته للعمل الأدبي. كما خص غفور غلام الأطفال واليافعين بأشعار رائعة، مثل: «طفولتين»، و«أنا أعرف»، و«ينتظرك الوطن».

وكتب غفور غلام خلال سنوات الحرب أشعاراً رائعة، حصلت على شهرة واسعة، مثل: «أنت لست يتيماً»، و«أنا في انتظارك يا ابني!»، و«الوقت»، و«الوداع»، و«المرأة»، و«سيكون في شارعنا عيد». وفي شعره «أنا في انتظارك يا ابني!» تغنى بصمود وقوة الآباء، الذين بعملهم البطولي في الجبهة الداخلية قربوا النصر على العدو.

وأخذ حب الإنسان للأطفال في السنوات الصعبة فكرة عظيمة. وصور هذا الإحساس الحي بشكل رائع، تجده عندما تقرأ الأشعار الرائعة «أنت لست يتيماً»، التي دار الحديث فيها عن الأطفال، الذين فقدوا أولياء أمرهم، والعناية النابعة من قلوب الناس البسطاء. وأشعار الشاعر «العملاق»، و«احتفال المنتصرين»، و«الوقت»، و«المرأة»، التي كتبها خلال سنوات الحرب، وكلها تعتبر من النماذج المشرقة للشعر الوطني الرفيع. ودخلت في مجموعته الشعرية «قادم من الشرق».

وبعد سنوات الحرب نشر غفور غلام عدداً من المجموعات الشعرية: «أشعار جديدة»، و«نيران أوزبكستان»، و«الأمهات»، و«مفخرة الشعب الأوزبكي»، و«أغنية الفجر»، و«يحيا السلام!»، و«هذا توقيعك». وهي الأشعار التي دخلت في هذه المجموعات الشعرية، والتي سعى من خلالها الشاعر نحو المسائل الهامة لأوقات السلم، وأظهرت نجاحات الشعب الأوزبكي في مجالات العمل. وأبطال مؤلفاته، من المحاربين السابقين، واشتغالهم بأعمال السلام، والعمل السلمي.

وكان الشاعر غفور غلام مناضلاً متحمساً من أجل السلام، والصداقة، وسعادة الشعوب. وكتب سلسلة من الأشعار، كرسها للنضال من أجل السلام. وأفضلها كانت: «من على منبر السلام»، و«يحيا السلام!»، و«هذا توقيعك»، وغيرها من الأشعار.

واشتهر غفور غلام بترجماته الموهوبة لأعمال: بوشكين، وليرمانتوف، وغريبايدوف، وماياكوفسكي، وناظم حكمت، وروستافيلي، ونظامي، وشكسبير، ودانتي، ولومارشيه، وغيرهم إلى اللغة الأوزبكية، وبمقالاته الصحفية وفي النقد الأدبي.

وكان لمؤلفات فلاديمير ماياكوفسكي تأثير كبير على تشكيل آفاق التذوق الفكري والفني عند غفور غلام. وفي واحدة من

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مقالاته كتب:

«أنا أعرف وأحب الكلاسيكيين الروس وترجمت الكثير من مؤلفاتهم إلى لغتي الأم. ولكني أريد أن أسمي نفسي قبل كل شيء تلميذاً لماياكوفسكي» الذي «فتح لي الإمكانيات المتنوعة التي لا تنضب في المجال الإيقاعي، والمفردات، وفي الشكل، وفي البناء الشعري السليم. وإلى جانب الغضب، تعلمت الهجاء في النقد، وهناك قوة عظيمة تهز المشاعر في كلمات ماياكوفسكي، وسعيت لأختار لنفسي... كل قوة خطابه الرجولي وإيقاعاته، في التعبير، ونغماته المعبرة. وحتى تقطيع الشعر الذي رفع من المستوى الإيقاعي والتعبيري والفكري للشعر، واستطعت استخدامها في التركيب الشعري الأوزبكي». وهو ما أكدته مؤلفات غفور غلام مثل: «على طرق توركسيب»، و«الأرض الأم»، و«يحيا السلام!».

ومؤلفات غفور غلام في مرحلة ما بعد الحرب لعبت دوراً هاماً في تطوير الأدب الأوزبكي. وإذا كنّا نجد في أشعاره خلال سنوات الحرب مشاعر عميقة لأفكار الناس، الذين دافعوا عن ما شيدوه قبل الحرب والسلاح بأيديهم، نجد في تعابيره الشعرية بعد الحرب وبشكل مباشر ومع خلجات قلبه تعبيراً عن معاناة أولئك الناس الذين دافعوا عن السلام على الأرض. وكانت إبداعاته الشعرية في مرحلة ما بعد الحرب، وبهذا الشكل، تعتبر استمراراً منطقياً وتطوراً لأغانيه خلال سنوات الحرب. وأشعاره «تذكر، الوطن بانتظارك!»، و«احتفال المنتصرين»، اعتبرت حلقة وصل بين مرحلتين في إبداعات الأديب الكبير.

وكما هي العادة المتبعة في أوزبكستان يقام للشخصيات البارزة متاحف في البيوت التي كانوا يسكنونها قبل وفاتهم تخليداً لذكراهم، ولتعريف الأجيال الصاعدة بأعمالهم المتميزة والخدمات التي قدموها لوطنهم، وقد أقيم للأديب الأوزبكي الكبير غفور غلام متحف في بيته الذي سكنه في آخر أيام حياته. وللراغبين بزيارته من زوار أوزبكستان أقدم عنوانه: جمهورية أوزبكستان، ١٠٠٠٠٣، مدينة طشقند، شارع آبايا،١.

المراجع

http://www.ziyouz.uz/ru

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الرواية التاريخية في عصر التنوير سليم البستاني نموذجاً

ظهير الشعراني *

في عام ١٩٨١م كان عام الكتاب الجامعي، وكنت آنذاك طالباً في المرحلة الأخيرة من دراستي الجامعية فرع «اللغة العربية». حيث كنّا قبل هذا التاريخ نتلقى المعلومات مشافهة ومباشرة من مدرّس المادة، أو عبر «نوطات» تصدر عن بعض مكاتب الخدمات الجامعية، أو بتحديد فصول من مرجع يحددها أستاذ المادة أو مدرّسها.

كانت فرحتي كبيرة جداً عندما استلمت أوّل كتاب مطبوع ومقرر لمادة «تاريخ الأدب الحديث» للدكتور: فؤاد المرعي متضمناً دراسات عن الرواية، والقصة، والمسرحية لأدباء عصر التنوير وما بعد. غير أني آثرت أن أختار من الكتاب موضوع «الرواية التاريخية في عصر التنوير» وذلك لسبب رئيسي، وهو أنّ العنوان كان لسؤال رئيسي على ورقة أسئلة الدورة الأولى من عام ١٩٨١م وهو:

ماهي العلاقة بين الخط التاريخي والأفكار التنويرية في رواية «سليم البستاني»

«الهيام في فتوح الشام»؟

ولد سليم البستاني في عام ١٨٤٨م في لبنان، وكان أبوه بطرس البستاني يعمل

* أديب وناقد.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

معلماً في إحدى المدارس الأمريكية التي انتشرت بكثرة في سورية كلها في ذلك الزمن. وبطرس البستاني والد الكاتب، عالم لغويٌّ وصحفي، وهو مؤسس المدرسة الوطنية السورية، ومؤلف الموسوعة العربية الأولى على النمط الأوروبي ١٨٦٣م وعضو مؤسس في الجمعية العلمية السورية، ورجل بارز من رجالات حركة التنوير العربية.

درس سليم البستاني منذ طفولته اللغات الأجنبية -التركية والإنكليزية والفرنسية، وكان أستاذه في اللغة العربية صديق أبيه ورفيق رحلته في عالم الأدب والفكر العربي الكبير ناصيف اليازجي (١٨٠٠ -١٨٧١م).

ومنذ عام ١٨٦٢م عمل سليم البستاني مترجماً في القنصلية الأمريكية في بيروت، وكان، في الوقت نفسه، يسهم في جمع أعمال والده التنويرية، فشغل منصب نائب مدير المدرسة الوطنية، وكان إلى جانب منصبه الإداري أستاذ اللغة الإنكليزية في هذه المدرسة.

كما كتب البستاني المقالات للموسوعة التي كان أبوه يصدرها واشترك اشتراكاً فعّالاً في الجمعية العلمية السورية وكان عضواً في هيئتها، وكانت للجمعية أهدافٌ تنويرية منها: معرفة العلوم والفنون عن طريق الحوار والمراسلة والمحاضرات، ومنها جمع الكتب والمخطوطات واستنهاض الهمم في طلب المعارف المتحررة من النعرات الطائفية التي لا تخدم المجتمع.

ارتبط النشاط الأدبي لسليم البستاني ارتباطاً وثيقاً بالصحافة التنويرية فساعد والده بإصدار مجلته نصف الشهرية «الجنان» عام ١٨٧٠م كما أصدر جريدتين هما:

«الجنة و الجُنينة» وكان سليم البستاني رئيس تحرير الجريدتين.

كانت مجلة البستاني وجريدتاه منابر لنشر الأفكار التنويرية ومعالجة الموضوعات الاجتماعية وتعميم منجزات العلم والحضارة، وكان البستاني في رأس قائمة الذين كتبوا المقالات في هذه الموضوعات المختلفة.

فقد صدرت مجلة «الجنان» تحت شعار: «حب الوطن من الإيمان» وأسهم في تحريرها الأدباء والصحفيون الطليعيون في ذلك العصر أمثال: إبراهيم اليازجي وسليمان البستاني وأديب إسحق وجميل المدور وغيرهم. فهي بحق أوّل مجلة علمية أدبية سبقت في ظهورها «المقتطف والهلال» اللتين اتبعتا نهجها فيما بعد.

الرواية التاريخية في أدب سليم البستاني:

اختار البستاني لرواياته التاريخية أكثر اللحظات درامية وبطولة في مختلف عصور التاريخ العربي، فكتب مثلاً عن الصراع بين ملكة تدمر «زنوبيا» والإمبراطورية الرومانية في عهد «زنوبيا»، وعن فتوح الشام في صدر الإسلام في «الهيام في فتوح الشام»، وعن الانقلاب العباسي وهجرة الأمويين إلى الأندلس في «بدور».

وكان للبيئة المتنورة التي ارتبط بها البستاني طوال حياته أثر كبير في تحديد أسلوبه بمعالجة التاريخ معالجة تحقق الفائدة للقارئ. فقد كان البستاني يعتقد أنّ الأعمال الأدبية ذات الموضوع التاريخي يجب أن تعطي القارئ معلومات صحيحة عن تاريخ العرب المجيد، وأن تبعث الروح الوطنية في الناس، وتدعم مبادئ الأخلاق القومية، وكان يرى في الوقت نفسه أن تقوم الرواية التاريخية على حبكة قصصية مشوّقة كي يستوعب القارئ المعلومات الضرورية بسهولة ويسر ،ولذا فهو لا يجد بدّاً من استخدام موضوعات الحب التي تساعد على جذب عقول الناس نحو الحقائق التاريخية المفيدة، وعلى أسر قلوبهم من خلال خلط هذه الحقائق بحكايات رقيقة عن الحب الطاهر، وفي هذه الحالة فقط تحقق الرواية النجاح في نظره لأنَّها تكون قد جمعت بين «التسلية والفائدة».

رواية: «الهيام في فتوح الشام»:

تمتاز رواية البستاني بموقف كاتبها الجاد من الوقائع التاريخية، وصدقه في تصوير العصر، وهو يستخدم كتاب «فتوح الشام» المنسوب للواقدي مصدراً تاريخياً لروايته، ويشير صراحة إلى أنه أخذ عن هذا الكتاب أقوال الأبطال التاريخيين ورسائلهم وضمّنها روايته من دون أي تغيير أو تحوير.

أمّا الأحداث العاطفية فتسير في خطين متوازيين يرسمان مصائر أربعة أبطال مختلفين هم: سلمى وسالم (متحابان عربيان مسلمان اشتركا في حملة الفتح العربي الإسلامي لبلاد الشام)، وأوغسطا وجوليان (متحابان سوريان مسيحيان اشتركا في الدفاع عن دمشق). أمّا سلمى فتنضم إلى حملة الفتح مقتفية أثر محبوبها سالم، وهي تقوم برعاية الجرحى، وتشترك في المعارك مرتدية ثياب الفرسان، وتتحمّل إلى جانب الرجال شدّة القتال ومصاعبه ،وتتداخل في الرواية مشاهد المعارك بمشاهد اللقاء بين المحبين وأحاديثهما عن الحب، وفي المعركة عند أسوار دمشق تقع سلمى في الأسر وتُنقل إلى قلعة حلب. ويبحث عنها سالم في كل مكان من دون جدوى، وبعد مغامرات كثيرة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يلتقي المحبّان بعد سقوط قلعة حلب وتنتهي المصاعب بالنهاية السعيدة –الزفاف–.

ويعرض البستاني تاريخ المحبّين الآخرين أوغسطا وجوليان بروح بطولية أيضاً فأوغسطا كسلمى، ترتدي ثياب الرجال وتتبع حبيبها جوليان إلى ساح المعركة. وهي تُعنى به عندما يُصاب، وتغضب من عجز الروم فتتسلل بمبادرة فردية إلى معسكر العرب وتكاد تهلك لولا أنّ جوليان أنقذها، ويفران معاً عائدين إلى دمشق، ويُصاب جوليان مرة أخرى في المعركة فيختفي عن أعين العرب في أحد أحراج القرى، وتبحث أوغسطا عنه والهة القلب ولكنها لا تجده فتدخل الدير.

وبعد أن يشفى جوليان من جراحه يجد أوغسطا في أنطاكية، ويحصل على السماح لها بالخروج من الدير ثم يتزوجها ويسافران إلى القسطنطينية.

إنّ حكايتي الحب هاتين لا تؤديان إلاّ دوراً ثانوياً. فما يحرّك أحداث الرواية هو الوقائع التاريخية: تجهيز القوات– الحملة – حصار المدن– العلاقة بين القادة العرب وبراعتهم في فنون القتال. أمّا الأحداث المتعلقة بمصائر الأبطال المختلفين فلا دور لها إلاّ تصوير المصائر الخاصة لهؤلاء الأبطال.

فالأحداث التاريخية هي التي تحدد مسار حكايتي الحب في الرواية، وهذا المسار يتعلق بأحداث التاريخ تعلّقاً يلائم مبدأ الكاتب العقلاني القاضي بارتباط شتّى ظواهر العالم المحيط بنا، ولاسيما الإنسان، بالبيئة والأحداث التاريخية.

الخط التاريخي والأفكار التنويرية في الرواية:

هذا العمل مكتوب لدائرة واسعة من القرّاء ذوي المعرفة المحدودة بتاريخ العرب والعالم، وقد أضفى هذا الأمر طبيعة معينة على عرض المادة التاريخية، فالبستاني يرى عدم الاكتفاء برسم صورة العرب وعلاقاتهم بالروم عشيّة الأحداث التي يصفها، ولذا فهو يتحدث عن انقسام الإمبراطورية الرومانية، ويفسّر بعض المصطلحات المستخدمة في العلم والأدب مثل كلمة «الجاهلية» أو كلمة «الروم» أو يعرّف بالشخصيات العربية الإسلامية البارزة «كأبي بكر وعلي» رضي الله عنهما، وهو عند ذكر أية شخصية تاريخية لا ينسى أن يذكر المنصب الذي كانت تشغله.

فذكر أبي عبيدة الجرّاح يقترن دائماً بلقب «القائد العام»، كما أنّه يعيد سرد المعلومات التاريخية أكثر من مرّة. إنّه، باختصار، يبذل قصارى جهده من أجل

أن يفهم القارئ الأحداث التاريخية بيسر ويغتني بالمعلومات التاريخية القيّمة.

غير أنّ سرد الأحداث التاريخية لم يكن بالنسبة إلى البستاني هدفاً بحد ذاته فهو يتعامل مع هذه الأحداث تعاملاً عقلياً مطبوعاً بروح العصر، فيرى أن معنى التاريخ هو عرض أحداث الماضي وتفسير عللها ونتائجها كي يوازن الناس بينها وبين أحداث الحاضر ويستخلصوا منها الخبرة، وينيروا عقولهم ويهذبوها بالمعرفة.

وبما أنّ البستاني يعطي التاريخ هذه القيمة التربوية فإنه من الطبيعي أن يقع اختياره على مرحلة بطولية مظفّرة في تاريخ العرب، هي بداية عصر الازدهار المادي والحضاري في حياتهم، بداية عصر نهوضهم الروحي. وبعبارة أخرى اختار البستاني المرحلة التي تستجيب أفضل استجابة لمهمات العصر الذي يعيش فيه، عصر انبعاث الروح الوطنية والإيمان بالقوى الذاتية عند الشعب، والكاتب لا يقدّم تاريخاً بل يقدّم صورة مثالية للتاريخ أملتها عليه أهدافه التنويرية.

إنّه يسعى لإظهار حب الحرية شعوراً فطرياً مغروساً في نفوس العرب منذ أيام الجاهلية، وإظهار أنّ النظام القبلي الذي كانوا يعيشون في ظله ينفي إمكانية الظلم، ويؤكد المساواة بين جميع أفراد القبيلة.

فالحرية والمساواة تخلقان الديمقراطية الحقيقية. وهذا هو سرّ جرأة أهل مكة على انتقاد الخليفة «عمر بن الخطّاب» (رضي الله عنه).

وفي هذه الظروف نشأت وتطورت مبادئ العرب الأخلاقية السامية: الشرف والوفاء بالعهد والإيثار والإنسانية في معاملة الأعداء، وهذا المبدأ الأخير يؤكده كل قادة الفتح العربي، ويجسّد البستاني الصورة العملية لتطبيق هذا المبدأ من خلال فتح دمشق التي دخلها خالد بن الوليد حرباً ودخلها أبو عبيدة سلماً، فيصّور نقاشاً حادّاً بين القائدين ينتهي بانحياز الجنود إلى صفّ أبي عبيدة على الرغم من أنّ حصّتهم من الغنائم ستكون قليلة في حالة الصلح، وهنا يريد الكاتب أن يبين لنا أنّ المبادئ الأخلاقية لا تفرض من أعلى فحسب بل يتبناها الجنود ويدافعون عنها أيضاً، فهم لا يحاربون من أجل الغنائم. بل من أجل انتصار الأفكار العظيمة، ولذا فهم يفضّلون الصلح على الغنائم.

ويؤكد الكاتب في روايته وعي المقاتلين العرب، فهم يذهبون إلى القتال طوعاً لأنهم يعرفون ما يحاربون من أجله، وهم منضبطون يطيعون أوامر قادتهم «في جو من الديمقراطية الشاملة» وقد تخلصوا من كل النعرات الجاهلية فالهدف الواضح

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في وعيهم يخلق بينهم الوحدة والقدرة على إخضاع الأهـواء الشخصية للصالح العام، ومما يجـدر ذكره في هذا المجـال، المشهد الذي يصـور فيه البستاني كيـف كلّف أبو عبيدة العبد الذكي الماهـر «دامس» بقيادة إحـدى العمليـات في حصار حلـب فيقبل الجميع قيـادة العبد مـن دون اعتراض أو تذمّـر لأنّ العقـل والوعي ينتصـران على المشاعـر ،بل الأصح أن نقـول: إنّ المشاعر تتلاءم مع العقل والوعي.

هكذا تصبح الحريـة والمساواة أساس المجتمع المثالي فتخلقـان فيه الديمقراطية والشعور الإنساني، والسعي إلى الاتحاد باسم الهـدف السامي الذي تخضـع له المصالح الشخصية، إنّ هذه الصفات كلها موجودة في المصدر الذي استقى منه البستاني معلوماته التاريخية. ولعلّ هذا المصدر هو الذي حدد اختيار البستاني إلى هذه الدرجة أو تلك.

أمّا الدولـة البيزنطية فتنهزم لأنّها في حالـة من الانحطاط والتفسّخ اللذين شملا الكبـير والصغير فيها، فقد حلّ الطمع محل الفضيلـة فصـارت مناصب الدولـة تُباع وتُشرى، وساد الفسـاد في قيادة الجيش بل تفشّت الخيانة بين القادة.

من هنا يتضح أنّ حركة التنوير العربية كانت ضد التعصّب الطائفي منذ البداية.

إنّ البستـاني يحـارب في روايته كل من يحاول في عصـره أن يقيم دولةً على أساس التعصّب الطائفي، وهو يؤكد أنّ كل محاولة مـن هذا النوع لا يمكن إلاّ أن تجلب الضرر الكبـير لأصحابها ويستشهـد للتدليل على ذلك بالحروب الصليبية.

بهذا الشكل يطرح البستاني مبدأ الوحدة العربيـة القومية، وقد ترافـق ذلك وظهور مبـدأ القومية العربية الـذي صاغه المنوّر الكبير عبد الرحمن الكواكبي في كتابه: «أم القرى».

المعنى التعليمي في الرواية:

يوازن البستـاني، في كل فرصة ممكنة، بين الماضي والحاضر مـن خلال الأحداث التاريخيـة التي يصفهـا، منطلقاً من فهمه لأهمية التاريخ وضرورته، كي يوازن الناس بين ماضيهم وحاضرهم، ويستخلصوا العبر اللازمة من ذلك.

إنّ الحرية في رأي البستاني حقٌ طبيعي مـن حقوق الإنسان، وهـذا الأمر لا يتجلّى في مداخلات الكاتب الوعظية فقط، بل هو الأساس أيضاً في العلاقات بين الأبطال.

ذلك مـا يستشفـه القـارئ في تصوير البستـاني لشخصياته مـن الرجال والنساء علـى حد سـواء. ويجدر بنا هنـا أن نشير إلى أهمية الشخصيـات النسائية في رواية البستـاني. فزمـن ظهور الروايـة هو زمن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بـدء معركة اجتماعيـة أساسية من معارك الانبعاث القومي العربي، ونعني بذلك تحرر المرأة ومساواتها بالرجل.

إنّ لمبـدأي الحرية والمسـاواة، اللذين بنيت على أساسهمـا الشخصيات النسائية في الروايـة، تأثيراً نبيـلاً في نفسي بطلتي الرواية «سلمى وأوغسطا»، فالحرية والموقف الواعي مـن الحياة يربيـان فيهما مشاعر الوطنيـة والبطولة. والمسـاواة بين الرجل والمـرأة لا تفسـد المرأة ولا تزعـزع دعائم المجتمـع الأخلاقية. فسلمى مثلاً، تبقى في سلوكها مثـال التواضع والإخلاص لمحبوبها علـى الرغم مـن النجاح الـذي تلاقيه في أوساط القادة العرب الأقوياء، وعلى الرغم من ظروف الأسر الصعبة.

لقد استخدم البستاني الرواية التاريخية من أجل تعريـف الناس بالتاريـخ، وانتقاد المجتمـع المعاصر الـذي يسـوده «الحسد والشـرّ والنميمـة والمكـر» وإبـراز أسباب فساده الكامنة في انعدام الأسس الأخلاقية القويمـة، وإظهار الطريـق المؤدية إلى بعث تلك الأسس في الحياة.

توفي سليم البستاني فجأة في عام ١٨٨٤م ولكنّه خلّف تركة أدبية كبيرة ومتنوعة، فقد ترك لنا، ماعـدا المقالات العلمية والفكرية التي نشرها في الصحافة، مجموعة ضخمة مـن الأشعار وكتاباً مترجمـاً بعنوان «تاريخ فرنسا»، وقاموساً غـير مكتمل للغة التركية ومسرحيتين هما: «الإسكندر» و«قيس وليلى» وست عشـرة قصّة مترجمة وخمس قصص مؤلفة، وثـلاث روايات تاريخية هي «زنوبيا وبدور والهيام في فتوح الشام» وست روايات اجتماعية هي «الهيام في جنان الشام وأسماء وبنـت العصر وسلمى وساميـة وفاتنة» ولا يجد المرء اليوم معظم هـذا التراث الأدبي الضخم إلاّ على صفحات المجلات والجرائد الصـادرة آنذاك وفي هذا خطر عظيم على التركـة الأدبية لرائـد الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المراجع

١- في تاريخ الأدب الحديث. الدكتور فؤاد المرعي، منشورات جامعة حلب ١٩٨١م.

الصخر..
بين قسوة الطبيعة ورقة الشعر

سامر أنور الشمالي *



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(١)

الصخر بحسب علم الطبيعة (الجيولوجيا) مادة نشأت في الأرض من اتحاد المعادن، فتشكلت أجرام مختلفة الحجوم، شديدة الصلابة. أمَّا في الشعر فللصخر معان ذهنية اشتركت في صياغتها المفاهيم الجمعية المتوارثة، وهي مادة مرنة بين يدي

* أديب وقاص وباحث سوري.

الشاعــر المبدع في حال استطــاع صياغتها كصـــور شعرية ترتكز على الجمادات كمواد منفصلة بذاتها، وصالحة لحمل الإسقاطات للتعبير عن الأحاسيـس والمشاعر الداخلية في الآن نفســه. لهـذا ليس مــن المستغرب أنّ الصخــر- بتصريفاتــه اللغوية- موجود بكــثرة في ديوان الشعــر العربي على الرغم من انعــدام أي دور له في الحيــاة اليومية، وافتقــاره إلى الجمال علــى صعيد الشكل والمحتوى، فضلاً عن ثبوته مكانه، وصعوبة تحريكه من موضعه بيسر.

ومــن الجدير بالذكـر أنَّ الشعراء لدى تناولهم الصخور في قصائدهم لم يروها كجزء مــن الطبيعة لها جمالياتهــا الخاصة التي تسهم في تكوين المشاهد الطبيعية الخلابة، بل لجؤوا إلى نزع الصخر من محيطه المادي، وإسقاط الحالة النفسية عليه، دون استثمار الجماليات الممكنــة للصخر- على ندرتها- في انسجامه مع الطبيعة من حوله.

لهــذه الأسباب لم ينـل الصخر اهتماماً بطبيعته-وهــذا ليس من شــأن الأدب على أي حال- وأتى مصــدر العناية به لتوظيف صفاته المفترضة مــن: الصلابة، والقسوة، والتحمّــل. وقـد شكلــت هــذه المعطيات مجتمعــة صــورة تقليدية عــن الصخور في قاموس الشعر العربي استخدمها عدد كبير من الشعراء من دون أي تعديل جوهري على هذا المفهوم، بل كان الاختلاف والتمايز في تشكيـل صورة جديدة يشـكل الصخر فيها أحد أركان التشبيه لا غير.

(٢)

حضرت صــورة الصخرة التقليدية بقوة في أغلب قصائد الشعراء الذين ورد الصخر في شعرهم. ولعلَّ خير ما يمثل هذه الصورة الشائعة في المخيلة الشعرية- حتى لدى عامة النـاس- قول (الأعشى) الملقــب بـ(صناجة العرب)، وهو أحد شعراء المعلقات:

(كَناطِحِ صَخرَةً يَوماً لِيَفلِقَها

فَلَم يَضِرها وَأَوهى قَرنَهُ الوَعِلُ)

الصــورة السابقة للصخــر بصفته كتلة كتيمــة صلــدة لا تتأثر بما يجــري حولها، ولايمكــن التفاعــل معهــا، تتعــزز بطرق مختلفــة في قصائـد بعض الشعــراء، فلا يوجد تعارضــ في دلالات الصخر في ذهن صاحــب الخطاب، أو المتلقــي. وقد تتشكل الاختلافات لدى تناول الصخر كعنصر متمم في البيت- وليس موضوعاً مقصوداً لذاته- من قصيــدة لأخرى، أو مــن شاعر لآخر. وعلى هذا المنوال اشتغل الكثير من الشعراء في قصائدهــم طلباً لتعزيــز المفارقة وشدة التأثــير في نفس المتلقي، علــى افتراض أنَّ القلب أكثر أعضاء البشر تأثراً كونه مصدر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

العواطف. وزاد (العباس بن الأحنف) الذي اقتصر شعره على الغـزل، من قوة المفارقة بوصـف الأنثى المعروفة برقتهـا الجسدية والعاطفية- مقارنة مع الرجل الذي يتميز بقوة الجسد وضبـط المشاعر- إنّه صاحب القلب الأكـثر قسوة، وذلك في معرض عتبه على المرأة التي لم تبادله حباً بحب، بل صدته وجفته حتى سال دمعه وبكى:

(أظُنُّ وَما جَرَّبتُ مِثلَكِ أنَّما
قُلوبُ نِساءِ العالَمينَ صُخورُ)

وإذا أمعنـا النظر في تشبيه قلوب البشر بالصخور نكتشف أنَّ تلـك القلوب للإناث غالبـاً! ولا شك في أنَّ السبـب يعود إلى أن من يقـول الشعر هـم من الرجـال الذين يعانون من صدود النساء، دون أن تعنيهم في الغالب أسباب هذا الصدود، أو يجدوا لهن مبرراً مقنعاً. وفي الاتجاه ذاته يسير الشاعر (سعدي الشيرازي) ولكنـه يزيد في المبالغة حتى تصـل لمرتبة قصوى لم يعـد بالإمكان تجاوزها، فهو يرى أنَّ قلب المرأة التي يحب أكثر قسوة من أشـد الصخور صلابة، على الرغم من أنَّـه- أي الشاعر- بالغ اللطف، ويستلطفه كل من يراه ويعرفه بحسب زعمه في قصيدته:

(رَقّت جلاميدُ الصخورِ لشِدّتي
ما لانَ قلبُكِ أن يميلَ ويعطِفا)

● ● ●

من غـير المستبعد أن يحضـر الصخر في بعـض القصائـد التي تتنـاول المعارك والحـروب، فهـو شديد الصلابـة، ويمكن استثمـار صفاتـه هـذه في مجـال الصور الشعرية. وقد تناول الشاعر العباسي (مهيار الديلمي) هذه الخاصيـة عن طريق وصف الشـيء بعكس ما فيـه، لصنع مفارقة تبين بجلاء الفكرة المـراد إبرازها، والشاعر هنا يمـدح الفارس المغوار بقولـه إنَّ قناة رمحه تذيب الصخر، ولا تفتتـه، وهذا له دلالاته أيضاً:

(وصخرٌ ذابَ صخرُ على قناكم
ولان لكم بـه الحجرُ الشديدُ)

● ● ●

وفي سبيل الحرص علـى تعزيز الفكرة التي يتبناهـا الشعراء والحاجـة إليها قد ينزعـون عن الصخر صفـات اللامبالاة أو الحياد، ويهبونه صفات الإدراك والإحساس بما يجـري حوله. على الرغـم من أنَّها في المحصلـة ليست أكثر من مـادة ثقيلة لشدة متانتهـا في الداخل، وملساء غـير مستوية في شكلها الخارجي. ولكـن حاول الشعراء الاستفادة من كل الإسقاطات الممكنة لتقديم صـور جميلة لها وقـع مؤثر في النفس ومن الشعـراء القلة الذين عبروا عـن معاناتهم عـن طريق تمني أن يكـون مثل الصخر في الصلابة، لا تنال منه عوادي الزمان، وتغير

ARCHIVE http://archivebeta.sakhrit.com

أحوال الناس (الشريف المرتضى) الذي رأى النوائب تترى عليه، حتى وجد نفسه لا طاقة له على تحمل المزيد، ولم يعد يملك الصبر الكافي للاحتمال:

(فيا ليتَ أنّي للحوادثِ صخرةٌ
تُحمَّلُ أثقالَ الخطوبِ فتحملُ)

وهذا الخاطر لم يغب عن شعراء عدة، بل شط الخيال ببعضهم حتى قالوا إن المصائب التي تنهال عليهم لا تقدر حتى الصخور على تحمل وطأتها، على الرغم من أنَّها من أشد الأشياء صلابة على هذه الأرض. ومن هؤلاء (مجنون ليلى) الذي قال بعض دارسيه إنه في حال لم يكن شخصية خيالية فإن الكثير من شعره منحول:

(فَلَوَ أنَّ ما بي بالحصى فَلَقَ الحصى
وَبالريح لم يسمع لهن هبوب)

o o o

اتفق الشعراء جميعهم على تناول الصخر في خيالهم الإبداعي، ومعالجته أدبياً ضمن حالة العطالة السلبية التي يتصف بها، لذلك افتقرت أغلب صورهم الشعرية إلى تأويلات متعددة الطبقات. ولم يختلف عن هذا العرف صاحب الشكوك والظنون (أبو العلاء المعري) ولكن قد تناوشته الخشية، وحاصرته الريبة، حتى فضل الصخر الخالي من الحياة على الأحياء من البشر، لظنه أنَّ الناس غارقون في الغش والخداع والمكر، بينما الصخر واضح بشكله، وصريح بمعدنه، لا يتزلف ويحابي، إضافة إلى أنَّه لا يتعدى على أحد وإن تعرض للاعتداء:

(أفضَلُ من أفضَلِهِم صَخرَةٌ
لا تَظلِمُ الناسَ وَلا تَكذِبُ)

o o o

نجد في الصور السابقة- على الرغم من تباين مستوياتها الفنية والجمالية- انحيازاً بالمجمل ضد الصخر على اعتباره قيمة سلبية بذاتها، فقلة هم من وجدوا في الصخر حمولة إيجابية، وأنَّه قادر على التعبير عن قوى فاعلة. ومن أقدم الشعراء الذين وجدوا معاني طيبة في الصخر (امرؤ القيس) الذي كان يمتلك مخيلة مدهشة حتى وصف سرعة حركات حصانه الخفيف بالصخرة الساقطة من مكان مرتفع، متجاوزاً حالة الثبوت في المكان التي تركن إليها الصخور كافة:

(مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقبِلٍ مُدبِرٍ مَعاً
كَجُلمودِ صَخرٍ حَطَّهُ السَيلُ مِن عَلِ)

o o o

بالانتقال من باب الغزل والتشبيب بالنساء، والبوح عمَّا يثقل النفس من صروف الحياة، والدخول في باب المديح الذي يفرط في ذكر المحاسن، ويتجاوز ذكر السيئات البغيضة، في حال لم يحولها إلى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حسنات محببة، نجد الشعراء يهبون للصخر فعاليات إيجابية محبوبة، وهذا ما فعله الشاعر المملوكي (ابن نباتة المصري) الذي وجد الخير في كف الرجل الذي ينفق بسخاء على من حوله- ومنهم الشاعر بالتأكيد- وقد جعل الصخر ينفعل بدوره ويشارك في السرور بالعطايا والهبات، كما الناس الذين تهفو نفوسهم نحو الكريم ولا تتحول عنه مادام يمد يده بسخاء:

(لو لمس الصخر لفاض نهرا
أو صحب النجم لعاد بدرا)

o o o

وقد برع شاعر مغمور عاش في العصر المملوكي يدعى (الستالي) في تحويل قسوة الصخر وصلابته إلى قيمة إيجابية حقاً عندما يتمثلها الإنسان القوي في المصائب التي قد تفاجئه، فيتحول الصخر إلى مثال أعلى يجب الاقتداء به:

(همُ الماءُ صَفواً والنسيم لطافةً
على أنَّهم في كل نائبة صخرُ)

o o o

وهذا الجانب الإيجابي الممكن الاستعانة به لا يغيب عن بال (ابن الرومي) الذي يجد في شدة الصخر وصلابته شيئاً من شعره الذي يفوق الصخر في قوة سبكه، ومتانة نَسْجِه، وربما وقعه على الأسماع أيضاً:

(فكيف وألحاظي حِدادٌ كأنها
نِصالٌ وألفاظي أشدُّ من الصخر)

ويقترب (صفي الدين الحلي) من الصورة السابقة ولكن بدلالة نقيضة في المعنى نسبياً، فهو يقول عن نفسه إنَّه ينتقي الألفاظ القوية ويُعالجها حتى تصير مثلاً في البلاغة، كأنه انتقى الصخور المنبعجة الخشنة وصقلها بالصبر والاجتهاد حتى صارت مستوية ناعمة، وهي صورة مبتكرة جديرة بالتأمل. ولا يغيب عنا في معرض الحديث عن الألفاظ أنَّ الشعراء فضلوا استخدام صيغة الجمع (صخور) على مفردة (صخرة) تغليباً للكثرة على القلة، لتحميل الصورة الشعرية أكبر شحنة تعبيرية ممكنة:

(وأَجعَلُ لَفظي لِلمَعاني قَوالِباً
فَأَنحَتُ مِن صَخرٍ وَأَغرِفُ مِن بَحرِ)

وقريباً من ربط الصخر بالمعاني والدلالات يأتي (محي الدين بن عربي) صاحب الخيال الجامع بصورة جديدة ومذهلة، فالصخر لم يعد لديه شيئاً لا حياة فيه، بل الصخر يختزل أسرار البلاغة ككل شيء في هذا الوجود الذي يتماهى فيه الشاعر، لهذا ليس نافراً وقتها أن تنبثق الدلالات من الصخور، وتتفجر في حالة من التعبير الإبداعي القوي كالبركان الثائر:

(فأنا صخرٌ ومني
تتفجر المعاني)

* * *

ممّا سبق نجد أنَّ الشعراء اتفقوا على تحميل الصخور دلالات شدة البأس، وقوة الحضور، سواء قدحاً أو مدحاً، ما عدا (الشريف المرتضى) الذي تحدث عن مملكة عجيبة تبلى فيها الصخور وتبقى صامدة في وجه عواتي الزمان، فالصخر رُغْمَ ما امتاز به يتقوض ويتفتت ويتلاشى:

**(في ظلِّ مَملكةٍ تبلى الصُخورُ على
طولِ المدى وهْيَ لا تبلى على الأَمَدِ)**

(٣)

لا شك في أنَّ الصخرة هي ذاتها لم تتبدل أو تتغير مذ كانت، ولكن نظرة الإنسان هي التي كانت تختلف، ليس من شخص لآخر فحسب، بل من وقت لآخر لدى الفرد نفسه، فساعات الحزن غير ساعات الفرح. فالصخور إذاً لم تكن إلا حاملاً لأفكار الناس وهواجسهم، ككل الجمادات على هذه الأرض التي سادها البشر فصار لها معنى لدى تعامله معها إنساناً، ومبدعاً.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المساواة والمحاباة في القانون والشرائع

منيب هائل اليوسفي ●



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لعلَّ أكثر المجتمعات البشرية تحقيقاً للمساواة بين الناس هي أقربها إلى الفطرة وأبعدها عن التطور، ففي المجتمعات التي تعتمد في حياتها على جمع الثمار والنباتات، وصيد السمك أو قنص الحيوانات يسود علاقات الأفراد فيها من المساواة مالا يتحقق في غيرها..

فأفراد كل جماعة يعيشون النمط نفسه من الحياة، ويتمتعون بالقدر نفسه من الحقوق، فهم يأوون إلى الكهوف، او يقيمون في حفر، او يتخذون اخصاصا من الأعشاب أو فروع الشجر، وهم في غالبيتهم لا يرتدون شيئاً من الثياب، وإذا

● محام وكاتب وباحث في الشؤون القانونية.

فعلوا اقتصروا على ما يستر العورة، إلا في المناطق القطبية حيث تفرض برودة الجو ارتداء ثياب ثقيلة يتخذونها من فراء الحيوانات وجلودها، وهم يقتاتون على ما يلتقطون من خشاش الأرض أو يقتنصون من حيوانات، أو يصطادون من أسماك، وهم فيما عدا ذلك لا يعرفون سوى القليل جداً من الأدوات التي يتخذونها من الجمر أو الخشب أو الجلود، يصنعها كل منهم بنفسه لنفسه وذويه، كذلك أفراد الجماعة في أوضاعهم يتساوون، فليس هناك أحرار وعبيد إذ لاوجود للرق بينهم.

وليست هناك طبقات يعلو بعضها فوق بعض فالجميع على حد سواء، وليست هناك تفرقة بين ذكور وإناث، فالمرأة تتمتع فيها بمركز تغبطها عليه بنات جنسها في معظم المجتمعات الحديثة، قد يدهش لذلك الكثيرون، لكنه أمر أسفرت عنه الدراسات الحديثة في علم الإنسان.

فبالعودة إلى المساواة في المجتمعات القبلية، نجد أن ملامح الصورة تتغير بعض التغير في المجتمعات القبلية التي تعتمد على الزراعة أو الرعي، حيث يظهر قدر من التفاوت بين أفراد القبيلة في ظروف حياتهم، كما ينشأ نوع من التفرقة بينهم في الحقوق والواجبات، فبعض أفراد القبيلة أكثر ثراء من بعضها الآخر، ومع ذلك لايكاد يكون لتفاوت الثروة في المجتمعات القبلية أثر في أسلوب الحياة، فأفراد القبيلة يأكلون المآكل نفسها، ويسترون عوراتهم، إن كانوا يفعلون، بأردية بسيطة يتخذونها من أوراق النبات أو جلود الحيوان.

غير أنَّه وعلى الرغم من بساطة مظاهر الحياة المادية في تلك المجتمعات وتقارب حظوظ الناس منها، فإنَّ بوادر التفرقة تخرج إلى حيز الوجود، فإلى جانب الأحرار هناك العبيد، والأحرار أنفسهم ليسوا بمنزلة سواء، فمن الأسر والعشائر ما ينظر إليه بوصفه أكرم مَحْتِداً وأشرف نسباً من غيره، وأبناء القبيلة على أية حال أسمى مكانة من أولئك النازلين بديارها المستظلين بظلها، كذلك تظهر بوادر التفرقة بين الجنسين فتكون للذكور حقوق تفوق ما للإناث، فيسمو وضع الرجل بينما يتدنى وضع المرأة، ويختلف كل ذلك في مداه باختلاف القبائل والشعوب.

أمَّا المساواة في المجتمعات المدنية القديمة فتزداد فيها الفوارق بين الناس، وينقسم المجتمع طبقات تختلف فيما بينها اختلافاً ينعكس على مستوى المعيشة وأسلوب الحياة، كما ينعكس على حقوق كل طبقة وواجباتها، فمن الناس من يملك القصور الفخمة والضياع الواسعة والأموال الطائلة، ومنهم من لا يملك سوى كدح اليدين وعرق الجبين، ومنهم من يحيا حياة مترفة ناعمة

يأكل ما لذّ وطاب ويرتدي أفخر الثياب، ومنهم من يحيا حياة بؤس وفاقة لايكاد يجد ما يقيم أوده أو يستر جسده.

ولم يقتصر الأمر على تفاوت الأفراد في حظوظهم من مظاهر الحياة المادية، بل لقد تدخل المشرِّع، في بعض المجتمعات المدنية القديمة، كي يكرس الانقسام الطبقي ويجعل منه لا مجرد انقسام واقعي أفضت إليه اعتبارات عملية اجتماعية واقتصادية بل نظاماً قانونياً تحميه الدولة وترعاه.

وفي ظل هذا النظام الطبقي ضاعت المساواة بين أفراد المجتمع، وتفاوتت حقوقهم وتباينت واجباتهم، ولما كانت الطبقة العليا هي التي تملك ناحية القوة الاقتصادية والنفوذ السياسي، كان من الطبيعي أن تخصّ نفسها من دون باقي الطبقات بالمركز الأسمى، وأهم مظاهر الاختلاف بين الطبقات هو تفاوتها في الحقوق والواجبات، والقاعدة في هذا الخصوص أنَّه كلما سمت الطبقة اتسعت حقوق أفرادها وتضاءلت أعباؤهم. وكلما دنت انكمشت الحقوق وتضخمت الأعباء، وبلغ الأمر في بعض المجتمعات حد ارتباط الفرد بطبقته ارتباطاً لا انفصام له، فكان الفرد يرث طبقته كما يرث نوع شعره أو لون بشرته.

وكما ازدادت الفوارق بين الطبقات، بعدت الشقة بين الجنسين، فلم تعد المرأة تلعب في المجتمعات المدنية سوى دور قليل الأهمية، ولقد وصل الأمر في بعض منها إلى حد إلزام المرأة القعود في البيت والاحتجاب عن الرجال.

ولعلَّ المجتمع الهندوسي هو أوفر المجتمعات القديمة نصيباً من عدم المساواة بين أفراده فالمجتمع ينقسم، طبقاً للديانة الهندوسية، إلى طبقات يتوضع بعضها فوق بعض في درجات، ففي القمة يأتي البراهمة Brahmans وهم رجال الدين، يليهم الكشتريا Kshatriyas وهم رجال الحرب والإدارة، يليهم الويشيا vaisyas، وهم الفلاحون وأصحاب الحرف، يليهم الشوادر sudras وهم العمال، وإضافة إلى هذه الطبقات الأربع هناك طائفة من الناس تعيش على هامش المجتمع وهي طائفة المنبوذين.

وتفسر الأسطورة الدينية هذا الانقسام بأنَّ براهما (الذات الإلهية) خلق البرهمي من رأسه، والكشتريا من ذراعيه، والويشيا من وسطه، والشوادر من قدميه، ويرث أفراد كل طبقة حالتهم أباً عن جد، ولا يستطيع أحدهم أن يتحول عن طبقته إلى طبقة أسمى، فقد جاء في شريعة منو (أشهر فقهاء الهندوس) أنَّ (رب المخلوقات فوض أمر الحيوانات النافعة بعد خلقها

إلى الويشي ليقوم بتربيتها كما وضع الجنس البشري تحت وصاية البراهمة الكشترية، ولا يتبع ويشي هواه فيقول: «عدت راغباً عن تربية المواشي» فإذا تخلى عنها وجب أن يقوم آخر مقامه فيها).[1]

وتميز شريعة الهندوس بين هذه الطبقات من وجوه عدة، ففيما يتعلق بالمسؤولية القانونية الجنائية يختلف الجزاء باختلاف طبقة الجاني والمجني عليه، فإذا كان الجاني أسمى طبقة من المجني عليه كان جزاؤه أخف مما لو كان الأمر على النقيض، فإذا قتل برهمي برهمياً آخر كان جزاؤه أن يوسم فوق جبهته بالحديد المحمّى وينفى، أمّا إذا قتل شخص ما برهمياً وكان هذا الشخص من طبقة أدنى فجزاؤه الإعدام ومصادرة الأموال، ودية الكشتريا ألف بقرة، ودية الويشي مئة بقرة، أمّا دية الشوادر فعشر بقرات فحسب.

كذلك فرقت هذه الشريعة فيما يتعلق بمقدار الفائدة التي يجوز للدائن اقتضاؤها من المدين، تبعاً للطبقة التي ينتمي إليها هذا الأخير، فقد نص (منو) على أنَّ للدائن أن يحصل من البرهمي على فائدة شهرية قدرها اثنان بالمئة، ومن الكشتري على ثلاثة بالمئة، ومن الويشي على أربعة بالمئة، ومن الشوادر على خمسة بالمئة[2] بل لقد روى البيروني، بمناسبة حديثه عن تعدد الزوجات عند الهندوس، أنَّ منهم من يرى أنَّ عدد النساء اللاتي يجوز للرجل الجمع بينهن يختلف باختلاف طبقته، فللبرهمي أن يتخذ أربع زوجات، وللكشتري أن يتخذ ثلاثاً، وللويشي أن يتخذ اثنتين، أمَّا الشوادر فواحدة.[3]

أمَّا في الصين ولاسيما في الصين القديمة، فقد كان المجتمع منقسماً إلى طبقات، فكانت هناك الطبقة العليا وتضم النبلاء ورجال الإدارة، تليها طبقة العامة وتضم العلماء والحرفيين والتجار والفلاحين ..إلخ.

وفي الدرك الأسفل طبقة الرعاع، وتضم عبيد الحكومة والأفراد والبغايا والموسيقيين والمغنين وعدائي الحكومة، وكان أفراد الطبقة العليا، يتمتعون بالإعفاء من دفع الضرائب وأداء السخرة، ويمنحون الإقطاعات ويخفف عنهم العقاب، ويحكمون أمام محاكم خاصة، وكانت هناك قواعد عرفية وقانونية تحدد لأفراد كل طبقة أصناف طعامهم وأشكال لباسهم وحليهم، ونمط مسكنهم، وطراز عرباتهم، بل وأنواع توابيتهم وأكفانهم ومقابرهم، وكانت هناك قواعد تحدد سلوك أفراد الطبقات المختلفة في مواجهة بعضها بعضاً، فقد كان من واجب الأدنى أن يخلي الطريق لمن هو أعلى منه، فكان على أفراد العامة، إذا رأوا

نبيلاً أو موظفاً قادماً أن يترجلوا في الحال وأن يقفوا على حافة الطريق ليسمحوا له ولحاشيته بالمرور.

وبينما كان القانون يسمح للرجل الأسمى بأن يستعمل عند الضرورة الأدوات الخاصة بمن هو أدنى منه، لم يكن يسمح على الإطلاق لمن هو أدنى باستعمال الأدوات الخاصة بمن هو أسمى منه، وكانت هناك جزاءات يتعرض لها من يخالف هذه الأحكام، وكانت الجزاءات بالنسبة للموظفين أشد منها بالنسبة لغيرهم، وكان الجزاء يتمثل في عدد من الجلدات يضاف إليها بالنسبة للموظف الطرد من الوظيفة أو النقل إلى وظيفة أدنى.

وقد بلغ من تشدد القانون في ذلك أنَّه كان يعاقب الحرفي أو الحائك الذي يصنع لأحد العامة شيئاً لا حق له في استعماله بالجلد خمسين جلدة.

أمَّا الأشياء التي تستعمل على خلاف ما يقضي به القانون فكانت أحياناً تباع أو يستبدل بها غيرها، وأحياناً تصادر، وأحياناً تعطى على سبيل المكافأة لمن أرشد عن مستعملها، كذلك منع القانون في بعض العصور الزواج بين أفراد هذه الطبقات، ولم يكن الأمر يقتصر على إبطال الزواج المختلط، بل كان المخالفون يتعرضون للعقاب، كذلك كان وضع المرأة أدنى بكثير من وضع الرجل فكانت النساء تخضع خضوعاً يكاد يكون مطلقاً لسلطة الرجال من الآباء والأزواج.

ومن المجتمعات التي أقرّت شريعتها انقسام المجتمع إلى طبقات هو المجتمع الفارسي (زمن الساسانيين)[4] أي قبل الإسلام مباشرة، فقد كان هذا المجتمع منقسماً إلى طبقات أربع: طبقة رجال الدين، وطبقة رجال الحرب وطبقة كتَّاب الدواوين، وطبقة الشعب من الفلاحين والصناع، وكانت كل طبقة منها تنقسم إلى أقسام عدة وكانت الطبقات الثلاث الأولى طبقات مميزة تفصل بينها وبين الشعب حدود محكمة، وكان التمييز بينهم يبدو جلياً في المركب والملبس والمسكن والبستان والنساء والخدم، وقد جاء في بعض كتبهم (وميز الأشراف عن المحترفة أو المتهنة باللباس والمراكب والزينة كما ميزت أزواجهم بثياب الحرير والقصور العظيمة والسراويل وغطاء الرأس والصيد وبكل مزايا الأشراف).

وكان الانتقال من طبقة إلى أخرى محظوراً بوجه عام، وكان من قواعد السياسة الساسانية المحكمة ألا يطمح أحد في مرتبة أعلى من المرتبة التي يخولها له مولده، وقد حكى سعد الدين الورديني في كتابه (مرزبان نامه) أنَّ أحد ملوك الساسانيين قد أمر بإعداد وليمة يدعى إليها الناس من جميع الطبقات من أعظم النبلاء إلى أحقر

الفقراء وأن يجلسوا على مراتبهم، ثم قدمت لهم أفخر الأطعمة وقد جلست جماعة من موظفي الدولة ورجال الديوان لعرض المظالم حتى ينال الآثمون جزاءهم وفقاً لرسوم الشريعة المقدسة، ثم اعتلى الملك عرشه وأمر المنادي بإذاعة هذا المقال:

(أيُّها الحاضرون أمام الملك افتحوا عيون بصائركم، أيُّها الحاضرون من الندماء ورجال الديوان انظروا إلى من هم أقل منكم طبقة ولا تتطلعوا إلى الطبقة الأعلى منكم ليقنع كل منكم بما هو فيه وليشكر الله على المرتبة التي هو فيها حين ينظر إلى غيره ممن هم أدنى منه) وهكذا أخذ كل فرد ينظر إلى من هم أدنى منه مرتبة حتى إن الذين كانوا في آخر مرتبة من أدنى طبقة أحسوا بالسعادة بالنسبة لمن أدى بهم سوء سلوكهم إلى التعزير وكان هؤلاء يحسون أنهم أعلى منزلة ممن عوقبوا ليكونوا مثلاً رادعاً لغيرهم وكان من حكم عليه بمثل هذه العقوبة حين يرى من صلب أو قطعت رقبته بطريقة أخرى يعد نفسه سعيداً لأنَّه ليس في مكان أحد منهم.

إذن، فالطابع المميز للمجتمعات المدنية القديمة هو التفرقة بين أفراد المجتمع وتميز بعضهم على بعض فهناك تفرقة بين نبلاء وعامة، وهناك تفرقة بين ذكور وإناث، أمَّا في المجتمعات الحديثة فعلى العكس إذ يسودها مبدأ المساواة بين أفراد المجتمع الواحد، فقد اختفى بإلغاء الرق خلال القرن الماضي تقسيم الناس إلى أحرار وأرقاء كما اختفت أو كادت التفرقة بينهم تبعاً لنسبهم أو حسبهم أو أصلهم وأخذت التفرقة بين الذكور والإناث تسير بدورها نحو الاختفاء وجرت عادة واضعي الدساتير الحديثة بتصديرها بالنص على المساواة بين المواطنين بغض النظر عن العرق أو القومية أو الدين أو الوضع الاقتصادي أو الجنس..إلخ

منها دساتير تخص دولاً في أوروبة وأخرى في آسيا وثالثة في أفريقية وغيرها ومنها دساتير تخص دولاً رأسمالية وأخرى تخص دولاً انتهجت طريق الاشتراكية.

ويكفي هنا أن نضرب بعض الأمثلة فقد نصت المادة ١٢٣ من دستور الاتحاد السوفييتي السابق (الصادر في ٥ كانون الأول ١٩٣٦م) على أنَّ المساواة في الحقوق بين مواطني الاتحاد السوفييتي بصرف النظر عن القومية والعنصر في جميع ميادين الحياة الاقتصادية والعامة والثقافية والاجتماعية والسياسية هي قانون ثابت لا يمكن التنازل عنه ولا يمكن إبطاله ونصت المادة ٣ من القانون الأساسي لجمهورية ألمانيا الاتحادية (الصادر في ٢٣ أيار ١٩٤٩م والمعدل بقانون اتحادي في ١٩آذار ١٩٥٦م)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

على أنَّ الأفـراد جميعاً لدى القانون سواء، وأنَّه لا يجوز تمييـز شخص بسبب الجنس أو النسـب أو العنصـر أو اللغة أو الوطن أو الأصل أو العقيدة أو بسبب آرائه الدينية أو السياسية.

ونصـت المادة ٨٥ من دستور الجمهورية الشعبيـة الصينيـة (الصـادر في ٢ أيلول ١٩٥٤م) على أن جميع مواطني الجمهورية الشعبية الصينية متساوون أمام القانون.

ونصـت المـادة الثانيـة مـن الدستور الفرنسي (الصادر في ٤ تشرين الأول ١٩٥٨م) على أنَّ فرنسـا جمهورية لا تتجزأ علمانية ديمقراطية اجتماعية وهي تضمن المساواة أمام القانون لجميع المواطنين من دون تمييز بسبب الأصل أو الجنس أو الدين.

كما نصت المادة ١٤ من الدستور الياباني (الصادر في ٣ تشرين الثاني ١٩٦٣م) على أنَّ المواطنين لـدى القانون سواء وأنَّ أي تمييز بينهم أساسه الأصل أو العقيدة أو الجنس أو الحالة الاجتماعية أو منشأ الأسرة لا يمكن أن يكـون له أثر في العلاقـات السياسية أو الاقتصادية والاجتماعية وأنَّ طبقة النبلاء لا يقرهـا الدستور، وإذا كانت المساواة أمام القانون قد أضحت الآن قضية مُسلّمة، فإنَّ الأمـر لم يقـف عند هذا الحـد، فقد شرع الكثير من المجتمعات الحديثة شرائع وقوانين تهدف إلى تضييق الشقة والتفرقة بين أفراد المجتمع من حيث أوضاعهم الاقتصادية.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الهوامش

١- جوستاف لوبون، حضارات الهند، ترجمة عادل زعيتر صفحة ٣٢٤.

٢- جوستاف لوبون، المصدر السابق صفحة ٣٢٣.

٣- البيروني، مقولات الهند، صفحة ٢٧٨.

٤- كريتنس، إيران في عهد الساسانيين، ترجمة يحيى الخشاب، صفحة ٣٠٣ ومابعدها.

المصادر

1- Irfan Shahid. Byzantium and the Arabs in the sixth century.

Dumbarton Oaks Research and Collection Washington D.C.بلا تاريخ

2- Le djebel al Arab. Histoire et Partimoine Au Musee De Suweida.-

P.2934- مع المصادر1991

الهندوسية بين البرهمية والنرفانا

عيد الدرويش ✪

تميزت الهند بتعدد الفلسفات والعقائد والديانات، وكثرة الأساطير والطقوس الشعبية، التي ارتسمت في العقل الجمعي في مجتمع الهند منذ زمن موغل في القدم، وجل هذا النتاج الفكري والعقلي يبحث في القيم النبيلة التي كانت الشغل الشاغل للعقل

الإنساني على وجه البسيطة إلى وقتنا الحاضر، وتنامت المعرفة وازدادت ثراء وغنى، في حراك عقلي ظل ملازماً للعقل البشري، ومازال وسيبقى، ما دام الإنسان يدب على هذه الأرض، ليجدد الحياة بألوانها وأشكالها، ونتاج العقل الإنساني في أي مفصل تاريخي يحتفظ بقيمته المعرفية التي يستحقها، وعلينا أن لانحاكم الماضي بنظريات اليوم، وصولاً إلى إلغائه، ومن الواجب الاحتفاظ به، لأنه يزودنا بمخزون فكري ومعرفي، ويعطينا صورة عن تطور نظرية المعرفة، عند ذلك نجد في أنفسنا الحرج للإجابة عن سؤال ما الذي أضفناه اليوم على مسيرة المعرفة بالمقارنة مع بواكير استنباط المعرفة، ونحن اليوم نمتلك الكثير من المقومات التي تساعدنا على المضي قدماً في الولوج إلى ساحات العلم والمعرفة، وبالمقارنة نجد أنفسنا أكثر تخلفاً، عما كانوا

✪ أديب وناقد.

عليه في ذلك الظرف التاريخي، والسياق الزمني، وفي أدنى صورة أنهم قدموا لنا كل تلك المقومات، وأساسيات المعرفة، ولكن أين نحن وماذا عملنا؟

إننا نلمس دور الفلاسفة في إنتاج المعرفة وتوليد نظمها، وفي صياغة منهج العبادات، مدفوعين للبحث عن الحقيقة، والوصول إلى سعادة الفرد، والتخلص من معاناته الإنسانية، لأنَّ مسألة المعرفة تدخل في قديم الحياة وحديثها، كما تدخل في جوانب عدّة فيها مما شكل وفرة للأسطورة، التي تجمع بين الواقع والخيال الذي خيم على العقل الإنساني، ليسبغ عليه أشكالاً وتصورات عله يجد ضالته فيها، ويمتع عقله بها.

وقد نواجه صعوبات كثيرة عندما ننبش عنها في مفردات الماضي السحيق، بعد أن خفي منها الكثير سواء بفعل فاعل، أو بفعل تراكم غبار السنين واختلاف اللغات، ولم نعثر منها إلا على ما بقي لماماً، وعندئذ نضع استدلالات عنها وفق قرائن ومعطيات تجعلنا أكثر قرباً منها، وما يتوافق مع سياقات الإنتاج المعرفي والفلسفي لتلك المجتمعات والحضارات التي كانت سائدة آنذاك، أو ما تناقلته الأجيال كتابة أو مشافهة، أو دونته في الأساطير والقصص والحكايات، وقد نجد معالمها مبثوثة في معابدها وآثارها ومنحوتاتها، إضافة إلى ما دوّن حولها في الرُقم كما أننا نستدل على غنى هذه المعرفة من خلال الكم الهائل من هذا التراث الذي لم تستطع عوامل الزمن أن تخفي معالمه بشكل كامل، لأنَّها مجسدة في جميع مفاصل الحياة الإنسانية الأخرى، لندرك تلك الأهمية التي كانت تشغلها هذه الأفكار وهذه العقائد والمعارف، وفي جلّها إنتاج فكري وفلسفي في آن واحد.

إنَّ العقل البشري منذ أن وطأت قدم آدم على هذه الأرض كانت تلح على عقله الكثير من المسائل التي بدأت تواجهه، وأنتج بعض الصيغ الفكرية، التي قد أصاب في بعضها، وأخفق في بعضها الآخر متلمساً المعرفة التي كان يبتغيها، حتى غدت في مواضع متقدمة، أنها قوانين وتعاليم مقدسة يجب التدين بها، وهذه الأفكار تركزت على ماهية الخلق والخالق، وما يجول حول الإنسان من ظواهر ومخلوقات، وقد أرّقته ظواهر الطبيعة كالشمس والقمر والنجوم والكائنات الحية الأخرى، ولم يتوقف عند هذا الشكل، فقد رسم نظاماً أخلاقياً وتربوياً واجتماعياً.

فقد ظهرت فلسفات كثيرة ومتعددة، قد تتشابه فيما بينها، وتختلف فيما بينها في صيغ بسيطة، ولكن أشهرها تلك التي راجت بين مجتمعات الهند وهي: الفلسفة البوذية والفلسفة التاوية والفلسفة الجاينية،

التي غالباً مــا أخذت من الهندوسية الكثير من المنظومات الفكريــة والمعرفية، ونظمها الاجتماعيــة، وجــزءاً مــن أساطيرها التي ساهم العقل البشري في حياكتها.

الهندوسية:

تعــود الأفكار الهندوسية في نشأتها إلى عــام ١٧٠٠ق.م وهــي مــن الفلسفات التي راجت في الشرق القديم، وحددت أهدافها ومعالمهــا، بأنَّ الإنسان سيحيــا ويهنأ بحياة ثانية أفضل من حياته التي يعيشها الآن في حاضره الزمنــي، إذا سلك الطرق والتعاليم التــي نــادى بهــا فلاسفتهــم وحكماؤهم ومعلموهم الكهنة، وتدل المصادر أيضاً أنها نشأت على يد الآريين الذين بدأت هجراتهم مــن الشمــال الغربــي للهنــد، ووصولهم إلى إيــران، الاسم الذي يــدل على أن هذه الهجرات كانت من العنصر الآري.

لقــد تعــددت الديانــات في الهند منذ آلاف السنين، وتعــددت أشكالها وطقوسها الدينيــة، التي كانت منتجــاً فكرياً محضاً، ويشوبهــا نوع من التعقيــد والغموض، مما يجعل الدارســ يجد صعوبة في الفصل بين جزئيــات الفكر الفلسفي التــي نشأت فيها تأملات حكماء الهنــد لتصبح عقيدة دينية يديــن بها شعب لفــترات طويلة من الزمن، قد توارثتها الأجيال اللاحقة، فشكلت سمة خاصــة ذات غنــى وثراء فكــري وفلسفي، تهدف إلى وضع منظومــة معرفية لتحسين أحوال الإنسان وسعادتــه، واجتثاث المعاناة وأسبابهــا، ولقــد رأت أنَّ الجحيم والعقاب على هذه الأرض يكونان بالعودة المتكررة إلى الحياة والتلوث بالمادة، وعقاب الخاطئ هو العودة بالروح إلى كائن مثل حيوان أو حشرة أقل منه قيمة.

لقــد نظر الشعب الهنــدي إلى الفلسفة نظرة إعجاب وتقدير، لأنها ترتبط بالحكمة والمعرفــة، فضــلاً عــن تناولهــا الجوانب الفكريــة والفلسفية، والتــي تشمل الجانب الديني والاجتماعي والعلاقات بين الإنسان والبيئــة المحيطــة بــه، وإن رســم أشكال العبــادات وطقوسها والتــي كانت متوافقة إلى حد ما مــع حياتــه، أدى إلى ديمومتها لآلاف السنين، فكانت الفيدا التي دونت بين دفتيها قواعد ونواميس الحياة الاجتماعية والفكريــة لــه، ونظــر إليها بأنهــا ملاحم أدبية في تلك المسائــل الأخلاقية في الطب والدين والفلسفة، والعلاقات الزوجية، كما أضيفت عليها الشروح لتلك الكتب المقدسة، وقــد سايرت تطور العقل البشري إضافة لما تطلعت إليه من معتقدات ومبادئ الديانات الأخــرى، التي لم تخلُ من التطور أيضاً عمَّا كانت عليــه سابقاً، وسجلت هــذه الأسفار للفيدا التي عرفتنــا بعلوم الهند وعلى تلك

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحياة البدائية، وأخذ الهنود يطلقون تسمية الأسفار على تراثهم المقدس، وما استجد في مفاصل حياتهم، وكانت هناك أربعة أسفار (سفر رج: أو معرفة ترانيم الثناء- سفر ساما: أو معرفة الأنغام- سفر ياجور: أو معرفة الصيغ الخاصة بالقوانين- سفر أتارفا: أو معرفة الرقى السحرية).

وكل سفر ينقسم إلى أربعة فصول - «مانترا» أو الترنيم.- «براهمانا» أو قواعد الطقوس والدعاء والرقى لهداية الكهنة في مهمتهم. - «أرانياكا» أو نصوص الغابة وهي خاصة بالقديسين الرهبان.- «يوبانيشاد» أو المحاورات السرية التي تخص الفلاسفة.

ولا يوجد إلا سفر واحد ينتمي إلى «الأدب» أما سفر «رج» أو «ريك فيدا» فهو ضرب من الدواوين الدينية ويتألف من ١٠٢٨ ترنيمة.

وقد رتبت وجمعت بين عامي ١٠٠٠-٥٠٠ق.م وحسب قول الأتقياء الهندوس فإنَّ هذه الأسفار والتراتيل، قد كتبت بيد الآلهة براهما بالذهب، وهذا ما يرفع شأن كتبهم والتقيد بما جاء فيها، علماً أنَّها كتبت من قبل الكهنة والفلاسفة والحكماء، في تلك الفترة التي يرجعونها إلى ما قبل عام ٦٠٠٠ق.م، والترانيم هي شروح اقتصروها على أدعية موجزة ويصعب فهمها كونها مختزلة.

وهذه ترنيمة الخليقة من (ريك فيدا) وهو الكتاب الذي ظهر بين أشد الشعوب تمسكاً بالدين:

لم يكن في الوجود موجود ولا عدم، فتلك السماء الوضاءة.
لم يكن ثمة موت ومع ذلك فلم يكن هناك ما يوصف بالخلود.
ولم يكن فاصل بين النهار والليل.
«والواحد الأحد» لم يكن هناك سواه.
كانت هناك ظلمة، وكان كل شيء في البداية تحت ستار.
من ظلام عميق- محيط بغير ضياء.
والجرثومة التي لم تزل كامنة في اللحاء.
برزت طبيعة واحدة من الحر الحرور.
ثم أضيف إلى الطبيعة الحب، وهو الينبوع الجديد.
للعقل نعم إن الشعراء في أعماقهم يدركون.
- إذ هم يتأملون - هذه الرابطة بين ما خلق.
وما يخلق، فهل جاءت الشرارة من الأرض؟
تتخلل كل شيء، وتشمل كل شيء، أم جاءت من السماء؟
ثم بذرت الحبوب، ونهضت جبارة القوى.
فالطبيعة في أسفل والقوة، والإرادة أعلى.
من ذا يعلم السر الدفين؟ من ذا أعلنه هاهنا؟
إن الآلهة نفسها جاءت متأخرة في مراحل الوجود.
إن من صدر عنه هذا الخلق العظيم.
سواء خلقه بإرادته، أم صدر عنه وهو ساكن.
إن هو ربنا الأعلى في السموات العلى.
إن يعلم السر- بل لعله لا يعلم من السر شيئا.

ومن يعلم حقيقة هذه الخليقة، ومن يستطيع أن يجهر من أين ولدت، ومن أين جاءت، فإنَّ الآلهة قد جاءت بعد أن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أوجدت هذه الدنيا، فمن ذا الذي يعلم كيف جاءت الدنيا إلى الوجود، فهو الأصل الأوَّل للخليقة، سواء أكان هو الذي أنشأها جميعاً، أو لم ينشئها الذي عينه تحكم هذا العالم من علياء السماء، وهو يعلـم حقيقتها، أو ربما لا يعلمهـا، وإنَّ الإله المفترض (براهما) هو الإله الخالـق، أمَّا (فيشنـا) الإله الحافظ وكذلـك (شيفا) الإله المدمـر، والهندوسية تذكر في مفردات فلسفتهـا أنَّ الإله فيشنا نزل من السماء تسع مرات إلى الأرض راكباً طائـر الغارودا، وفي الانحـدار العاشر جاء ممتطياً جـواداً أبيض، ويحمـل سيفاً من لهب، وفي نهاية الأمر ينزل إلى الأرض ليهلك الأشرار.

وهنـاك مجموعتـان تعتبران كالكتب المقدسـة في الفلسفـة الهندوسيـة، وتعتبر ملحمة كيتـا ذات مكانة رفيعة في الهند في جميع العصور اللاحقة، فقد كتب (المهاتما غاندي) في الهند الفتاة يقول(عندما تحدق بي الخيبة، وأغدو فريـداً، ولا أعود أبصر أي شعـاع من نـور، فإنني أعـود إلى «بها كافادركيتا» لأعثر على مقطوعة هنا، وعلى أخرى هناك، وعندئذ تعلوني الابتسامة، وأنا في صميم الكوارث الماحقة، وحياتي مفعمة بالكـوارث الخارجيـة ، فـإن لم تترك هذه الكوارث آثاراً ملحوظة لا تمحى، فإنني مدين بكل شيء إلى تعاليم (بها كافادركيتا).

وهنـاك أقـوال كثيرة تـدل على عمق التفكـير الفلسفي، وتبحث في أصل الوجود، وحقيقة العالم ومن هذه الأقوال:

- أتبكـي لو بلغـك أنَّ إنساناً في ساعة المـوت مثله في ساعة الميـلاد، الموت خاتمة الميلاد، والميلاد خاتمة الموت.

- تولـد المخلوقات ولا يؤبه لها، وتموت ولا يؤبه لهـا أيضاً، أمَّا البشر فيؤبه في كلا الحالتين.

فالمرحلـة التـي بـدأت بالبراهما التي تدعـو إلى التحول من عبـادة الطبيعة إلى عبـادة الإله، وهذه التعاليم تكمن في تعاليم اليوبينشاد (وإنَّ أوَّل دراسة يعلمها الحكماء للتلاميـذ المخلصين هي قصـور العقل، إذ كيف يستطيع المخ الضعيف الـذي تتعبه عملية حسابية صغيرة أن يطمح في أن يدرك يوماً هذا العالم الفسيح المعقد الذي ليس مخ الإنسان إلا ذرة عابرة من ذراته، وليس معنى ذلـك أن العقل لا خير فيه، بل إنَّ له المكانة المتواضعة).

وقـال شوبنهور: (إنَّك لن تجد في الدنيا كلهـا دراسة تفيـدك، وتعلو بـك أكثر مما تفيدك، وتعلو بك دراسـة أسفار يوبينشاد، لقد كانـت سلواي في حياتـي وسلواي في مماتي).

واليوبينشاد: كلمـة مؤلفة من مقطعين (يوبـا) معناه بالقـرب من و(شـاد) معناه

اجلس أو مجلس، وإنَّ مخالفة هذه التعاليم لها عقوبات قاسية، وتكفير الناس عن خطاياهم يكون قاسياً إلى حد الاضطجاع وسط النيران، أو التحديق في الشمس، أو الوقوف على ساق واحدة، أو الجلوس جلسة غير مريحة لفترات طويلة.

هناك دنيا تختلف عن دنيا الحس، فهي أعمق وأعلى وأبقى غوراً، لا يبلغها البصر ولا تتبدل، والأفكار التي تنطوي عليها اليوبينشاد تقوم على فكرة البراهما، وأن حالة الاتحاد مع البراهما هي درجة الغبطة والاتحاد، فمن الواجب على طالب العلم، أن يجلس في وضع تأملي، ويبتعد عن كل الهموم الدنيوية، وهذه هي المعرفة اليقينية، ولكن اليوبينشاد أيضاً تذكرنا بأنَّ هناك عودة للأرواح بعد انحلالها، وتجسدها في حيوانات أو كائنات أخرى قبل هذه الحياة، ومن الملاحظ بأنَّ الأديان الوضعية، لا يمكن أن تكون كالأديان السماوية، في كثير من المعايير والمقاييس، ونظرتها لهذا العالم والسعادة والشقاء وعالم الحياة الآخرة.

كما أنَّ الفكر الفلسفي الهندوسي نظم تعاليم كثيرة إلى جانب الثواب والعقاب وعلاقتهما بالكائنات الحية الأخرى، وخاصة الرفق بالحيوان، وظهر بوضوح تحريم إيذاء البقر لأنَّ الآريين الفيديين (المعرفة) يستخدمون البقر للتضحية بها للآلهة، والفكرة التي تقول إنَّ إزهاق حياة حيوان، أو حياة بشرية تحت أي ظرف من الظروف هو عمل آثم، وإن كان يؤدي إلى ميلاد جديد في كائن حي آخر أدنى.

وهكذا تعكس حياة الهندوس أنها لا تقوم على التضحية، وترتبط ارتباطاً وثيقاً بحالات الزهد والتصوف والنسك والمعارضة للفيدا، فضلاً عن أنَّ اليوجا هي كلمة سنسكريتية تعني الاتحاد، ويلجأ معتنقو هذا المذهب إلى التدريب القاسي في سبيل الوصول إلى هدفهم الروحي.

لقد آمن الهندوس بمعتقد التناسخ وبحلول الأرواح في الأجسام بعد الموت (الكارما) التي تعني أنه إذا كان الإنسان صالحاً في واحدة من دورات حياته المتتابعة، فإنه سيلقى ذلك في الدورة الثانية، وإذا كان طالحاً كذلك سيرى ذلك في الدورة الثانية، أو بمعنى آخر جزاء الخير خير مثله، وعقاب الشر شر مثله، وهذا قانون الكارما.

إنَّ النرفانا كلمة سنسكريتية تعني (المنطفئ) ففي الكتب البوذية المقدسة تعني إطفاء واقتلاع الشهوات الجسدية اقتلاعاً تاماً، وتحرير الفرد من عودته للحياة، واتحاده مع الله (المتخيل لديهم) أما في الأدب البوذي فتتخذ الكلمة معنى دنيوياً بأن يصطنع القديس نرفانا في حياته الدنيوية بجمعه لمقوماته السبعة (السيطرة على

النفس، والبحث عن الحقيقة، والنشاط، والهدوء، والغبطة، والتركيز، وعلو النفس).

وإنَّ حالة النرفانا التي ينشدها أبناء الهند، ويتوجب على الهندوسي الولوج إليها، لأنها الغاية العظمى، وفق ما جاءت به تعاليمهم، للانتقال بالإنسان إلى حالة أرقى من الحالات التي سبقت حياته في الأدوار في المستويات الدنيا، ويكون بذلك صالحاً.

لقد امتزجت بالتراتيل، وعبرت أصدق تعبير عمّا يجول في خاطر الإنسان آنذاك، وإنَّ عدد الآلهة يصل إلى بضعة آلاف، وهذه الآلهة ليست موجودة بقدر ما كان يجسدها الهندوسي في وعيه، وليس لها سمات بشرية، وإنما هي لقوى أساسية في هذه الحياة، وهي تمثل القوى التي تخلق العالم وتدمره، وإن تعدد الآلهة عند الهندوسيين يرتبط بتعدد معتقداتهم التي كانت تدور وفق قوى الطبيعة وعناصرها، كالشمس والماء والنار.. ومن هذه الآلهة (آجني- أندرا- فاك- فيشنو- كرشنا) وإذا كانوا يعتنقون مبدأ التقمص أيضاً، فإن ذلك واضح من تجسيد هذه القوى الطبيعية في بناء التماثيل للآلهة ونحتها.

إن التراتيل وأناشيد الفيدا التي أنتجها العقل البشري في الهند، قد أوصلتهم إلى حقيقة وجود الجوهر، ومنه وجدت كل الأشياء، وأطلق على ذلك اسم (براهما) وهو اسم غير وصفي وليس شيئاً محدداً، ويصعب وصفه وأنه لا يتغير، ولا يمكن إدراكه أو سماعه، أو رؤيته أو تذوقه، وليس له بداية أو نهاية، فهو يتخلل كل شيء، وهو كلي الوجود، ويعتبر مصدر كل الموجودات، وبهذا نتلمس بذور الاعتقاد بوحدة الوجود.

إذا كان الإله براهما هو الإله الخالق المفترض في هذه التعاليم، وكانت حالة النرفانا هي الحالة المثلى أيضاً، فإنَّ الوصول إلى معرفة البراهما مُحال، وكذلك الوصول إلى النرفانا مُحال، فما العمل؟ ويأتي الجواب من الحكماء: علينا أن نعمل من أجل المجاهدة للوصول لها، وإن كنا لا نصل فعلينا العمل.

وإنَّ الدرجة الرفيعة التي يصلها الهندوسي هي البراهما، وهي رتبة الكهنة، وهم أشرف وأفضل الناس، وقد سنت قوانين صارمة على من يتطاول على البرهمي، أو يريد إيذاءه، فإنَّ عقوبته هي أن يُصلى عذاب النار لمدة مئة عام، ومن يعتدي عليه يعاقب بالجحيم لمدة ألف عام، وهذه القدسية للبرهمي عند الهندوسيين تعزى أيضاً إلى أن البرهمي قد خلق من رأس «مانو» وهو أوّل البشر في معتقدهم، وأمَّا مجموعات البشر التي خلقت من أطراف (مانو) فهي أربع، ولكن (ثلاثة منها) في خدمة البرهمي.

على الرغم من تلك الطقوس، فإنَّ حياة الهنود قد تركت للحضارة كثيراً من النظم والقواعد الخلقية، فقد عرف المجتمع الهندي نظام الطبقات وقد تكونت بقدوم الآريين الذين استقوها من خلال موروثهم الديني ورؤيتهم في خلق الإنسان الذي خلق من الإله براهما وفق قوانين مانو، ومن فمه خلق طبقة البرهمية، ومنهم الطبقة الراقية والمتعلمة، والبراهما هم أشرف الخلق، ويصنفون من الآلهة، والبرهمي رجل مغفور له، ولو أباد العوالم الثلاثة بذنوبه، وله الحق في أخذ أموال من طبقة الشودر، وإنَّ أقسى عقوبة تنال البرهمي هي حلق الرأس، وإنَّ مرتبة البرهمي الذي هو في العاشرة من عمره تفوق الشودري الذي ناهز المئة، كما يفوق الوالد ولده، ولا يجوز للبرهمي أن يموت جوعاً في بلاده، أمَّا من ذراعيه فقد خلق طبقة الكاشتر، وهذه الطبقة تتسم بالقوة، وتقوم بالدفاع وحمل السلاح، أمَّا طبقة الويش التي خلقت من فخذ براهما، فهي طبقة للزراعة والتجارة وجمع المال، وكذلك طبقة الشودر، وهم الذين خُلقوا من قدمي الإله، وهذه الطبقة منبوذة، ويجب أن تقوم بخدمة الطبقات الثلاث السابقة، وعملهم في المهن القذرة، ووفق قانون مانو فإنهم من أراذل الخلق، ومنهم من يحظى بالسعادة إذ يقوم بخدمة البرهمي من دون أجر أو ثواب، وإن كفارة من يقتل من طبقة المنبوذين، مثل كفارة كلب أو قطة وغيرها من الكائنات التافهة.

إنَّ الكثير من المبادئ الأخلاقية والدينية وقوانينهم التي صاغوها تستند إلى قانون (الكارما) الذي يغلب عليه الجانب الديني، وهو قانون الجزاء لنظام الكون، وهو نظام إلهي قائم على العدل المحض، هذا العدل الذي سيقع لا محالة، إمَّا في الحياة الحاضرة، أو في الحياة القادمة، وجزاء الحياة يكون في حياة أخرى، وإنَّ الأرض هي دار ابتلاء كما هي دار الجزاء والثواب.

كما يرتقي الهندوس بنظرتهم إلى الإنسان من خلال فلسفتهم، بأنَّ الإنسان خلق الأفكار والأنظمة والمؤسسات، كما يستطيع المحافظة عليها أو تدميرها، وبهذا يتحد الإنسان مع الآلهة، وتصير النفس هي عين القوة الخالقة، ويرون من خلال فلسفتهم ومعتقداتهم، أنَّ الأجساد يجب أن تُحرق بعد الموت، لأن ذلك يسمح بأن تتجه إلى أعلى، وبشكل عمودي، لتصل إلى الملكوت الأعلى في أقرب زمن، كما أن الاحتراق هو تخليص للروح من غلاف الجسد تخليصاً تاماً، وهذه نظرة إلى وحدة الوجود، في بواكير المعرفة عند الإنسان ونظرته للحياة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الإسلام دين الوسطية

د. إبراهيم الصعبي ✿



جاء الإسلام الحنيف على يد سيدنا وقدوتنا محمد -صلى الله عليه وسلم- بالوسطية وبالحنيفية السمحة قال الله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾(سورة البقرة الآية ١٤٣)، وجاء في السنة الشريفة «إني بعثت بالحنفية السمحة» (رواه أحمد) والوسطية في اللغة تعني وسط الشيء أي بين طرفية وفي الاصطلاح تعني العدل والخيرية والاستقامة، فالوسطية إذاً تمثل الاعتدال والتوازن والبعد عن التشدد وهي تنطبق على الإسلام الذي جاء به نبي الرحمة ورسول الإنسانية قبل أن تشوبه

✿ أديب وناقد سوري.

الشوائب وتلحق به الزوائد والبدع وتكدر صفاءه الخلافات، ولهذا السبب وصف المسلمون بأنَّهم خير الأمم نتيجة التوازن بين الإفراط والتفريط ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (سورة آل عمران الآية١١٠).

فإذا خرجت الأمة عن الوسطية وأخذت بأحد جانبيها الإفراط أو التفريط فإن ذلك يؤدي إلى ضعفها بل إلى نهايتها، فالمتطرف في الدين متزمت يوجب على الناس ما ليس بواجب، ويحرم عليهم ما ليس حراماً وقد يكفر بعض المسلمين فيستحل دماءهم وأموالهم ودليل تحريم الإفراط أو التفريط قول المولى عز وجل ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (سورة هود الآية١١٢). وقول الرسول -صلى الله عليه وسلم- «إياكم والغلو في الدين فإنَّما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين» (رواه الحاكم).

ويرتبط بالوسطية مفهوم التسامح ويعني في اللغة سهولة التعامل والتسامح من سمات الدين الإسلامي فكثيراً ما نسمع عن الإسلام بأنه العقيدة السمحة والدين السمح. والوسطية يقابلها التطرف، وهو مجاوزة حد الاعتدال والبعد عن الوسطية ويعني في الاصطلاح التشدد وتجاوز الحد في الدين ويرتبط به مفهوم الغلو ويعني الزيادة والارتفاع ومجاوزة الحد في القول والعمل والاعتقاد وهو أمر مذموم مصداقا لقوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾(سورة المائدة الآية٧٧).

مرتكز الوسطية

يرتكز الدين الإسلامي على أسس ومبادئ ثابتة، وميزات متفردة، تعتبر خصيصة له وسمة بارزة من سماته، ومن سماته الوسطية التي تعني الاعتدال والبعد عن التطرف والتشدد والمغالاة. فمن فضل الله على الأمة الإسلامية أن جعلها أمة وسطا، فالوسطية من خصائص الأمة الإسلامية لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (سورة البقرة الآية ١٤٣)، فالإسلام دين صالح لجميع الناس، ولكل زمان ومكان، فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها، والدين الإسلامي دين رحمة ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾(سورة الحج الآية٧٨)، حيث جاءت تشريعات الإسلام ملبية لكل حاجات الإنسان الروحية والمادية في توازن محكم دقيق، يعطي للبدن حقه، كما يعطي للروح حقها، فالإسلام يهتم

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

بالفـرد والمجتمع معا، حيـث يرى أن الفرد المكرم هو أساس المجتمـع الصالح، فيوليه اهتمامه، ويـرى للمجتمع من الحقوق على الفـرد، ما يحقق مصلحـة مجموع الأفراد، حيـث إنه يلتزم سلوكا متوازنـاً في استيفاء الحقوق وأداء الواجبـات، فلم يرض رسول الله – صلـى الله عليـه وسلم – عن كل من حاول الانحراف عـن وسطية الإسلام، ظناً منـه أن ذلك هو التدين الحـق، حيث قال – عليـه الصلاة والسـلام-: «أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلـي وأرقد، وأتـزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني» (أخرجه البخاري).

والإسـلام يرفض الإخـلال بالتوازن الذي شرعـه لتلبية كل مطالب الـروح والجسد، حيـث يقول- صلى الله عليه وسلم-: «هلك المتنطعون، هلك المتنطعون، هلك المتنطعون». (أخرجه مسلم)، فأمتنا هي الأمة الوسط، والأمة الخيرة التي ختم الله بها الأمم، وختم برسولها – عليه الصلاة والسلام- الأنبياء والمرسلين، وخصها الله تعالى بأكمل الشرائع، وأوضح المناهج وأقومهـا، لتقوم برسالتها، وتؤدي مهمتهـا العظيمـة في الحياة، فقد أكمل الله لها الدين وأتم النعمة، ورضي لها الإسـلام دينا حقق العدل الإلهي على أكمل وجـه، حيث يقول عز وجل: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً﴾ (سورة المائدة الآية٣).

منهجا للتفكير النافع

الوسطية مفهوم قـرآني بامتياز أصالة وفرعا، يقول الإمام الشاطبي: «إنَّ القرآن هو كلية الشريعة، وعمدة الملة، وينبوع الحكمة، وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، فلا طريـق إلى الله سـواه، ولا نجـاة بغيره ولا تمسك بشيء يخالفـه..»، وهو قول يلخص تلكم الحقيقـة المسلمة مـن أن أي تأصيل لعمل مخصوص حسب مقتضيات الوسطية، ينبغي أن يؤسس على القـرآن الكريم أولاً، وهذا متحقق في قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾(سورة النحل الآية٨٩)، وقال تعـالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾(سورة الأنعام الآية ١٥٣).

فكانـت الوسطية منظاراً للرؤية النافعة السليمـة، ومنهاجاً للتفكـير النافع المفيد، فهـي مقياس قـوي لمدى صلاحيـة ثقافة الإنسان المؤمـن، وعلى هذا فإنَّ القرآن هو منظار كلي لفهم الحيـاة، وطريقة التعامل معهـا. وعليـه كان الكتـاب الكـريم سبب التحضر والرقي والسمو والبعد عن الأهواء والأوهام، وهذا ما يقره الواقع ويؤكده قديماً

وحديثاً، قال تعالى يصف حال المؤمنين ويحكي مقالهم: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾(سورة المائدة الآية٨٣)، لأنهم فهموا الوسطية على وجهها القرآني فعاشوا أمناً فكرياً استدعى أمناً مادياً واقعاً مبسوطاً، بما فقهوه من أحكام القرآن وتدبر آياته، فوعوا الوسطية في إطار من التوازن بين متطلبات الحياة ومتطلبات الآخرة، مصداقاً لقوله عز وجل: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ (سورة القصص الآية٧٧)، إنه أمن فكري له تعلق بالدنيا، كما له تعلق بالآخرة، فقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ (سورة الأنعام الآية٨٢)، لأن «نظام الدين لا يحصل إلا بنظام الدنيا... فلا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن على هذه المهمات الضرورية».

فالذي احترم المنهاج الصحيح في بناء الأمن الفكري ومن ثم المادي وفق حقيقة الوسطية كان له وعد الله، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً﴾(سورة النور الآية٥٥). نعم إنَّ القرآن دعا بكل قوة إلى حياة صحيحة واقعية إنسانية سمحة منفتحة بنظرة متوازنة شاملة للإنسان والحياة والكون، من حيثيات مختلفة منها:

- من حيث ضرورة الثقة في النظام السياسي والحاكم والتعاون معه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾(سورة النساء الآية٥٩).

- من حيث احترام مبدأ نظام المجتمع وثقافته وخصوصياته، قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾(سورة آل عمران الآية١٠٣)، وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (سورة الأنفال الآية٤٦).

- من حيث ضرورة فهم أن الأمن الفكري يعني تجسيد معاني الرحمة الربانية في الأرض، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (سورة الأنبياء الآية ١٠٧)، لأنَّ الوسطية تقتضي مراعاة الرحمة بين الناس جميعاً، وبين كل مستويات العلاقات، قال -صلى الله عليه وسلم-: «**لن تؤمنوا حتى تحابوا أفلا أدلكم على ما تحابوا عليه؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: أفشوا السلام بينكم تحابوا، والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تراحموا، قالوا: يا رسول الله كلنا**

رحيم. قال: **إنه ليس برحمة أحدكم ولكن رحمة العامة رحمة العامة** (المستدرك للحاكم)، والرحمة هنا هي رحمة شاملة إنَّها وسطية بانية عامة وشاملة مع المؤمن وغير المؤمن، والكائنات، فكانت الوسطية تروم في معنى من معانيها تحقيق الأمن الفكري الذي يرتبط بتحقيق رحمة الله في عباده، لأنَّ الإسلام كله جاء لحماية الفكر وتوجيه الفكر وترشيد السلوك من خلال الربط بين طاعة الله وتحقيق الرحمة، يقول تعالى: **﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾**(سورة آل عمران الآية١٣٢).

وإذا لم تنجح الوسطية في تأمين الفكر الإنساني من الوقوع في الزلل والانحراف في فهم الدين والخلل في التدين، فلنعلم أنها ليست الوسطية التي يريدها الإسلام، لأن الوسطية هي اتباع للمواعظ وبناء للمسامحة والاحترام وحب المجتمع، قال الله تبارك وتعالى: **﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾** (سورة طه الآية١٢٣-١٢٤). إذن، فإنَّ الوسطية التي تبني الأمن الفكري لا تتحقق إلا بوجود الآتي:

- الفهم السليم لمرجعية القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ونصوص أهل العلم وفق القواعد المألوفة للاستنباط، وفك العبارات وشرح المصطلحات تحت حضن الوسطية بمفهومها ومقتضياتها، وعليه يكون من المؤلم والمحزن حقاً أن يأتي شخص، ويضع النص في غير موضعه الصحيح، ويحتج به على أمر معين وهو لا يدل عليه لأنَّه سيق مساقاً آخر، ويأتي شخص يؤوِّل الآية ولا يبالي لا بسياقها ولا بما يسبقها من الكلام، فكان توسيع الحرام أو الحلال عند بعض الناس واقعاً خطيراً.

- الاعتبار والاهتمام بالمآل، وبفقه ومراعاة فقه المرحلة والموازنات، بين المصالح والمفاسد من جهة والموازنة بين المصالح المتفاوتة فيما بينها من جهة ثانية حتى نبعد الجمود المنغلق والذبول والغلو والتنطع والتشدد، ونتفادى القتل والتنكيل والتكفير.

العقل دعامة للوسطية

إنَّ الوسطية باعتبارها مطلبا فطريا يرجع إلى طبيعة الإنسان التي خلقها الله وأحسن تصويرها كما قال سبحانه في كتابه العزيز: **﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ﴾** (سورة الانفطار الآية٧-٨). وللعقل دور بارز في بناء ركائز الوسطية، فأين يتجلى هذا الدور؟ فهي إلى جانب ذلك سمة العقلاء وموضوع فكرهم وتفلسفهم، لأنَّها فضيلة، والفضائل من

ARCHIVE http://archivebeta.sakhrit.com

الأمـور البديهية عندهــم، يسلم بها كل ذي عقل راجح حصيف، فهم يقرون بالاعتدال كمبدأ خلقي واجتماعي في تحقيق المطالب وفي إعطاء كل ذي حق حقــه، لأنَّ التوسط حالــة محمــودة تقــوم في العقــل الإنساني السليــم بالفطــرة، وتعصمه مــن الميل إلى جانبي الإفراط والتفريط، لذلك كان معيار الاعتدال العقل والشرع.

فالفكـر الإسلامي يعتـبر العقل دعامة منطقية لمبدأ الوسطيــة، لأنَّ العقل الراشد يميــل إلى كل ما هــو حسن بالقــوة، وهي عــين الحكمة التــي يعرفها علمــاء الدين: معرفــة الحقائــق على ما هــي عليه بقدر الاستطاعــة، وهي العلم النافــع المعبر عنه بمعرفــة النفس مــا لها وما عليهــا المشار إليــه بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾(سورة البقرة الآية٢٦٩)، وإفراطهــا الجربزة، وهــي استعمال الفكر فيمــا لا ينبغي كالمتشابهــات وعلى وجه لا ينبغــي كمخالفة الشرائع، وتفريطها الغباوة التــي هي تعطيــل القوة الفكريــة بالإرادة والوقوف عن اكتساب العلوم النافعة. وجاء عن النبــي -صلى الله عليــه وسلم- قوله: «ما اكتسب رجل ما اكتسب مثل فضل عقل يهــدي صاحبه إلى هدى ويرده عن ردى وما تمَّ إيمان عبد ولا استقــام دينه حتى يكمل عقله» (مسند الحــارث)، وقال أيضا: «لكل شيء دعامــة ودعامة المؤمــن عقله فبقدر عقله تكون عبادة ربه أما سمعتم قول الفاجر عند ندامته: لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السَّعير» (بغية الباحث).

إذا كانت الوسطيــة تتأسس أركانها علــى الديــن والعقل والفطــرة، فهل لها من ضوابط تتقيد بها؟.

إنَّ الشائــع عنــد بعــض الدعــاة إلى الوسطيــة أو الرافضين لها، أنَّ هذه القيمة مدخل إلى التحلل مــن كل ضابط خلقي أو حكم شرعــي، والواقع أنَّ الأمر على خلاف ذلك، لأنَّ للوسطية ضوابط يجب مراعاتها في الأخذ بها. لذلك يراعى في العمل بقاعدة الوسطية الضوابط التالية:

-**الضابط الأوَّل:** أن يكــون المــرء عالما بطبيعة الوسط حتى يمكنه أن يرد الطرفين إليــه، مثال الربح والخسارة، فإنَّهما في باب المعامــلات طرفان أحدهما زيــادة والآخر نقصان، فإذا أخــذ أقل مما يجب صار إلى جانــب النقصان، وإنْ أخــذ أكثر مما يجب كان خارجا إلى جانب الزيادة.

-**الضابط الثاني:** أن يكون الأمر المتوسط فيه غير منصوص عليه بالمنقول الصحيح أو بالعقل الصريح، لأنَّ الشرع يقضي بالاحتكام بالنصــ بلا التفــات إلى قضيــة التوسط، كالأحكام المتعلقــة بالأعداد، بحيث لا تقبل الزيادة ولا النقصان مثل إثبات الزنا بأربعة

شهود عدول، والكفارات، ومقادير الزكاة، وعدد الصلوات وركعاتها.

- **الضابط الثالث:** ألا يعارض ما علم من الدين بالضرورة وقيمه الثابتة، وأن لا يصدم مع أصل من أصول الدين أو كلي من كلياته، بحيث لا يدخل تعديلاً عليه أو يجر مفسدة عظيمة درأها الشارع الحكيم، ولا يناقض روح الإسلام ومبادئه العامة بشكل من الأشكال.

وسطية الإسلام في مجال المعرفة والعقيدة

المعرفة التي دعا إليها الإسلام تجمع بين المدرك الحسي والمدرك العقلي، وبذلك اكتسب صفته الوسطية التي جعلت منه معرفة واقعية مخالفة للواقعية المبنية على العقل وحده، ومخالفة أيضا للمثالية التي لا تستند إلى الحس ولا إلى العقل، وبهذه الوسطية الإسلامية في المعرفة القائمة على الحس والعقل معاً تمَّ الربط بين العقيدة والسلوك، فأصبح العقل يفرض على العقيدة أن تكون سلوكية، أي أن تكون ذات أثر عملي وعنصراً فعالاً في حياة الناس. وتتجلى وسطية الإسلام في المجال العقيدي من خلال نظرته إلى الوجود، فبينما تؤكد الفلسفات المادية على أن الوجود الحق إنَّما هو الوجود المنظور الواقع تحت طائلة الحواس، وما سواه وَهْم وخيال.

وتذهب الفلسفات المغرقة في المثالية إلى أنَّ عالم المادة إنَّما هو عالم أشباح وخيالات نجد النظرة الإسلامية تقر بثنائية الوجود: وجود مادي يمثله عالم الشهادة، ووجود غيبي يتجسم في العالم اللامنظور، لذلك نجد الإسلام يعرض لنا العقيدة التي ترتبط مفاهيمها بعالم الغيب عرضاً يلائم ملكات الإنسان وواقعه الإدراكي، وذلك عن طريق تقديم الحقائق المجردة ممثلة في آثارها المحسوسة، يقول سبحانه وتعالى: **﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾**(سورة الشورى الآية١١)، كما أقام الإسلام العقيدة على الفطرة، قال تعالى: **﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾** (سورة الروم الآية ٣٠).

هذه الفطرة التي من شأنها أن تكون منهجاً وسطاً بين تصديق الخرافيين لكل شيء من دون حجة، وبرهان وتكذيب للماديين لكل ما وراء الحس وإنكارهم لفطرية التدين ونداء العقل، فالإيمان في الإسلام مبني على الفطرة السليمة والدليل العقلي، قال تعالى: **﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾**(سورة البقرة الآية١١١)،

كما تبرز هذه الوسطية في الجانب العقيدي من خلال دعوة الإسلام إلى التوحيد راداً بذلك ادعاء الملاحدة الذين لا يؤمنون بالله ومتصدياً لأولئك الذين جعلوا لله أندادا.

وسطية الإسلام في العبادة

إنَّ الله تعالى وتبارك لا تنفعه عبادة من عبده ولا تضره معصية من صد عنه وأعرض، ولا يزيد في ملكه حمد الحامدين ولا ينقصه جحود الجاحدين قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾(سورة فاطر الآية١٥). وقال عز وجل في الحديث القدسي: «يا عبادي إنكم لم تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أنَّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد ما زاد ذلك في ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً» (رواه الإمام مسلم). وصحيح أنَّ الله فرض على الناس أن يعبدوه ويتقربوا إليه، وصحيح أنَّ العبادة هي حق الله تعالى على عباده، فقد روى البخاري ومسلم ومعاذ بن جبل رضي الله عنهم: «كنت رديف النبي -صلى الله عليه وسلم- على الجمال فقال لي معاذ أتدري ما حق الله على العباد ؟ قلت الله ورسوله أعلم، قال حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا». لذلك كلف الإسلام متبعيه بأداء شعائر محدودة ونهى عن غلو المسلم في العبادة وشغل الليل والنهار بها وحدها وهضم حقوق الحياة من أجلها.

وأظهر ما في تعاليم الإسلام وتكاليفه هو الاعتدال بما يتوافق مع وسع المكلف، ويعبر عن ذلك حديث النبي الذي رواه إسماعيل ابن مالك بن أنس عن عمه أبي سهيل بن مالك عن أبيه أنَّه سمع طلحة بن عبيد الله يقول: جاء رجل إلى رسول الله من أهل نجد ثائر الرأس يسمع دوي صوته ولا يفقه ما يقول حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام فقال رسول -صلى الله عليه وسلم-: خمس صلوات في اليوم والليلة، فقال علي غيرها قال إلا أن تطوع، قال وذكر له رسول الله الزكاة قال إلا أن تطوع، قال فأدبر الرجل وهو يقول: لا أزيد على هذا ولا أنقص، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: أفلح أن أصدق. ولقد اعترف الإسلام بالضعف الإنساني فقرر في العبادات مبدأ الرخص أو الإعفاء من العبادة، وذلك كالقصر للمسافر في الصلاة الرباعية ورخص له في الجمع بين الصلاتين الظهر والعصر تقديماً وتأخيراً، كما رخص للمريض أن يصلي قاعداً أو مضطجعاً على جنبيه أو مستلقياً على ظهره حسب استطاعته، وفي الطهارة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

رخص لمن يتعذر عليه استعمال الماء من مرض أو سفر بالتيمم، كما رخص للمسافر الإفطار في رمضان.

أمَّا الوسطية في المعاملات فتتجلى في مظهر التيسر الذي ينتظمها، وتتجلى أيضاً في المعاملات في كونها سنت على أساس من التوازن بين المصلحة الفردية والمصلحة الجماعية، فالإسلام عمل على حماية مصالح الإنسان ودفع الضرر عنه والضرر عن كل تعد عن الحقوق والأنفس والأموال والأعراض، وهو من جنس الشرور والمفاسد التي كان المقصد الأعظم للشريعة الإسلامية القضاء عليه، وقد وردت آيات لا تحصى في منع أنواع التعديات كلها كالقتل والسرقة وكل جناية أو أذى يلحق الناس، كما أنَّ قوله صلى الله عليه وسلم: «لا ضرر ولا ضرار» (مسند ابن حنبل)، نفي مطلق للضرر مهما كان مقداره ونوعه، وأوامر الشريعة الإسلامية تتعلق بالمصلحة الحقيقية التي في الشيء ولا تتفق إلى ما ينجز عن ذلك مما يلوح أنَّه مضرة أي مما يبدو مضرة موهومة، كما أنَّ نواهيها تنظر إلى ما في الشيء من فساد الأصل لا إلى ما فيه من مصلحة وهمية، ومعنى ذلك أنَّها تبني أحكامها على الحقائق لا على الأوهام، فالضرر الحقيقي هو المستبعد والمصلحة الحقيقية هي المستجلبة ولا يقع الالتفات إلى المصلحة والضرر الموهومين، ومن هنا كان التصرف في الحق بناء على أحكام المعاملات الإسلامية تصرفا حكيما وسطيا.

والوسطية في مجال التشريع تتجلى في كون الأصول العامة للتشريع إنَّما سنت لحفظ مصالح العباد وتقديم مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد من دون إضرار بمصالح الفرد، ومن القواعد الواضحة لوسطية التشريع نجد قاعدة: الضرر الأكبر يزال بالضرر الأدنى، فإذا اجتمع ضرران اهتم الإسلام بدفع الأكبر منهما ولو بتحمل ضرر أصغر منه تخفيفاً من وقع الشر على المجتمع، كذلك عدم الحرج ورفع المشقة، فالإسلام لا يكلف المسلم إلا ما يطيق (لا يكلف نفسا إلا وسعها)، وقال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإنَّ المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى» (أخرجه البيهقي). وقد استنتج المسلمون من أمثال هذه النصوص قاعدة: المشقة لاتجلب التيسير. ولذلك فإنَّ من مظاهر وسطية التشريع قلة التكاليف، فالله سبحانه لم يرهق عباده بتكاليف كثيرة ترهقهم وتكلفهم العناء، قال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ الله فرض فرائض فلا تضيعوها، ونهى عن أشياء فلا تنتهكوها، وحد حدوداً فلا تعتدوها، وعفا عن أشياء رحمة بكم لا عن نسيان فلا تبحثوا عنها» (اخرجه الطبراني).

الوسطية في الأخلاق

والوسطية في الأخلاق تتجلى في مظاهر كثيرة تنتظم في مجموعها ضمن مبدأ عقيدي كلي، فالأخلاق الإسلامية ليست منفصلة عن الإسلام كمبدأ عام مكون من قواعد وفروع تشكل كلها الدين الإسلامي الحنيف. فالأخلاق في الإسلام هي عبارة عن التقيد بأحكام الشريعة أمراً ونهياً في جميع التكاليف التي تربط الإنسان بخالقه في العقائد والعبادات، كما تربطه بغيره من الناس في المعاملات، ولهذا أجابت عائشة -رضي الله عنها- عندما سئلت عن أخلاق الرسول -صلى الله عليه وسلم- بقولها كان خلقه القرآن.

وللأخلاق في الإسلام المكانة العليا، ويظهر ذلك جلياً في عنايته بها عناية عظيمة وجعلها هدفاً أسمى من أهداف الرسالة، فعندما يقول الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، يتضح أن الرسالات السماوية السابقة جاءت باللبنات الأولى في صرح البناء الأخلاقي في المجتمعات الإنسانية، ثم وصل ذلك البناء الشامخ إلى ذروته برسالة خاتم النبيين الذي أخبر عنه ربنا تعالى بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(سورة القلم الآية٤)، والله تعالى لا يمدح رسوله إلا بالشيء العظيم، مما يدل على عظيم منزلة الأخلاق في الإسلام.

ومن خصائص نظام الأخلاق في الإسلام نجد خاصية التفصيل والتحديد، حيث دعا الإسلام إلى التحلي بالأخلاق الكريمة، ولكنه لم يكتف بالدعوة العامة بل اهتم بالتفصيل لكل خلق وحض على التحلي به، ولكل ذميم وحض على التخلي عنه.

وقد شملت الأخلاق الإسلامية جميع أفعال الإنسان الخاصة بنفسه أو المتعلقة بغيره، سواء أكان الغير إنساناً أو حيواناً أو جماداً، فرداً أو جماعة، فلا يخرج شيء عن دائرة الأخلاق مما لانجد له نظيراً في أية شريعة سماوية سابقة، ولا أية شريعة وضعية.

خاتمة

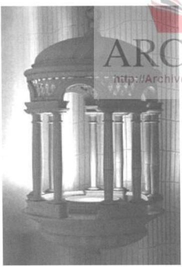
لقد خلقنا الله في هذه الحياة لهدف تحقيق عبودية الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾(سورة الذاريات الآية٥٦-٥٧)، وذلك من خلال عمارة الكون والأرض، ويقول تعالى ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾(سورة هود الآية٦١)، ومن هنا كانت ضرورة الوسطية التي ترتكز

على هذا البعد وعلى فلسفة الوجود بالمفهوم الإسلامي في أبعاد مفهـوم خلافة الإنسان لله في الأرض، قـال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ..﴾(سورة يونس الآية١٤)، فالنظام الاجتماعـي في الإسلام من حيث وجود المسلمين وأصحـاب الأديان الأخرى مؤسس على مبـدأ خلافـة الإنسان، التي ترجـع الإنسان إلى مكانتـه الكونية للتنمية والتقدم والازدهـار، لأنَّ التنمية لها مفهوم شامل تعبدي ووجودي وأخلاقي وحضاري، إذ الغايـة تكمن في تحقيق الكمال الإنساني في الإسلام، المتمثل في عبوديته لله سبحانه وتعالى كتعبير عن علاقة الوجود بالله، فهي حركة مستمرة نحو ما يجب أن يكون.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هياكل النور للسهروردي الإشراقي

عوض الأحمد ❁



الحكيم الإشراقي الحلبي أبو الفتوح يحيى بن حبش بن أميرك الملقب بشهاب الدين السهروردي المقتول. أمَّا المؤرخون الذين ينزعون منزع أهل السنة يعدون آراء السهروردي مروقاً عن العقائد الصحيحة للسلف الصالح. أمَّا تلاميذ الشيخ وأتباعه فقد اعتبروه شهيداً، للفكر والعقيدة الإشراقية ولذلك فإنَّهم يضيفون إلى اسمه كلمة (شهيد) بدل وصفه بأنَّه مقتول.

ولد السهروردي بين سنوات ٥٤٥- ٥٥٠ هـ في بلدة سهرورد في إقليم (الجبال) بالقرب من زنجان فيما كان يعرف بعراق العجم. ثم درس الفقه والفلسفة والمشائية على يد

❁ كاتب وناقد.

الشيخ مجد الدين الجيلي في مراغة من أعمال أذربيجان وكان مجد الدين الجيلي أستاذاً للفخر الرازي وقد دارت مساجلات بين الفخر الرازي والسهروردي، ثم قرأ في أصفهان بصائر بن سهلان وترجم رسالة الطير من العربية إلى الفارسية. وفضل الإقامة بديار بكر وأهدى كتاب (الألواح العماد) للأمير خربوط عماد الدين قلج أرسلان ثم انتهى المطاف بالشيخ السهروردي إلى حلب فترة الحروب الصليبية أثناء حكم الملك الظاهر بن صلاح الدين الأيوبي إذ يورد ابن أبي أصيبعة رواية للشيخ شديد بن رقيقة ليصف لنا فيها مقتل الشيخ عندما دعا السلطان الظاهر الفقهاء إلى مساجلة السهروردي فانتصر عليهم وأفحمهم مما أحقدهم عليه فدبروا له تهمة المروق على الدين مما حفز السلطان إلى الحكم عليه بالموت وذلك بعد مناقشة علنية أخرى في مسجد حلب وسألوه: هل يقدر الله على أن يخلق نبياً آخر بعد محمد؟ فأجابهم الشيخ بأنَّ (لا حد لقدرته) ففهموا من إجابته أنه يجيز خلق نبي بعد محمد وهو في نظر الإسلام (خاتم النبيين) ومن ثمة فقد أعلنوا مروقه عن الدين وعملوا محضراً بكفره سيروه إلى صلاح الدين الذي أمر بإعدامه وإحراق كتبه سنة ٥٨٨هـ وقد اختلفت الروايات في الصورة التي تمَّ بها هذا الإعدام والواقع أن الشيخ يخفي وراء هذه الإجابة الموجزة نظرية خطيرة في الإمامة عند الباطنية يشير إليها في حذر في مقدمة كتاب (حكمة الإشراق) وبحسب هذه النظرية الإمامة عالمية تبدأ منذ بداية الخليقة وتشتمل جميع الأمم والديانات وللإمام وظيفة مزدوجة فمن ناحية هو القائم (بالتعليم) في عصره، ومن ناحية أخرى هو إحدى الدعامات الميتافيزيقية التي يقوم عليها بناء الكون، وهذه الصفات تنطبق تماماً على ما يعرف بالقطب عند الصوفية وهو العامل الجوهري في حفظ الكون وتكامله يجب إذن أن يوجد في كل عصر (إمام) وهو إمَّا أن يكون ظاهراً له الرياستين الدينية والزمنية أو الأولى فقط، وإمَّا أن يكون مستتراً، ويسمي السهروردي الإمام الكامل في الحكمتين العلمية والنظرية (بالحكيم المتأله) وهو في نظره أسمى من النبي ذلك لأنه بينما نجد النبي قادراً على تلقي الوحي فحسب نجد الإمام إضافة إلى ذلك مبرزاً في الحكمة النظرية وفي هذا معارضة صريحة للمذهب السني مما يلقي ضوءاً كبيراً على ظروف مقتله.

صنَّف ماسينيون كتاب (هياكل النور) بين كتب الشباب ولكننا سنرى أثناء عرضنا لمحتويات هذا الكتاب وخصوصاً في الهيكلين السادس والسابع بعض أفكار حكمة الإشراق.

وكذلك كتاب الألواح العمادية أمَّا كتاب (حكمة الإشراق) وقد فرغ السهروردي من تاليفه سنة ٥٨٢هـ ومات السهروردي حوالى سنة ٥٨٧هـ.

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

أمَّا كوربان فقد دافع عن الوحدة الأورجانيكية لمؤلفات (الشيخ) فوضع مؤلفاته في أربعة أقسام، أوّلها يشمل التلويحات والمقاومات والمطارحات وحكمة الإشراق.

أمَّا القسم الثاني فيتضمن الهياكل والألواح واللمحات، فيما القسم الثالث من المؤلفات فهو يشمل الرسائل الصوفية التي تعرض المذهب بطريقة رمزية ويضع كوربان في القسم الرابع الأدعية والصلوات التي يوجهها السهروردي إلى العقول والكواكب والنجوم وتسمى باسم الواردات والتقديسات.

والسهروردي يضع في معظم نصوصه كلمة (هيكل) في مقابل الجسم الإنساني وكان الصابئة عبدة الكواكب السبعة يقيمون لكل كوكب هيكلاً خاصاً في معابدهم، ولكل كوكب أيضاً يوم خاص به من الأسبوع وله صلوات خاصة وطقوس وملابس خاصة وأدعية يختص بها من دون سواه من باقي الكواكب.

ويمكن القول بأننا هنا أمام إشارة غير مباشرة إلى آراء صابئية انحدرت إلى السهروردي عن طريق الإسماعيلية ويذكر لنا السهروردي في نص حكمة الإشراق أن الله جعل على البسيطة سبعة مسالك وعند السابع تقرُّ عينُ كل سيَّار، ويرى شارح حكمة الإشراق أن كلمة (بسيطة) ترمز إلى الجسم الإنساني وأمَّا المسالك السبعة فهي الحواس الخمسة الظاهرة والمتخيلة والقوة الناطقة.

والتأويل الباطني يجعل من هذه المسالك معابد تقودنا تدريجياً إلى عالم الأنوار ما دامت المعرفة كلها سواء أكانت حسية أم عقلية لا تتم إلا بضرب من الحضور الإشراقي.

وبذلك تصبح القوة الناطقة وهي الهيكل السابع المدخل إلى العالم الأعلى

ونجد السهروردي في نص من حكمة الإشراق يفصح بصراحة عن تأثره بموقف الصابئة فيوجه دعوات إلى النجوم والكواكب ويحيى هؤلاء الحيارى الذين أسكرهم عشق عالم النور وجلال نور الأنوار والذين يحاكون في مواجيدهم (السبع الشداد) ويقصد بذلك الكواكب السبع بما فيها الشمس والقمر.

والواقع أنه حسب نصوص السهروردي وحسب معتقدات الصابئة نجد أن الشعائر والطقوس المحسوسة الظاهرة التي يمارسها السالكون الإشراقيون أو أشياع دين عبادة النجوم، وهذه الرسوم الظاهرة تتحول إلى رسوم وشعائر روحية تتجه إلى سماء باطنية روحية.

إنَّ السهروردي تأثر بمذهب الصابئة عن طريق الإسماعيلية، وهؤلاء قد تأثروا بدورهم بهذا التيار فنراهم يرمزون للكواكب السبعة بسبعة أشخاص روحيين هم رؤساء العالم الروحاني وهم عندهم الأئمة السبعة.

وإذا كان الصابئة قد أقاموا معبداً مادياً مسبع الشكل لكي يقومون فيه بالصلوات والشعائر الموجهة إلى النجوم فهم قد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

جعلوا من هذا المعبد الواسطة التي تنقل عن طريقها دعواتهم من الهياكل الإنسانية في الجسم الإنساني إلى الهياكل الروحانية السماوية ذلك أن حواسنا الظاهرة والباطنة هي هياكل الألوهية على وجه البسيطة ومن هنا نرى العلاقة الوثيقة بين موقف السهروردي وموقف الصابئة.

ذلك أنّ السهروردي يجعل معرفتنا الحسية والعقلية مرتبطة بالأنوار العليا وعلى رأسها نور الأنوار حيث تتم المعرفة بحضور إشراقي فكأن حواسنا وقوانا ماهي إلا (قوابل) لتلقّي الإشراق من أعلى بمعنى آخر ما هي سوى (هياكل) لظهور أثر الأنوار الإلهية في عالمنا وفي الهياكل الثلاث الأولى منها يشير المؤلف إلى الجسم وصفاته وينتقد نظرية الجزء الذي لا يتجزأ، ثم يتكلم عن النفس ومصدرها وطبيعتها وقواها ويردعلى أتباع وحدة الوجود، فيستعرض أقسام الوجود ومبادئه.

وفي الهيكل الرابع يتكلم عن وحدة واجب الوجود وصفاته وأفعاله، ويشير إلى عوالم ثلاثة هي عالم العقل وعالم النفس وعالم الجسم، ويختتم كلامه بإثبات رجوع الموجودات كلها إلى نور الأنوار.

وفي الهيكل الخامس يوضح كيف أن العشق هو أساس ديناميكية حركة الصعود النوراني ذلك أن الوجود بأكمله تنتظمه نسبة ازدواج بين طرفٍ عالٍ معشوق وطرف سافل مقهور وعاشق للطرف العالي، في حكمة الإشراق حيث يشير المؤلف إلى رجوع النفس إلى عالم الأنوار القاهرة فتلتذ بمشاهدة أنوار الحق القدسية.

ويتضمن الهيكل السابع بالذات إشارات إلى الأحوال والمواقف الصوفية، وإرشادات للمريد لهدايته في سلوك الطريق الصوفي، حتى تصبح نفسه نوراً كاملاً تطيعها العوالم أي تصبح عاملاً كونياً ونقراً في الهيكل السابع:

(النفوس الناطقة من جوهر الملكوت، وإنما يشغلها عن عللها هذه القوة البدنية فإذا قويت النفس بالفضائل الروحانية، وضعف سلطان القوى البدنية وغلبتها بتقليل الطعام وتكثير السهر، تتخلص أحياناً إلى عالم القدس، وتتصل بأبيها المقدس، وتتلقى منه المعارف، وتتصل بالنفوس الفلكية العالمية. بحركاتها وبلوازم حركتها، وتتلقى منها المغيبات في نومها ويقظتها كمرآة تنقش بمقابلة ذي نقش) ومعنى هذا أن السهروردي يضع الخطوط الأولية لنظرية الإنسان الكامل التي سنجد صورتها الكاملة عند ابن عربي والجيلي والتي يشير إليها السهروردي في مقدمة حكمة الإشراق حينما تكلم عن (الحكيم المتأله) وهو الذي يسميه الصوفية بالقطب أو الولي.

وكتابه (حكمة الإشراق) هو الكتاب الرئيسي الذي تدور حوله مباحث الإشراقيين، ويعتبره الأتباع والمريدون مستودعاً لفقه أنوار وأسرار الحكمة الإشراقية ويشتمل الكتاب

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

على قسمين: القسم الأول يتناول مشكلتي المنطق والطبيعة في تركيز شديد، والقسم الثاني يبحث في تخطيط العالم العقلي النوراني وفيه خمس مقالات يستعرض فيها المؤلف موقفه حول طبيعة النور، وصدور الأنوار عن نور الأنوار ومراتب الصدورات الإشراقية، وأفعال الأنوار القاهرة.

وأهمية هذا القسم من الكتاب ترجع إلى أنه يستعرض فيه نظريته الأفلاطونية الكاملة عن الأنوار الطولية والأنوار العرضية وقد كان لهذا الكتاب تأثير عظيم في المشرق وخصوصاً حينما ارتبط المذهب الإشراقي بالتشيع. وتأثر بهذا الكتاب في الغرب المسيحي، إلكسندر هيلز، وريموندلول، ودونس سكوت، بل ظهر كذلك أثر نظرية النور الميتافيزيقية في الكوميديا الإلهية. ومن هنا يتضح أن السهروردي متأثر طوراً بالأفلاطونية الحديثة وآخر بالفلسفة الفارسية التي تقسم الكون كله إلى نور وظلام، وتخضع الثاني للأول وتجعله قاهراً له سائداً عليه أمّا كلمة الإشراقية فهي فلسفة روحانية تذهب في المعرفة مذهباً ذوقياً قوامه معرفة الإنسانية الهام من العالم العلوي، والسهروردي في كتابه (حكمة الإشراق) إنّما يتتبّع طريقاً ذوقياً يشبه طريق إمام الحكمة أفلاطون.

وإنَّ إنتاج السهروردي يتبدى لنا على أنَّه ثورة الفكر واستئناف استكشاف حاسم، بل على أنَّه الأوحد الذي سيشع منه الإلهام قدماً حتى فارس والمثل الأبرز لمذهب الإشراق في القرن السابع عشر ولقد بدأ السهروردي حياته الروحية بنغمة من شعر الحلاج في التوحيد (كان يدعوه بأخيه).

لأنوار نور النور في الخلق أنوار

وللسر في سر المسرين أسرار

قضى عمره يوقع عليها متنوع الألحان.

المصادر

١- هياكل النور للسهر وردي، الدليل البيلوجرافي للقيم الثقافية العربية، (مرجع للدراسات العربية).

٢- التصوف المقارن، د.محمد غلاب، في التصوف الإسلامي مفهومه وتطوره وأعلامه. قمر كيلاني.

المراجع

http://www.ziyouz.uz/ru

رحلات يحيى الغَزَال للأندلس.. المضامين والأهمية التاريخية

د. شريف علي

يعــد أبو زكريا، يحيى بن الحكم البكري الجياني[1] الملقب بــ «الغَزَال» أحد رجالات الأندلس المشهوريــن في الأدب على امتداد الوجود الإسلامي بها. و«الغزال» هو اللقب الذي اشتهر به لجماله وظرفه وأناقته، كان أحد الشخصيات المشهورة في عصر الإمارة الأموية، وكان من المحظيين عند الأمير عبد الرحمن (الثـاني أو الأوسط) بن الحكم بن هشـام، وكان متولياً أحد مناصب المالية في دولته. وقد عمّر طويلاً، حتى قارب المئة،[2] وأتاح له ذلك العمر المديد، معاصرة الأمراء الأمويــين الخمســة، الأوَّل: عبــد الرحمن الداخل، وهشام الرضا، والحكم بن هشام[3]، وعبـد الرحمن الثـاني أو الأوسط، وأخيراً محمد بن عبد الرحمن.. وإلى هذا يشير هو نفسه بقوله:[4]

أدركت بالمصــر ملوكاً أربعــة، وخامسا هــذا الذي نحن معــه.[5] ولقد قامت شهرة يحيــى الغزال على تميــزه في الشعر، الذي عــلا فيه صيتــه وتألق فيه مجـده. بيد أنَّ الشعــر ليس هو المجال الوحيد الذي اشتهر فيه الغزال، بــل كان له إسهامات في مجالي الحكمة والسياسة. كما أنَّه يعد في نظر كثير من متتبعي الجغرافيا والرحلات الأندلسية،

* أديب وناقد سوري.

أحد الرحالة الأندلسيين نظراً لقيامه برحلات عدّة إلى الدولة البيزنطية، وبلاد الدانمارك الحالية، وإلى المشرق كذلك.

وإذا ذهبنا نبحث عن باعث رحلته إلى الدولة البيزنطية، وتحديداً: العاصمة القسطنطينية، عرفنا أنّها جاءت لهدف سياسي. وعلى هذا فإنّ رحلته تعد دبلوماسية بالدرجة الأولى. وسببها أنّ الإمبراطور البيزنطي «تيوفل» أو «تيوفيلوس» الذي كان يحكم الدولة البيزنطية بين سنوات (٨٢٩-٨٤٢) أرسل سفارة دبلوماسية إلى الأمير عبد الرحمن الثاني «أمير الأندلس» وذلك عام ٨٤٠. وبوسعنا القول، بشأن الظرف المحيط برحلة الغزال الأولى هذه، بأنّ سببها أنّ الإمبراطورية البيزنطية التي كانت في عداء تقليدي تاريخي مع المسلمين، سواء في عصر الدولة الأموية أو الدولة العباسية، قد لقيت هزيمة مرة في موقعة «عمورية» الشهيرة على يد الخليفة العباسي المعتصم بالله. وكانت قبل ذلك قد فقدت بعضاً من جزائرها في البحر المتوسط. كجزيرة كريت التي حازها مسلمون أندلسيون، خرجوا من الأندلس في عهد الأمير الحكم بن هشام،(٦) فاستولوا على كريت.. كما أنّ البيزنطيين، فقدوا كذلك جزيرة صقلية عام ٢١٢هـ، عندما احتلها الأغالبة في تونس، والذين كانوا يرتبطون بالخلافة العباسية بتبعية اسمية.

ومن هنا قرر الإمبراطور «تيوفل»، أمام ذلك الخطر الذي هدد دولته، أن يبحث عن حلفاء له ضد الدولة العباسية وأتباعها الأغالبة وغيرهم.. فلم يجد سوى الدولة الأموية، التي كانت على خلاف سياسي تقليدي قام مع العباسيين وأتباعهم. وهكذا رأينا «تيوفل» يرسل سفارة دبلوماسية برئاسة أحد رجاله المعروفين، وهو قرطيوس. وقد زوده برسالة إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط، ومعها هدايا ثمينة له.

وتمشياً مع التقليد الدبلوماسي، الذي كان شائعاً وقتذاك، بعث الأمير عبد الرحمن، سفيره الغزال إلى بيزنطة، محملاً برسالة وهدايا أندلسية جليلة منه. وبالفعل وصل الغزال إلى بيزنطة سنة ٢٢٥هـ/ ٨٤٠م وزميله يحيى بن حبيب أحد علماء الأندلس البارزين في العلوم التطبيقية. فقابلا الإمبراطور «تيوفل»، وزوجته الإمبراطورة «تيودورا» وابنه وولي عهده «ميخائيل»، الذي ارتقى عرش الإمبراطورية البيزنطية. فسحره الأمير اليافع بحلو حديثه وظرف روحه، فقال في ذلك قصيدة مدح فيها الإمبراطور وأثنى عليه. وقد جرت بينه وبين الإمبراطور والإمبراطورة أحاديث عدّة، كان خلالها الغزال محدثاً لبقاً موفقاً في إجاباته،

ARCHIVE http://archivebeta.sakhrit.com

الأمر الذي ترك انطباعاً جيداً عند الملكين. ثم قفل الغزال عائداً إلى الأندلس بعد رحلة امتدت شهور عدة.(٧)

أمَّا الرحلة الثانية للغزال فقد كانت إلى بلاد الدانمارك الحالية، كما تؤكد الدراسات التاريخية والإشارات الجغرافية التي وردت في ثنايا نص هذه الرحلة الثانية. وسبب الرحلة أنَّ ملك النورمان (المجوس)، وهم السكان الذين يشكلون مملكة النورمان في شبه جزيرة إسكندنافيا والدانمارك، قد أرسل إلى الأمير عبد الرحمن الثاني أو الأوسط يطلب الصلح معه بعد غارات قومه النورمان الخطيرة على الأندلس عام ٢٣٠هـ/ ٨٤٤م واندحارهم بعد ذلك.

فأجابه الأمير عبد الرحمن إلى ذلك «أي الصلح»، وأرسل بالتالي سفارة دبلوماسية على رأسها يحيى الغزال أيضاً وزميله يحيى بن حبيب فذهبت إلى هناك. وقد نجح الغزال، بفضل ما أوتي من صفات وخلال، في أن يحقق نتائج سياسية لا بأس بها.

وقبل أن نتحدث عن ظروف الرحلة الثانية للغزال، ثم إيراد مقتطفات من تلك الرحلات، يحسن بنا أن نزيد موضوع هؤلاء النورمان إيضاحاً.

فالنورمان، كما أكد الباحثون والمؤرخون، قبائل وثنية كانت تسكن بلاد إسكندناوة أو إسكندنافيا الآن - ويعرفون بالفيكنغ - وكانوا يحيون حياة قبلية قاسية. ولقد أسهمت طبيعة بلادهم، الشديدة البرودة التي يكسوها الجليد دائماً، في تميزهم بصفات الصلابة والقسوة.

كما أنَّ معيشتهم في شبه جزيرة تحيطها المياه من ثلاث جهات أسهمت هي الأخرى في اشتهارهم في ركوب البحر والتمرس فيه. وقد قاموا في القرن الثامن الميلادي (الثاني الهجري)، وقبل أن يعتنقوا المسيحية، بغارات عاتية على معظم سواحل أوروبة الغربية.

ووصلت بهم قرصنتهم البحرية أخيراً إلى الأندلس، فهددوها تهديداً شديداً، إلى أن استطاع الأمير عبد الرحمن دحرهم. ولقد أطلق المؤرخون المسلمون عليهم اسم المجوس بسبب وثنيتهم، ولأنَّهم كانوا أثناء غاراتهم يشعلون النيران في كل موقع ينزلونه، وكانوا يحرقون جثث موتاهم. فاعتقد المسلمون أنهم مجوس يعبدون النار، فأطلقوا عليهم هذا الاسم. على أنَّ المؤرخين المتقدمين من المسلمين قد أطلقوا عليهم كذلك اسم «الأرومانيين»، وهو تحريف لكلمة «النورمان» التي يدل معناها في اللغات الأوروبية على الموقع الجغرافي لهؤلاء، ومعناه: أهل الشمال.. أو سكان الشمال، الذين هم سكان الدول الإسكندنافية الآن.

بعد هذا التوضيح التاريخي نعود إلى ظروف ورحلة الغزال الثالثة التي كانت إلى

المشرق - مشرق الدولة الإسلامية - ويبدو أنَّها قد جاءت برغبة شخصية، وهي لا تعدو كونها رحلة سياحية كما نظن، وقد جاءت بعد رحلتيه السابقتين كما نص على ذلك.

وعلى كل فقد ذهب إلى العراق وجال فيه، ثم جال في غيره من أمصار المشرق.. ثم عاد بعد ذلك إلى بلده الأندلس. ولننسق الآن بين مقتطفات من رحلاته الثلاث فنقول: فيما يتصل بالرحلة الأولى فقد نقل لنا «المقري» صاحب كتاب «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» عن «ابن حيان القرطبي» شيخ مؤرخي الأندلس، وصاحب كتاب «المقتبس من أهل الأندلس» جاء فيه: «.. حكى ابن حيان في المقتبس أنَّ الأمير عبد الرحمن بن الحكم المرواني وجّه شاعره الغزال إلى ملك الروم - الإمبراطور البيزنطي تيوفيل - فأعجبه حديثه وخف على قلبه، وطلب منه أن ينادمه فامتنع عن ذلك واعتذر له بتحريم الخمر».

أمَّا الرحلة الثانية: فقد كانت أغزر في معلوماتها ونصوصها.. وقد أشار إليها ابن دحية عمر بن الحسن بن علي.. الأديب والمحدث المتوفى سنة ٦٣٣هـ، والذي يذكر أن نسبه يعود إلى الصحابي المعروف: دحية الكلبي.

«أقول: أشار إليها ابن دحية [٨] في كتابه » المطرب في أشعار أهل المغرب»، وقد نقلها عنه «المقري» ومن جاء بعده. ولقد أسند «ابن دحية» قصة هذه الرحلة وما جرى للغزال فيها إلى صديق يحيى الغزال: تمام ابن علقمة الذي رواها عنه.

يقول «ابن دحية» نقلا عن تمام بن علقمة: «ولما وفد على السلطان عبد الرحمن رُسُلُ ملك المجوس تطلب الصلح، بعد خروجهم من إشبيلية وإيقاعهم بجهاتها، ثم هزيمتهم بها وقتل قائد الأسطول فيها، رأى أن يراجعهم - أي الأمير عبد الرحمن الثاني- بقبول ذلك.. فأمر الغزال أن يمشي في رسالته مع رسل ملكهم لما كان الغزال عليه من حدة الخاطر.. وبديهية الرأي.. وحسن الجواب.. والنجدة والإقدام، والدخول والخروج في كل باب. وصحبه: يحيى بن حبيب فنهض إلى مدينة: شلب،[٩] وقد أنشئ لهما مركب حسن كامل الآلة، وروجع ملك المجوس على رسالته وكوفئ على هديته، ومشى رسول ملكهم في مركبهم الذي جاءوا فيه مع مركب الغزال، فلما حاذوا الطرف الأعظم الداخل في البحر، الذي هو حد الأندلس في آخر الغرب (وهو الجبل المعروف بألوية)، هاج عليهم البحر وعصفت بهم ريح شديدة.. أخذ الخوف من يحيى بن حبيب مأخذه، فالتفت إليه الغزال يهدئ من روعه، ثم أنشأ يقول وسط هذا الاضطراب البحري:

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قال لي يحيى وصرنا بين موج كالجبال
وتولتنا رياح من دبور[10] وشمال

شقت القلعين انبثت عرا تلك الجبال

وتمطى ملك الموت إلينا عن حيال

فرأينا الموت رأي العين حالاً بعد حال

لم يكن للقوم فينا يا رفيقي رأس مال

ثم إنَّ الغزال سلم من هول تلك البحار وركوب الأخطار، ووصل أوَّل بلاد المجوس إلى جزيرة من جزائرها، فأقام فيها وصحبه، وأصلحوا مراكبهم وأجمعوا أنفسهم.. وتقدم مركب المجوس إلى ملكهم فأعلمهم بلحاق الرسل معهم، فسر بذلك ووجه فيهم. فمشوا إليه إلى مستقر ملكه، وهي جزيرة عظيمة في البحر المحيط، فيها مياه مطردة وجنات، وبينها وبين البر ثلاثة بحار، وهي ثلاثمئة ميل.. وفيها من المجوس ما لا يحصى عددهم.. وتقرب من تلك الجزيرة جزائر كثيرة منها صغار وكبار، أهلها كلهم مجوس، وهم اليوم على دين النصرانية. إلا أهل جزائر منقطعة لهم في البحر بقوا على عقيدتهم الأولى، من عبادة النار ونكاح الأم والأخت، وغير ذلك من أصناف الشنار، وهؤلاء يقاتلونهم ويسبونهم..

«.. فأمر لهم الملك بمنزل حسن من منازلهم، وأخرج إليهم من يلقاهم، واحتفل المجوس لرؤيتهم فرأوا العجب العجيب من أشكالهم وأزيائهم. ثم إنَّهم أنزلوا في كرامة وأقاموا يومهم ذلك واستدعاهم بعد يومين إلى رؤيته. فاشترط الغزال عليه ألا يسجد له، ولا يخرجهما عن شيء من سنتهما، فأجابهما إلى ذلك. فلما مشيا إليه قعد لهما في أحسن هيئة، وأمر بالمدخل الذي يفضي إليه فضيق حتى لا يدخل عليه أحد إلا راكعاً، فلما وصل إليه جلس إلى الأرض وقدم رجليه وزحف على أليته زحفاً، فلما جاز الباب استوى واقفاً، والملك قد أعد له وأحفل في السلاح والزينة الكاملة، فما هاله ذلك ولا ذعره، بل قام ماثلاً بين يديه، فقال: السلام عليك أيها الملك، وعلى من ضمه مشهدك.. والتحية الكريمة لك، ولا زلت تمتع بالعز والبقاء والكرامة، الماضية بك إلى شرف الدنيا والآخرة، المتصلة بالدوام في جوار الحي القيوم- الذي كل شيء هالك إلا وجهه.. له الحكم وإليه المرجع. ثم فسر له الترجمان ما قاله، فأعظم الكلام وقال: هذا حكيم من حكماء القوم وداهية من دهاتهم. وعجب من جلوسه إلى الأرض وتقديمه رجليه في الدخول، وقال أردنا أن نذله فقابل وجوهنا بنعليه، ولولا أنَّه رسول لأنكرنا ذلك عليه. ثم دفع إليه كتاب السلطان عبد الرحمن، وقرئ عليه الكتاب وفسر له، فاستحسنه وأخذه في يده فرفعه ثم وضعه في حجره، وأمر بالهدية ففتحت عيابها،[11] ووقف على جميع ما اشتملت

عليه من الثياب والأواني فأعجب بها. وأمر بهم فانصرفوا إلى منزلهم، ووسع الجراية لهم».

.. كان الغزال في اكتهاله وسيما، ومشى إلى بلاد المجوس وهو قد شارف الخمسين وقد وخطه الشيب، فسألته يوماً زوجة الملك - واسمها نود- عن سنه، فقال مداعباً لها: عشرون سنة، فقالت للترجمان: ومن هو من عشرين سنة يكون به هذا الشيب؟ فقال للترجمان: وما تنكر من هذا؟ ألم تر قط مهراً ينتج وهو أشهب؟ فضحكت نود وأعجبت بقوله، فقال في ذلك الغزال بديها:

يا نود يا ورد الشباب الذي تطلع من أزرارها الكوكبا

قالت أرى فوديه قد نورا دعابة توجب أن أدعبا

قلت لها يا نود بأبي إنه قد ينتج المهر كذا أشهبا

فاستضحكت عجبا بقولي لها وإنما قلت لكي تعجبا

فلما أنشدها الشعر وفسره الترجمان لها، ضحكت منه وأمرته بالخضاب ففعل ذلك الغزال. وغدا عليها يوماً ثانياً وقد اختضب، فمدحت خضابه.. وفي ذلك يقول الغزال:

بكرت تحسن لي سواد خضابي
فكأن ذاك أعادني لشبابي

ما الشيب عندي والخضاب لواصف
إلا كشمس جللت بضباب

تخفى قليلاً ثم يقشعها الصبا
فيصير ما سترت بها لذهاب

لا تنكري وضح المشيب فإنما
هو زهرة الأفهام والألباب

ثم انفصل الغزال عنهم وصحبه الرسل إلى شنت يعقوب[12] بكتاب من ملك المجوس إلى صاحبها، فأقام عنده مكرما شهرين، ثم صدر إلى قشتالة مع الصادرين، ومنها خرج إلى طليطلة حتى لحق بحضرة السلطان عبد الرحمن بعد انقضاء عشرين شهراً.

أمَّا رحلته إلى الشرق وسببها: فهو أن الغزال هجا المغني المشهور علي بن نافع الملقب بزرياب، والمتوفى سنة ٢٤٣هـ، والذي نزل الأندلس قادماً من المشرق، وحل ضيفاً على أميرها الحكم بن هشام، ثم ابنه الأمير عبد الرحمن الأوسط (الثاني). أقول هجاه بهجو مقذع، فشكاه للأمير عبد الرحمن حسبما تزعم الرواية، وعرض هجوه عليه، فأمر الأمير عبد الرحمن بنفيه عن الأندلس. وها نحن نورد مقتطفات من رحلته هذه ثم نناقش خطأ تاريخيا ورد في سياق الرحلة، كما وردت في كتاب نفح الطيب:

«.. ثم إنَّ الغزال وقعت بينه وبين السلطان عبد الرحمن وحشة، فأمر السلطان بنفيه عن الأندلس، فكلمه فيه أكابر دولته فتركه. ثم إنَّ الغزال لم يطب نفسا بالمقام في الأندلس فرحل إلى العراق، وذلك بعد موت أبي نواس الحسن بن هانئ بمدة يسيرة. فوجدهم يلهجون بذكره، ولا يساوون شعر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أحـد بشعره.. فجلس يوما مع جماعة منهم فأزروا بأهل الأندلس، واستهجنوا أشعارهم، فتركهم حتى وقعوا في ذكر الحسن بن هانئ، فقال لهم من يحفظ منكم قوله (وسرد على مسامعهـم قصيـدة خمرية تقـع في تسعة أبيـات)[١٣] فأعجبـوا بالشعـر، وذهبوا في مدحهم لـه كل مذهب. فلمـا أفرطوا قال لهم خفضوا عليكـم فإنَّه لي. فأنكروا ذلك فأنشدهم قصيدتـه [١٤]، فلما أتمها خجلوا وافترقوا عنه.

وأقام الغـزال في رحلته تلك مدة يجول في ديار الشرق، ومـا انفك في كل قطر منه من غريبة يطلعهـا وطريقة يبدعها. ثم إنَّه رجـع إلى نفسه، وحـن إلى مسقـط رأسه وانصـرف إلى الأندلس، وهو قد ترك شرب الخمـر وتزهد في الشعر وشـارف الستين، وركـب النهج المبين، ولم ينسك نسكاً أعجمياً بل ظرف ظرفاً أدبياً، وسلك مسلكاً من البرّ مرضيا».

هذا ما ذكـره كل من ابن دحية والمقري في شـيء يسير مـن الاختلاف عـن رحلة الغزال الثالثة. ولكن ثمة خطأ تاريخيا هو الذي دفعنـا إلى استخدام عبـارة: حسبما تزعم الرواية، وهي التـي أوردناها آنفا في سياق تبيان ظروف حـدوث الرحلة - ذلك أن روايتي ابن دحية والمقري تجعلان حدوث هـذه الرحلة بعـد رحلة الغـزال إلى بلاد الدانمـارك وهي رواية ابن دحية في ذلك - هذا شيء: والشـيء الآخر نصت الروايتان علـى أن هذه الرحلة وقعت بعـد وفاة أبي نواس الحسن بن هانئ بمـدة يسيرة. فإذا كانت المصـادر التي ترجمت لأبي نواس قد أشارت إلى أن وفاته كانت سنة ١٩٨هـ، كقول مقدم على غيره مع إيراد تواريخ عديدة قبل هـذا التاريخ، فكيف يمكن التوفيق بين هذا وبـين القول بأنَّ ذلك قد حـدث إبان إمارة عبد الرحمن الأوسـط (الثاني) الذي تولى الإمارة في سنة ٢٠٦هـ باتفاق كلمة المصادر الأندلسية والمشرقية.

وقد نستطيع القول بأنَّ التفسير القريب إلى الصواب أن تكون هذه الرحلة قد وقعت قبل رحلتـي بيزنطة والدانمـارك في عهد الأمير عبد الرحمن الثاني، وأنَّها قد وقعت في عهد أبيه الأمـير الحكم بن هشام الذي كان قد استقـدم زرياب وأنزله في ضيافته، ثم علـت مكانته في عهد ابنـه الأمير عبد الرحمن.

أو لعلنا نقـول إنها قد وقعت في أقصى احتمال في بداية عهد الأمير عبد الرحمن.. أي في سنـة ٢٠٦هـ. وبعـد هـذه المقارنة التاريخية التي لابـدَّ منها آن لنا أن نناقش أمـر قيمة رحـلات يحيى الغـزال العلمية والأدبية.

بادئ ذي بدء، شكك المؤرخون المحدثون، أو لنقل بعض منهم، في حدوث أكثر من رحلة للغزال إلى بلاد الروم وبلاد المجوس. وأشار المؤرخون الذين تابعوا أحداث الرحلتين إلى أنَّ ثمة خلطاً بين رحلتي الغزال الأولى والثانية. ويعللون ذلك بتشابه ظروف وأحداث، بل وشخصيات الرحلتين، الأمر الذي دفعهم إلى اعتبار الرحلتين رحلة واحدة.

والحقيقة أن هذه القضية قد احتلت حيزاً واسعاً من الجدل بين المؤرخين المحدثين من المستشرقين والعرب. وبالطبع فإنَّ تشابه ظروف وأحداث وأشخاص الرحلتين ثم التقارب الزمني بين الرحلتين قد أوجد ذلك الجدل.. وإذا ما أردنا أن نزيد هذا القول قلنا إن هناك تشابها في أحداث كثيرة وقعت في الرحلتين. فلقاء الغزال بالإمبراطور البيزنطي وبملك المجوس، كان فيهما تشابه تقريبا في تفاصيله. ولقاؤه بالإمبراطورة البيزنطية، وبملكة المجوس وحديثه معهما وإعجابهما بظرفه كان واحدا كذلك.

ثم إنَّ اسم الإمبراطورة البيزنطية هو تيودورا، واسم ملكة المجوس (الدانمارك) أو النورمان كما جاء في الرحلة الثانية هو نود أو تود، مما يوحي بتشابه الاسمين. وقبل ذلك هناك التشابه في وصف أهوال البحر في كلتا الرحلتين أيضاً. كل هذا جعل بعض الباحثين من المؤرخين الأجانب والعرب يعدون السفارة الثانية لا تعدو أن تكون صورة مشوهة للسفارة الأولى إلى بيزنطة، التي يجب أن تكون هي الحقيقة.

ويبدو لنا بجانب ما سبق من اعتبارات أن هناك أمراً أدى إلى زيادة الخلط والتشكيك في أمر الرحلتين. فراوي الرحلة الثانية للغزال وهو «ابن دحية الكلبي» وهو من الأدباء المتأخرين، وقد توفي سنة ٦٣٣هـ، كما أسلفنا لم يسند روايته.

بمعنى أنَّه لم يشر إلى المصدر الذي نقل عنه خبر رحلة الغزال إلى بلاد النورمان. وبالطبع فإنَّ من المستحيل أن يكون «تمام بن علقمة» راوي أخبار رحلة الغزال هذه والذي أشار إليه «ابن دحية» هو الذي نقل خبر الرحلة لابن دحية شفهياً لأنَّه يفصل بينهما أكثر من ثلاثة قرون. ذلك أنَّ تماماً كان معاصراً للغزال المتوفى في سنة ٢٥٥هـ. ومن هنا، بجانب ما سبق ذكره، نشأ الخلط والتشكيك في الرحلتين، أو بالتحديد في الرحلة الثانية.

على أنَّ البحث العلمي أثبت خطل هذا الرأي - فأثبت صحة حدوث الرحلتين معا. ذلك أنَّ الأبحاث الجغرافية التي أجراها بعض الباحثين الغربيين على خط سير الغزال في رواية ابن دحية والمعالم الجغرافية التي أشار إليها أكدت الاقتناع الكامل بصحة الرحلة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إلى بلاد النورمان أو المجوس، أو الدانمارك الآن، بل إن أحد الباحثين الأوروبيين، وهو «ميشيل ت. كلاف»، وهو النرويجي الجنسية، تتبع من خلال دراسة تاريخية عميقة لملوك النورمان، أو ملوك الدانمارك، أحداثهم وأسماءهم. فخلص إلى أنَّ الرحلة قد وقعت في عهد الملك الدانماركي المسمى «هوريك». وقد أشار إلى ذلك المؤرخ والأديب الروسي «أغناطيوس كراتشوفسكي»، في كتابه «تاريخ الأدب الجغرافي العربي» والمترجم إلى اللغة العربية، فقد استوعب كل هذه الأقوال، وما خلص إليه هذا الرأي من أنَّ رحلتي الغزال كلتيهما حقيقيتان، وأنَّ كل واحدة منهما تعد رحلة قائمة بذاتها.

والآن، وقد أجبنا عن التساؤل المتعلق بأهمية وحقيقة رحلتي الغزال التاريخيتين، يقتضي الأمر أن نعرض إلى الأثر السياسي الذي تركته هاتان الرحلتان الدبلوماسيتان في الأندلس.

يمكن القول بأنَّ الرحلة الأولى (وهي رحلة بيزنطة) على الرغم من أنَّها لم تحقق غايات سياسية إلا أنَّها على مستوى الصعيد الثقافي والحضاري قد تركت أو خلفت انطباعاً جميلاً في أذهان البيزنطيين آنذاك، بما عكسه الغزال ورفيقه من سلوك راق وثقافة عالية يدلان على ما بلغته الدولة الأموية في الأندلس من تمدن ورقي مادي في عهد الأمير عبد الرحمن - كما أنَّ الغزال في الحقيقة تمكن بكياسته وظرفه من نسج خيوط الصداقة مع الدولة البيزنطية، وإن كانت المصادر لا تمدنا بتفاصيل دقيقة لذلك، ولكن هذا ما يفهم من عبارة ابن خلدون في كتابه «العبر» الذي يقول وهو يستعرض أخبار رحلة الغزال مختتماً الحديث بهذه العبارة: إنَّ الغزال أحكم بينهما - أي الإمبراطور والأمير- الصلة.

أمَّا أثر الرحلة الأدبي فإنَّنا نتبينه من خلال الوصف الذي وصف فيه الغزال لقاءه مع الإمبراطور والإمبراطورة، وحديثه معها وإطرائها له. ثم حديثه مع ولي العهد الأمير ميخائيل وإعجابه به، والأشعار التي قيلت وكيف حدث اللقاء وتقاليد ذلك اللقاء. وكل ذلك كان له قيمته الأدبية والتاريخية معاً. وفي هذا الصدد يقول الدكتور أحمد بدر في كتابه «دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها»: إنَّ ما ذكره الغزال بشأن لقائه بالإمبراطورة يمكن أن يكون صحيحاً. وفي الإمكان تفسيره في ضوء ما عرف من التقاليد الدبلوماسية للبيزنطيين، فيما يتصل باستقبال الزوار الأجانب من الأمراء والسفراء.

أمَّا عن الأثر السياسي لرحلة الدانمارك فيمكن التأكيد على أن ذلك الأثر كان

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

مرحليـــا. فالغزال نجح مرحليـــاً في مسعاه الدبلوماســـي، ذلك لأنَّ النورمان ما لبثوا أن أعادوا الكرة ثانية بالغزو والهجوم على بلاد الأندلس بعد ذلك بحوالى ثلاثين عاماً. بيد أنَّ قيمـــة الرحلة مـــن الناحية الأدبية كبيرة وكبيرة جدّاً، ولنا أن نقول ما شئنا عن ذلك. فتصوير الغزال لرحلته جاء في طابع قصصي جميل، ولاسيما فيما يتصل بموضوع الطلب من الغـــزال الانحناء للإمبراطور حال رؤيته لـــه.. وقصة الباب الصغير الذي ضيق حتى يضطر الغزال إلى الانحناء ومن ثم الركوع، وحيلة الغـــزال في ذلك.. إلخ. وفي اعتقادي أنَّ ما ذكر مـــن مسألة الباب هو مما أدخله الروائيـــون من خيال. نقول هذا مع التسليم بأنَّ هذا الأمر مرفوض في عقيدة المسلمين، ولكن الاعتراض ينحصر في الطابع الروائي للقصة.

أخيراً فإنَّه من الطبيعي أنَّ لا خلاف على قيمة الرحلة الثالثة من الناحية الأدبية، وإن كان الأثر الذي بين أيدينا عنها ضئيل يسير. ولئن كان في أخبـــار الرحلة خبر مثير فعلاً ذلـــك المنحصر في مـــا دأب الأندلسيون من ترديده بشأن إحساسهم بأنَّهم لا يقلون شأناً عن المشارقة، وهـــذا موضوع آخر ليس هنا مجاله.

الهوامش والاحالات

١- ترجـم له كل من: الحميدي: جذوة المقتبس- الضبي: بغية الملتمس- ابن دحية الكلبي: المطرب من أشعار أهل المغرب- الخشني: قضاة قرطبة - ابن عذارى المراكشي: الأندلس والمغرب- ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب- المقري: نفح الطيب. وغير ذلك.

٢- حكم بين سنوات ٢٠٦- ٢٣٨هـ.

٣- ذكـر أكثر مـن أرخ لسيرة الغزال، أنَّه قد عمر أربعاً وتسعين سنة، وأنَّه توفي سنة ٢٥٠هـ. غير أنه حفظ عن الغزال نفسه في بعض شعره أنَّه عاش ٩٩سنة، وعلى ذلك فقد توفي سنة ٢٥٥هـ لا سنة ٢٥٠هـ. انظر: أحمد هيكل: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، منشورات دار المعارف بمصر، ط٧، ص١٦٠.

٤- ابن حيان: المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق د.محمود علي مكي، منشورات دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٧٢م، ص١٣٤.

٥- يقصد الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨- ٢٧٢هـ) الذي توفي في عهده.

٦- في الحادثـة التاريخيـة المعروفة بحادثـة الربض، التي وقعـت في عهد الأمير الحكم بـن هشام (١٨٠- ٢٠٦هـ).

٧- المقـري: نفـح الطيب من غصن الأندلس الرطيب- تحقيق د.إحسان عباس، منشورات دار صادر، بيروت ١٩٦٨م.

٨- ابن دحية: المطرب من أشعار أهل المغرب، منشورات دار العلم للجميع، بيروت ١٩٥٤م.
٩- شلب: مدينة من مدن الأندلس الإسلامية، وتقع بغربيها. وهي حالياً مدينة صغيرة تقع في جنوب جمهورية البرتغال.
١٠- الدبـور: ريح تأتي من خلفك إذا وقفت في القبلة. والدَّبور بالفتح: الريح التي تقابل الصبا، والقبول وهي ريح تهب من نحو المغرب، والصبا تقابلها من ناحية الشرق (ابن منظور: لسان العرب، منشورات دار صادر، بيروت، مجلد٤، ص٢٧٠).
١١- العيـاب: جمع العيبة، وهـو وعاء من أدم يكون فيها المتاع، والعيبة أيضـاً: زنبيل من أدم ينقل فيه الزرع المحصود إلى الجرين في لغة همدان (ابن منظور: لسان العرب، المجلد الأوَّل، ص٦٣٤).
١٢- شنـت يعقوب أو شنت يلقـوه أو شنت ياقوب: مدينة تقع في أقصى الشمال الغربي من شبه جزيرة إيبريا، وتطل على المحيط الأطلسي، وكانت توجد فيها وقت رحلة الغزال كنيسة كبيرة مقدسة عند المسيحيين.
١٣- سرد الغزال على مسامعهم قصيدة خمرية في تسعة أبيات (المقري: نفح الطيب، المجلد الثاني، ص٢٦٠).
١٤- القصيـدة أو بالأحرى مطلع القصيدة: وهي قصيـدة خمرية كذلك - أوردها المقري في المصدر السابق، في المجلد والصفحة نفسها.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

العلوم بين التراث والمعاصرة من ابن سينا إلى الأنطاكي

د. نبيل عرقاوي ✪

يستند هذا الموضوع إلى عملية التحقيق العلمي التي أجريتها على بعض كتب التراث العلمي «القانون في الطب»، ابن سينا، «المعتمد في الأدوية المفردة» يوسف بن عمر، «تذكرة أولي الألباب» داود الأنطاكي، «معجم أسماء النبات» د. أحمد عيسى. وسبق عملية تحقيق هذه المؤلفات استعمالها كمراجع علمية في بعض المحاضرات والدراسات والكتب أيضاً «موسوعة النباتات الطبية المصورة» ولابد من الإشارة هنا أيضاً إلى ابن البيطار صاحب «الجامع لمفردات الأغذية والأدوية» الذي كان مرجعاً علمياً لمن تبعه كابن عمر والأنطاكي، وهو مازال ينتظر من يجري عليه عملية تحقيق تليق بمكانته التراثية والعلمية.

لا أخفي صعوبة الوصول إلى بعض المعاني فيها بسبب بعض مفرداتها سواء أسماء بعض أعشابها الطبية أم مصطلحاتها وبعض كلماتها أيضاً، علماً أنّها قد صيغت بجمل عربية قصيرة بليغة واضحة تساعد في الوصول إلى المعنى بأقصر مسافة ممكنة، وهذا من خصائص اللغة العلمية بل من خصائص اللغة العربية ذاتها في بلاغة السرد والوصف والمخاطبة. وكان في

✪ باحث في التراث العربي.

ذلك حافز قوي لإجراء عملية تحقيق عليها بوضع معجم خاص لكل منها، وإضافة أسماء أعشابها باللغة العربية (مرادفات معاصرة) واللاتينية (العلمية) والإنكليزية مع صورها من أجل التعريف الصحيح بها وإزالة الغموض عنها ولتجنب الأخطاء الشائعة في ذلك. ووجدت بعض التشويه والأخطاء المطبعية بسبب العشوائية في تداولها وطباعتها المختلفة في أقطار عدّة، الأمر الذي أضاف أعباء ثقيلة على عملية التحقيق العلمي، وإلى انحرافات عن المقاصد وجب الانتباه لها والتحذير منها، والإشارة إليها سواء في هوامش الصفحات أو في ملحق خاص، وتصحيح الأخطاء المطبعية مع الحرص على عدم التدخل في نصوص الكتاب ذاته ومخطوطاته سواء أكان ذلك عن حسن نية أم جهل في أصول التحقيق العلمي لتجنب تكريس التشويه أو الأخطاء في ذلك. ومختصر القول إنَّ العمل يجب أن يكون حول النص وبين سطوره كما يجب وضع صور الأعشاب في مكانها الصحيح على صفحات الكتاب كي لا تذهب الكلمات إلى نبات آخر في زحمة الأعشاب واكتظاظها على صفحات هذه الكتب، لأنَّ كل عشبة وجزء منها (بذرة، زهرة، ورقة، جذر..) تعتبر دواء مفرداً، حيث أتى منها مصطلح الأدوية المفردة، والمركبة أيضاً التي يصطلح عليها بالمركبات، وهي التي تجمع أكثر من عشبة في دواء واحد قد يصل عددها إلى تسعة مركبات في دواء واحد. وهنا لابدَّ من الإشارة إلى قاعدة طبية أساسية هي عدم استعمال الدواء المركب إذا كان الدواء المفرد ناجعاً وعدم استعمال المركب الثلاثي إذا كان الدواء الثنائي ناجعاً أيضاً تجنباً للآثار الجانبية الضارة لها، ومراعاة هذه القاعدة كانت تدل على براعة الطبيب ومهنيته في وصف الدواء، وكان يستدل على الدخلاء على هذه المهنة أو المبتدئين فيها من المبالغة في وصف المركبات وعزي ذلك لجهلهم في تشخيص المرض أو عدم معرفة الدواء الناجع له.

لقد اكتسب العلماء العرب شهرتهم في هذا الفرع من العلوم من معارفهم الواسعة في علوم الطب والصيدلة والعشابة أيضاً، و بما كتبوه على صفحات كتبهم ومؤلفاتهم الغزيرة ومخطوطاتهم وبما نقلوه لتلامذتهم من علوم وخبرات، ومن حركتهم الحثيثة بين البلدان والأمصار من عرب وعجم وروم وفرس.. والشاهد في ذلك هو تنافسهم على اقتناء كتبهم وترجمتها وإيداعها في أرقى الجامعات والمكتبات، واستعمالها كمراجع علمية في البحوث والدراسات العلمية يعتبر قيمة مضافة لها تدل على اجتهاد القائمين عليها وتمنحهم النجاح والتقدير، ناهيك

عن الاحتفالات السنوية بذكراهم وتسمية الحدائق والمعاهد والمشافي بأسمائهم والتنازع على جنسيتهم والانتماء إليهم إن صح التعبير..

إنَّ القيمة الكبيرة لهذه المؤلفات ومؤلفيها تنبع من تراثيتها بالدرجة الأولى، ومن كونها جزءاً أساسياً من التراث العالمي الإنساني، ومن نفعها العظيم في مداواة الأمراض والجراح وتخفيف آلام الإنسانية عبر العصور وإلى يومنا هذا. وإن تقادم الزمن عليها ومنافسة العلوم والتقنية المعاصرة لها تعتبران من أصعب التحديات التي تواجهها، وقد تؤدي إلى تراكم الغبار عليها بل وركنها على الرفوف إن صح التعبير، ونسيان ما بذل من جهد وما يكمن فيها من منفعة وعلم قام على أسس متينة من التجربة والخبرة وتناقل المعرفة والاجتهاد في تطويرها..

إنَّ هدف عملية التحقيق العلمي هو تحديث وتطوير هذه المؤلفات وجعلها أكثر وضوحاً وأسهل قراءة بالمنطق العلمي المعاصر وإظهار مكنوناتها ودررها وفق أسس التحقيق المبينة أعلاه، وجعلها متاحة للقارئ العربي بشكل ومضمون حديث متطور، وفي مايلي أمثلة ومقتطفات من تحقيق الكتب سابقة الذكر :

يعتبر كتاب «القانون في الطب» لمؤلفه ابن سينا الحسين بن عبد الله (٩٨٠-١٠٣٧م) (قرن٣-٤هجري) كتاباً موسوعياً أجمل فيه علوم الطب والصيدلة والعشابة في زمانه وكسر احتكار حكماء الإغريق لهذه الفروع من العلوم، ووصف بالموسوعة الطبية الأولى استفاد من درر معارفها أطباء الشرق والغرب وترجمت إلى مختلف اللغات وأفاد منها بشهاداتهم أعداد غير محددة من طلبة العلم والأطباء والصيادلة وعلماء النبات، ولا أبالغ إن قلت إنَّها كانت أحد أسباب النهضة الحضارية العلمية في هذا الميدان.

ويعتبر كتاب (الأدوية المفردة والنباتات) موضوع هذا التحقيق أحد أجزاء موسوعة القانون في الطب، وتحتاج الأجزاء الأخرى في مجال الطب والصيدلة إلى التحقيق من قبل أصحاب الاختصاص كي يكتمل هذا العمل من جوانبه كافة بشكل ومضمون يوافقان منطق العصر العلمي، ويجعلانه أسهل تناولاً وأكثر منفعة لطالب العلم والباحث والقارئ.

وشملت عملية التحقيق للجزء الخاص بالأعشاب والنباتات (الأدوية المفردة) الموضوعات التالية: ١- كتابة مقدمة للكتاب كمدخل له، تساعد في معرفة فلسفة عملية التحقيق وأسلوبها وقواعدها، وتسهّل قراءته وتداوله

٢-إضافة الصورة الخاصة بكل نبات وعشبة من أجل التعريف الصحيح بها

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وتجنب الخلط في تداولها واستعمالها، وتعتبر الصورة والتسمية الصحيحة أوضح تعريف بالمفردات والمركّبات الدوائية التراثية.

٣- إضافة الأسماء العربية المرادفة لاسم النبات الأساسي، والتي اقتبس بعضها من لغات أجنبية كالإغريقية والأعجمية..، كما هو مدون أسفل الصورة.

٤-إضافة الاسم العلمي (اللاتيني) المؤلف من كلمتين الأولى تدل على جنس العشبة Genus والثانية على نوعها Specie وفق علم تصنيف النبات، ثم إضافة الاسم الإنكليزي وهو من كلمة واحدة وقد يكون أحياناً من كلمتين، وذلك من أجل توثيق عملية التحقيق، ودقة التعريف بها محلياً وعالمياً.



شوكران، بوط، شوكران سام
Conium maculatum
Hemlock

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com



شبث، سنوت
Anethum graveolens
Dill



رازيانج، شمرة، شومر
Foeniculum vulgar
Fennel

٥-إضافة هوامش أسفل الصفحات تتضمن شرحاً لمفردات ومصطلحات لغوية ونباتية وعلمية أخرى لتوضيح معاني ومقاصد النصوص والتطبيقات الواردة فيه، ومثال ذلك: (١)شوكران سام: عشبة برية معمرة كبيرة قد يصل ارتفاعها ٢م أوراقها تشبه البقدونس وأزهارها خيمية (مظلية) الشكل. (٢) سنوت: عشبة حولية أوراقها ريشية وأزهارها خيمية صفراء. (٣) شمرة، شومر،شمار: أعشاب حولية برية وزراعية طبية وغذائية.

٦- وضع معجم خاص بمفردات ومصطلحات هذا الكتاب وإضافة ملحق خاص به لتعميق عملية التحقيق ولتفادي التدخل المباشر في نصوصه الأساسية أو إجراء أي تعديل عليه قد يسبب في انحرافات وتشوهات مؤذية لشكله أو مضمونه، وأقتبس منه: خشكريشات = نتوءات لحمية وجلدية، خضدد اللحم =تمزق العضلات، داف= مزج بالماء والسوائل الأخرى، ثجير = بقية الثمرة بعد عصرها،أصل= جذر، أدرك =نضج، بادزهر=ترياق،بلسم..

٧-وضع ملحق خاص بالمركبات الدوائية العشبية التي وردت في الكتاب بشكل مبعثر،وترتيبها وفهرستها وتصنيفها حسب أعضاء جسم الإنسان والحالات المرضية، ووضعها في فصل خاص بعنوان «معجم مركبات ابن سينا في الأدواء والشفاء» وأذكر مقتطفاً منها:

الحالة المرضية	المركب الدوائي العشبي	طريقة التحضير والاستعمار
وجع الأسنان	ثوم + كندر (لبان، بخور)	غلي ومضمضة (فاتر)
ضعف البصر	سذاب (عصارة) + رازيانج (ثمرة) + عسل	كحل وأكل
ربو وسعال	زوفا يابس+ تين+ عسل	غلي، طعام، شراب (فاتر)
سدد الكبد والطحال	سلق + خردل + خل	أكل

٨-إعداد قائمة بعناوين الفصول ووضعها في مقدمة الكتاب، وإعداد فهرس هجائي بأسماء الأعشاب والأدوية المفردة الأخرى (حيوانات، طيور، أسماك، حشرات..) مقترن بأرقام الصفحات، لتسهيل استعماله وتداوله.

٩- إعداد جدول الخطأ والصواب يتضمن الأخطاء المطبعية الواردة في الطبعة الرومية الأساسية وإجراء التصويب اللازم لها لتفادي الوقوع في الخطأ في فهم مضمونها وتطبيقاتها.

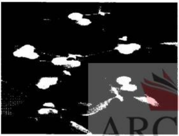
١٠- إعداد قائمة بالمراجع العلمية التي استندت إليها عملية التحقيق والتوثيق.

١١- إضافة ملحق بالصور الملونة مفهرسة هجائياً ورقمياً، إضافة إلى الصور التي وضعتها في متن الكتاب، لزيادة توضيحها ودقة التعرف عليها.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

١٢- إعداد CD خاص بهذا الكتاب يتضمن الصور الملونة للأعشاب والمفردات الأخرى وبأكثر من صورة واحدة لكل عشبة تبين الجزء المستعمل منها (ورقة، زهرة، ثمرة، بذرة)، مرتبة ومفهرسة حسب صفحات الكتاب، ويعتبر هذا القرص الكمبيوتري إضافة علمية وجزءاً لا يتجزأ من الكتاب ومن عملية التحقيق ذاتها التي هدفت لتحديث أحد كتب التراث وجعله أسهل قراءة وتداولاً وأكثر منفعة للقارئ العربي وفق المنطق العلمي واللغوي الراهن.

كما يعتبر كتاب «المعتمد في الأدوية المفردة» ذا قيمة تراثية ومعاصرة في الوقت ذاته، لأنَّه أوَّل دستور عربي شامل للأدوية النباتية بشكل أساسي وغيرها من الأدوية ذات المنشأ الحيواني والمعدني قام بتأليفه ملك اليمن يوسف بن عمر بن علي بن رسول الذي كان طبيباً بارعاً، وقد توفي سنة ٦٩٤ هجرية، ووضعه من أجل شعبه وأفادت منه أمته ومازالت، وفيه خير دليل على مدى براعة الأطباء العرب في استعمال الأعشاب كأدوية مفردة وفي إدخالها في خلطات وتراكيب دوائية لعلاج أمراض خطيرة تهدد حياة الإنسان، ومثال ذلك استعمال نبات الدبق (العنم) viscum album في معالجة الأورام الخبيثة (السرطان) وإدخاله في خلطات دوائية منذ ثمانية قرون خلت ومازال يستعمل في الطب الحديث كأحد مصادر أدوية معالجة تلك الأمراض الخطيرة.وثمرة السدر المعروفة بالنبق وهي من أشجار وثمار اليمن الشهيرة بعسلها وثمارها ذات المنفعة الصحية لجهاز الهضم لأنها تسهل المرة الصفراء المجتمعة في المعدة والأمعاء وتقيها... ومثله كثير من الأعشاب التي جاء بها المعتمد، وأعطى عناية فائقة لوصف النباتات وتسميتها للتعريف بها



دبق، عنم
Viscum album Mistletoe



نبق، سدر، دوم
Zizyphus rhamnus
Doum

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

والتعامل معها بدقة وعناية كونها أدوية ذات علاقة مباشرة بصحة الإنسان وحياته، وبلغ مستوى الدقة فيه أنَّه اعتمد رائحة النبات أو جزء منه كالورقة والزهرة للتعريف الصحيح بها، إضافة للصفات الأخرى كالشكل واللون.. وأجود ما فيه هو اللغة العربية الجميلة التي كتب بها، فهو بليغ في سرد معطياته ووصف أشيائه بأسلوب يختصر المسافة للوصول إلى المعنى بشكل مباشر واضح ودقيق، من خلال جُمل قصيرة وعبارات وكلمات علمية وأدبية قل أن يحتويها نص أو كتاب. وقد حرصت في عملية التحقيق التي قمت بها لهذا الكتاب على خصائصه وروحه التي تنبض بالحياة والحيوية، وأبعدت عنه عوامل التشويه التي غالباً ما تسببها هذه العملية للكتب والمخطوطات التراثية، وأضفت له الكلمات والمصطلحات المعرَّبة والأجنبية اللازمة للتعريف بالنباتات وتصنيفها بشكل علمي يساعد في تداول الكتاب ومعلوماته على مستوى عالمي يتناسب وانتشار الأعشاب الواسع في البيئات والأقاليم المختلفة من العالم، علماً أنَّ الأسماء الأساسية المعرَّبة الواردة فيه مقتبسة من لغات أجنبية، الأمر الذي جعل عملية إعداد معجم خاص بأسمائها مهمة أساسية في التحقيق، وقد قامت عملية التحقيق على الأسس التالية:

١. عدم التغيير في النص الأساسي للكتاب فقد أوردته كما ورد في طبعته، بل الإفادة من اللغة العربية العلمية الرصينة التي كتب بها ومحاولة محاكاتها ما أمكن ذلك، سواء في الهوامش أو الملاحق، لاستمرار تناسق النص وترابطه.

٢. تأكيد القيمة التاريخية والتراثية له في مجال علوم النبات وطب الأعشاب على اعتباره مرجعاً علمياً وعملياً تطبيقياً قائماً على التجربة والمشاهدة والوصف، واعتباره أوَّل دستور أدوية عربي. واستناداً إلى هذه الأسس فقد شملت عملية التحقيق التي قمت بها بعون وفضل من الله سبحانه وتعالى الموضوعات التالية:

١- العنوان: حيث أصبح «المعتمد في الأعشاب الطبية والأدوية المفردة» بعد أن كان مقتصراً على الأدوية المفردة،كما أضفت إلى العنوان «دستور الشفاء العربي القديم» وذلك من أجل أن يدل العنوان على المضمون بشكل واضح وشامل.

٢- إعداد معجم خاص بأسماء النباتات الواردة فيه يتضمن الأسماء العربية الأساسية لها وأسماءها الشائعة، مع تعريف موجز لها، إضافة لأسمائها باللغات الإنكليزية واللاتينية وأسماء الفصائل النباتية التي تتبعها باللغة اللاتينية أيضاً وهو ما يعرف عالمياً باللغة العلمية التي

تصنف على أساسها النباتات، وإضافته إلى الكتاب بفصل خاص.

٣- إعداد قائمة بالأعشاب الطبية الغذائية والأخرى السامة من أجل ترشيد استعمالها .أذكر بعض السام منها : بلاذر، بيش، جوز القيء، خريق أسود، دفلى، شبرم، عنب الثعلب، فربيون، مازريون، يبروح..

٤- إضافة قائمة تتضمن الخصائص المميزة للأعشاب الطبية، مأخوذة من الكتاب ذاته لإبراز قيمته الصحية كمايلي:

اسم العشبة	الخاصة الصحية
رواند	إذا طلي به الصدر أذهب الروع والخوف من القلب
زرنباد	يذهب فساد الفكر والوحشة وخفقان القلب
تين	يسكن الغضب من القلب
تفاح	تفريح القلب وتقويته
سذاب	يذهب بالبهق والثآليل
شونيز	ينفع في انتصاب النفس، يحلل الأورام المزمنة الصلبة، ويفتح السدد

٥- إضافة قائمة بالبدائل العشبية الطبية (الدواء البديل):

عشبة أساسية	حالة مرضية	عشبة بديلة
بلسان، بلسم مكة	سوء الهضم	كافور، سليخة،بسباسة
بلوط	قروح الأمعاء والسحج	خروب نبطي،آس،ورد
زوفا	أمراض الصدر والرئة والسعال المزمن	مرزيخوش (مردقوش)

علماً أنَّ القوائم والإضافات المذكورة كافة تم استنباطها من متن المعتمد الأساسي وهي خاصة به وجزء لا يتجزأ منه ومن عملية التحقيق الشاملة التي تمت عليه بعون الله تعالى. أمَّا باقي بنود التحقيق فهي مشابهة لما ذكر سابقاً في «القانون في الطب» من حيث الشكل، وتختلف عنها بخصائص كتاب «المعتمد» ذاته.

أمَّا قيمة ما جاء به الشيخ الطبيب داود الأنطاكي من علوم ومعارف للإنسانية فهي عظيمة جداً، حيث تمتاز «تذكرة أولي الألباب» بخصائص كثيرة عن أقرانها من كتب التراث العلمي العربي لأنَّ مرجعيتها كانت هي تلك الكتب القيمة التي سكب فيها علماء الأعشاب وأطباؤه وصيادلته غزير أفكارهم وثمار معارفهم وحنكة تجاربهم وخبراتهم.. ولم تقتصر هذه المرجعية على العلماء العرب كابن سينا وابن البيطار وابن جزلة.. بل مضت لأبعد من ذلك إلى ما جاء به الإغريق كأبقراط وجالينوس

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وديسقوريدس.. وما جاء به الفرس والعجم والروم والهنود والصينيون.. وإذا نسب كل ذلك إلى زمانه ومكانه فإنّه يعتبر في مصاف الإعجاز العلمي، ومنارة للفكر العربي، وقمة هرم استند إلى قواعد راسخة مكّنته من الديمومة والثبات، وفاقته في التجدد والمنفعة والانتشار والتداول على رقعة البسيطة وأهلها وأضافت إليها جميعاً هذه القيمة العلمية العظيمة التي وصفتها «بأيقونة الشفاء العربي في الأعشاب الطبية».

فإذا كانت ديمومتها تكمن في انتقالها من جيل لآخر بوسائل الطباعة والنشر والدراسة والأرشفة.. فيمكن القول إن أهم عواملها تعتبر عملية التحقيق المستمرة عليها والتي بدأها أوّل تلامذته بما أضافه إليها في «ذيل التذكرة» وفي هذا شكل من أشكال التحقيق العلمي، وما جاء بعده كان تحقيقاً لغوياً وأدبياً أهم ما فيه هو محافظته على شكل وروح وصيغة ما كتبه الأنطاكي مضيفاً إليه الشرح بالهوامش والترتيب في الفهرسة والتصنيف..

أمَّا عملية التحقيق العلمي التي هي موضوعنا، فقد اعتمدت على التعريف بالأعشاب بصورتها حيث تعتبر الصورة أهم وسيلة في التعريف، وكذلك تعريب أسماء الأجنبي منها، وإضافة المرادفات العربية (الاسم الشائع) للقديمة منها، ووضع الاسم العلمي (اللاتيني) لها الذي يتألف غالباً من كلمتين، تدل الأولى على جنس النبات والثانية على نوعه وفق التصنيف العلمي(الأكاديمي) للنبات المتعارف عليه عالمياً، والذي يزيل أي لبس قد يحصل بسبب اختلاف الأسماء المحلية لها.. كما تمّ كتابة بعض الهوامش والشروح حيث لزم ذلك من دون التغيير في نصوصه الأصلية، وإعداد معجم خاص بمفرداته، وآخر بأسماء نباتاتها..

والسؤال الذي يطرح هنا، ما هو الحافز للقيام بهذا العمل الصعب والمعقد؟ في زمن أصبح فيه الحصول على المعلومة الثقافية العلمية سهلاً وسريعاً، وتراجعت فيه القراءة والاطلاع وتعميق المعرفة!

وما هي مبررات هذا التحقيق إذاً؟ أمَّا الإجابة فهي:

١. الإصرار على التحقيق العلمي لكتب التراث العربي، والاستمرار بما بدأته في كتب الأعشاب الطبية التراثية، وهي «القانون في الطب» و«المعتمد» و«معجم أسماء النبات»، والتي تعتبر أيضاً أهم مرجعية لهذا التحقيق وتوثيقه.

٢. الاختلاف بما جاء فيها «التذكرة» عن سابقاتها من حيث الزمان والمكان والموضوع، مما جعلها إضافة علمية حقيقية.

٣. بصيرة مؤلفها الملقب بالشيخ الضرير

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وهي إعجاز علمي قائم بذاته لأنها موهبة الخالق سبحانه وتعالى.. تضع القارئ والباحث أمام تحدٍ لا توانٍ ولا تهاونٍ فيه للخوض في غماره.

٤. موطنه الممتد من بلاد الشام إلى مصر، العابق بالأريج والثمار والأعشاب، التي وسعت ما أبدعه الفكر الإنساني باتساع جغرافيته ولغاته ولهجاته.. ورفدته ومازالت بالمعارف والخبرات والعلوم.

٥. منهجيته التي ترقى إلى ما وصل إليه الفكر الإنساني المعاصر وطريقته العلمية البحثية النقدية التجريبية التطبيقية.

أمَّا ما هي ضرورة عملية التحقيق وما الحاجة إليها..؟ فالإجابة كما يلي:

١. على الرغم من عنايتها بوصف الأعشاب والتعريف بها، فإنَّها تحتاج إلى وضعها في مكانها الصحيح في التصنيف العلمي القائم على التفصيل في التوصيف، والتصنيف النباتي، والتسمية العلمية، وإضافة الصورة الخاصة بكل عشبة منها.

٢. اختلاف التسمية العربية الراهنة لبعض أعشابها، وكذلك عما سبقها من مؤلفات في هذا الموضوع.

٣. ضرورة ربطها بسلسلة التطور العلمي والتقني المعاصر من خلال احتضانها وتوثيقها بالمراجع والمصادر العلمية المعاصرة..

٤. الإفادة من الوسائل الحديثة المساعدة في التحقيق كالتصوير والاتصال والطباعة.

٥. إظهار مكنوناتها المعرفية من بين السطور إلى عناوين مفهرسة تساعد القارئ والباحث والطبيب في الحصول عليها بدقة وسرعة لازمتين.. وإن عملية التحقيق العلمي الشاملة التي أجريتها عليها، والتي شملت الأعشاب والنباتات الطبية والحيوانات والطيور التي تشكل نسبة ٩٠٪ من الأدوية المفردة والمركبة، وهي موضوعات علم الأحياء وخاصة النبات والحيوان منها، أمَّا الباقي من سوائل وجماد فهي تشكل نسبة ١٠٪، فمازالت تحتاج إلى تحقيق من علماء الكيمياء، وما ذكر في الطب يحتاج لخبرة الأطباء وعلومهم في التحقيق العلمي كي نوفيها حقها في البحث والإفادة المتكاملة منها..

وما تمَّ تحقيقه.. فقد ذكرت عناوينه في قائمة «محتوى الكتاب»، وشرح تفصيله في متنه من خلال الأسماء والهوامش والصور، وفُصِّل في الفصول الملحقة به، وما تمَّ طباعته على قرص الكمبيوتر المرفق بهذا الكتاب، وأود أن أشير إلى بعض محاور التحقيق الأساسية:

١) معجم الأدواء والشفاء.
٢) مركبات الأنطاكي.
٣) معجم الأسماء العربية والعلمية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(اللاتينيــة) ومعجم المفردات والمصطلحات اللغوية.

٤) الآثار الجانبية للتــداوي بالأعشاب والمصلحات والبدائل العشبية.

٥) فهارس أسماء الأعشاب والحيوانات والطيور ...

٦) فهرس الصــور الملونة حسب تسلسل الأسماء وأرقام الصفحات وبأكثر من صورة لــكل عشبة، وبعدد إجمــالي يقارب «٦٠٠» صورة ملونة محملة على قرص الكمبيوتر.



محلب، قميحة
P runus mahaleb
Perfumed cherry



عناب، غبيراء
Zizyphus jujuba Rowan

٧) قائمة المراجع العربية والأجنبية التي استندت إليها عملية التحقيق.

إضافــة إلى ذلك ما بــذل من جهد في عملية الطباعة الحديثــة، وما ترتب عليها من تدقيق وتنقيح وتصحيح... وعلى الرغم مــن ذلك كلــه لا أدّعي خلوه مــن الأخطاء فالعصمة لله وحده جــلّ وعلا.. إلا أنني لم أدخر جهداً للتصويب والتحقيق بأقصى ما استطعتــه لوضعه بين يــدي القارئ العربي بأفضــل صورة ممكنة يستحقها كي يستفيد منهــا كل ذي حاجة ومقصــد في هذا العلم الــذي نفع كل مــن خاض فيــه... وسوف يستمــر ذلك بإذنه تعــالى وهو وحده العليم بالغايات والمقاصد.

وأرجــو أن يكون هــذا العمل قد أعطى «التذكرة» بعضــ ما تستحقه من العناية في الدراسة والبحث واستخلاص المفيد منها... ولاسيما أنها أي «التذكرة» من أشهر مؤلفات «الأنطاكي» وأكثرها انتشاراً وتداولاً وأرفعها مكانة في كتب الــتراث العلمي العربي.. إلا أننــي أرى فيها نقطة مضيئــة وحسب، في بحر علــوم «الشيخ الجليــل داوود بن عمر الأنطاكــي» الذي تشهد عليه قائمة مؤلفاته التي اختزنت بعض معارفه وخبراته وعلومه الغزيــرة التي تدفقت علــى صفحات هذه المؤلفات الخيرة المتجددة..

قائمة المراجع العربية

١- «موسوعة النباتات الطبية المصورة» د.نبيل عرقاوي.
٢- «القانون في الطب، كتاب الأعشاب» ابن سينا، تحقيق د.نبيل عرقاوي.
٣- المعتمد في الأدوية المفردة «يوسف بن عمر» تحقيق: د.نبيل عرقاوي.
٤- «تذكرة أولي الألباب» داود بن عمر الأنطاكي،تحقيق د.نبيل عرقاوي.
٥- «معجم أسماء النبات» د.أحمد عيسى، تحقيق د.نبيل عرقاوي.
٦- «علم العقاقير والنباتات الطبية» د.شهاب د.نوري
٧- «النباتات الطبية واستعمالاتها» د.عودات د.لحام.
٨- «معجم مصطلحات العلوم الزراعية» مصطفى الشهابي.
٩- «قاموس حتي الطبي» د.يوسف حتي.

قائمة المراجع الأجنبية

-A. Kryger. « an illustrated guide to herbs « London, 1992.
- « The Macdonald Encyclopedia of Plants «London 1974.
- « An sunset Book. how to grow herbs» California,1979.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

سيكولوجية الإعاقة وأهمية إدماج المعاقين في المجتمع

حسين محي الدين سباهي ✪

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

إنَّ الصفــات والخصائص موزعة لدى أيَّة جماعة بشرية توزيعًا يجعل بعض الأفراد يختلفون اختلافًا بيِّنًا عن النَّموذج العام في الشخصية أو في السلوك، فإذا كان اختلاف الفرد عن النموذج العــامِّ الوسطي اختلافًا بسيطًــا لم يؤدِّ هــذا إلى مشكلة، خاصةً وأنَّ الأفراد الذين هم على هذا الغِرار يتكيَّفون مع الحياة من دون صعوبةٍ كبيرة، أمَّا إذا كان اختلافُ الفرد عــن النموذج العام الوسطي اختلافًــا كبيرًا، فإنَّــه يُعتبر معوَّقًــا، سواء أكانــت إعاقته إعاقة جسميَّة أم أخلاقية أم



انفعالية أم عقلية، ويصبــح عندئذٍ مشكلة من مشاكل مجتمعه الخاصة.

إنَّ توزيع الصفات، -بفضل الله- يتَّخذ شــكلَ التوزيــع الطبيعــي؛ أيْ: يكون عدد المعوَّقين عن المتوسِّــط قليلاً نسبيًّا، ولكنهم

✪ كاتب وباحث.

يتطلبون انتباهًا واهتمامًا خاصًّا من المربّين والأطباء وعلماء النفس والمُرشدين الاجتماعيِّين.

إنَّ لهؤلاء الأشخاص الحقَّ، في المجتمع المتحضِّر، في أن يُفهَموا فهمًا جيدًا، ويُحترَموا الاحترام الذي يستحقُّونه كأشخاص، ويُرشَدوا ويُعلَّموا الإرشاد والتعليم اللَّذين يؤهِّلانهم للحياة النافعة بقدر الإمكان.

إنَّ مسؤولية تأمين هذا الحق لهؤلاء الأفراد تقع على عاتق الجماعة التي يعيشون بين ظهرانيها، أو الدولة التي يعيشون في ظلِّها، والأمة التي ينتمون إليها، وهي ليست بالمسؤولية السهلة؛ لأنَّها تتطلَّب قِسْطًا كبيرًا من التعاون بين البيت والمدرسة والمؤسسات الخاصة والعيادات الطبية والعمال المختصين المدرَّبين تدريبًا حسنًا، وليس يجب على الأشخاص الآخرين وحدهم أن يساعدوا المعوقين، بل يجب على المعوقين أنفسهم أيضًا أن يساعدوا أنفسهم ضمن حدود قابليَّاتهم.

يجب على المعوق -بقدر ما يؤهِّله ذكاؤه ونُضجه- أن يفهمَ طبيعةَ الصِّفات التي تميِّزه عن الآخرين ومَداها، ويجب عليه أن يستعدَّ نفسانيًّا للاستفادة من الفرص التي تقدِّمها له البيئة؛ بُغيةَ مساعدته للوصول إلى تكيُّف أفضل، يجب أن يتعلَّم كيف يواجه بصورة بنَّاءة المشاكلَ الخاصة الناشئة عن إعاقته، ومن هنا علينا أن نوجِّه عنايتنا بصورة خاصة إلى الأشخاص المصابين بعوائق جسمية، وإلى الأطفال ذوي السُّلوك المشكل الناشئ عن التكيُّف الاجتماعي والانفعالي السيِّئ.

- إدماج المُعاقين في المُجتمع، والحدُّ من مشكلة الإعاقة:

لقد استحوذَتْ مسألة الإعاقة على اهتمام علماء النَّفس والاجتماع في العالم أجمع؛ حيث أكَّدوا على ضرورة تأهيل هؤلاء المُعاقين ودَمْجهم في المجتمع، وكذلك أكَّدت الديانات السَّماوية - وفي مقدمتها الدِّين الإسلامي الحنيف - على اهتمام بالمعاق وتكريمه، فقد تحمَّل الأشخاص المعاقون وعلى مدى قرون عدّة عبئًا مزدوجًا، ولم يقتصر الأمر على كونهم معاقين عقليًّا أو جسميًّا بسبب عيوب عند الولادة أو الأمراض أو الحوادث، بل إنَّهم أيضًا يمثِّلون مجموعة من أكثر مجموعات المجتمع في العالم تعرُّضًا للاستغلال والقمع.

إنَّ نظرة العلماء لمسألة الإعاقة لم تَعُد مجرَّد رعاية المعاقين، وإعادة تأهيلهم فحسب، بل ينبغي النَّظر إلى المعاقين بوصفهم طاقةً بشريَّة واجتماعية واقتصادية، أهدرَها ويُهدرها المجتمع، ويجب علينا أن نؤسِّس وننظِّم الوسائل التي تمهِّد الطريق

لاستعادة هذه الطاقات المتعدِّدة؛ حيث ينبغي التخلِّي عن المنطق القديم في النظر إلى مسألة الإعاقة على أنَّها مشكلة فرديَّة تنتهي بإعادة التأهيل الجزئيِّ للمعاقين؛ وذلك من خلال إعالتهم، وإشباع حاجاتهم الفرديَّة الأساسيَّة، وأن نتناول المشكلة من منظور حديث للدِّفاع الاجتماعي في مواجهة الإعاقة، بتأهيل المعاقين ودعم إسهامهم الإيجابي، علاوةً على تبنِّي رؤيةٍ شاملة للإعاقة من حيثُ ظروفها وعواملها المُحيطة، والمواجهة الجريئة والجادَّة لهذه الظُّروف والعوامل، متجاوزين بالتَّعامل مع هذه المشكلة منطقَ الإحسان الذي تُكرِّسُه المشاعر الإنسانيَّة والعاطفيَّة، متبنِّين بذلك منطقَ العقل الذي يعتبر هذه المشكلة قضيَّةً اجتماعيَّة تدخل في نطاق المسؤوليات المنوطة بالمجتمع والدولة الحديثة، من حيث تحمُّلُ مسؤولياتها مع توخِّي الشمول والتوازن في خدمات المعاقين بين الفئات الاجتماعية كافَّة، مع مضاعفة الرِّعاية للأطفال -لأنَّهم زهرة الحياة وزينتها، وهم قُرَّة العيون، وثمرة القلوب- بوساطة إشراف المؤسَّسات الاجتماعية على تربيتهم إشرافًا يجعلهم يعيشون حياة مليئةً بالسعادة وخالية من العُقَد، ويأتي في مقدمة هذه العُقَد اختلالُ النُّمو لدى الأطفال واضطراب السُّلوك الاجتماعي لديهم والإصابة بمظاهر الشَّلل والأمراض المتعلِّقة باختلال تبادُل الموادِّ في الجسم، إلى جانب معوِّقات الحَواسِّ وخاصة النُّطق والكلام واللعثمة والفأفأة، هذا إضافة إلى إصابة نسبةٍ كبيرة من المواليد بإصابات إعاقةٍ، ناجمةٍ غالبًا عن الإصابة بالأمراض السارية؛ كالحصبة الناجمة عن إهمال الوالدين في إعطاء أطفالهم اللقاح اللازم المضادَّ لهذه الأمراض السارية؛ مما يؤدِّي إلى تعرُّض الأطفال لأمراضٍ مختلفة تُصيب الحواسَّ؛ كالعمى والصَّمم والاختلال العقليِّ، وغير ذلك من العاهات الجسديَّة والعقلية الخطيرة.

ولا بدَّ من الإشارة هنا إلى أنَّ العوامل الديموجرافيَّة قد أُضيفت إلى ضرورة الإسراع في تلبية حاجات المعاقين في الوطن العربيِّ؛ لذا يجب التحضير من الآن للاهتمام بهذا المجتمع الجديد الذي سيَفرض نفسه على الساحة العربيَّة، من خلال الاندماج في الحياة الاقتصاديَّة والاجتماعية، والإسهام الجادِّ في بناء المجتمع.

- الإعاقة في المنظور السيكولوجي:

المعوَّق هو الذي يشكو من عاهةٍ أو إصابة تجعله أقلَّ قدرة على العمل، أو ربَّما عاجزًا عن الأداء نهائيًا، والإعاقة أصلاً بدنيَّة، ولكنها يمكن أن تكون عقليَّة كذلك، ويُوصف بها المتخلفون عقليًا، أو

الذيـن يعانون من نقصٍ أو قصور عقلي، والأعمى والأصمُّ والمفلـوج معاقون بدنيًّا، وليست الإعاقـة مرضًا، ولا المعوَّق مريضًا، وإنَّما هو إنسان إصابته البدنية تمنعه من أن يكـون على نفس الكفاءة البدنيَّة التي عليها السويُّ، وبعض الناس قد تذهب بهم الظُّنون أنَّه معوَّق؛ لأنَّه يعاني من تشوُّهٍ جسدي يَحُول بينه وبين أن يتعامـل بفاعليَّة مع الآخرين؛ كأنْ يُعاني مثلاً مـن السِّمنة المفرطة، أو أن يكون قصيرًا قصَرًا شديدًا، أو مصابًا بحَبِّ الشباب لدرجة تُغَيِّر من شكل وجهه وتُخفي معالمـه، وهناك نوعٌ من الإعاقات يحول بين المرء وبين أن تكون له حياته العائلية السويَّة، وإعاقة تمنع من تفاعل المُعَوَّق بمجتمعه.

وتتحصَّـل الإعاقة عمومـًا إمَّا لأسبابٍ من داخل المعوّق نفسـه؛ كأن تكون الإعاقة خِلْقِيَّـة؛ أي: إنَّه وُلِدَ بهـا، أو لحقت به عن طريق الوراثة، وربَّمـا تتأتَّى الإعاقة نتيجة ظروف خارجية تأثَّر بها جسمه، وخلَّفت به العاهة، والإعاقة من أخرى ربَّما تستحدثها ظروف المُعوَّق الاقتصاديـة؛ كالعوز المادِّي، والفقر، والجوع، والإهمـال الصحِّي، فقد يترتَّب على ذلك أن يضارَّ عضوٌ من الجسم، وتتوقَّف وظيفته، أو تقلَّ كفاءته.

والنظرة إلى المعـوَّق تختلف من مجتمع لآخر، بـل وفي المجتمع الواحـد من طبقةٍ لأخـرى، وللثقافة والمفاهيـم السائدة على المعوَّق دورٌ في تشكيل النظرة للمعوَّق.

- المعوَّق قد يتأثَّر مستواه العقلي نتيجةَ قصور تفاعله الاجتماعيِّ وتحصيله العلمي، وقد تتطلَّب منه الإعاقة أن يساعده آخرون، ولا يجد من أحواله المواتية ما يؤهِّله لتجاوز آثار إعاقته.

والإعاقة قد تكون حركيَّة، أو حِسيَّة، أو كلاميَّة، أو بصَريَّة، ولذلك فقد يلزم إدخال المعـوَّق نوعًا خاصًّا من المدارس بحسب نوع إعاقته، فالأصمُّ مثـلاً له مَدارسه الخاصَّة وبرامجه التعليميَّة التي تختلف عن مدارسِ وبرامج الأعمـى، وفي كلِّ الأحوال فإنَّه من اللازم البدءُ فـورًا في إلحاق الطفل المعوَّق من سنٍّ باكرة بالمدرسة التي تتطلَّبها إعاقته، وكلَّما كان ذلك في وقتٍ مبكِّر كان أفضل له وأنفع، والاختبارات التـي يمكن أن يخضع لها المعـوَّق لدراسة شخصيَّته تختلف كذلك بحسب الإعاقة، ولا تَطبع الإعاقةُ شخصيَّةَ المعـوَّق بطابعهـا، وينفي علمـاءُ النَّفس أن تكون هناك شخصيَّة معيَّنـة لكلِّ العميان، ولا للأصـم، إلاَّ أنَّ دراسـة الأعمـى لا بدَّ أن تتـمَّ من خـلال اختبـارات تقيس مدى الخسـارة التي تلحق قدراته، والتي تنحرف بهـا اتِّجاهاته وأفكاره، وتتغـيَّر من جرَّائها سِماته، كاختبار (ت. آ. ت) اللفظي للعميان، واختبار تفهُّم الموضوع السَّمعي الذي يتضمَّن

الإنصات لعدد من الأصوات البشرية والآلية والتجاوب معها، أو كاختبار إكمال الجملة، واستبيانات الشخصيَّة.

وقد أظهرت هذه الاختباراتُ أن الكفيفَ أقلُّ توافقًا من البصير، كما أظهرت اختبارات (الرورشاخ) على الأطفال المصابين بالشلل أن الضرر يلحق بقدرة الطفل التخيُّليَّة وبمستوى طموحاته، وتُصمَّم لذلك برامج تعليم الطفل المعوَّق، وإعادة تأهيله من أي سنٍّ؛ طبقًا لنوع الإعاقة، وليكون له نوعٌ من السلوك المتوافق مع إعاقته وشخصيَّته.

- ويحاول المختص النفسيُّ في لقاءاته بالمعوَّق أن يرفع من معنويَّاته، ويشدَّ من أزره، ويشجِّعه لكي يستحدث نوعًا من التغيير في نظرته إلى إصابته، أو ليساعده على توجيه نموِّ شخصيته إيجابيًّا، وتقوية اعتماده على نفسه، وأن يكون له الاتِّجاه الذهني والنفسي الإيجابي من الحياة عمومًا.

والصَّمم أو الطرش هو فقدان القدرة على السَّمع، وهو بمثابة العجز الكلِّي عن السمع، على عكس الصمم الجزئي، أو الوَقْر، أو ثقل السمع، والصمم كالعمى، على درجات.

ويمكن أن يكون سببه جينيًّا، أو قد يترتب على إصابة جهاز السمع بأذى، أو لآفة تصيب اللحاء أو المخ، أو لعوامل أخرى تشريحيَّة وفسيولوجية.

والصمم الوظيفي، أو نفسيُّ المنشأ، أو الهستيريُّ: هو الذي يكون وَقْرًا، ليست له أسباب عضويَّة، ويلحق بوظيفة السمع، من دون جهاز السمع نفسه، ويترتب على الضغوط النفسيَّة والمواقف المؤلمة التي يهرب منها الشخصُ بالصَّمم، ويحتمي منها الأنا بهذه الأعراض التحوُّليَّة، وهي ضغوط ومواقف لها طبيعة صوتيَّة؛ ومن ثَمَّ يكون التداعي لها بالصمم الذي يُفْقِد صاحبها القدرة على السماع.

- وأخطر أنواع الصمم هو الصَّمم الخِلْقي الذي يُولَد به الشخص، ومن الصعب اكتشاف الصَّمم في الأطفال الصِّغار حتى الشهر السادس من الولادة، إلاَّ أنَّه ابتداءً من هذا الشهر يمكن للطفل أن يحرِّك عينيه ورأسَه إلى مصدر صوت مجاور له، أو يتجاوب مع المناغاة تجاوبًا ملحوظًا كلَّما سمع أمَّه تغنِّي له أو تحادثه، والطفل الأصمُّ أو الذي يعاني خللاً ما في جهاز السمع لا يحرِّك عينيه ولا رأسه إذا استُحدث صوت على جواره، ويبدو واضحًا أنَّه لا يتعلَّم مما يقال له، ولا يتجاوب مع الأصوات من حوله، وطبيعيٌّ أن يَفقد الطفل الأصمُّ الكثيرَ من التعلُّم؛ بسبب هذا الخلل في سمعه، والأصمُّ صممًا كاملاً ينعزل صوتيًّا عن العالم، ويُحرَم الكثير من الخبرات التي ينعم بنتائجها الطفل السوي سمعيًّا.

- وقياس شخصيَّة الأصم -سواءً كان طفلاً أو راشدًا- من الصعوبة بمكان؛ بسبب مشقَّة التواصل معه تواصلاً مفهومًا، ويبدو من غير العمَليِّ لذلك استخدامُ أنواع أخرى بخلاف الاختبارات الإسقاطيَّة لتقديم شخصيَّة الأصم، ومن الممكن الاعتمادُ على تقويم مُدرِّسيه في الصف لصفات الطفل الأصم، وما يشكو منه، أو يتمتَّع به من سمات قد تُحسَب له أو عليه، ويفيد جدًّا استخدامُ مقياس: (فاينلاند للنُّضج الاجتماعي، واختبار الروشاخ، واختبار رسم الشخص)، ويبدو أنَّ وسائل التقويم المقننة هي أنسبُ الوسائل لقياس شخصية الأصم، أو المعوَّقين عمومًا.

ويكاد يكون هناك إجماع على أنَّ كلَّ حالة صمم لها مواصفاتها الشخصية التي قد يظهرها الاختبار، غير أنَّ القياس قد يتوخَّى خصوصًا الإحاطة بالمدى الذي يكون عليه تقبُّل الأصمِّ لعاهَته، وتأثيرها في شخصيته وتكوينها، واتجاهاته وميوله، وأسلوبه في التوفيق بين الإعاقة والعالم من حوله، وطاقته على تحمُّل الإحباط، أو احتمال ما تجرُّه عليه العاهة من مواقف محرجة، أو تماسكه نفسيًّا، والقوة التي يكون عليها أناه، ومستوى القلق الذي يعاني منه، والتوتُّرات التي تخترقه، وما آل إليه منها بالوراثة، وما كان منها بسبب عاهته، والصورة التي قد رسمها لنفسه نتيجة العاهة التي لحقت سمعه، والصورة التي يتصوَّر أنَّها له عند الناس، وتكيُّفه مع ذلك كلِّه، وتوافقه الحاليِّ أو المُرتجى، وانفعالاته وسلوكه مع والديه وإخوته، وزملائه وأطبَّائه، ومع الجنس الآخر، وتقيس الاختبارات كلَّ ذلك.

ويبدو أنَّ الأصم يعاني كطفل من عزلة قد تفرضها عليه ظروفُه، ولم يفرضها على نفسه، وقد تنأى به عمَّن حوله، وتمنعه من الدخول في خبرات جديدة تُثري شخصيَّته، وتزيد معلوماته، ولذلك مردودٌ مُضاعَف على تكوينه النَّفسي، ويؤكِّد علماء النَّفس أن موقف الطفل الأصم تحدِّده مُعاملة أبويه ومدرِّسيه له؛ فإنْ كانوا من النوع المتسامح والمعاون الذي لا يظهر الضيق بعاهة الطفل، والذي يشركه باستمرار معه في الحديث، ويحاول أن يتجاوز به محنته، ويشجِّعه على النُّطق وتقليده فيه، ويصحِّحه له، ويدفعه إلى مواقف إيجابيَّة تزيد من خبراته ومعلوماته ومفرداته اللغوية، فإن الطفل يتجاوب بالتعلُّم بسرعة، وتُثرَى شخصيَّته كأيٍّ من أقرانه، وإن كانوا من النمط المتبرِّم الساخط الذي لا طاقة له على العطاء، فإنه - أي: هذا الطِّفل - سيشتدُّ سخطه على حالته، ويثور على وضعه، ويتوجه بطاقته إلى العدوان، ويكره أبويه والمدرسين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وزملاءه، وتسهل استثارته، ويبرر فشله بالعاهة المصاب بها.

ولا يخفى أن اللغة هي الأداة الأولى لتحصيل الثقافة، وهي وعاء حضاريٌّ يجمع فيه كل أسباب التقدُّم والترقِّي، والمحروم من اللغة محروم من أهمِّ إنجازات الثقافة ووسيلتها للانتماء إلى المجتمع، والتواصل بأفراده، وتفهُّم قيَمه وأعرافه ومعاييره ومصالحه، وقيل: إنَّ الأصم يصاب بضرر نفسي واجتماعي أكبر من الذي يصاب به الأعمى من العمى، والصَّمم يترتب عليه عجز أو تخلُّف عن التحصيل العلمي، ومن ثَم قد يبدو الأصمُّ كما لو كان يعاني تخلفًا أو نقصًا عقليًّا، مع أنه ربما كان شديد الذكاء أو على مستوى عقلي لا بأس به، وربَّما يكون أقدر من غيره على التعلُّم لو أُتيحت له الفرصة.

وإذكاء طموح الأصمِّ وتشجيعُه يساعدان على علاجه بالكلام، بتعليمه قراءة الشِّفاه، واللغة الإشارية، ونطق الألفاظ والحروف، والمعول عليه حاليًّا تعليم الطفل الأصم النطقَ بالتقليد؛ من خلال قراءة الشِّفاه، وكلما كان اكتشاف الصَّمم عند الطفل مبكرًا كان ذلك أسرع له للتعلُّم والتكيُّف مع طريقة التعبير التي وسيلتها النطق الذي يؤدِّيه، من دون أن يتمكَّن من سماعه، وتدريب الطفل على ذلك هو تدريبٌ فردي، وإن كان قد يشارك أحيانًا في القراءات الجهريَّة، أو في التمثيل، أو غيره من المواقف التي تساعده على أن يسلك سلوكًا لغويًّا يتعلَّمه في المدرسة، فكلما زادت هذه المواقف زادت بذلك حصيلتُه اللغوية، وقيل: إن تدريبه على الأفعال أو الأعمال، وما يُعينه لغويًّا يكون قبل تدريبه على الإحاطة بالأسماء ومدلولاتها ونطقها، ومن المستحسن أن يكون تقليده للمدرس من خلال التدريب أمام مرآة؛ ليَلحظ نفسه، ويعدل من سلوكه، مقلِّدًا لمدرِّسه، وينبغي اختيار العبارات البسيطة ليقلدها نطقًا، ويفهم سياقاتها، وكذلك تكون الكلمات سهلةً، ولها مقابلٌ محسوس من الواقع.

ومن حالات الإعاقة العقليَّة: الطفل الأحمق، والأبله والمَعْتُوه، وكذلك المنغولي، والقميء، والأطفال الذين يعانون من صِغَر أو كبر الجمجمة، وكلُّ هؤلاء يَشْكون من نقص في قدراتهم العقليَّة وذكائهم، وربما كان ذلك فطريًّا فيهم، أو كان مكتسبًا نتيجة تلَف في المخ يؤدِّي إلى بطء التجاوب والفهم والتعلُّم، وعدم الكفاءة للتكيف اجتماعيًّا، والملاحظ عمومًا أن الطفل المعوق عقليًّا يكون ضئيل الحجم، ولا يستطيع إدراك العلاقة بين الأشياء، ويظهر عليه تشتُّت الانتباه، وتكاد تنعدم عنده القدرة على التذكُّر، وتتدنى لديه عمليات التداعي والتفكير، ويضعف التصوُّر والتخيل، وتبدو انفعالاته كالصراخ

أو البكاء، ومن السهل أن يخاف، وعاداته الاجتماعية متخلِّفة، ويظهر عليه الشعور بعدم الأمان، ويميل إلى الانطواء، ويشقُّ عليه النوم، ويعزف عن الطعام، وقد يمصُّ إبهامه، ويمشي أثناء النوم، ويتأتئ في الكلام، ويبول على نفسه!

- والأطفال المعوَّقون القادرون على تعلُّم القراءة يفيدهم التدريبُ على قراءة الأعداد والحروف؛ للإفادة من ذلك في قراءة العناوين وأسماء الشوارع وأرقام الهاتف، ويستطيع الطفل الأحمق، أو المورون ذلك، وهو الذي يتراوح ذكاؤه بين السبعين والخمسين تقريبًا، ويبلغ مستواه العقلي في أقصى حالاته المستوى العقليَّ للطفل العادي بين السابعة والعاشرة.

ومن الصعب أن يتعلَّم الأبلهُ القراءة والكتابة والحساب، إلاَّ أنه من الممكن تدريبه على العناية بنظافة نفسه، والقيام بحاجاته اليومية البسيطة، وتُفضَّل الطريقة الكلية في تعليم القراءة والكتابة للطفل المعوق عقليًّا، وتتولَّى مدارس التربية الفكرية اختيارَ هذا الطفل بناءً على اختبارٍ نفسي وفحص طبِّي، بشرط ألا يكون ما يعاني منه يزيد على الضعف العقلي، فلا يكون مصابًا مثلاً بالشلل أو الصرع أو الصمم، ويتضمَّن تعليمه بعض الأنشطة العملية بطريقة المشروع مثلاً، وإشعار الطفل بلذَّة أداء العمل، وتشجيعه عليه، وتكرار الخبرات المختلفة، وتشويقه إلى الدخول فيها، مع مراعاة عيوب الطفل الجسميَّة أثناء التدريبات المختلفة، وخاصة الرياضية، وإتاحة الفرصة له كاملة للتعبير عن نفسه بالألوان، بدلاً من الكلام، مع التدريب على الإصغاء، وتمييز النغمات، والنُّطق الصحيح، ومن الممكن استخدام التمثيل التلقائي، وبناء المكعَّبات، واللعب بالرمل، وتشكيل الورق الملوَّن ولصقه في الكرَّاس.

- وتُقدَّر نسبة عدد المعوَّقين بحوالي خمسة في الألف: وكانت بداية الاهتمام العلميّ بالمعوَّق عقليًّا بعلماء من أمثال: (جان ماري إيتار)، و(سيجان)، و(أندرو ريد) و(ماريا منتسوري)، و(ديكرولي)، وأنشأ (سيجان) مدرسته لتعليم المعوَّقين عقليًّا سنة (١٨٣٧م) في باريس، وكانت أوَّل مدرسة من هذا النوع في هولندا سنة (١٨٤٠م)، أنشأها (فوكا كينجما)، وأنشأ (أندرو ريد) مدرسته بلندن سنة (١٨٤٠م)، وتتابعت المدارس من هذا النوع، وتراوحَتْ مناهجها بين التدريب الحسي والعضلي، والتعليم عن طريق الخبرة والعمل، ثمَّ التخصص في التعليم؛ بحسب حاجة المعوَّق نفسه إلى استحداث نوع من التوافق بينه وبين المجتمع.

- تحدَّثنا في هذا البحث عن بعض أنواع المعوَّقين الذين يوجدون في كلِّ مجتمع:

وأشَرْنا إلى المسؤوليَّة التي تقع على عاتق جميع الأشخاص الأسوياء لمساعدة المعوَّقين؛ من أجل الوصول بهم إلى حياة أفضل.

إنَّ المدرِّس بصورة خاصَّة يحتلُّ مركزًا هامًّا من هذه الناحية، إنَّه لا يُنتظَر منه أن يقوم بعلاج المعوَّق علاجًا خاصًّا، ولكنه يستطيع تمييزه واحترامه، ويستطيع في كثير من الأحيان أن يشجع المعوَّقين على تغيير أوضاعهم وتحسين عاداتهم، وهو - كمواطن يهتمُّ بعض الاهتمام بالمصلحة العامة - يستطيع أن يستغلَّ نفوذه لكي يؤمِّن العلاج والظُّروفَ الملائمة لأولئك في عقولهم وأجسامهم وانفعالاتهم، لقد أصبحت هذه الخدمات تُعتبر جزءًا لا يتجزَّأ من الواجب المسلكي للمدرِّس والمربِّي الحديث.

المراجع

١- أحمد عزَّت راجح: (١٩٦٣م) «أصول علم النفس»، الدار القوميَّة للطباعة والنشر.

٢- عبدالعزيز القوصي: (١٩٦١م)، «أسس الصحة النفسيَّة».

٣- مصطفى فهمي: (١٩٦٣م)، «الصحة النفسيَّة في الأسرة والمدرسة والمجتمع»، دار الثقافة.

٤- أحمد زكي صالح: (١٩٥٤م)، «العلاقة بين الصفات المزاجيَّة والقدرات العقليَّة»، الكتاب السنوي لعلم النفس، المعارف.

٥- مصطفى فهمي: (١٩٦١م)، «سيكولوجيَّة الطفولة والمراهقة».

٦- رمزيَّة الغريب: (١٩٦١م)، «العلاقات الإنسانية في حياة الصغير ومشكلاته اليومية»، القاهرة.

٧- بيير داكوه، «الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث»، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م، ترجمة: وجيه أسعد، دمشق، الشركة المتَّحدة للتوزيع.

٨- حسين محيي الدين سباهي، «كيف يشعر المتخلف»، مجلة عالم الإعاقة، العدد (٢١) تموز (٢٠٠١م).

٩- «رعاية الأسرة للأطفال المعوَّقين»، مجلة عالم الإعاقة، العدد (٢١) تموز (٢٠٠١م).

١٠- د نوزاد الهيتي، «إدماج المعاقين»، مجلة المنال، العدد (١٥٥)، سبتمبر (٢٠٠١م) الشارقة، مدينة الشارقة للخدمات الإنسانيَّة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مفهوم الأيديولوجيا

أسعد طرابيه ✿

في معهد فرنسا والذي أطلق عليه المعهد الأيديولوجي، ابتدع الفيلسوف الفرنسي دوستوت دي تراسي مصطلح الأيديولوجيا لأول مرة في التاريخ والذي غير صيغة ديكارت «أنا أفكر إذاً أنا موجود» إلى «أنا أشعر إذاً أنا موجود» وقد كان يريد إعطاء اسم جديد لتلك الفلسفة التي هيأت للثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م كما كان لابد من تبديل كلمة ميتافيزياء التي فقدت رونقها بكلمة أيديولوجيا التي أضحت تدل

على علم الأفكار أي العلم الذي يبحث في صفات الأفكار وقوانينها وسماتها وخاصة أصولها.كان مؤسسو المعهد يؤكدون إن «على الأيديولوجيا أن تغيّر وجه العالم» وألّف دي تراسي كتاباً «عناصر الأيديولوجيا» مخصصاً للمدارس المركزية التي كانت تعد فيها نخبة البرجوازية الفرنسية، قدمت فيه الأيديولوجيا باعتبارها علماً عن الخلق والتعبير وانتشار الأفكار.

في ديسمبر كانون الأوّل عام ١٧٩٧م ضم الأيديولوجيون إلى دائرتهم الضيقة جدا «المعهد» نابليون الصاعد نحو السلطة الذي قوّم بدوره وبشكل صحيح أهمية هذا الاتحاد، ذلك عندما كان عضواً في الإدارة

✿ باحث وعضو في الجمعية الكونية الفلكية.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

كان يوقع باسم «الجنرال نابليون القائد العام، عضو المعهد». وعموما كان نابليون من الناحية الروحية نتاجا خالصا لعصر التنوير،كانت هيبة روسو بالنسبة له لا ترقى إلى الشك لدرجة أن كلمات روسو كانت في رسائل نابليون الشاب تعيض عن أي حجة.

فيما بعد أصبح نابليون القنصل الأوّل واستمر الأيديولوجيون في طموحهم لمشاركة واسعة جداً في السلطة لكنه أمر بوقفهم عند حدهم مانحاً إياهم رواتب عالية بشكل غير عادي. عندما نشر نابليون في إحدى الصحف مقالة رائعة، من دون أن يوقع باسمه الصريح، ضد الأيديولوجيين الذين يلعبون بعقول الناس. ولكن بشكل عرف فيه الجميع من هو المؤلف الحقيقي. وهكذا أفل نجم أولئك الأيديولوجيين، لكن القضية استمرت وتحدد مكان الأيديولوجيين في السلطة بدقة: الحصول على رواتب عالية على أن يبقوا في الظل.

تعريفات متنوعة للأيديولوجيا:

١- هي علم الأفكار أي علم حالات الوعي (ديستوت دي تتراسي).

٢- الأيديولوجيا تحلق فوق جميع العلوم، لأن العلوم ليست إلا أفكارنا وعلاقاتها المختلفة. (م.دي بيران)

٣- الأيديولوجيا هي مجموعة من الأفكار تعيش حياتها المستقلة ولا تخضع إلا لقوانينها الخاصة، وهي عملية يمارسها فعلا الفكر الواعي ولكنه وعي زائف، ذلك أنه يظل يجهل القوى المحركة الحقيقية. ولولا ذلك لما كانت هذه العملية عملية أيديولوجية (فريدريك أنجلز).

٤- الأيديولوجيا هي عرض ذهني يستجيب لمطلب عاطفي مصنعة لتلبية حاجات اجتماعية معينة أي فكر محمل بعاطفة.

(ج. مونرو).

٥- الأفكار مكتظة بالأيديولوجيات، وهي مجردات تبسط من أجل استهلاك واسع وتلك المجردات تشكل الأذهان، ويقاوم فيها الخلق الروحي. (أي. مونيه)

٦- تسعى الأيديولوجيا لأن تصبح دعاية تمارس ضد فئة معينة من الناس.

(جبرييل كارسيل).

٧- الأيديولوجية هي أسطورية مفهومية

(جورج لوكاتش).

٨- الأيديولوجيا إمَّا أن تعود بكاملها تقريبا إلى فهم التاريخ البشري أو تجريد له، وهي العلاقة المتخيلة بين البشر وظروف وجودهم المادية

(ماركس).

٩- الأيديولوجيا هي التعبير الذهني

المحـدد تاريخيـا عـن وضـع مصلحي ما (مينكسيه).

١٠- وظيفـة الأيديولوجيـا هي إعطاء توجيهـات للعمـل الفـردي أو الجماعـي (مكسيم رودنسون).

١١- الأيديولوجيـا هـي نظـام شامل لتفسير العالم التاريخي والسياسي

(ريمون آرون).

١٢- الأيديولوجيا هي تركيبة من الأفكار تبـدو في نظر الـذات تفسـيرا للعالم وهذا التفسـير يمثل لها الحقيقـة المطلقة ولكن علـى شكل وهم به تـبرر نفسها أو تخفيها، ولكن لصالحها المباشر. فالأيديولوجيا قناع يستر تحته الشر. (كارل يسبرز).

١٣- الأيديولوجيا هـي تفسير للوضع، التي هي ليس نتاج تجارب مجسدة، ولكنها نوع من المعرفة المحرفة لهذه التجارب تفيد إخفـاء الوضع الحقيقـي، وتؤثر كضاغط على الفرد (كارل مانهايم)

١٤- الأيديولوجيـا نظـام (لـه منطقه ودقته الخاصين) من التمثلات (صور أساطير أفكار حسب الحالة) ذو وجود ودور تاريخي في مجتمع معين. (ماسبيرو)

نحتـت فلسفـة الأنوار طريقـا لظهور الأيديولوجيـا ووضعـت أسسهـا ولكنها لم تستطع تفسير كيف نشأت وماهو دورها في تبرير الواقع. إنَّ مشـروع الأنوار لم يكتشف إلا جانبـاً واحـداً مـن الأيديولوجيا وهو تأثير الأفكار الموروثة (التقاليد) على الفكر الفردي، لذلـك لم ينظروا بأصـل الأفكار الموروثة، وقـد قالوا بحقيقة ثابتة متجسدة في الطبيعـة والتي تنعكس من دون اعوجاج بالعقـل البديهـي، ولكـن ما يمنـع العقل التقاطها هو الأفكار الموروثة.

يوجـه فلاسفة الأنـوار ضربـة للفكر الكنسـي، وفي حـال تكنيـس ذلـك الفكر يستطيـع العقل التقاط الحقيقة. إنَّ الأفكار الموروثـة حسب هـؤلاء تقف عائقـاً أمام وصول العقل لصفائـه الأوَّل لذلك اعتبروا العلـم أولاً والأيديولوجيا ثانياً عندما تزول الأيديولوجيا يتكشف العلـم دفعة واحدة بينما اعتبر ماركس الأيديولوجيا أولا والعلم ثانيا ومهمته تعرية الأيديولوجيا.

لم ينحـت الغزالي مفهـوم الأيديولوجيا الـذي يقوم أصلا على فكـرة الإقناع، لأنه يعتمـد علـى قـوة الإرغـام، أي الخضوع للشرع، فقد ربط المعتقـد الفاسد بمؤامرة كونية يحيكها الشيطان. أمَّا فلاسفة الأنوار فلاسفة القرن الثامـن عشر، فقد حصروا اعوجاج الفكر بظروفـه الاجتماعية وليس بظـروف شيطانية كما فعـل الغزالي. ومع ذلـك يمكن القـول إنَّ مشـروع الأنوار كان قائماً علـى نقد الأفـكار الموروثة فقط ولم يسعَ لالتقاط الحقيقة.

ينقد فيورباخ الألماني الفيلسوف الكبير هيغل ويقول: إنَّ هيغل يعزو للفكر المطلق ماهو من خصائص الإنسان أساساً كما أنَّ ورثة فيورباخ ينقدون النظام الألماني القائم، إنَّهم مع أستاذهم فيورباخ يريدون التأسيس لدين الإنسانية الحق الذي لا يحتاج لكنيسة من أجل تشييد ديمقراطية تلغي الاستبداد، إنَّهم بحق أبناء روسو جميعاً. يشاطر ماركس ورثة فيورباخ بالهدف أي نفي التسلط ولكنه يختلف عنهم بالوعي. يسألهم ماركس إنكم تفسرون أوهام الآخرين بحب التقليد والتربية الدينية والسيطرة، فكيف تفسرون كيفية نشوء فكركم النقدي؟ يجيب ماركس فيقول: إنكم تقفون على أرضية فلسفة الأنوار وتسحبونها بشكل ميكانيكي على الوضع الألماني، وإنكم بذلك تلغون التاريخ الواقعي وبإلغائكم الواقع تُملئون أذهانكم بالأوهام وتعرضون عن معرفة الواقع. ففكركم إذا أيديولوجي غير علمي. إنَّ اليسار الهيغلي مثل فلاسفة الأنوار رأوا إن تغيير الأوضاع يكون بتربية العقول أي بإعادة التربية. بينما يرى ماركس إن المربي نفسه يحتاج لتربية. لقد رفع اليسار الهيغلي فكر التنوير الفرنسي إلى مستوى المطلق من دون أن يدرك الحقيقة التالية (حين تخلف طبقة مسيطرة جديدة طبقة سابقة تضطر لكي تصل لأهدافها أن تظهر مصلحتها الخاصة على أنَّها المصلحة العامة).

يقول إنجلز: الأيديولوجيا عملية ذهنية يقوم بها المفكر وهو بوعيه لكن وعيه زائف لأنه يجهل القوى الحقيقية التي تحركه.ولو عرف الشروط التي أنتجت هذا الفكر لم يكن فكره أيديولوجيا.

يرى ماركس أن مصلحة الطبقة تعمل في ذهن الفرد من دون وعي منه وتقود أحيانا لأعمال تعاكس مصلحته الآنية، أمَّا ماديو القرن الثامن عشر كانوا يضخمون دور الدوافع النفسية والمصالح الفردية.

إنَّ اغتراب الإنسان عن عمله ناتج عن انفصال العمل الجسدي عن الذهني، هنا يتصور المفكر أن ما يجري في ذهنه منفصل تماما عمَّا يقوم به غيره من عمل جسماني. يقول ماركس إنَّ الاغتراب ليس سببه اعوجاج في آلية الذهن بل لتناقض في واقع المجتمع بين قوة كل فرد عامل ونتاج عمله الذي يذهب إلى جيوب الرأسماليين.

كان ماركس في بدايته يدور في فلك هيغل وقد رد التناقض بين قوة العمل ونتاج العمل إلى التعارض بين الإنسان الخاص والإنسان العام، الإنسان الحر والإنسان المسلوب، ولكن عندما درس ماركس التاريخ الواقعي بعمق اتضح له إن هذه التعابير تخفي تناقضاً أعمق بين الملكية والعمل بين الطبقة المالكة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والطبقة المنتجة، والتناقض يدل على تطور بدأ يعزل الفرد العامل عن وسائل عمله.

إنَّ الملكية تكمن وراء سلب العامل وسائل العمل، والتوزيع وراء الاستلاب، والاستغلال وراء الوعي الزائف.

إنَّ مفاهيم العمل لقيمة الإنتاج الاستهلاكي ليست مفاهيم بديهية تأملية، بل صور ذهنية لأحداث أفرزتها حركة التاريخ الفعلية.يقول ماركس: إنَّ المفاهيم الأكثر تجريداً تصلح بسبب تجريدها لفهم كل الحقب التاريخية لكنها رغم هذا هي نتيجة ظروف تاريخية محددة، إن آدم سميث وريكاردو اعتبرا مفاهيمهما تصلح لكل زمان ومكان ولكنهما أخطأا كون مفاهيمهما مشروطة تاريخياً. إنَّ مشكلة علم الاقتصاد أنَّه اعتبر المفاهيم الكلاسيكية كأنها حقائق أزلية. لقد كان علم الاقتصاد أيديولوجية ثورية بالقرن الثامن عشر وأيديولوجية تبريرية محافظة في القرن التاسع عشر.

إنَّ الحركة التي أفرزت مفاهيم علم الاقتصاد هي حركة التشيؤ. إنَّ مادة الاستهلاك أصبحت بضاعة معدة للسوق تقتضي التبادل والتبادل يقتضي النقد والنقد يتحول لرأسمال. والرأسمال هو الاقتدار على تشغيل الإنسان وتملك الفائض. لقد بدأت حركة التشيؤ بقدرة الإنسان على العمل وانتهت بظهور رأس المال، بكلام آخر اغترب العامل بسبب التناقض بين العمل ورأس المال الذي يقوم على الربح.

يقول الكلاسيكيون: إنَّ رأس المال يخلق فرصة العمل وينظم أدواره، أي إنَّ الميزة الأساسية تكون لرأس المال وليس للعمل. هذا الكلام تعبير عن وعي زائف يخدم مصلحة الطبقة البرجوازية.

عند ماركس يتحول العلم لأيديولوجيا في حالتين:

١- عندما تتحول مفاهيم العلم لمفاهيم مطلقة صالحة لكل زمان ومكان، من دون إدراك الشروط التي أنتجت تلك المفاهيم.

٢- عندما يعمم المفاهيم لقراءة مرحلة معينة على كل مراحل التاريخ.

لذلك لا علم عند ماركس من دون نقد المفاهيم وتدقيقها. كما إنَّ العلم ليس هو المعطى الأوَّل والأيديولوجيا ليست هي الصورة المشوهة كما نظر الأنوار، وإنَّما الأيديولوجيا هي الأولى لأنَّها وصف الظاهرات، والعلم هو نقد تلك الأيديولوجيا بعد وضعها في إطارها التاريخي.

يمكن اختصار نظرية ماركس في الأيديولوجيا بثلاث نقط:

١- الأيديولوجيا قناع لا تنتج فقط عن الجهل الذي يرعاه الاستبداد بل تنتج عن مصالح الطبقات والفئات

٢- المنظومات الفكرية لا تعكس أطوار

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

العقـل المطلق كما عند هيغـل وإنَّما تعكس القاعدة المادية التي تحدد آلية المجتمع.

٣- أصـل الأيديولوجيـة معرفة ما هو جزئي وظاهري، أمَّا العلم فمرتبط بإدراك القوانين الكلية الباطنية.

ينقد هـردر من خـلال مفهومـه روح العصر عقلانية الأنوار التي عالجت الحقب السابقة من وجهـة نظرها هي، لقد نقدت الـرق واعتبرته عـاراً على التاريـخ ولم تَرَهُ مرحلـة تاريخيـة. يريد هردر مـن المؤرخ وقارئ التاريخ أن ينتقل إلى الوسط الثقافي الذي يدرسـه. إنَّ الفلاسفة الألمان عايشوا التطورات الفرنسيـة صفقوا للثورة وحقوق الإنسان، ولكنهم عارضوا الإرهاب وحروب نابليـون التوسعية. يقول هيغـل: إنَّ دعوة فلاسفة الأنوار للعقـل كانت ضرورية ولكن العقل لديهـم في مفهومه كان مجرداً فارغاً مـن أي مضمون، إنَّه صحيـح صحة تامة مادام مجـردا ولكنه إذا طبـق على الواقع يعطي الدليل الفوري على عجزه لأنَّ المجرد لا يعطـي مقياسا للتعامل مع الواقع وهكذا ينشأ الإرهاب الذي هو ارتطام العقل المجرد مع الواقع الملموس، إنَّه يقصقص الواقع بما ينسجم مع المفهوم، وإن الأنوار عندما تعرض عقلها على الواقع تهدم الفهم المجرد وتعجز عـن إدراك المشخص. يحلـل هيغل الثورة الفرنسية فيقول: إنَّ الأنوار لم يفهموا التقليد ونقدوه اعتماداً على العقـل الفارغ بالتالي أغرقت الثـورة الفرنسية بالإرهاب وبالتالي لم يدركوا خصوصيـة القديم لالتقاط كيف ينشأ الجديد.

عند هيغل إمَّا دولة مطابقة لروح التاريخ وإمَّـا دولة مهجـورة من التاريـخ متداعية مجـترة لإنجازاتها من دون تجديد أو إبداع، يعتقد هيغل إنَّ روح التاريخ واحد لأن قصد التاريخ العام تحقيق الحرية، فعندما تغادر الروح دولة لتحـل بدولة أخرى فإنَّها تنتقل من حريـة لحرية أعلى.وهكـذا فإنَّ هيغل يحكم علـى كل حقبة تاريخيـة بمعيارين، الأوَّل: خاص بهـا، والثاني: معيار عام هو روح التاريـخ الشامل الـذي يخص المطلق، فالرأسمالية تجر كل الأمم ورائها.

اعـتبرت المسيحيـة الناس عـند الله سواسيـة، ثم جاءت الأنوار وقالت إن الناس يولدون أحراراً، فحكموا على الرق أنه وصمة عار في جبين التاريخ القديم، ولكن المتعمق بالتاريخ يرى لـولا الرق لما نشأت الحضارة ولما نشأت الأنـوار ذاتها، يقول هيغل ينتمي الرق لمرحلة الانتقال من طور طبيعي لطور أخلاقي في حياة الإنسان.

إنَّ التاريخ عند هيغل ليس ماضياً موروثاً كمـا الأنوار، إنَّ التاريخ هو منطق الأحداث ومحركهـا الباطني ليس المطلـق كينونة بل صيرورة، لا ينعكـس في الذهن في مجرد أن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يتحرر المرء من الأوهام الموروثة لأنَّ المطلق (الروح) يتجسد بأدوار تاريخية متعاقبة وفي كل دولة يحل روح العصر كتجسيد مؤقت للحقيقة المطلقة، وهذه الحقيقة تتكشف للفيلسوف عندما يدرك سر تعاقب الدول. إذ عندما يواجه الباحث حقبة ما، لا بد أن يدرك روح تلك الحقبة كي يدرك قوانينها ودساتيرها وعلومها. سار المؤرخون الهيغليون على نهج أستاذهم، وراحوا يبحثون عن أسباب الحوادث في فلسفة هيغل لا في الوقائع. نقد ماركس هذا النهج واعتبره ضرباً جديداً من التفكير الكنسي. فالمؤرخ المسيحي يعرف مسبقاً الأهداف الإلهية لأنه يقرأها في الكتاب المقدس ولا يتحمل أعباء التنقيب في الأسباب الواقعية. فعوضا عن أن تكون فلسفة هيغل نتيجة للتاريخ يصبح التاريخ تحقيقاً لفلسفة هيغل.

يرى نيتشه أنَّ العدمية هي مرض أوروبة الخفي، وإنَّ الأخلاق الأوروبية على الرغم من اختلافها الظاهر عن النصرانية والليبرالية والاشتراكية إلا أنَّها ترجع بالواقع لينبوع واحد وهو إنَّ الثقافة الأوروبية هي ثقافة المستضعفين الذين أبدعوا قيم الخير والضمير والمساواة والعدل.

يصفق نيتشه للمادية الفرنسية التي ترى بأنَّ الجسم يأتمر بأمر الغرائز، لأنَّ أكبر فيلسوف عنده هو الطبيب الفيزيولوجي.

لقد كانت الأخلاق صالحة في البداية، أخلاق أشراف أسياد الحرب الذين يطيعون نزوات الجسم الطبيعية، ثم ثار ضدهم رجال الدين الضعفاء المرضى فلفقوا خرافة الضمير والحرية والمسؤولية، ولكن ليس هناك معنى للحرية أو المسؤولية أو الضمير وإنَّ هدف الغريزة وهدف الفرد شيء واحد. إنَّ الثقافة منذ بدايتها حاربت الطبيعة ولم تمنح الإنسان القوة والسرور والنشوة بل عرقلت زخم الحياة وملأته حزناً وانكماشاً، هدف الثقافة الانتقام من الإنسان القوي، وإنَّ التاريخ هو صراع بين القوي والضعيف والصحيح والمريض. لقد مثلت روما القوة ومثلت المسيحية الضعف.

إذا كان الجسم سالماً متصالحاً مع الحياة فإنَّ العقل يشتغل في اتجاه طبيعي. ويكون إنتاج العقل مطابقاً لأهداف الحياة أمَّا إذا كان الجسم سقيماً فإنَّ العقل يشتغل باتجاه مضاد للطبيعة. وينتج إنتاجاً زائفاً، إنَّ العقل عاجز عن خلق أي قيمة إذا لم يرتبط بالحياة. إنَّ نظرية نيتشه حول الأوهام الإنسانية تبرر ذاتها اعتماداً على البيولوجيا والتاريخ الوقائعي والاشتقاق اللغوي، وهي أيديولوجيا مبنية على نقد الأيديولوجيات. فمضمون النتشوية إذاً هو رفض المفاهيم التي شيدت عليها الثقافة الغربية العقل والحقيقة والإنسان. إنَّ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الأيديولوجيا عند نيتشه هي قناع تخفي وراءها غل المستضعفين لمحاربة الأقوياء، هي ستار يبعد البشر عن منطق الحياة وذلك عن طريق خلق عالم وهمي معادٍ للطبيعة.

يعتبر فرويد أنَّ العقل كغيره من الموجودات تحت تصرف الرغبة، فالتركيبات الذهنية على جميع مستوياتها وبكل صورها هي أقنعة تخفي وراءها أهداف الرغبة. وبما إن التاريخ الحضاري والواعي للإنسان قصير جداً بالنسبة لماضي الحياة فإنَّ الدوافع المكبوتة لم تغرق في بحر النسيان، فهي قريبة جدّاً من سطح الوعي حيث يعمل العقل وليس من الصعب استحضارها بتأويل بسيط للمقولات.

لا ينفرد الفرد إلا بقسم ضئيل من نفسانيته، أمَّا القسم الأكبر فهو نفسانية جمعاوية مشتركة حيث يشارك كل فرد الآخرين بتجمعات متعددة طبقة دين شغل نوع وبعد كل هذا يكتسب إن هو اكتسب ميزة يستقل بها. إنَّ الأنا وليدة التاريخ القريب، فالأنا غير مستقل، لذلك نراه قلقا باستمرار عرضة للانفصام ويتحكم بالأنا الأنا الأعلى الذي يمثل فينا التاريخ البعيد (تاريخ القطيع) ولا يمكن فهم الأفكار والأنظمة الاجتماعية بالنظر للقواعد العقلية التي أنشأتها وركبتها.

لا بد من الغوص فيما يتحكم بالعقل نفسه، سنجد الرغبة المكبوتة وراء الوعي وهي التي تفسر الأفكار والأنظمة والوعي، أمَّا إذا فسرناها على أساس العقل الذي ركبها فإنها تقودنا للأوهام فالرغبة تخدعنا بوساطة الأوهام لتصل لأهدافها، وتعرية الأوهام من العقل الذي يزيفها هو واجب العلم حسب فرويد.

لقد تعلم الاجتماعيون الألمان من نيتشه أنَّ العالم الإنساني هو عالم قيم مفصول عن عالم الوقائع، وتعلموا من فرويد إنَّ بنية النفس الفردية توافق بنية المؤسسات الاجتماعية وبنية سير التاريخ، وتعلموا من ماركس مفهوم الأيديولوجيا لكنهم وجهوا نقداً لماركس، فالماركسية تقرر إن الأيديولوجيات كلها طبقية ولكنها لا تطلق على ذاتها وصف الأيديولوجيا، فالماركسية تخدم مصالح الطبقة العاملة فهي أيديولوجيا تماماً كحال الليبرالية أيديولوجيا الطبقة الوسطى والمسيحية أيديولوجيا الإقطاع في القرون الوسطى.

بعد نقد علماء الاجتماع الألمان للعقلانية لم يعد هناك أصل ثابت يضمن الحقيقة المطلقة، ولا يوجد مغزى للتاريخ ولا طبقة كونية، فالمجتمع مجزأ لطبقات وفئات لكل منها أيديولوجيا تسعى كل واحدة لتحقيق مصالحها. وهي كلها متساوية فلا تتميز الواحدة عن الأخرى فيما يتعلق بالحق

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وإنَّما فقط فيما يرجع للفعالية والقدرة على كسب الإقناع وتقريب الأهداف.

إنَّ شهرة كارل مانهايم بعد الحرب العالمية الثانية في أوروبة كانت نتيجة جهل الأوروبيين بمنجزات الألمان، ألف مانهايم كتابه الأيديولوجيا واليوتوبيا (الغير متحقق والذي يمكن تحقيقه) وقد ركز فيه على الجانب السياسي، ميز مانهايم بين الأيديولوجيا واليوتوبيا، وهما يشتركان بالبعد عن الواقع ويعجزان عن إدراكه.

إنَّ كل منظومة فكرية تكون أيديولوجيا أو يوتوبيا حسب الظرف، فليبرالية القرن الثامن عشر كانت يوتوبيا وليبرالية القرن التاسع عشر أيديولوجيا. فاليوتوبيا ذهنية الطبقات أثناء صعودها، والأيديولوجيا بحالة انتحارها.

أطلق مانهايم على مذهبه المنظورية حتى لايسمي نسبية، فالنسبية تسعى للحقيقة. وتعني المنظورية إنَّ كل فئة اجتماعية ترى المجتمع من واقع خاص بها تحدده مصالحها فترى الأحداث طبقاً لمنظورها الخاص. إنَّ النسبية في نظره تحن للحقيقة المطلقة، أمَّا المنظورية فترى الحقيقة المطلقة خارج متناول الإنسان.

إنَّ الأيديولوجيات متساوية في وزنها الذاتي وبمنطقها الداخلي، فالأيديولوجيا واليوتوبيا هما وعي زائف مقابل الوعي الصادق والفصل بينهما هو الفصل بين عالم السياسة وعلم السياسة الذي يهدف للحكم الموضوعي، فالمثقف الحر من كل انتماء طبقي هو القادر على الانتقال بين المنظورين وهو فقط من يصل للموضوعية. والوعي الصادق يلتقط كيف تتحرك الأيديولوجيات ويلتقط الحقيقة الموضوعية، ومن بوابة التقاطه للحقيقة يرى الآخرين يشوهون الحقيقة، وهم يشوهونها بشكل مستقل عن وعيهم.

إنَّ النسبية تنسف العلم من الميدان الاجتماعي، أمَّا المنظورية فتؤسسه. لذلك يقف مانهايم موقفاً عدائياً من الماركسية والفاشية والليبرالية لأنه رأى فيها جميعاً قناعاً، فهم يدافعون عن مصالح اقتصادية ضيقة، لذلك دعا لديمقراطية سياسية تقوم على اقتصاد موجه، ورأى بعلم السياسة سلاحاً بأيدي المثقفين الأحرار لضمان الديمقراطية الاجتماعية، فخصوصية علم السياسة عنده تقوم على نقد كل الأيديولوجيات. وكأنه يشير إلى ماكس فيبر الذي التزم موقفاً حيادياً تجاه هذه الأيديولوجيات، وأخذ منها بشكل نسبي بعض الأجزاء.

ينقد مانهايم الحقيقة المطلقة (طبقة معينة تصل للحقيقة، مثلا الطبقة العاملة عند ماركس هي فقط التي تصل للحقيقة

ARCHIVE
archivebeta.sakhrit.com

المطلقة) وينقد النسبية (كل الأيديولوجيات صحيحة) لكن مانهايم يعود ويقول: إنَّ المثقفين وحدهم في وضع يمكنهم من إيجاد مركب من مختلف النظرات الحزبية والتوصل بالتالي إلى الحقيقة الموضوعية. إنَّ مانهايم يقع في الشرك نفسه الذي نصبه لغيره، أي يتبنى مانقده لدى الآخرين

خاتمة:

هناك إذن، رابطة عميقة داخلية بين نظريات، التفريغ الأيديولوجي والمجتمع الصناعي الموحد ونظرية التقارب، ونظرية أطوار النمو.

تقوم نظرية التفريغ الأيديولوجي على أنَّ هناك نظرية سوسيولوجية تمكنت من احتلال موقع معين فوق الطبقات وفوق الأحزاب، والتي تعني أيضاً نهاية الأيديولوجيا. ومن أبرز ممثلي هذا النظرية ت٠بارسونز.

أمَّا نظرية التقارب حسب غالبرايت، فتعتبر نهاية الأيديولوجيا نتيجة للوضع الذي يتم فيه أكثر فأكثر تقارب النظامين الاقتصاديين الرأسمالي والاشتراكي.

يقول روستو في كتابه «أطوار النمو»: إنَّ نظريته بديل لنظرية كارل ماركس حول التاريخ المعاصر وإنَّها تهدف لمواجهة التحدي الماركسي، ونفيه كأسلوب لدراسة التاريخ المعاصر.

لقد استطاع المجتمع الصناعي حسب ريمون آرون، أن يحل جميع القضايا الأساسية، لقد تمَّ الانتهاء من إزالة الحدود القائمة على المستوى الاقتصادي، بين جميع الفئات الاجتماعية. كما اختفت الآثار السياسية لعدم المساواة الاقتصادية، فقد تمَّ ضمان المواطنة السياسية والحقوقية للطبقة العاملة وأنجزت عملية دمج البروليتاريا في المجتمع الصناعي.

ترى هذه النظريات في رأسمالية الدولة الاحتكارية تتويجا للتطور الإنساني ومرحلة أعلى تمَّ التوصل إليها، ليس في مجال العلاقات التكنولوجية والاقتصادية فحسب، بل وفي المجال السياسي.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المراجع

- جدلية الأيديولوجيا والعلم، سيرغي كارا مورزا، ترجمة: د.نواف القنطار، دار علاء الدين، دمشق ٢٠٠٥م.
- الأيديولوجيا، ميشيل فاديه، ترجمة: د.أمينة رشيد سيد البحراوي، دار الفارابي، بيروت، ٢٠٠٦م.
- نقض الأيديولوجيا مابين الوهم والحقيقة، ل.ن موسكفتشييف، ترجمة: حمزة برقاوي وغالب جرار، برلين، ١٩٧٣م.
- مفهوم الأيديولوجيا، عبد الله العروي، الناشر المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الخامسة، ١٩٩٣م.
- عدد من مواقع الإنترنت المهتمة بالأيديولوجيا.

الثقافة قاطرة التنمية

رحاب محمد ✿

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مع تنوع وتعدد وسائل الاتصال ووسائط نقل الثقافة ونشرها في أرجاء المعمورة بأساليب وطرائق تتقاطع وتتوازى بأشكال وتركيبات مذهلة يلتقي فيها ومن بعد المرسِل والمتلقي، ظهرت وظائف جديدة لمعنى الثقافة بمفهومها الأوسع وطبيعة تأثيرها على المجتمعات الإنسانية. وبعبارة أخرى تحول المشهد الثقافي العالمي في هذا القرن إلى صناعة تمثل ثورة متعددة الأبعاد ومختلفة الأطوار،



وباتت تؤثر على مشاعر الناس وانماط تفكيرهم وسلوكياتهم. ولم يقتصر الأمر على

✿ باحثة وناقدة سورية.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

ذلك فقط.. بل كان لها سطوة في تحديد مسار حياتهم ومواقفهم من مشكلات مختلفة سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية.

تعد الثقافة في عصرنا الحالي مقتصرة على ما يملأ العقول من أفكار وقراءات، أو تتشربه من ينابيع الحكمة والدراسات المختلفة، أو متخمة بعيون الشعر والتاريخ الفكري الذي أبدعته عقول وتجارب المبدعين الأوائل خلال مراحل العصور السابقة من تاريخ الإنسانية.

هذا المخزون التاريخي للثقافة والمعارف وإن ظل راكناً في الوعي الإنساني نستحضره وقت ما نشاء، إلا أنَّه يظل محصوراً في دائرة ضيقة يعود إليه ذوو الاختصاص، إضافة إلى أولئك الذين يملكون ملكة الإبداع في المجال الثقافي والأدبي ليعيدوا صياغته صياغة تمتزج مع أشكال الثقافات الجديدة وتنويعاتها فتصل إلى المتلقي في ثوب جديد/ قديم، يثير دهشته حتى ليكاد ينكر أصوله القديمة، وهذا ما نلحظه في الكم الهائل من ملايين المعلومات والثقافات الفكرية والمعرفية التي تتدفق على المتلقين بين الفينة والأخرى.

وفي عصرنا الحالي لم يعد المشهد الثقافي مقتصراً على الأشكال والأجناس الثقافية، أو محصوراً في تلك الدائرة الضيقة والمحدودة التي عهدت من قبل، ولم يعد هناك حماس يجذب البعض نحو الأدب الكلاسيكي وفنون الشعر التقليدية كما كانت عليه في القرن التاسع عشر والقرن العشرين، بل حدثت تغيرات عديدة وواسعة في الهيكلة الثقافية العامة لتشمل أذواق الناس والشعوب، وجميع النخب على مختلف مستوياتهم ومدى استيعابهم لمختلف الأشكال الثقافية الجديدة التي صاحبت التقدم والتطور في مجال علوم الاتصالات وثورة المعلومات والسرعة الفائقة في التقاطها وبثها في جميع أنحاء الكرة الأرضية.

ثقافات جديدة تقف على التخوم الفاصلة مابين القديم والجديد حتى توائم عصر الاستهلاك السريع لمنتجات الحضارة سواء في أشكالها المادية والصناعية والحياتية أو في تجلياتها الفنية والعلمية والتقنية.

فمثلاً لم تعد أذواق وثقافة الناس في الطعام والشراب هي نفسها التي كانت سائدة قبل نصف قرن من الزمن، بل تنوعت معايير ومشارب الأذواق بما يتفق مع مستوى الوعي بالأمور الصحية، وبالمقابل نجد ثقافة غذائية جديدة، ألا وهي ثقافة الوجبات السريعة وعدم الاهتمام بمفردات الطعام والقيمة الغذائية له. وهذا مجرد نموذج لثقافة من ثقافات مختلفة وجديدة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بمعطياتها ولا تقل أهمية وتأثيراً عن الثقافة بمفهومها التقليدي.

إذن، هنـاك الكثير من أنـواع الثقافات انتشـرت وسادت العـالم بشكل عـام وكان للمجتمعـات العربية حظـوة كبيرة من هذه الثقافـات، وفي بادئ الأمر دخلت باستحياء على العالم العربي لتتحول بعد ذلك إلى ثورة جارفـة في الفضاء الثقـافي، فتشمل فنون العمارة والإسكان وفنـون الرسم والتصوير والأزيـاء، وتمتـد أكثر وأكثر لتطـال كيفية تمضية أوقات الفـراغ واللهو والتسلية وما تقدمه من مغريات تجذب الناس إليها.

إنَّهـا ثورة ثقافية بمفهـوم حديث، إذ لا يوجـد مجال من مجالات الحيـاة والنشاط الإنسـاني إلا كان لهـا دور فيه، فتشكلت بذلك خلفية ثقافية بمفهوم جديد استندت إلى دراسات وتطبيقـات عملية ترجمت في برامج ووسائط معرفية واسعة الانتشار.

هذه الثقافات المتنوعة غيرت من أذواق المجتمعـات وسلوكيات الأفـراد وعواطفهم فضاعفـت الشعور لديهـم لإحداث التغيير والتجديـد ليشمـل النواحـي الاجتماعية والسياسيـة والاقتصاديـة بمـا يتناسـب والانفجار الثقافي العالمي الجديد.

جدلية الثقافة والتنمية

لقـد مضى العهـد الذي كانـت تقاس فيـه التنميـة عـبر مؤشرات رقميـة بحتة فقـط، وأضحى مفهوم التنميـة اليوم أكثر عمقاً وشمولية، تتداخـل فيه عوامل كثيرة متعددة ومختلفـة، ويقاس بمـدى قدرة أية إستراتيجية على النهوض والتقدم بالمناحي الاجتماعية كافة. فلقد أضحى محور العملية التنمويـة وهدفهـا المركـزي في مفهومها المعاصـر، الإنسـان والجماعـات البشرية، وتبعـا لذلـك ظهرت مفاهيـم جديدة مثل مفهوم «التنمية المستدامة» ومفهوم «التنمية المندمجـة» و«التنميـة البشريـة» و«التنمية المجالية» التي تربط العملية التنموية بالمجال والمحيط وكـذا مفهوم «التنميـة الثقافية» التـي تؤكد على الـدور المحوري للثقافة في تحقيـق تنمية متكاملـة وشاملـة للإنسان وللمجموعات البشرية.

وفي الوقـت الـذي عرف فيـه مفهوم التنمية قفزة نوعية جديـدة، عرف مفهوم الثقافـة نفسه تطوراً هائـلاً، ولم يعد يحيل إلى المعـارف التي يتم تلقينهـا في المدارس العصرية، بل أصبحت مرادفاً للرقي الفكري والأدبـي والاجتماعي للأفراد والجماعات، ونظرية في السلوك بما يرسم طريق الحياة إجمالاً، وبمـا يتمثل فيه الطابع العام الذي ينطبع عليه شعب من الشعوب، وهي الوجوه المميـزة للمقومات التي تميز بها عن غيرها مـن الجماعات بمـا تقوم به مـن العقائد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والقيم واللغة والمبادئ، والسلوك والمقدسات والقوانين والتجارب.

وفي جملة واحدة فإن الثقافة هي الكل المركب الذي يتضمن المعارف والعقائد والفنون والأخلاق والقوانين والعادات.

ومن هنا أكدت مؤتمرات «اليونسكو» العديدة في العقدين الماضيين على أهمية الاعتراف بالبعد الثقافي ضمن إطار التنمية والتأكيد على الهويات الثقافية، وفتح آفاق المشاركة في الحياة الثقافية مع دعم التعاون الثقافي الدولي. ولذلك، فإنَّه من الضروري اعتماد القيم الكونية، وفي آن واحد التعددية الثقافية، حيث تصبح مهمة السياسات الثقافية، المحافظة على تعددية المبادرات الثقافية وحمايتها قصد دعم التفاهم والاعتبار والاحترام بين الأفراد والأوطان في مجابهة مخاطر الصراعات والتغلب عليها.

هذا ما جعل الثقافة بالمنظور الكوني الجديد في قلب عملية الوجود البشري، وعملية التنمية الإنسانية من منطلق أنَّ الثقافة هي مجمل الخطوط المميزة روحانياً أو مادياً وفكرياً وحسياً، وهي التي تميز مجتمعاً ما أو مجموعة اجتماعية وتعني الفنون والآداب وطرق الحياة ومنظومة القيم والتقاليد والمعتقدات.

ومما لا شك فيه أنَّ التقدم، في أي مجتمع، يرتبط ارتباطاً عضوياً بالثقافة السائدة فيه، ولا يمكن فصلهما أو الادعاء بأنَّهما منعزلان، ففي كل ثقافة مجموعة مبادئ تمثل تربة خصبة أو طاردة للنمو بما تستبطنه من معايير ونماذج معيقة أو مساندة، فقيم العمل وتقديس العمل والشفافية والتضامن الإنساني تمثل وقودا لأي نمو وتعمل على تسريع النمو وتحديد اتجاهه لمزيد من تعظيم الفرص وتثمير الإنتاج، كما تعمل قيم الزهد والقناعة والاتكالية والتسليم بالحتمية الجبرية على تثبيط النمو.

إنَّ تفسير التقدم والنمو عبر الاستناد إلى الثقافة والمضامين القيمية في المجتمع خطف اهتمام الكثير من المفكرين الاجتماعيين، وعلى الرغم من أنَّه لا يقدم سوى تفسير «جزئي» لديناميكية الحضارات أو ترهلها، إلا أنَّه يقع في قلب المفاتيح التي تستخدم لتقييم ونقد عملية النمو والتقدم الإنساني.

منظومات الثقافة

بات في حكم المؤكد أن سعة انتشار وتقبل أي معطى ثقافي إنساني، مرهون إلى حدّ كبير بمدى تفاعل البشر معه وحسن إصغائهم لما يحمل من أفكار وتطلعات وميزات، تنعكس على حساسياتهم ووجدانهم، الحساسية هنا، ليست مفصولة عن العقل إلا في إطارها

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الضيق الـذي يميز بعضـ الأشخاص عن غيرهم في التعبير عن هـذا الانفعال، شدةً أو ضعفاً، سلباً أو إيجاباً، وفي كلتا الحالتين يمكـن النظر إلى موضـوع الحساسية هذه بوصفها بوصلة، أو روحاً فريدة كبيرة وبالتالي خلاقـة ومبدعة. ويوازي ما أشرنا إليه آنفاً مـا يتردد في أوساط المثقفين ومتلقي الأدب تحت عناوين مختلفة، منها ما يتعلق بالثقافة كمفهـوم وحساسية، ومنتـج متغير غالباً ما يكون لصيقاً بالإنسان.

والثقافة هنا تطـال مختلف النشاطات البشرية سواء كانت في مجال إبداعي كالرسم والشعر وسرد القصص والحكايات، أو كانت مجرد مهن عادية أخـرى كصيد السمك أو النجارة والحدادة أو كانت في مجال تطوعي وخـيري، أو أي نشـاط بشـري بوجه عام. وذاكرة الشعوب تسجل كثيراً من ملامح هذا الإبـداع الذي جاء مرتجـلاً وعفوياً، بمثل ما جـاء متفاعلاً وقابـلاً لاكتساب معارف جديـدة، سـواء في الموسيقـى أو النحت أو عمارة البلدان، وفي كل أنواع المعرفة المتصلة بتطور البشر وتحقيق غاياتهم وطموحاتهم.

في روايـة «الصعـود إلى الهواء» لجورج أورويل، التي تعكـس أجواء الحرب العالمية الأولى، والتي يمكن اعتبارها رواية متدفقة الشعـور، ثمة مـا يدل على مـا أشرنا إليه سابقا، حيث يجيء على لسان البطل جورج بولينغ الذي جذبته فكرة صيد السمك وهو في الثامنة من عمـره، ما يفيد بأن ذكرياته تمحورت حول هذه المهنة طوال سبع سنوات حتى بلـغ الخامسة عشرة، بل إن أيامه كلها كانـت مطبوعة بهـذه الذاكـرة وتفاصيلها الدقيقـة، على الرغم من أنَّه لا يستطيع أن يصنف نفسه صيادا: «أعتقد أنني قادر على أن أؤلف كتابا عن أساليب الصيد».

ما ذكرناه سابقاً يتفق مع أحد تفسيرات العالم الأنثروبولوجي الأمريكي ليسلي وايت (١٩٠٠-١٩٧٥) وهو أوَّل من حاول التأسيس لنظرية عامة للثقافة فوضع منظومة تعريفية قسمهـا إلى منظومات تحتيـة، اجتماعية وأيديولوجيـة وسلوكية عـدة حيث تتضمن المنظومة التحتية كل أشـكال تفاعل البشر أفراداً وجماعات مع الوسط الطبيعي، كما تتضمـن العلاقات بين الناس، وما يقابلها من أنمـاط السلوك، بما في ذلك منظومات القرابة، والمنظومات الاقتصادية والسياسية والأخلاقية والمهنية وغيرها.

التنمية الثقافية

لعل ما يميـز التنميـة الثقافية، في أي بلد من بلـدان العالم، أنَّهـا لا تتأطر ضمن مرحلة واحدة فقـط، وإنَّما هي في مرحلة تنام مستمر، ولا يمكن أن تحمل صفتها، ما لم تكـن ناتجة عن رؤى وخطط سابقة، فهي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قد تعنى ببدايات حياة أي مجتمع، على نحو مدروس، كما أنَّها قد تعنى بالمجتمع ذاته في مراحل تطوره كافة، لكي تكون حاجة دائمة من قبل أي مجتمع، وهي تتميز بالصيرورة، ولا تتوقف عند أعتاب مجرد مرحلة واحدة، الأمر الذي يجعلها مرتبطة بدورة الحياة، في ظل توافر الوعي التنموي في أي بلد من بلدان العالم.

للتنمية الثقافية، شروطها التي لابدَّ من أن تتوافر، حتى ترتقي إلى صيغتها المقبولة، ولعل من بين أولى الشروط المطلوبة: وجود خطة وإرادة لدى الجهات المعنية بها، إضافة إلى وجود رؤى إستراتيجية، ناهيك عن أنَّها تحتاج قبل كل شيء إلى جهود جماعية، عمودياً وأفقياً، لأنَّ غياب أية حلقة، في هذا الميدان، يؤدي إلى إفشال الخطة، وتلكئها، وهو ما لا يقتصر تأثيره السلبي في اللحظة الحالية، بل إنَّ من شأن أي إعاقة لخطة التنمية أن يستمر تأثيرها بعيداً، لأنَّ حلقات أية خطة من هذا النوع، إنَّما هي مرتبطة بسواها، ضمن متوالية زمانية، تكاد لا تنتهي، في حال توافر إستراتيجية ترتبط بها.

وبديهي أنَّ إقرار التنمية الثقافية، في بلد ما، أياً كان، دليل حالة وعي من قبل نخبها السياسية والثقافية، وهي لا يمكن أن ترسو، إلا على نحو تدريجي، لأنَّ مجالاتها متعددة، ومتشابكة، فهي تشمل نواحي عدة، في مقدمها التربية والتعليم والإبداع الروحي والجمالي، والإعلام والفكر، إضافة إلى أنَّها ترتبط على نحو واضح بمجالات أخرى، من بينها حتى ميادين السياحة والآثار والعمران، بل إنَّها تكاد تلامس المفاصل الحيوية كلها، في حياة الفرد والمجتمع، لأنَّ الثقافة تصلح أن تكون روحاً لابدَّ منها في جسد الحياة، وهي خميرة هذه الحياة، إذ لا يمكن أن نتصور أي رقي، أو أية حضارة، من دون أن تكون هناك إستراتيجية تنموية جادة.

ومن المعروف أنَّ قضايا: التعدد الثقافي، والهوية، وحقوق الإنسان..إلخ، باتت تدخل في صلب تقارير اليونسكو عن التنمية الثقافية، منذ أكثر من عشرين عاما وحتى الآن، وهو ما تركز عليه تقارير التنمية الثقافية العربية التي تصدر منذ العام ٢٠٠٨م، حيث باتت هذه التقارير التي تصدر عن مؤسسة الفكر العربي، وباتت تقدم رؤية شاملة للواقع التنموي، على نطاق عربي، وتسجل مقاربات مهمة من واقع حال التنمية الثقافية، خارج حدود قطريتها، وهو موضوع آخر، يمكن أن يتم تناوله في قراءات خاصة.

وحقيقة فإنَّ ثمة تصوراً، لدى بعضهم، يكمن في أنَّهم يرون أنَّ الحاجة إلى التنمية الثقافية تكون في المجتمعات النامية، أو المتخلفة فحسب، حيث يكون اللجوء إليها،

بغرض انتشالها من حالتها التي تعانيها، للحاق بركب المجتمعات والأمم الأخرى، بيد أنَّ شيوع مثل هذا المفهوم، ولو في نطاق ضيق جدّاً، إنَّما هو غير كامل، لأنَّه نصف الواقع، لأنَّ مثل هذا المجتمع يحتاج في حقيقته إلى خطة تنمية، كما أنَّ المجتمع المتطور يحتاج إلى مثل هذه الخطة، لديمومة التنمية الثقافية وتطورها.

ولعله من الواضح هنا أنَّ حاجة المجتمعات المتقدّمة، إلى هذه الخطط الثقافية، توازي حاجة المجتمعات النامية ثقافيا، وذلك من ناحية ضرورة أن تكون هناك رؤية مبرمجة مدروسة، من قبل النخب المعنية، للعمل على مستويين: أولهما استمرارية تنميته الثقافية، والثاني رفع إيقاع الثقافة، في كل مرحلة، إلى مستوى الطموح، وعلى سبيل المثال: فإن تحرر مجتمع ما من الأمية، وهو ألفباء التنمية، يضعه في مواجهة متطلبات أهم، وهي تطوير التعليم، وإن تطوير التعليم يضع المجتمع أمام أسئلة تتناسل تدريجياً، لتحقيق الحاجات الروحية العليا.

إنَّ أي مجتمع متطور، لا يمكن أن يصبح على ما هو عليه، إلا عبر تطوره الثقافي، وإنَّ هذا التطور الثقافي جزء رئيس من معادلة التطور العام، لأنَّ الإنجازات العلمية والمعرفية، في مجال الصناعة والتجارة والزراعة، في أي مجتمع، لا يمكن أن تبلغ ما هي عليه، من دون أن تكون حاضنتها الثقافية، في المستوى المطلوب، كما أنَّ الثقافة، هي في الأصل جزء مهم، في رقي وازدهار أي مجتمع. والتنمية الثقافية في الحقيقة روح أية تنمية أخرى، إذ لا يمكن لأية تنمية أن تتحقق عملياً، إلا في ظل وجود التنمية الثقافية، هذه التنمية التي هي دليل معافاة أي مجتمع، وهي مقياس يمكن الاحتكام إليه، لمعرفة قابلية المجتمعات على التنمية «الشاملة»، لأنَّ افتقاد الشرط الثقافي، يجعل فرص التنمية على أي محور آخر جد ضئيلة، إن لم تكن معدومة.

ويعد البحث العلمي أحد المرتكزات المهمة جدّاً، التي لا غنى عنها البتة في أي عمل تنموي، إذ إنَّ التنمية ترتبط بالإحصاءات والدراسات والتجارب والخبرات، بل تتضافر في إنجاحها جهود فرق من الخبراء والمعنيين في عدد من المجالات ذات العلاقة المباشرة، وغير المباشرة بالتنمية، ناهيك عن اعتمادها على ما يمكن وسمه بـ «علم التنمية المقارن»، من خلال استقراء تجارب الأمم والشعوب المتطورة.

دور الثقافة في تنمية المجتمع

الثقافة ليست محض تراكم كمي لمنجزات أدبية وفنية وفكرية وحسب، والمثقف ليس شخصاً نرجسياً حالماً يحيا في

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

فضاءات ميتافيزيقية خارج منظومة الواقع المحسوس، أبداً فمن يعرف أصول الثقافة يعرف حقيقة المثقف، إنَّ الثقافة أسلوب حياة ودليل عمل وسلوك متحضر، في مجتمع متطور، والمثقف هو العقل التنويري الذي يمثل البوصلة الإرشادية للمجتمع، لهذا لا يصح أن يبقى هذا العقل في منأى عن المساهمة الفعلية في إدارة الحياة وتوجيه سلوكيات الناس الوجهة الصحيحة السليمة. إنَّ الثقافة بوصفها من الفواعل الرئيسة في إحداث التغيير المصاحب لعملية التحول الأنيق، لا يمكن لها أن تفعل فعلها المؤثر من دون حراك ناشط يديمه المثقف بوعيه ومنجزه وخلقه ومبادئه وإرادته ومواقفه النبيلة وحسه الوطني، ومن دون أداء هذا الدور، سيبقى المثقف على هامش الحياة إن حضر لا يعد وإن غاب لا يفتقد، وإلا كيف يستدل على صوت المثقف في زحمة اختلاط الأصوات. ولا أعتقد أنَّ الانغلاق على الذات، أو اللامبالاة والاتكاء في الزوايا البعيدة سيغفر للمثقف، لأنَّ انزواء المثقف الحقيقي وليس المثقف الملفق سيفتح كوة يمرق من خلالها الأدعياء والإمعات أشباه المثقفين، وحينها ستحصل التناقضات والمفارقات والاختراقات من جراء انسحابهم وصمتهم، إنَّ عدم تبوء الكثير منهم مشهد الحضور سينعكس ذلك على المشهد الثقافي فتحل الفوضى ويأتي التخبط وينبعث الرماد، لقد لعب الكثير من المثقفين أدواراً مشرفة في تطوير المجتمع وتأهيله وتنويره، حتى إن بعض أعمالهم الأدبية أصبحت حاضره لا تنسى ترددها حناجر الناس، إنَّ أخطر ما يواجه المثقف هو الشعور باليأس والإحباط أو غض الطرف عن حالات التداعي التي تنتاب المجتمع، فالمجتمع يعول على المثقفين وليس على الجهلة، لأنَّ المثقفين أكثر الناس وعيًا وإحساساً وتأويلاً، إنَّ المثقف يمثل أقصى درجات الوعي ولا قيمة للوعي من دون تفعيل. إنَّ الثقافة تمثل الصورة الجميلة، الواعية، الشفافة للمجتمع، ولذلك لا يصح أن تشوه تلك الصورة، فتبدو قبيحة بفعل السلوكيات القبيحة التي تغذيها الأنانيات الفجّة والأفكار المتطرفة والضغائن المقيتة والأعراف المتخلفة.

على وفق هذا التصور، تتضح مسؤولية المثقف بأبهى صورها الناصعة ودوره المبين في تصعيد سلالم الوعي ومجابهة بؤر الفساد ومواضع التخلف والارتدادات من أجل تأكيد سلطته وهوية مجتمعه، فالثقافة سلطة والمثقف يمتلك قضية عادلة لكنها تحتاج إلى محامين عادلين يدافعون عنها أشد المدافعة، إن المثقف ليس مسؤولاً عن نفسه فحسب، بل مسؤول عن الآخرين أيضاً. إنَّ المثقف الذي يؤثر في المجتمع ويترك صداه

مدوياً في ذاكرة الأجيال، هو الذي ينتمي إلى الجمال ولتسامح والفكر التنويري والمجتمع الحي النابض العامل المكافح المبدع. إنَّ المثقفين هم من يصوغون هوية الأمة وخصوصية المجتمع عبر ما ينتجون من إبداعات تؤسس التاريخ الثقافي الذي يعد الظهير الحضاري للأمة، إنَّ الأمة التي تفتقر إلى الثقافة تكون خاملة، تسير كما الزواحف، ولا تقوى على الإمساك بمقومات الوجود الحضاري للأمم، فتغدو على هامش الأمم المتحضرة. إنَّ المثقف في أبهى صوره هو الذي يمثل إرادة الأمة التي لا تقهر، والرصيد الفكري والأخلاقي الذي يقاوم صدأ الأرواح الميتة وتآكل النفوس المريضة. إنَّ الحاجة ملحة إلى العقول التنويرية الرصينة العاقلة التي تأخذ على عاتقها مهمة تبصير الناس بحقائق الأمور وإرشاد المضللين، ومناهضة قوى الظلام والتخلف وأصحاب الارتكازات الذاتية والفئوية والمتخاذلين والنافخين بالكير.

مسؤولية المجتمع الثقافية

يقع على البعض عبء التعريف الصحيح والمفهوم الواقعي لمعنى المسؤولية المجتمعية الذي يختلف عن مفهوم العمل الخيري المادي، ويعبر عن مسؤولية مستدامة، تحتاج إلى جهد ووقت وخطط طويلة الأمد، وتتطلع إلى تحسين مستوى المعيشة وتعزيز إمكانيات الأشخاص ودعم قدراتهم من خلال مشاريع ومبادرات خادمة لهذه الخطط، مثل تعزيز أهمية القراءة والمحافظة على اللغة العربية لتحسين مستوى التفكير والارتقاء بالثقافة المجتمعية مما يؤدي إلى رفع مستوى الرفاهية. ويقع على الجميع عبء بذل الجهود والتكافل بين المؤسسات كافة، حكومية وخاصة، بغرض دعم المبادرات اللازمة لتثقيف المجتمع، وتوجيهه نحو السبل الصحيحة من خلال مسؤولية المؤسسات المجتمعية والثقافية في تعويد الناس مثلاً على ممارسة القراءة وعدم التهاون في الاهتمام باللغة العربية والنظر إليهما نظرة الحرص على الثروة والاندفاع نحو تنميتهما بهدف توريثهما للأجيال القادمة.

إنَّ التأكيد على أهمية استخدام اللغة العربية على، سبيل المثال، لا يحتاج إلى إقامة ندوات ومناظرات وتلخيصها في توصيات ومقترحات، بقدر الحاجة إلى العمل من خلال البدء بأبسط الوسائل وأكثرها انتشاراً بين الناس التي تتضمن السعي لنشر ثقافة استخدام اللغة العربية من أبسط الوسائل التي قد يتجاهلها الجميع، مثل التأكيد على استخدام مسميات الشخصيات العربية عوضاً عن أسماء المشاهير الأجانب في الأجهزة الإلكترونية والترويج لأعمال وقيم

هذه الشخصيات ومن ثم توفير المحتويات التي تتعلق بهم وبالحكم والمقولات العربية ونشرها بين الشباب بصورة غير مباشرة.

ولا ننسى أهمية إتاحة ونشر المقولات والعبارات المدققة لغوياً والملصقات الجاهزة بين مستخدمي الهواتف والأجهزة الإلكترونية، والتي يتذرع البعض بعدم توافرها للاستخدام والنقل السريع، مع سهولة الحصول على المواد الجاهزة للنقل والنشر باللغات الأجنبية الأخرى.

ولاشك أنَّ هدف نشر المكتبات في المناطق والمؤسسات المختلفة، يتطلب كذلك تحسين مستوى المكتبات القائمة والتي تخدم القراء عبر توفير أساليب التصنيف العلمية وتسهيل خدمات الإعارة والكشف السريع عن الكتب والموضوعات المطلوبة من خلال تجهيز المكتبات بالأدوات والأجهزة اللازمة لإتاحة المجالات أمام روادها لاستخدامها والاطلاع على مستجدات المعارف فيها، حرصا على إزالة العوائق وتمكين الجميع من الاستفادة التامة منها، وهو هدف رئيس من أهداف تحقيق المسؤولية المجتمعية أيضا.

كما أنَّ الترويج لأهمية امتلاك مكتبة شخصية في المنازل أو في المكاتب من خلال تدريب الموظفين في الجهات العامة على استخدام المكتبات المتوافرة في مؤسساتهم وإتاحة ساعة قراءة حرة لهم بهدف التعود على القراءة، وإعادة إحياء المجالس الثقافية التي تتحاور في ما بينها، هي في مجملها جزء لايتجزأ من هذه المسؤولية المجتمعية الواقعة على المؤسسات والمثقفين والمهتمين كافة والتي تسهم في الارتقاء بالمجتمعات وبدعم ثقة الإنسان بنفسه والتي تبدأ من صقل أفكاره وإغنائها بالعلوم والمعارف المفيدة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الترجمة في الوطن العربي: مشاكل وحلول

✪
سناء المرابط



لطالما تمّ اعتبار الترجمة أساسية لمد جسور التواصل والتلاقح بين الشعوب، وكذا لنقل التراث والمعارف، وذلك على جميع الأصعدة، سواء منها الثقافية أو الفكرية أو الاقتصادية، وحتى السياسية والسياحية وغيرها، ولاسيما بعد ظهور العولمة التي

✪ أستاذة في جامعة محمد الخامس- السويسي- الرباط- كلية علوم التربية/ معهد الدراسات والأبحاث.

جعلت العالم كله أشبه بقرية صغيرة، مما يفرض الانفتاح على الآخر ويستدعي التبادل المعرفي بين الأمم عبر تفعيل الحوار والتواصل بين الثقافات، وهذا لا يتأتى إلا من خلال عملية الترجمة التي تتيح الرقي بالحضارة وتسهم في نمو المعرفة الإنسانية على مر الزمان.

ومن الجدير بالذكر أنَّ العرب كانوا من بين الشعوب السباقة للترجمة، حيث استخدموها كوسيلة للتواصل مع الشعوب الأخرى، كما قاموا باستعمالها في اقتباس علومهم والنهل منها، وذلك عبر ترجمة نخبة كتب الإغريق والهنود والفرس وغيرهم. من دون أن ننسى الأهمية الكبرى التي أوليت للمترجمين، ولاسيما في ظل الخلافة العباسية، عبر إكرامهم وإغداق الأموال عليهم، وخير مثال على ذلك حنين بن إسحاق الذي كان ينال وزنه ذهبا لقاء ترجماته، فلا يخفانا الدور الجبار الذي لعبه وابنه بعده في سبيل تنشيط حركة الترجمة، ولا الأثر الهائل الذي خلفه تأسيس بيت الحكمة في بغداد، لتعرف هذه الأخيرة في عهد العباسيين عصرها الذهبي، مما كان له دور فعال في النهوض بهذه الحركة، وبالتالي في النهوض بالحركة الفكرية والثقافية والحضارية. كما لا يخفانا الدور الذي لعبته الترجمة لدى العرب وفضلها في ظهور حضارة الغرب وتقدمها، وهو ما لا ينكره الغربيون أنفسهم. وهذا ما هو إلا تأكيد على الارتباط الوثيق بين نهضة الترجمة ووصول الحضارة العربية إلى أوج ازدهارها وتقدمها، فهي ضرورة حتمية ومكون أساسي لبناء حضارات الأمم والرقي بها.

لكن وللأسف، سرعان ما خبا إشعاع الترجمة في الوطن العربي، ولم يعد الغرب ينظر إلى الشرق ذات النظرة المنبهرة بالحضارة العربية. فعلى الرغم من الجهود المبذولة في عصرنا الراهن من أجل النهوض بها، إلا أنَّها ما زالت تتعثر وتكابد، ولاسيما إن قارنَّاها بنظيرتها لدى الشعوب والدول الأخرى. ففي اليابان مثلا، تترجم حوالي ٣٠ مليون صفحة سنوياً. في حين أن ما يُترجم سنوياً في العالم العربي لا يتجاوز ٣٥٠ كتابا، وهو ما يمثل قرابة خمُس ما تترجمه اليونان التي تتجاوز ترجماتها حسب إحصاءات منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة «اليونسكو» ١١٥٠ كتاباً في السنة، علماً أن عدد سكانها لا يتجاوز كثيراً عشرة ملايين. والحصيلة الكلية لما ترجم إلى العربية منذ عصر المأمون إلى العصر الحالي ١٠,٠٠٠ كتاب، وهي تساوي ما تترجمه إسبانيا في سنة واحدة، مع العلم أنَّ هذه الأخيرة، إلى جانب كل من فرنسا

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وألمانيا وبريطانيا، والتي لا يمثل سكانها إلا نسبة ١,٣٣ من سكان الوطن العربي، تترجم ما يعادل خمسة أضعاف ما يترجمه العرب.

وفي النصف الأوّل من ثمانينيات القرن العشرين، كان متوسط الكتب المترجمة لكل مليون على مدى خمس سنوات هو ٤,٤ (أقل من كتاب لكل مليون عربي في السنة) بينما في هنغاريا كان الرقم ٥١٩، وفي إسبانيا ٩٢٠.

ويشير تقرير التعليم العالي في البلدان العربية لسنة ٢٠٠٨م، إلى أنَّ العرب لا يترجمون أكثر من ٣٣٠ كتاباً في العام، وأنَّهم حين ينتهون من ترجمة كتاب واحد تكون اليابان قد أنهت ترجمة ٩٠٠٠ كتاب.

وهذه الإحصاءات إن كانت تدل على شيء فإنَّما تدل على الضعف والوهن والتراجع الذي تشهده الترجمة مقارنة بما تقوم به الأمم الأخرى التي قطعت شوطاً كبيراً في هذا المجال، ولربما كانت أقل عدداً وعدة وموارد من العرب، وهو دليل دامغ على الفجوة العميقة بين ما تنتجه ثقافتنا العربية وما ينتجه الغرب.

ومن جهة أخرى، يمكن الحديث عن دور النشر التي تقوم بأعمال الترجمة عن اللغة العربية، والتي تعاني من نقص شديد في عددها، وهو ما لا يقتصر فقط على العالم العربي، بل هو أمر ساري المفعول في الغرب أيضاً. من دون أن ننسى أن أغلب دور النشر، ولاسيما الغربية، تهتم بالأساس بترجمة الكتب التي تحقق لها ربحاً مادياً ملموساً وسريعاً. ولكن هذا لا يدحض حقيقة أن بعض دور النشر العربية، على قلة عددها، تحاول جاهدة الارتقاء بالترجمة، كما هو شأن دار المدى في دمشق التي أخذت على عاتقها مهمة ترجمة روايات نوبل على سبيل المثال.

غير أنَّ هذا لم يمنع وجود بعض المحاولات للارتقاء بالترجمة وبالعرب عامة، نذكر منها على سبيل المثال التجربة المصرية المتمثلة في شخص الشيخ رفاعة الطهطاوي الذي اقترح على محمد علي، حاكم مصر في النصف الأوَّل من القرن التاسع عشر، تأسيس مدرسة الألسن الخاصة بالترجمة، فأشرف عليها، وأنشأ قلما للترجمة خاصا بترجمة القانون الفرنسي، ليحقق بذلك لمصر وللوطن العربي كافة نهضة فريدة من نوعها في مجال الترجمة والأدب.

ولن نغفل ذكر المجهود الذي قام به -وما زال- العديد من المترجمين وكبار الأدباء والمفكرين في ترجمة بعض الأعمال، أو بالأحرى تعريبها، كما هو شأن مصطفى لطفي المنفلوطي الذي ترجم مجموعة من الروايات مثل رائعة الكاتب الفرنسي ألفونس

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

كار «تحت ظلال الزيزفون» والتي نقلها إلينا بالعربية تحت عنوان «ماجدولين»، إضافة لطه حسين الذي لم يدخر مجهوداً في ترجمة أبرز المؤلفات الإغريقية والفرنسية. ولن يفوتنا ذكر الأديب والدبلوماسي الذي اشتهر بترجمة جميع أعمال الروسي دوستويفسكي، ألا وهو الفقيد السوري الدكتور سامي الدروبي، والذي قال فيه رجاء النقاش في مجلة «الدوحة»:

«إن الدكتور سامي الدروبي واحد من أعلام الفكر الذين آمنوا بدور الترجمة في بناء الحضارة الجديدة، وهو وحده مؤسسة كاملة من مؤسسات الترجمة في الوطن العربي»، لدرجة أنه (رجاء النقاش) دعا إلى إنشاء مؤسسة حكومية باسم «مؤسسة سامي الدروبي للترجمة» قصد تدريس الترجمة على أسلوب الراحل وأسسه، وهذا ما هو إلا اعتراف بعطاءاته وبالدور الفعال والجبار الذي قام به بهدف النهوض بهذه الحركة في الوطن العربي، وهو الهدف نفسه الذي أدى إلى ارتفاع عدد مراكز الترجمة ومؤسساتها في الأقطار العربية.

بيد أنّ هذه الإنجازات لا تستطيع الصمود وحدها أمام تيار العولمة، فالعرب لا يزالون متأخرين عن ركب التقدم المتسارع، وهو ما أسفر عن تراجع حركة الترجمة وبالتالي حركة الفكر والثقافة في العالم العربي أجمع، مما لم يبق معه مجال لإنكار المشاكل التي يعانيها قطاع الترجمة في الوطن العربي.

لذا، ومن أجل النهوض بهذا القطاع، يتحتم عمل إحصاء ورصد شامل لإنجازات العالم العربي في مجال الترجمة من بداية القرن العشرين إلى الآن، قصد تكوين بنك معلومات أو قاعدة بيانات خاصة بالترجمة. كما يجب تحديد توجهات محددة الملامح وعلى رأسها محاولة رفع معدل الترجمة في وطننا، وذلك من خلال رعاية الحكومات وتضافر جهودها مع المؤسسات والتنسيق مع الجهات المعنية وهو أمر ضروري للنهوض بالترجمة من كبوتها.

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

كما يتعين دعم الترجمة والمترجمين، ولاسيما الجيل الناشئ منهم، على المستويين المادي والمعنوي، على غرار ما تقوم به جائزة «ابن خلدون-سنغور للترجمة»، إضافة لوجوب وضع معايير محددة وصارمة في اختيار الكتب قصد ترجمتها وفق الاحتياجات العلمية، وتوفيرها بأسعار معقولة، حتى يتسنى للجميع قراءتها والاستفادة منها، وخصوصاً مع ما نشهده من تراجع اهتمام الشعوب العربية بالقراءة على حساب وسائل أخرى كالإنترنت مثلاً. من دون أن نغفل ضرورة إدماج الترجمة في البرامج التعليمية، وكذا ضرورة إعداد

مترجمين أكفّاء متمكنين من لغتهم الأصلية ومتقنين للغات الأجنبية ولديهم القدرة على الإبداع، وذلك من خلال تطوير طرق تعليم وتدريس الترجمة، مع مراعاة تنمية اللغة العربية وجعلها اللغة الرسمية.

إضافة إلى ذلك، يجب على المترجمين تحري الدقة في ترجماتهم ومراجعتها، إلى جانب ضرورة احترام جمالية ودلالات النص الأصلي بحيث يكون النص المترجم لا يقل عنه جمالاً وتأثيراً. ومن الجدير بالذكر أن تسهيل الحصول على حقوق الملكية الفكرية، إلى جانب تنظيم مهنة الترجمة، سيكون من شأنها حل العديد من المعضلات التي تواجه هذا القطاع.

وبالحديث عن اللغة العربية، فإنّ ترجمة العلوم إليها بات أمراً حتمياً ولامناص منه من أجل تطويرها وإغنائها بالمصطلحات والمفردات الجديدة، مما يترتب عنه وضع إستراتيجية دقيقة للنهوض بالتعريب والترجمة عموما، وذلك بالتنسيق والتعاون مع الدول العربية في هذا المجال، بما في ذلك مجامع اللغة العربية ومكاتب تنسيق التعريب وغيرها، بشكل يمكن معه تحديد منهجية موحدة لتوحيد المصطلحات وتعميمها.

كل هذا سيمكن حتما من سد الثغرات المعرفية التي تعرفها المكتبة العربية، ومن حل الأزمة العربية في مجال الترجمة والثقافة عموما، مع إمكانية رأب الصدع الأيديولوجي والفكري للشعوب العربية، كما أنّها السبيل الأنجع للحفاظ على الهوية العربية وتعريف شعوب العالم بحضارتنا ونشر لغتنا وثقافتنا العريقتين.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المصادر والمراجع

١- حسام الخطيب: مشكلات الترجمة العربية: مقاربة ميدانية، مؤتمر الناشرين العرب الأوّل: «مستقبل صناعة النشر في الوطن العربي»، الرياض، ٦ أكتوبر ٢٠٠٩م.
٢- عبد الله عبد القادر: الترجمة والعرب.. حركة التراجع، البيان، دار الإعلام العربية، ٢٨ أكتوبر، ١٢ [illegible]
٣- محمد حميد الصواف: الأرقام تفضح عجزنا، فجوة ثقافية واسعة بين العرب والغرب، صحيفة [illegible] الأسبوعي، السبت ٥ يونيو ٢٠١٠م.
٤- موقع الأمم المتحدة: تقرير التنمية الإنسانية العربية، برنامج الأمم المتحدة الإنمائي: http://www.un.org/ar/esa/ahdr/ (تمّ التصفح يوم الخميس ١٦ ماي ٢٠١٣م).

شـــرق عـــربي

خلف المجدمي ✪

-١-



إنَّ بـدء اطلاعي على اصطلاح الشرق الأوسـط كان عنـد السيد ألفـرد ماهان الأمريكـي، وهـو إستراتيجـي بارز في البحريـة الأمريكية، كتب، ألفرد ماهان، في عام ١٩٠٢م يقول: «إنَّ الشرق الأوسط سواء كمفهوم إستراتيجي، أم كموقع على الحدود الجنوبية للبحر المتوسط أو آسيا، هو مسـرح مواجهة بالضرورة بين القـوى المتصارعـة»(١). ولم يحـدد المذكور المجـال الجغرافي، ولم يوضح ما هو مقصده

✪ ناقد وباحث سوري.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

بالمفهوم الإستراتيجي، وماذا يقصد بالحدود الجنوبية للبحر المتوسط وآسيا، وبقي هذا المصطلح مرناً من الناحيتين الجغرافية والسياسية، وغامضاً أيضاً في ناحيتين:

غموض الناحية الأولى في الإستراتيجية، إذ لم يوضح ماهان ما المقصود بها من جانبه على الأقل، وغموض من الناحية الثانية، في مفهوم المواجهة بين القوى المتصارعة، وبقيت هذه العبارة شبيهة بعبارة «الزنجي الأبيض»، في فن الدبلوماسية وإدارة العلاقات الدولية[٢]، وقد ظهر الوضوح في المصطلح، أي الشرق الأوسط، وتبلور المفهوم في نهاية النصف الأوَّل من القرن العشرين، بعد احتلال فلسطين، وكان أكثر تحديداً في نهاية القرن ذاته، عشية ما يسمى حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١م، أي إنَّ الأمريكيين هم أوَّل من أطلق هذا المصطلح، والتقطته بريطانيا، خلال الحرب العالمية الأولى، في الثورة العربية الكبرى ١٩١٦م، أو ما يسمى بذلك، وقد أطلقت عميلها السري آنذاك «ت، أ، لورانس»، الذي عُرف فيما بعد باسم لورانس العرب، أطلقته بريطانيا، أي لورانس العرب، في شبه الجزيرة العربية، من أجل تحريض القبائل العربية للثورة على العثمانيين، والتخطيط للثورة تحت قيادة عربية إسلامية، تمثلت في أشراف مكة المكرمة، وفي مقدمتهم شريف مكة المكرمة، الشريف «حسين بن علي»، لخوض الحرب إلى جانب بريطانيا ضد الأتراك، وقد نجحت بريطانيا في مشروعها ذاك إلى حد معقول، وقد تبلور المصطلح عملياً عشية انتهاء الحرب العالمية الأولى «١٩١٤. ١٩١٨م» حيث أسس ونستون تشرشل، وزير المستعمرات البريطانية، دائرة خاصة في الوزارة تلك، أطلق عليها اسم: «دائرة الشرق الأوسط»، عين فيها لورانس العرب المستشار الأوَّل لشؤون هذه الدائرة، ولم يكن نشاط هذه الدائرة محدد المعالم لجهة الامتداد الجغرافي، حتى إنَّ لورانس نفسه لم يكن يعلم فيما إذا كان نشاط دائرته هذه يمتد ليشمل العراق ودول الخليج العربي وإيران أم لا؟ وفيما إذا كانت شاملة لأجزاء جغرافية أخرى من الشمال الأفريقي العربي أو تركية؟ ولما كان ذلك غير واضح، فقد قرر لورانس، توسيع نشاط الدائرة، إلى تلك المناطق على أن يتركز نشاطه الأهم على شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام، تلك المناطق التي مارس فيها دوراً، يعتقد، أي لورانس، أنَّه كان مهماً في تحديد مصيرها، لقرن قادم، وبالتالي مصير الحرب في تلك البقعة من العالم.

كما اتسم نشاط هذه الدائرة، أي دائرة الشرق الأوسط، بالغموض والمرونة لجهة موضوع عمل هذه الدائرة، وبعد انتهاء

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحرب، «اهتم تشرشــل الذي تولى منصب وزير المستعمرات عام ١٩٢١م، بتأسيس دائرة خاصــة بشؤون الشــرق الأوسط، وقد عقد مؤتمــر حضره كبار الموظفــين البريطانيين المشتغلين في شؤون البلاد العربية في بريطانيا والبلاد العربية»[٣]، وقد درست هذه الدائرة في ذلك المؤتمر برئاسة تشرشل نفسه كيفية المحافظة علــى الإمبراطورية البريطانية في الشــرق بأقل تكلفة ممكنــة، وشدد المؤتمر في نهايــة أعمالــه على ضــرورة الاحتفاظ بالحماية البريطانية علــى مصر، وتنصيب الأمــير عبــد الله أميراً على شــرق الأردن، وتأييد ترشيح الملــك فيصل لعرش العراق، وتوطيد سلطان ابن سعود في جزيرة العرب وقد ادَّعت بريطانيــا أنَّها أحق بسورية من الفرنسيين، لما بذلتــه من الأموال والأرواح، كما صرح اللورد اللنبي فيما بعد، «إنَّ الجيوش والأموال الإنكليزية هي التي احتلت سورية وإنَّ العرب لم يكن لهم شأن يذكر»[٤]، واستناداً على تلك المقترحات التي نتجت عن المؤتمر، استمــرت الإمبراطوريــة البريطانيــة قوية حتى الحــرب العالمية الثانية، وقد أصبحت القاهرة منذ ذلــك التاريخ وحتى قيام ثورة يوليــو ١٩٥٢م، مركز النشاط البريطاني في المنطقة، وأنشــأت بريطانيا فيما بعد قيادة عسكرية تحت اسم «قيادة الشرق الأوسط»، وكان نشاطها عسكرياً في ذلك الحين، ومن ثــم ألحقت بهــا دائرة صغــيرة ذات نشاط اقتصادي جزئي تابع لها تحت اسم «مؤسسة تموين الشرق أوسط»، وغاية هذه المؤسسة، أي مؤسسة قيادة الشرق الأوسط، هي إمداد القــوات البريطانية والقوات المتحالفة معها بالمواد التموينيــة حسب (الطوناج) الجاهز خلال المعــارك، ولم تعارضــ كل من فرنسا والولايــات المتحدة هذا الإجراء سواء لجهة مركــز القيادة، أم لجهــة التسمية، أم لجهة الجغرافيــة العسكرية، وشاركــت الولايات المتحدة الأمريكية في هذه القيادة عن طريق تقــديم الإمــدادات والخدمــات العسكرية والمدنية بشكل سري ومــن ثم بشكل رسمي غير معلن، ثم ما لبــث أن اتخذ هذا طابعاً رسمياً وعلنياً عند صدور قانــون الإعارة والتأجــير، في الولايات المتحدة الأمريكية[٥] حيث ينص هــذا القانون من حيث النتيجة «بإجازة الإدارة الأمريكية في تأجير بواخرها وأساطيلهــا البحرية المدنيــة والعسكرية أو إعارتها للدول المتحاربــة مقابل أجر متفق عليه مع الإدارة».

-٢-

تحت مظلة قانــون الإعــارة والتأجير، لعبــت أمريــكا دور الشريــك الكامــل في الحــرب عامــة، وفي إدارة تلــك القيادة في

القاهرة خاصة، داخلة في أرباح ومكاسب الحرب، مع احتمال بعض الخسائر المادية في السفن، ودون التعرض لنتائج الخسائر المترتبة على هذه الحرب، كان ذلك مطلع عام ١٩٤٤م، أدى دخول الولايات المتحدة الحرب إلى جانب بريطانيا وفرنسا، إلى هزيمة ألمانيا وحلفائها، وذلك بسبب الخلل الحاصل في توازن القوى خلال الحرب، وقد ظهرت الولايات المتحدة الأمريكية القوة الاقتصادية الأولى في العالم، ولم تبد الولايات المتحدة الأمريكية أي مفهوم خاص بها في الشرق الأوسط سوى مفهوم «الفرد ماهان» من جهة، وتبني مفهوم بريطانيا من جهة أخرى، وقد أعلنت الدول المنتصرة بنهاية الحرب العالمية الثانية، عن نهاية الانتداب والوصاية على الأمم والدول الخارجة تواً من الحرب، والمستقلة حديثاً والتي تحتاج إلى من يأخذ بيدها إلى الحضارة، ومن ثم فإنَّ خروج كل من الدول الغربية فرنسا وبريطانيا منها، أي من الدول التي كانتْ واقعة تحت الوصاية والانتداب، في الشرق الأوسط، يعني وقوعها، أي هذه الدول التي كانت تحت الانتداب، في فراغ سياسي يخشى معه أن تتغلغل الشيوعية العالمية إلى صفوفه، وهذا المبدأ هو الذي عُرف لاحقاً باسم «مبدأ أيزنهاور»، الذي يفيد في جوهره التالي: «يمر الشرق الأوسط بمرحلة حرجة بعد تمتع دوله باستقلالها، وهي التي كان أمنها يعتمد على بعض القوى العالمية، مما أدى إلى حدوث فراغ في المنطقة، إضافة إلى وجود عاملين اثنين، الأوَّل: وجود العداء بين إسرائيل من جهة والعرب من جهة أخرى، والثاني: محاولة التسلل الشيوعي إلى المنطقة»[٦]، لهذا اقتضى أن تملأ الولايات المتحدة الأمريكية هذا الفراغ، عسكرياً وسياسياً، أي إنَّ مبدأ أيزنهاور مطابق لمبدأ الفراغ الألماني الذي أوجده هتلر والحزب النازي، بعد الحرب العالمية الأولى حتى نهاية الحرب العالمية الثانية.

يبدو لي أنَّ أوَّل من استعمل الفراغ «في اللغة الدبلوماسية الدولية، وفي العلاقات الدولية هو راتزل اليهودي الألماني في كتابه «الجغرافية والسياسة»، عام ١٨٩٧م إذ يقول فيه: إنَّ «كل دولة متينة التنظيم، تحاول زيادة فراغها، سواء لأن هذا الامتداد يؤمن لها موارد أكثر غزارة أم يؤمن لها سلامة أكبر، إن سعة الأرض عامل جوهري في الإدراك الذي يكونه شعب عن مصيره»، ثم طُورت نظرية الفراغ على يد هتلر والحزب الألماني النازي حيث قال هتلر قُبيل الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩م: « .. يتمتع الرايخ الألماني ببعض المصالح الحيوية المحدودة، التي يستحيل عليه الرجوع عنها»، وبعد الحرب أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية

عـن نظريـة الفراغ هـذه، من خـلال ما عرف فيما بعد بمبـدأ أيزنهاور المشار إليه (٣٥)، ونجـح المفهوم الأمريكي في موقعين، الأوّل في إيـران حين قامـت أمريكا بملء الفراغ الذي نجم عن انحسار الإمبراطورية البريطانية، وأمّـا الموقع الثاني فقد كان في مصر إذ نجحـت الولايات المتحدة في إبعاد كل مـن فرنسا وبريطانيا عن مصر، وتركت يد الاتحاد السوفييتي مطلقة فيها، بالمقابل أطلقت هي يدها في إيران، أي انتقل المفهوم الأمريكي مـن مفهوم جغرافي عسكري، إلى مفهـوم أيديولوجي اقتصـادي بعد الحرب العالمية الثانية، خاصة إبان ظهور النفط في إيران والتنافـس الدولي حوله، وعند ظهور النفـط في المنطقة سعـت الولايات المتحدة إلى تغلغـل نفوذها السياســي والاقتصادي والفكري في تلك المناطـق في شبه الجزيرة العربية بكاملها، وكان مفهوم الشرق الأوسط لديها، أي أمريكا، مرادفاً للنفط في المنطقة وفقاً للمنطق الأمريكي، حتى إنَّ نيكسون كان يقول: «ترتكز الأهمية الإستراتيجية للخليج على عاملـين، موقعه ونفطه، فكلتا القوتين الاقتصاديـة والعسكرية تعتمدان الآن على النفط»، وإضافة إلى مقولة نيكسون، يضيف الأمريكي بيتر مانفولد عاملين آخرين هما: «عدم الاستقرار الإقليمـي، وأقطار ينبغي كسـب ودها بسبب نفوذها المستقل بدلاً من إخضاعها واستغلالها»(٧)، وعلى هذا الأساس يمكـن قول ما يلي: يقـوم مفهوم الولايات المتحدة الأمريكية للشرق الأوسط على أربعة محاور أساسيـة، هي الموقـع الإستراتيجي والنفط وعـدم الاستقرار الإقليمي وكسب صداقـة الدول ذات النفوذ الإقليمي، ويبدو لي أنَّ المقصود بعـدم الاستقرار الإقليمي، يعنـي ضمناً التغلغل الشيوعي سابقاً، أو أي تغلغـل راديكالي يسعـى إلى تغيير في البنى الفوقيـة أو البنـى التحتيـة في المجتمع في أشكالهـا كافـة، مثل الثـورة الإسلامية في إيـران، ويرتبط المفهـوم الأمريكي بالمفهوم السوفييتـي الروسي بشـكل أو بآخر وربما بطريقة عكسية.

-٣-

يعود سبـب ارتباط الموقـف الأمريكي بالموقـف الروسـي أو الاتحـاد السوفييتي آنذاك يعـود إلى الاختـلاف الأيديولوجي أساساً، ولذلك فقد سعـى ونستون تشرشل إلى إعـلان سياسـة الستـار الحديدي لمنع التسرب الشيوعي، كما هي عليه وجهة نظره في ذلـك الحـين، وتبنت الولايـات المتحدة هذه السياسـة على المستوى العالمي، بعد الانحسار البريطاني علـى المستوى الدولي، عندهـا أدرك ستالين أنه من الصعب، إن لم

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

يكن من المستحيل، على الشيوعية أن تتغلغل خارج روسيا أو السوفييت في ظل سياسة الستار الحديدي المشار إليها، فمال إلى سياسة تفيد في الانفراج الخارجي وعدم محاولة تصدير الثورة الشيوعية للعالم، وتطبيق أمثل للاشتراكية في بلاده، وتشجيع الخلافات داخل التحالف الغربي منتظراً الفرصة الملائمة لتغلغل شيوعي جديد، ووجدت سياسته تلك بعض النجاح، ولاسيما بعد قيامه بحملات التطهير داخل الحزب الشيوعي السوفييتي ذاته حيث قام بتصفية خصومه السياسيين الذين يشكك بأنهم يميلون إلى سياسة وأفكار خصمه اللدود تروتسكي الذي عارض سياسة ستالين تلك مقترحاً مبدأ تصدير الثورة الشيوعية إلى العالم، إلا أنَّ المنية قد عاجلت ستالين، كما كانت قد عاجلتْ تروتسكي قبله بكثير، ومال الشيوعيون الروس بعد ستالين إلى سياسة التأزم مرة أخرى بسبب عدم وضوح أفكارهم الثورية بين الداخل والخارج، وكانت ساحة المنطقة مجالاً واسعاً للصراع الأيديولوجي والاقتصادي والعسكري، بين كل من الكتلتين الشرقية من جهة والغربية من جهة ثانية، وبدت ساحة إيران مجالاً بارزاً لمثل هذا الصراع، كما بدت ساحة الصراع العربي الإسرائيلي وكأنَّها في الحقيقة صراع عسكري بين القطبين الكبيرين كممثلين لتلك الكتلتين، الأمريكان من جهة، والروس السوفييت من جهة أخرى، هي حرب نفوذ أحد القطبين، أو هي حروب بالوكالة كما قال كيسنجر، وقد احتفظت أمريكا بإيران كمنطقة نفوذ جغرافي، واحتفظ السوفييت بمصر كمنطقة نفوذ أيديولوجي، وخرجت كل من بريطانيا وفرنسا من المنطقة نهائياً لناحية النفوذ الدولي، إلا في بعض المواقع الصغيرة والمحدودة مثل لبنان كمنطقة نفوذ فرنسية، والأردن كمنطقة نفوذ بريطانية، ومواقع دولية أخرى، وتدخلت فرنسا وبريطانيا عسكرياً، إلى جانب إسرائيل في حرب قناة السويس عام ١٩٥٦م، وذلك رداً على تأميم مصر للقناة، وقد اقترح الاتحاد السوفييتي على الولايات المتحدة تدخلاً مشتركاً لوقف الحرب، ورفضت أمريكا، ثم أرسل السوفييت إنذاراً إلى كل من فرنسة وبريطانية وإسرائيل، في الخامس من تشرين الثاني لعام ١٩٥٦م في الساعة الثالثة والعشرين والدقيقة الثلاثين، عن طريق واشنطن، وأشار الإنذار إلى إمكان استعمال أسلحة التدمير الحديثة، وخاصةً القذائف الموجهة، ضد البلدان الثلاثة، وقبلت الولايات المتحدة الإنذار عن غيظ، وأصدر الاتحاد السوفييتي الإنذار عن منفعة، وهذا ما أنقذ عبد الناصر، كما يرى البعض الذي أغفل دور المقاومة الباسلة للشعب العربي

ARCHIVE

في مصر[8]. فمنذ مطلع عقد الخمسينات تحـول مفهوم الشرق الأوسـط إلى موضوع تنافس بين العملاقين، الولايات المتحدة من جهة والاتحـاد السوفييتي من جهة أخرى، وكانـت وسيلة الولايات المتحدة المساعدات الاقتصادية والأحـلاف العسكرية، في حين كانـت وسيلة الاتحـاد السوفييتـي القيام بالمسانـدة التدريجيـة للعـرب في نزاعهم وصراعهم ضد إسرائيـل، وتقديم الأسلحة لـكل من مصر وسورية خاصـة، وقد تغلغل الشيوعيـون السوفييـت في قلـب وشمال القـارة الأفريقية وذلك عـن طريق تقديم المساعـدة للحركات التحرريـة ضد الغرب الذي يسيطـر على بعض بلـدان أفريقية، فقـد دعمـت موسكـو ثـورة الجزائر عن طريـق مصر أولاً، ثم دعمتها دعماً مباشراً، كما دعمت الثـورة الليبية عن طريق مصر أيضاً، وساعدت في دعم جبهة البوليساريو، وتحول الصومـال إلى شبه شيوعي وكذلك الحبشة واليمـن، وأصبحت عروش كل من الدول المجـاورة في مركز الضعف، وسيطر اليسار الفلسطيني على الواقع الأردني مما أدى إلى وقوع ما يسمى بأيلول الأسود، وقد خاضت لبنان حرباً أهلية وكانت بسبب تنازع النفوذ الغربي الأمريكي من جهة، والشرقي الروسي من جهة أخرى. كان حلم القياصرة، في تاريخ روسيـا، الوصول إلى المياه الدافئة علـى البحر المتوسـط، أو على البحار التي تطل عليها تركيـا، وظل هذا الحلم ومازال يـراود الشيوعيـين الروس، كمـا يراود الروس البيض الآن، لقد كانت وسيلة الروس القياصـرة هـي أن تتبنى مذهبـاً دينياً في الديانة المسيحية، وبالتالي قيام كنيسة تابعة له، والعمل على موطـئ قدم لهذه الكنيسة المذهبيـة في القدس، ومنه حماية جغرافية بشريـة لهذه الكنيسة الأمـر الذي يقود إلى جغرافيـة سياسية وجغرافيـة إستراتيجية، وقد توجه الشيوعيـون الروس إلى مذهبية أيديولوجية لتحقيق غرضهم، فما هو توجه الروس البيض الآن؟.

وبقيت تركيا وإيران ودول الخليج العربي والعربية السعودية خارج الفلك الروسي، ولم تدخل تلك الدول في مجال الروس في مختلف مراحـل نفوذهـم، وتذبذب مؤشـر سياسة العراق الداخليـة والخارجية، ولم يستقر في وضعه الداخلي إلى مطلـع السبعينيات من هذا القرن تحت مقولة الطريق العربي إلى الاشتراكيـة وإبراز الوطنيـة العراقية، وقد كانت سياسـة العراق في الخمسينيات تميل إلى الغرب بدل الشرق، في حين أن سياستها بعد مطلع الستينـات مالت باتجاه المعسكر الشرقي، ويفخـر العراقيون، بـل أكثرهم، بالعراق العظيم، وبأنَّهم «عراقيون»، ويشابه تقديمهم لفكـرة الوطنية العراقية، إلى حدٍ

بعيد، تقديم الليبييــن، أعني القادة، مفهوم «الأمــة الإسلامية»، مــن دون التمحور إلى واحــدة مــن الكتلتين الشرقيــة أو الغربية، وجــاء جمال عبد الناصــر والناصريون إلى الحكم في مصر على هذه الموجة الإسلامية، كمــا جــاء الخمينــي إلى إيــران على هذه الموجة أيضاً ولكن بتيار خاص، وعلى موجة التيارات الدينية الإسلامية قاوم الأمريكيون المــد الشيوعــي القــادم مــن موسكو، في العقدين الأخيرين من القرن العشرين، فهل من مفهوم إسلامي محدد وأكثر دقة لمقاومة النفوذ الأجنبي؟

كان شرقنا عربياً فهل سيظل كما كان؟

هوامش ومراجع

١- د.مــروان بجيري، السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط: (من ترومان إلى كيسنجر) مركز دراسات الوحدة العربية، السياسة الأمريكية والعرب،١٩٨٢م، ط١، بيروت- لبنان، ص٤٧.

٢- الفقــرة (٨) من الفصل الثاني من هذا البحــث- ود.محمد طه بدوي، هامش (١٠) من الفقرة ذاتها حول عبارة ((الزنجي الأبيض))، مرجع سابق، ص٤٣٥،٤٣٧.

٣- د.عبد الفتاح إبراهيم، على طريق الهند، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩١م، ط٣، ص٣٢٩.

٤- د.عبد الفتاح إبراهيم، مرجع سابق، ص٣٣٠، وهامش الصفحة ٣٢٨.

٥- ج، ب درزويــل، التاريخ الدبلوماسي، ترجمة: د.نــور الدين حاطوم، ط(٢)، ١٩٧٨م، مرجع سابق، ص٦٣- وأحمد عطية القاموس السياسي، مرجع سابق، ص٨١.

٦- أحمد عطية، مرجع سابق، ص١٦٦.

٧- بيرر نيوفان، مدخل للعلاقات الدولية، مرجع سابق، ص٤٧٠ وما بعدها.

٨- ريتشــارد نيكسون، الحــرب الحقيقية، مرجع سابق، سهيــل زكار، ص١٠٠، وبيــتر مانفولد، تدخل الدول العظمى في الشرق الأوسط، ترجمة: أديب شيث، دار طلاس، ١٩٨٥م دمشق، ص٣٣. ودوروزيل، وحاطوم، مرجع سابق، ص ٣٦٦.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الجريمة المنظمة..
خصائصها وأهدافها وطرق مكافحتها

محمد علي درويش ✪



تعتبر الجريمة المنظمة شكلاً من أشكال الإجرام الجسيم الذي يشكل تحدياً خطيراً لأجهزة العدالة الجنائية في العديد من بلدان العالم، حيث أصبحت الجريمة المنظمة بعناصرها الإجرامية الجديدة تجني أموالاً طائلة غالباً ما تكون من مصادر غير مشروعة كالاتجار بالمخدرات أو الأسلحة بما فيها أسلحة الدمار الشامل أو استغلال النساء والأطفال أو غسيل الأموال وإدخالها في إطار الاقتصاد المشروع لتصبح أموالاً مشروعة وغيرها من

✪ كاتب وباحث.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

الأنشطة الإجرامية، وهو ما جعل قوة الجريمة المنظمة تزداد يوماً بعد يوم ولم تعد مقتصرة على الدول الفقيرة بل أصبحت آثارها تطال الدول الغنية، مما جعل هذه الجريمة أحد المشاكل الرئيسة والهامة التي تواجه المجتمع الدولي.

التاريخ والنشأة

الجريمة المنظمة ظاهرة وجدت بوجود الإنسان منذ بدء التاريخ، ففي العصور القديمة كانت المجتمعات البدائية تتشكل على هيئة تجمعات قبلية توفر لنفسها نظاماً اجتماعياً تعتمد عليه في الأمن والاستقرار.

ومع ظهور وازدياد الحضارات، وخاصة الحضارة الفرعونية، وجدت الجريمة المنظمة بصورة بدائية كالسرقة بوساطة العصابات تنتشر على مشارف الأهرامات، تقوم بسرقة المعابد والمقابر بسبب احتفاظ الفراعنة بكنوزهم فيها.

وفي بداية القرن الثامن عشر ظهرت التشكيلات الأولى لجماعات المافيا ونعني «العائلة الإيطالية»، حيث تعتبر أقدم وأشهر جماعات الجريمة المنظمة، وقد تشكلت هذه العصابة نتيجة هروب بعض الألمان خلال الفتح العثماني إلى جزيرة صقلية فكونوا جماعات مسلحة فرضت سيطرتها على هذه الجزر فتولت حماية الضعفاء مقابل إتاوة، تطورت إلى إرغام الأهالي على دفع الإتاوة رغما عنهم وذلك مقابل عدم الاعتداء عليهم وعلى أموالهم وممتلكاتهم.

ومن صقلية انتشرت جماعات المافيا في جميع أنحاء إيطاليا، وفي منتصف القرن الثامن عشر هاجر عدد من رجال المافيا إلى أمريكا وشكلوا جماعات سميت بالعائلات، سيطرت بنفوذها على جميع الأنشطة الاقتصادية المحظورة وغير المحظورة وعلى اتحادات العمال والنقابات المختلفة.

الجريمة المنظمة والجريمة الإرهابية

يجري الخلط كثيراً بين الجريمة المنظمة والجريمة الإرهابية، وهذا يرجع بطبيعة الحال إلى أوجه التشابه الدقيق بينهما، سواء من حيث الهياكل التنظيمية للإجرام المنظم وللإرهاب الدولي، أو من حيث طبيعتهما العابرة للحدود الدولية والقارات، أو من حيث الوسائل غير المشروعة المستخدمة في ارتكاب الجريمة التي تتمثل في استخدام القوة والضعف والابتزاز ونهب الأموال والتزييف والتزوير والاتجار غير المشروع في السلاح وغسيل الأموال القذرة، فالجريمة الإرهابية تتميز بأنها جريمة ترتكب تنفيذا لغرض إرهابي، أو على رعايا إحدى الدول أو ممتلكاتها أو مصالحها ويعاقب عليها قانونها الداخلي.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هذا يعني العبرة في وصف الجريمة بأنَّها إرهابية من عدمه هي بالغرض الذي ابتغاه المجرم من جريمته، والذي يشكل حجر الزاوية في تكييف الجريمة ووصفها بأنَّها إرهابية أو عادية، ومن ثم يجب أن يهدف المجرم إلى تحقيق غرض إرهابي، سواء كانت وسيلته في ذلك هي استخدام العنف أو التهديد به أو حتى مجرد ترويع الناس بإيذائهم أو تعريض حياتهم أو حرياتهم أو أمنهم للخطر.

فالعبرة في وصف الجريمة بأنها إرهابية هي بالنتيجة المتحققة منها وهي إلقاء الرعب والفزع في نفوس الناس. أمَّا الجريمة المنظمة فتتخذ أسلوب العنف وسيلة لفرض سيطرة المجرمين وسطوتهم ويكون الهدف الأساسي منها هو تجميع أكبر قدر من الأموال بطرق غير مشروعة، مثل الاتجار في المخدرات، أمَّا هدف الإرهاب فالغالب أن يكون سياسياً فلا يسعى الإرهابيون إلى تحقيق مكاسب مادية.

وتتفق الجريمة المنظمة مع الجريمة الإرهابية في أن كلتيهما تتبع أسلوب التهديد والضغط، ولكن الغالب أن يوجه الإرهاب ضد الدولة أو ضد جماعات معينة لحملها على الاستجابة لمطالب معينة لا تكون بالضرورة مطالب مادية، على حين أنَّه في الجريمة المنظمة يستخدم الجناة أساليب التهديد المادي والمعنوي للضغط على بعض الأفراد والجماعات للحصول على مكاسب مادية ومالية. وتتفق الجريمة المنظمة مع الجريمة الإرهابية كذلك في أنَّ كلتيهما تخضع لتنظيم وبناء هرمي محكم بين مجموعات المجرمين المنتشرين على مستوى الدولة أو في أكثر من دولة، وفي أنَّ كلتيهما تتطلب تعاوناً دولياً وإقليمياً لمكافحتهما.

وساعدت عدة اعتبارات قانونية وعملية على الخلط بينهما إذ صدرت قرارات وإعلانات دولية عدة من المؤتمرات الدولية التي عقدتها المنظمات واللجان التابعة لهيئة الأمم المتحدة التي يبدو فيها عدم التمييز الدقيق بينهما (مثال القرارين الصادرين في إطار الإعداد للمؤتمر التاسع للأمم المتحدة لمنع الجريمة في عام ١٩٩٤م).

كما أنَّه من الناحية العملية تستعين بعض العناصر الإرهابية بعصابات الإجرام المنظم التي تتولى تهريبها عبر الدول وإمدادها بوثائق سفر مزورة لتسهيل العبور الشرعي إلى دول أخرى. كما اتضح قيام بعض الجماعات الإرهابية بارتكاب جرائم منظمة تتمثل في السطو المسلح على البنوك والمحال التجارية للحصول على الأموال اللازمة لتمويل أنشطتها الإرهابية وإعاشة عناصرها وتنفيذ مشروعاتها الإرهابية وهذا ما دفع البعض إلى القول بأنَّ «هذين النوعين من

الإجرام قد امتزجا في قالب واحد بحيث يصعب التفرقة بينهما»، أو أنَّهما يمثلان وجهين لعملة واحدة هي الجريمة الدولية وهي الفعل الذي يرتكب إخلالاً بقواعد القانون الدولي، ويكون ضاراً بالمصالح التي يحميها هذا القانون مع الاعتراف لهذا الفعل بصفة الجريمة واستحقاق فاعله للعقاب.

خصائص الجريمة المنظمة

أولا - من حيث الهيكل والبنيان:

١- **عدد الأعضاء**: اشترطت بعض التشريعات عدداً معيناً من الأشخاص لكي توصف الجماعة الإجرامية على أنَّها منظمة، مثل قانون العقوبات الإيطالي وتعريف الاتحاد الأوروبي والذي اشترط أن تكون الجماعة مكونه من ثلاثة أشخاص فأكثر لكي توصف بأنَّها جماعة إجرامية منظمة.

في حين أنَّ هناك عدداً من التشريعات لم تضع عدداً معيناً من الجناة حتى توصف الجماعة الإجرامية على أنَّها منظمة مثل القانون الفرنسي والألماني. واشترطت اتفاقية مكافحة الجريمة المنظمة عبر الوطنية في المادة الثانية أن تكون الجماعة مؤلفه من ثلاثة أشخاص فأكثر لكي توصف بأنَّها منظمة وهو في نظرنا العدد اللازم لكي توصف الجماعة الإجرامية بأنَّها منظمة نظراً لما يقتضيه البناء الهيكلي للجماعة.

٢- **التنظيم**: يعتبر التنظيم الصفة الرئيسة للجريمة المنظمة عبر الوطنية ويقصد به ترتيب وتنسيق وجمع الأعضاء داخل بنيان أو هيكل شامل ومتكامل قادر على القيام بأعمالها الإجرامية، ويكفل هذا التنظيم خضوع الأعضاء إلى نظام سلطوي رئاسي، بحيث يكون الأعضاء تحت قيادة زعيم أو قائد أو لجنة عليا تكون مسؤولة عن اتخاذ القرارات وتوجيه الأعضاء لتحقيق أهداف الجماعة الإجرامية، كما يتيح التنظيم لأعضاء الجماعة الإجرامية علاقة تكون قائمة على التدرج في القوة طبقا لمدى كفاءة تنظيمها.

لذلك تتميز الجماعة المنظمة بتوزيع العمل بين أعضائها وهذا التوزيع هو من أنماط ظاهرة الإجرام المنظم ولا يشترط أن يتخذ الهيكل التنظيمي شكلاً معيناً أو أن يعلم كل عضو باختصاص أو أدوار بقية الأعضاء، لذلك عادة ما تكون هذه الهياكل التنظيمية سرية.

٣ – **التخطيط**: يعتمد أسلوب العمل داخل عصابات الجريمة المنظمة بالدرجة الأولى على التخطيط، بحيث لا تعتمد على عمل شخص واحد بل على عمل جماعي يقوم على تقسيم الأدوار بدءاً من الإعداد

حتى التنفيذ، حيث تقوم بدراسة ما هو متوافر من إمكانيات ووضع خطط دقيقة لتنفيذها بكفاءة، وتستعين لأجل ذلك بذوي الخبرة والاختصاص في المجالات والتخصصات المختلفة والتي تفيدها، سواء كانت إدارية أو قانونية أو اقتصادية أو حتى سياسية وذلك بهدف تطوير أسلوب عملها وتنمية قدراتها.

٤- البناء الهرمي المتدرج: يعتبر الهيكل التنظيمي الهرمي من الخصائص المهمة التي تميز معظم المنظمات الإجرامية، وهو ما يجعل من الاستحالة ضبط قادة هذه المنظمات متلبسين بارتكاب عمليات إجرامية، كما يجعل من الصعب إثبات ارتباطهم بأية أنشطة إجرامية محددة. ويختلف هيكل تلك الجماعات باختلاف نشاطها وطبيعتها والبيئة الثقافية التي تنبع منها، فهناك الجماعات المؤلفة من عدد من العائلات والتي يكون لها تسلسل هرمي وهي تشبه في ذلك النقابات، مع ملاحظة أن اختيار الأعضاء في السابق كان يتم على أساس عائلي، ولكن في الوقت الحالي هناك تنظيمات إجرامية تضم مجرمين من أصحاب السوابق من دون أن يكون الأساس العائلي ضرورياً، كما أن هناك جماعات تقوم على أساس عرقي، ويكون الانتساب فيها على هذا الأساس. ويحكم هذا البناء نظام صارم لا يعرف الرحمة أو التسامح وهو ما عبر عنه البعض بقاعدة الصمت، حيث يلتزم أعضاؤها لأجل خدمة أغراضها بعدم إفشاء الأسرار والولاء التام حتى الموت.

ثانيا - من حيث طبيعة النشاط:

١- الاحتراف: يعتبر الاحتراف من أخطر نماذج العمل الإجرامي، حيث عادة ما يكون أعضاء الجماعة الإجرامية المنظمة من فئة المحترفين في ارتكاب الجرائم، ويملك هؤلاء المحترفون مهارة وقدرة فائقة ودناءة في تنفيذ الأعمال الإجرامية وقد يصل هذا الاحتراف إلى تخصص أعضاء المنظمات الإجرامية في نشاط معين بحيث يكون كل تنظيم إجرامي متخصصاً في ارتكاب جرائم معينه، فتجد من هو متخصص في المخدرات أو الرقيق أو السلاح وغيرها من الجرائم المختلفة التي تمارسها تلك المنظمات، وتجد أنَّ معظم الذين لايملكون هذه الصفة سرعان ما ينكشف أمرهم ويجدون أنفسهم في قبضة العدالة.

٢- الاستمرارية: يقصد بالاستمرارية: استمرار عمل المنظمة بغض النظر عن حياة أي فرد فيها حتى لو كان رئيساً وهو ما يعني أنَّ الرؤساء الذين يتوفون يأتي بدلاً منهم رؤساء جدد، لذلك تستمد هذه

التنظيمات الإجرامية صفة الاستمرارية من نشاطها وليس حياة أعضائها ورؤسائها، لأنَّ العبرة في استمرارية الجماعة الإجرامية المنظمة هي مباشرتها لأنشطتها المشروعة وغير المشروعة وليس حياة أي فرد فيها.

٣- **استخدام العنف:** عادة ما تقوم التنظيمات الإجرامية باستخدام العنف أو التهديد باستخدامه ويصل هذا العنف في أغلب الأحوال إلى القتل أو خطف الأشخاص وهي قد تمارس هذا العنف على الأشخاص العاديين لإخضاعهم لسيطرتها أو تجاه أعضاء التنظيم الذين يخالفون الأوامر سواء بإبلاغ السلطات العامة أو الحصول على منفعة شخصية على حساب أعضاء التنظيم كما يمكن أن تمارسه على المنافسين الجدد من التنظيمات الإجرامية الأخرى والتي تدخل مناطق تخصص أو نفوذ العصابة، ولايقتصر عنف هذه التنظيمات على الأشخاص بل يمتد إلى ذويهم وممتلكاتهم كما تمارس الجماعات الإجرامية المنظمة عنفها على كل من يشكل عقبة في طريقها لتحقيق أغراضها المشروعة وغير المشروعة.

أهداف الجريمة المنظمة

١- **الربح:** يعتبر هدف الربح هو الدافع والمحرك الأساسي لأعضاء الجريمة المنظمة، وهو ما يميزها عن غيرها من التنظيمات الإجرامية ويجعلها تمارس نشاطاتها المشروعة وغير المشروعة والتي تدر الأرباح الطائلة كتجارة المخدرات والسلاح والاتجار بالبشر، ولاتوجد حتى الآن إحصائيات وأرقام مؤكدة تقدر حجم الأرباح الهائلة التي تحققها هذه التنظيمات على مستوى الدولة، إلا أنَّ بعض الخبراء الدوليين يؤكدون أنَّ قيمة هذه الأرباح تتراوح بين (٣٠٠ إلى ٥٠٠ بليون دولار) في العام الواحد. وتجدر الإشارة هنا إلى أنَّه قد يتم استثمار هذه الأموال في مشاريع مشروعة مثل الفنادق والمطاعم.

٢- **الدخول في تحالفات إستراتيجية:** بسبب زيادة الأعمال الإجرامية التي تمارسها المنظمات الإجرامية في مناطق متعددة من العالم كان لابد لهذه التنظيمات أن تدخل في تحالفات إستراتيجية بين بعضها وذلك من خلال إبرام اتفاقيات فيما بينها حتى تحمي نشاطها الذي تمارسه في الدول الخاضعة إلى نفوذ تنظيم إجرامي آخر أو تنظيم عمليات التسويق لما تنتجه من مواد مشروعة وغير مشروعة وكان لهذه التحالفات الإستراتيجية الأثر في تعزيز قدرتها على المواجهات الأمنية والقضاء على العنف الذي كان دائراً بينها إضافة إلى الشراكة في اقتسام الأرباح والخسائر.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

آثار الجريمة المنظمة

أصبحت الجريمة المنظمة عبر الوطنية تمثل أحد الأخطار التي تهدد الأمن، والاستقرار على المستويين الدولي والوطني، وذلك بسبب ما يصدر عنها من أعمال تؤدي إلى ضعف مؤسسات الدولة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، فضلاً عما تسببه من فقدان الثقة في العملية الديمقراطية، لتأثيرها على أصحاب النفوذ السياسي. ولا يقتصر أثرها على المستوى الوطني بل يتعداه إلى المستوى الدولي لما تقوم به من أنشطة غير مشروعه عابرة للحدود الوطنية.

إذ الجريمة المنظمة عموماً والجريمة المنظمة عبر الوطنية على وجه الخصوص تمثل آثارهما خطراً كبيراً على جميع دول العالم وذلك لاستغلالهما سهولة التنقل بين دول العالم فضلا عن العولمة وحرية التجارة. وسنتناول آثار الجريمة المنظمة على المستويين الدولي والوطني:

١- آثار الجريمة المنظمة على المستوى الدولي: تمثل الجريمة المنظمة عبر الوطنية على المستوى الدولي خطراً على سيادة الدولة واستقرارها الأمني من خلال قيام عصابات الجريمة المنظمة باختراق سيادة الدول على أراضيها عن طريق أنشطتها غير المشروعة سواء كانت تعتبر هذه الدول ممراً لأنشطتها أو هدفاً رئيساً لها وهو ما يستلزم اختراق أجهزة هذه الدول القانونية والإدارية وغيرها للمحافظة على أنشطتها.

كما أصبحت الجريمة المنظمة تهدد كيان الدول واستقلالها، فنظراً للأموال الطائلة التي تحققها من أنشطتها المشروعة وغير المشروعة وتنظيمها الدقيق وقدرتها على اختراق أجهزة الدولة مما قد يولد دولة غير شرعية داخل دولة.

٢- آثار الجريمة المنظمة على المستوى الوطني: للجريمة المنظمة آثار كبيرة على المستوى الوطني سواء كانت من الناحية الاقتصادية أو السياسية أو الاجتماعية أو حتى على مستوى الأفراد ومن هذه الآثار:

أ- الناحية الاقتصادية: تقوم عصابات الجريمة المنظمة على المستوى الاقتصادي، بالسيطرة على قطاع ما من الاقتصاد أو على الاقتصاد بأكمله وذلك بسبب ما تملكه من مبالغ طائلة، فضلاً عن قيامها بالسيطرة على المسؤولين في القطاع الخاص عن طريق الرشوة أو الابتزاز، وكذلك تقوم عصابات الجريمة المنظمة بالتهرب الضريبي والتشجيع على المعاملات المشبوهة، كما تقوم بعمليات غسيل الأموال لإخفاء مصادر أموالها غير المشروعة وهو ما يؤدي في النهاية إلى الخسائر الاقتصادية على مستوى الأفراد والشركات وحتى على مستوى الاقتصاد بأكمله.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ب- من الناحية السياسية: تؤدي الجريمة المنظمة على المستوى السياسي إلى فقدان الثقة في العملية الديمقراطية، لقيامها بالسيطرة على هذه العملية وإفسادها عن طريق رشوة وابتزاز المسؤولين وأصحاب القرار السياسي في الدولة، واختراق الأحزاب والتنظيمات السياسية للوصول للسلطة والحفاظ على مصالحها مما يؤدي في النهاية إلى تشويه العملية الديمقراطية وسقوط الأنظمة السياسية في هذه الدول.

ج- من الناحية الاجتماعية: تؤدي الجريمة المنظمة إلى تفشي الفساد بين أفراد المجتمع، وانتشار الرشوة وظهور اللاأخلاقيات وضياع القيم مما يؤدي إلى هدم كيان الأسرة وتفكيكها إضافة إلى ما تسببه أنشطة الجريمة المنظمة كتجارة الرقيق من إهدار لآدمية الإنسان وكرامته وتفش للأمراض كما تؤدي تجارة المخدرات إلى تدمير المجتمع وبالأخص فئة الشباب. إضافة إلى فقدان الأمن وانتشار العنف نتيجة ضعف الأجهزة الأمنية في مواجهة الجريمة المنظمة.

مكافحة الجريمة المنظمة

أمَّا على صعيد مكافحة الجرائم المنظمة فلم توجد اتفاقية دولية جماعية بين مجموعة من الدول على المستوى الإقليمي وبين كافة الدول على المستوى الدولي، لهذا سعت الدول إلى إعداد اتفاقية دولية جماعية في هذا الصدد، حيث انتهت لجنة الأمم المتحدة المكلفة بصياغة الاتفاقية الدولية لمكافحة الجريمة المنظمة (عبر الوطنية) من إقرار الصياغة النهائية للاتفاقية في دورتها العاشرة التي اختتمت أعمالها بفيينا بسويسرا في ٣١ تموز ٢٠٠٠م، حيث شاركت فيها وزارات العدل والداخلية والخارجية من مختلف الدول ومنها الدول العربية والإسلامية، وتمَّ تنقيح بعض مواد مشروع الاتفاقية بما يتفق مع المصلحة الوطنية، فضلاً عن تلبيته في الوقت نفسه لمكافحة ظاهرة الجريمة المنظمة في أشكالها الحديثة كإعاقة سير العدالة والجرائم التي يستخدم في ارتكابها التقنيات الحديثة وغسيل الأموال القذرة.

وقد حرصت وفود الدول العربية والإسلامية على المشاركة الفعالة في اجتماعات اللجنة، وتمَّ اختيار جمهورية مصر العربية ممثلاً عن المجموعة العربية في لجنة الاتساق اللغوي، وهي لجنة خاصة يعهد إليها بمهمة ضمان الاتساق اللغوي بين جميع النصوص التي ستعتمد عليها الاتفاقية، والتي تمثل اللغات الست المعمول بها في منظمة الأمم المتحدة ومن هذه

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اللغات العربية والفرنسية والإنكليزية. كما حرص المفاوضون العرب في جميع دورات التفاوض على أن تتضمن الاتفاقية إشارة واضحة وصريحة إلى العلاقة المتنامية بين ظاهرة الجريمة المنظمة عبر الوطنية وجرائم الإرهاب الدولي.

ومع ذلك فقد جاء النص النهائي لمشروع الاتفاقية خاليا من الإشارة الصريحة إلى الصلة بين الجريمة المنظمة عبر الدول والإرهاب الدولي، مما يشكل في رأي البعض نقصاً أساسياً فيها، من شأنه أن يضعف التعاون الدولي لمحاصرة ظاهرة الإرهاب الدولي والقضاء عليها، وربما يحول من دون أن تصبح هذه الاتفاقية بعد التوقيع والتصديق عليها أحد العناصر المؤثرة في المنظومة القانونية التي تخدم مصالح الجميع.

لذلك فقد تداركت اللجنة هذا الأمر في اللحظات الأخيرة وقبل اختتام الاجتماعات وافقت على إدراج الأنشطة الإرهابية ضمن الجرائم في مشروع القرار الصادر بشأن الاتفاقية الذي تضمّن التعبير عن بالغ القلق من العلاقة القائمة بين الجريمة المنظمة عبر الوطنية والجرائم الإرهابية، مع الأخذ في الاعتبار ميثاق الأمم المتحدة وقرارات الجمعية العامة ذات الصلة.

وأهاب القرار بجميع الدول أن تعترف بالصلات القائمة بين الأنشطة الإجرامية المنظمة عبر الوطنية وبين الأفعال الإرهابية، وأن تطبق هذه الاتفاقية من أجل مكافحة جميع أشكال الأنشطة غير المشروعة تمشياً مع أحكامها. كما تضمن القرار التعبير عن بالغ القلق أيضاً إزاء الآثار الاقتصادية والاجتماعية السلبية التي تحدثها الأنشطة الإجرامية المنظمة عبر الوطنية بجميع مظاهرها، وأنّها تأخذ في اعتبارها الصلات القائمة بين هذه الأنشطة وسائر الأنشطة غير المشروعة (مع ملاحظة عدم الإشارة هنا إلى جرائم الإرهاب الدولي)، وبناء على التعديل الذي قدمه رئيس المؤتمر فقد تمّ إدخال فقرة تنص على أنّه: «وإذ تلاحظ الجمعية العامة ببالغ القلق الصلات المتنامية بين الجريمة المنظمة عبر الوطنية والجرائم الإرهابية».

مراحل مكافحة الجريمة المنظمة

وهناك ثلاث مراحل لمكافحة الجريمة المنظمة على المستوى الداخلي، وهي:

١- **مرحلة الوقاية**: حيث تتخذ الدولة إجراءات تكفل توقي خطر وقوع الجريمة المنظمة، تتمثل في الآتي:

أ- إجراء البحوث العلمية للتعرف على المشكلة وأسبابها وأبعادها المختلفة وكيفية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ارتكابها، مع التركيز على تبادل المعلومات في هذا المجال مع الدول الأخرى التي تعاني من وجود هذه الجريمة.

ب- إصدار القوانين والتشريعات الجنائية التي تكفل توقيع عقوبات رادعة على كل من تسول له نفسه الخروج على النظام أو الإخلال بالقيم السائدة في المجتمع.

ج- إصدار تشريعات مالية محكمة الصياغة حتى لا تستغل جماعات الإجرام المنظمة بعض الثغرات الموجودة في التشريعات الوطنية في تهريب أموالها من الدولة إلى دول أخرى وتستغلها في ارتكاب الجرائم المنظمة، ومن هنا لابد من التعاون مع الأجهزة المصرفية العالمية من خلال اتفاقيات ومن خلال مراقبة حركة التحويلات الإلكترونية للأموال فيها.

د- اتخاذ الإجراءات الداخلية التي تكفل تحقيق العدالة الاجتماعية ومحاربة الظلم الاجتماعي.

هـ- عمل برامج وحملات توعية للمواطنين تحذرهم فيه من مخاطر الجريمة المنظمة على المجتمع وعلى أفراده.

و- تدريب أجهزة الشرطة الجنائية المختلفة وفرق مكافحة الجريمة وإمدادها بأحدث الوسائل الفنية والتقنية والعلمية في هذا المجال بحيث تصبح جاهزة في أي وقت لمواجهة المجرمين.

ز- إرسال فرق متخصصة في مكافحة الجريمة المنظمة إلى بعض الدول التي ظهرت فيها هذه الجريمة وحققت فاعلية في مكافحتها وتدريبها على الوسائل الفعالة في هذا المجال.

٢- مرحلة المواجهة: وهي المرحلة التي تقع فيها الجريمة المنظمة وتعقب وقوعها مباشرة أو تتوفر معلومات معينة عن التخطيط لارتكابها في الدولة أو ضد مصالحها. ويتم في هذه المرحلة اتخاذ عدة إجراءات، أهمها:

أ- جمع المعلومات اللازمة عن الجريمة وعن التنظيم بطريقة سرية.

ب- الاستعانة بالعناصر التي تمّ ضبطها في الحصول على أكبر قدر من المعلومات اللازمة للكشف عن التنظيم.

ج- اتخاذ الإجراءات القانونية السليمة ضد العناصر التي تم ضبطها.

د- التحفظ والسيطرة على أموال المتهمين والمضبوطين والمشتبه فيهم.

هـ- تشديد الحراسة على المتهمين والشهود وكافة الأدلة الجنائية المتصلة بالجريمة.

و- تأمين الاتصالات الداخلية والدولية.

ز- سرعة التحرك في كافة النواحي.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

س- الاستعداد لاستخدام القوة والسلاح أثناء المواجهة مع الجناة إذا لزم الأمر.

ص- الاستعانة بخبراء المصارف المالية والكومبيوتر وتجار الأسلحة في الكشف عن الفئات ذات العلاقة بالتنظيم.

٣- **مرحلة التقييم:** وهي المرحلة التي تلي القبض على الجناة وتسبق مرحلة اتخاذ القرار الخاص بفرض العقوبات عليهم.

ويمكن أن تمتد هذه المرحلة إلى أثناء فترة تنفيذ العقوبة داخل السجن، حيث لا تنتهي القضية وتغلق التحقيقات فيها بمجرد صدور الحكم، بل تتخذ السلطات عدة إجراءات هامة تتمثل في مراقبة السجناء والفصل بينهم داخل السجون وزرع عيون أمينة معهم ورصد حركات أفراد العصابة خارج السجون، ومراقبة المكاتب والشركات ذات الصلة بها، ورصد أفراد العصابة المحلية أو الخارجية.

كما تتخذ إجراءات أخرى تتعلق بحماية الشهود والضحايا وإزالة الآثار المترتبة على الجريمة، وعمل حملة إصلاح للمحكوم عليهم وأسرهم، ومحاولة إجراء البحوث العلمية للتعرف على أسباب ودوافع الجريمة المنظمة وكيفية إزالتها، ومصادرة الأموال المكتسبة بطرق غير مشروعة، وتطوير وتحديث القوانين الوطنية المتعلقة بتسليم المجرمين.

ولما كانت الجريمة المنظمة يغلب عليها اتصالها بأكثر من دولة فإنَّها تتطلب تعاوناً دولياً لمكافحتها، لاسيما بين الدول المتجاورة، لهذا لعبت المنظمات الدولية العامة والمتخصصة دوراً هاماً في التنديد بالجريمة المنظمة وبخطورتها على الأمن الدولي، وتمثلت الجهود الدولية ضد هذه الجريمة في جهود هيئة الأمم المتحدة من ناحية، وفي الجهود التي تمت في نطاق التعاون العربي الدولي مع الدول غير العربية وبعض المنظمات المعنية من ناحية ثانية، وفي الإجراءات العربية الجماعية للقضاء على هذه الجريمة من ناحية ثالثة. فقد بدأ اهتمام هيئة الأمم المتحدة بالجريمة المنظمة منذ مؤتمرها السادس لمنع الجريمة ومعاملة المجرمين الذي عقد في كاراكاس عام ١٩٨٠م، حيث بحث عدة مواضيع، منها مسألة فساد المواطنين وإساءة استعمال السلطة، التي تعتبر من أهم عوامل استمرار الجريمة المنظمة.

كما تدارس مؤتمرها السابع في ميلانو عام ١٩٨٥م نفس الموضوع، وأصدرت توصيات بشأنها، من أهمها توصية إلى الدول الأعضاء بأن تكثف جهودها من أجل زيادة فاعلية مكافحة الجريمة المنظمة على الصعيد الوطني من خلال اتخاذ تدابير عدة تتعلق بتحديث الأنظمة والإجراءات الوطنية، والنص فيها على جرائم جديدة لمواجهة أشكال النشاط الإجرامي المتجددة والمعقدة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حوار العدد

مع:
الفنان التشكيلي عاصم زكريا

إعداد وحوار: محمد خالد الخضر *



ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

عاصم زكريا فنان تشكيلي رصد الواقع التاريخي بإحساس فني أخاذ. وهو يؤدي دوره بأمانة وكبرياء.. لقد عبَّر عن مشاعر أمة تتوالى أجيالها فخلد أمجادها وذكرياتها كما قدم انعكاساً لمرحلة هامة عبر ألوانه وموهبته وثقافته لتبقى لوحاته في المستقبل شاهداً حقيقياً على حضارة عربية باقية وعن فنه العريق كان معه الحوار التالي.

- الفنان عاصم: واضح أنك تعتمد الأسلوب الرومانتيكي الذي يرتكز على الأصالة مستخدماً الألوان في رسومك. ما هو السبب؟ وماذا يعني هذا الانتماء؟ وماذا يعني لك هذا المذهب في الرسم الذي يشكل لك حالة انتماء؟

• أعتمد على الأسلوب الرومانتيكي عندما أتناول مواضيع قومية تتعلق بكفاح الشعب ضد الاستعمار والظلم الذي تعرضت

* شاعر وأديب وصحفي.

له بلادنا من خلال العقود الماضية مما أدى إلى ردة فعل وقيام ثورات نابعة من ضمير الأمة.

الأسلوب الرومانتيكي بما يرتكز عليه من مقومات يخدم التجسيد لمعاناة الأمة وآلامها ومشكلاتها ويعبر أيضاً عن كبريائها وآمالها.

ومقومات هذا المذهب:

١- التحري عن الذات والوجدان والشخصية المستقلة: ذلك أنَّ أسرار الذات هي المعبرة عن خبايا النفس البشرية إذ يؤكد أصحاب هذا المذهب أنَّ الفرد له دور رئيسي في محور الحياة، فبدلاً من ترك قيادة الحياة الأخلاقية والفنية للعقل فإنَّه بالأسلوب الرومانتيكي يتولى قيادتها الإحساس الفردي والميول الشخصية والخيال الجامح.

٢- إحياء الفن القومي: فقد وضعت لوحات المشاهد التاريخية بألوان زاهية وبعاطفة جياشة ذات صبغة وطنية.

٣- العناية بالحركة والألوان والمبالغة في تصوير المشاهد الدرامية: فالأبطال أكثر بطولة والحركات أكثر عنفاً والألوان أزهى وأجمل والنساء أروع فتنة وبهاء والأشرار أعنف شراسة.

٤- تمجيد الحرية: فقد دعا الرومانتيكيون إلى تحرير الإنسان من القيود العقلية والقيود الفنية الصارمة (وهي حركة ضد الكلاسيكية) كما أنهم رفضوا المجتمع وعاداته وقيوده ومفاسده ولجؤوا إلى الطبيعة البكر وأحبوها.

٥- المعاناة والألم: حيث اعتبروه مصدر الإبداع (الألم العبقري).

هذا المذهب الذي انتميت إليه في رسم الأحداث التاريخية الجسام التي مرّت بها بلادنا وأثرت فينا أحداثها بدءاً من معركة ميسلون وانتهاء بمذبحة البرلمان ونيل الاستقلال هذه الأحداث فرضت نفسها علينا فأصبحنا نعبر عنها إمَّا بالرسم أو بالشعر أو بالأدب أو بالموسيقى أو بأي فن آخر.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

- الثورات وتاريخ الشعوب العربية العريقة وانتصاراتها هي أهم ما تتناوله من مواضيع ما هو السبب؟

• إنَّ البيئة الثقافية التي عشتها داخل أروقة منزلنا في حي ساروجة بما تحتويه من كتب تاريخية وأدبية وعلوم متنوعة وكتب أجنبية ذات معارف متنوعة كان لها أثرها إضافة إلى أنَّ أجدادي كانوا ضبّاطاً في الجيوش السابقة فقد حضر جدي الملازم أوّل خيال معركة ميسلون إلى جانب يوسف العظمة وأصيب بها وأخذ جريحاً ثم شفي منها وبعدها اشترك مع رجالات الثورة

السورية الكبرى خاصة في معركة الزور الأولى ومعركة المسيفرة إلى جانب المجاهد الشيخ محمد حجاز ثم توالت زيارات رجالات الثورة لدارنا عربوناً بالوفاء لجدي، كل هؤلاء الرجال العظام كنت أتفرس في وجوههم التي تعبر عن الجد والصرامة في أمورهم وقد أعجبت بهم وبشجاعتهم وبطولاتهم في مواقفهم المتنوعة في فترة تاريخية هامة من تاريخنا في مواجهة الاستعمار فكانوا مصدر إلهامي.

وقد رسمت سمات وجوههم القوية شديدة البأس والمعبرة عن الجدية حيث نذروا أنفسهم قرابين لهذا الوطن والذين استحوذوا على وجداني فانفعلت بما سمعته من قصص بطولاتهم ومواقفهم في الدفاع عن الحق من أجل الحرية والاستقلال.

- هل قمت بإبداع مواضيع أخرى؟ وما هي الظروف والمناخات التي تدفعك لمثل هذه المواضيع؟

• كتب الدكتور زهير ناجي كلمة عنوانها «لقد فعلتها.. فشكراً لك (الأخ الفنان عاصم) إحياء تاريخنا الحديث.. هذا ما كان ينقصنا. نادراً ما صور فنانونا تاريخ كفاح شعبنا باللون والصورة وقد فعلتها فشكراً لك.

وقد ذكر الدكتور عفيف بهنسي في جريدة البعث أنَّ الفنانين كانوا يتهربون من رسم المواضيع القومية والتي كانت الدولة كثيراً ما توجه إليهم الدعوة لرسمها

إنَّ زملائي الفنانين قد غرقوا برسم المواضيع التعبيرية ذات الصبغة التجريدية مبتعدين عن رسم المواضيع التاريخية القومية والتي يتطلبها منهم تاريخ أمتنا المجيدة!

هل لأنَّهم أخذوا بنظرية الفن للفن؟ هذه النظرية التي تجرد كل مفكر من مقوماته الاجتماعية وعاداته وتقاليد أمته وتاريخها، وكل شعب عريق يرفض التخلي عن أسسه ومقوماته في سبيل أفكار لاوجود لها إلا في عالم خيالي بعيد عن واقعه فيتفكك وينحل ليأتي شعب آخر له أسسه ومقوماته فيقضي عليه.

لذلك فالتمسك بالأسس الثابتة لأمة أو شعب له تاريخ عريق وحضارة راسخة لا يمكن أن يتجرد عنها وإذا ظهر في مجتمع بعض من هواة هذا النوع من الفكر فلا بأس في ذلك أمَّا إذا عمَّ هذا الفكر التجريدي على سائر رجالات الفكر (أو الفنانين) من دون وعي منهم فهذه مصيبة كبيرة.

لذلك فإنَّ الفراغ الذي حدث وهو عدم تناول الفنانين مواضيعنا القومية المليئة بالأحداث التاريخية المشرِّفة وهي مصدر

وعائي كبير وخزان ضخم من روائع تاريخنا الغزير بالأحداث يعرف بكل سهولة.

مما دفعني لسد هذا الفراغ الواضح والشرخ الكبير في تاريخنا الغني وقد قال أحد وزراء الثقافة السابقين لو كنت فناناً لرسمت من كل عشر لوحات تجريدية لوحة واحدة قومية أخدم بها بلدي.

أمَّا المواضيع الفنية التي قمت برسمها هي أحياء دمشق القديمة حيث ولدت في حي ساروجة العريق والذي سمي بإسطنبول الصغرى وقد أثرت في جدرانه الطينية ونوافذه الخشبية المتقاربة والمتقابلة والتي تكاد تلتصق ببعضها وقد أخذت مني وجداني وروحي خاصة بعد انتقالي إلى حي المزرعة الحديث فشعرت بالفراغ الكبير والحنين لديار اشتقت لها كانت تشع بالألفة والدفء والعطاء والمحبة.

أين البحرة الداخلية؟ وأين الورود والزهور التي كانت تزرع على جوانب باحة الدار؟ أين دالية (شجرة) العنب التي كانت تغطي السقالة والتي خيمت على الباحة؟ أين الحارات الضيقة التي كنا نمر في دروبها ونشعر بالجوار وكأنَّهم إخوة لنا؟

افتقدت هذا النوع من الألفة والمودة بين الجيران عندما سكنا في الأحياء الحديثة التي خلت من هذا الجو الأسري الحميم؟!

أمَّا بساتين دمشق الغناء بأشجارها المتنوعة فقد فقدت معظمها نتيجة الزحف العمراني حيث أزاح معظم غوطتها الخضراء الجميلة فما كان مني إلا أن رسمتها من ذاكرتي ولكن هذه المرة رسمتها بالأسلوب الانطباعي.

ذلك أنَّ تراقص الظلال والأضواء على جدران البيوت الدمشقية ذات البنية الطينية الصفراء تلعب دوراً في انعكاسات الضوء وبالتالي الإحساسات البصرية التي تترافق مع تقلبات الضوء والظلال وهذا ما انتبه إليه الانطباعيون حيث قاموا بتسجيل ما تبصره العين فعلاً من الضوء مغفلين ما يعرفونه بأذهانهم من صور الأشياء.

أضف إلى ذلك أنَّ أسلوب الرسم الانطباعي يعتمد على الكتل اللونية الكبيرة دون محاولة المزج بينها أي وضع الألوان متجاورة إلى جانب بعضها تاركاً للعين تحليل أو مزج اللون بوساطة العصب البصري.

كما أنَّ هذا النوع من أسلوب الرسم تلقائي: أي مباشر عن الطبيعة دونما حاجة للتخطيط وإعمال الذهن بالتكوينات والتشكيلات التي تتطلب حشر الفكر والذهن لإتمام الموضوع القومي.

فكل نوع من أنواع الرسم له أسلوبه الخاص فالحارات الدمشقية يناسبها

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الأسلوب الانطباعي أمَّــا الألبسة التقليدية العربية وأزياؤها ووجــوه نسائها ورجالاتها فكلها ترســم تلقائياً وبسرعــة لأنَّها دائمة التغير من حيــث زواياها إضافــة إلى تغيّر أضوائها وظلالها.

- ما هي العلاقة بين سطح لوحتك البيضاء وبقية الألــوان كالأحمر وغيره عندما تشكلها على اللوحة البيضاء وكيـف تصل من خلالها إلى ما تريد؟

• عندمــا يختمر الحدث في ذهني يأخذ مني كل تفكيري ووعيــي فلا أشعر إلا وقد انعزلــت عن العالم من حــولي ولم أعد أشعر بــه وآتــي إلى لوحتــي الكبــيرة وأضع كلتا يــدي عليها ثــم أتركها وأعــود إليها مراراً وتكراراً وكأني أمام مسرح أبيض أوزع أدوار شخصياتي علــى الذيــن انتخبتهم لتمثيل أدوارهم. فقصص وحكايات بطولاتهم كلها أحــداث أثرت تأثيراً قوياً في نفسي فكان لا بد مــن التعبير عنها، ولا أدعها تفوتني وإلا أكون قد خنت الأمانة التاريخية الفنية.

كانت والدتي تقول لي يا بني إنِّي أخاف عليك حينما تفكــر باللوحة فيأتي المخاض الفكري، حينها أشعر وكأنك انسلخت وغبت عنَّــا فأصبحت غريبــاً. وبعد ذلــك أشعر بالراحة حينما تعود إلينا بعد نضوج الفكرة واكتمال التصميم.

ومــا أن تتضح الفكرة تماماً حتى أنقلها من عالم الخيــال إلى الواقــع وبذلك أشعر بالارتياح ولم يبق لي إلا المعالجات اللونية وبالاعتمــاد علــى نظريــة /شيفرول/ للألوان:

قــد اهتممت كثيراً بالنظريــات اللونية أثنــاء دراستي في إيطاليــا وإنكلترا وأجمل شيء عنــدي هو الخوض في مــزج الألوان وتشكيل سلسلة منها ســواء أكانت متجاورة أو متباينــة أو متممات حســب ما يقتضيه الموضوع. فهنالك علاقــة عضوية مع بقية الألــوان الأخرى والتي تشــكل توليفاً لونياً يناسب الموضوع الذي أرسمه والذي أساسه الانسجام.

ولا يخفــى كدراسة أكاديمية للألوان أن هناك الألوان الأساسية Primary Color وهناك الألــوان المتممــة Complemet Color

فالخوض بهــا ممتع جــدّاً حيث يقوم الفنــان ببنــاء مجده مــن خــلال توليفته اللونيــة علــى الباليــت (خشبــة الألوان) وأنصح المهتمين بمثل هــذه المواضيع أن لا ينسى دراســة ومعالجة الألوان الباردة منها والحــارة وتدرجاتهما من الغامق إلى الفاتح ومن الكثيف إلى الشفــاف ودراسة الطيف الشمسيSolar Specter Colors إلى ما هنالك من النظريات التي تتعلق بالألوان.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

- هل استخدمت ألواناً غير زيتية؟ وهل هنالك معنى لكل نوع من الألوان عند الفنان؟

• اللوحة بصورة عامة يجب أن تتمتع بالديمومة والبقاء لذلك فإنَّ جودة الألوان وصناعتها الجيدة مطلوب من الفنان التحري عنها. وقد شاهدنا في متاحف أوروبة عدداً لا بأس به من لوحات متعرضة لتشققات وأخاديد في قلب اللوحة نتيجة سوء استخدام اللون أو رداءته.

وقد ظهرت لدينا في السنوات الأخيرة مادة اسمها /الأكرليك Acrylic/ لها ميزات جيدة من حيث الثبات وسرعة الجفاف وإشراقة بنيتها وهي مفيدة في الرسم التلقائي، ولا تعتمد على مادة الزيت Lensed Oil الذي ظل أكثر من خمسمئة عام تحت العمل به والآن فإن جميع مدارس الفن الأوروبي يشتغلون بالأكراليك الذي يعتمد مزجه على الماء فقط.

ففي المواضيع التجريدية ذات الموضوع التعبيري لا بد من استخدام الأكراليك الذي يساعد ويخدم الفنان في عمله السريع.

والجدير بالذكر أنَّ كل فنان له مجموعة خاصة من ألوانه ربما تتعدى سبعة أو عشرة ألوان يجري توالفيه اللونية عليها ويظل ملتزماً بها سواء أكان الموضوع قومياً أو واقعياً.

أمَّا المواضيع التجريدية فهنالك مجالات واسعة يمكن أن نسكب على اللوحة ما نشاء من ألوان، تجعل المشاهد أو المتلقي حائراً فيما يرى.

- كيف توازن بين أصالتك التعبيرية والمعاصرة التشكيلية؟

• لا يوجد عندي أية تناقضات بين الأسلوبين فالمواضيع القومية تتطلب الرسم بالألوان ذات الطابع الكلاسيكي لأنَّ هناك ثوابت لابدَّ من مراعاتها كرسم الأحصنة أو الجنود في المعارك أو أرض المعركة.

أمَّا في الرسم التجريدي فهنالك الفلسفة، وهواجس النفس البشرية، والتي تعالج بالتشكيلات اللونية، وقد نخطئ إذا قلنا إنَّها عشوائية، لكن يمكننا القول إن المواضيع الضبابية تلائم النفس المختلجة والقلقة والتي تتطلب التعبيرات المبهمة، إذ ربما تسرح فيها النفس البشرية فتخرج بشيء جديد قد يعبر عنها بأنَّها معاصرة أو حديثة.

- الفن التجريدي بكل ما فيه هل استطاع أن يصل إلى مستوى الطموح الفني على الساحة؟ وهل يمتلك المقومات الحقيقية لفن الرسم؟

• الفن التجريدي هو فلسفة قائمة بذاتها فهو يعبر عن ناحية من نواحي فن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الرسم. فالفلسفة شيء والواقع شيء آخر، مختلف عنه تماماً، فالتعبير عن أصالة أمّة بأبطالها وشخصياتها التي صنعت تاريخها شيء وتأوهات النفس البشرية شيء آخر. خاصة ونحن نعيش عصر الأزمات والآلام فهذه لا يناسبها إلا الفن التجريدي الذي ربما يعبر عن مشاعر جياشة لا تعرف الخلاص، فتركن إلى الكتل اللونية، سواء أكانت حارة لاهبة أو باردة بائسة.

أمّا تربية الشعوب وإنشاؤها على ثوابتها الأساسية فلابدَّ معها من الرسم الواقعي الذي يسجل القصص البطولية والأحداث التاريخية المفعمة بالأمجاد.

- هل هناك إسقاط نفسي أو اجتماعي عند الفنان عاصم من خلال كثير من لوحاته التي عبر فيها عن حروب وانتصارات حققها العرب في عصرنا الراهن؟

• أراني وحيداً في مضمار ما أقوم به من رسم لتاريخنا المشرف المليء بالتاريخ الناصع الغزير بأحداثه المتنوعة ولكن أين بقية زملائي الفنانين؟ هل يشاركونني بهذه الرسالة، الواجبة لتثقيف شعوبنا التي تراجعت فيها الثقافة، وانجرفت إلى سلبيات أتت إلينا من شعوب أوروبة التي تتمنى الخلاص منها.

إنَّ شعبنا بحاجة إلى الثقافة. والثقافة فقط. ودراسة تاريخنا المجيد. وهذه مهمة الفنانين والأدباء ليضخوا مزيداً من المعرفة في شعبنا معرفين بأمجاد أمتنا المجيدة.

أمَّا الغرق بالفلسفة الفنية والابتعاد عن واقعنا أسوة بالدول التي تعاني من أزماتها، فلا علاقة لنا بهم، ونحن براء منهم. فلنا تاريخنا ولهم تاريخهم. وواجب علينا أن نظهر انتصاراتنا بلوحات تلعب دوراً مهماً في تثقيف شعبنا، الذي يجب أن يتصدى لأي أزمة تمر به بقوة الإيمان والثقافة، التي تبدد كل ما هو غريب عن بلادنا وتكون قاعدة صلبة تتصدى لكل وافد غريب.

- ما هو رأيك بما هو موجود على الساحة الفنية؟ وهل ترى أنَّ هناك تطوراً وتجاوزاً لما كان في الماضي؟

• أكرر القول بأنَّ زملائي الفنانين قد غرقوا بالفلسفة إلى حد كبير وكأنَّه لم يعد هناك أي مجال للفن التاريخي والقومي، كالذي تحفل به متاحف أوروبة وتقدمه من خلال لوحات تعبر عن ماضيهم وتاريخهم.

وأقول إنَّه يجب أن يخصصوا وقتاً لدراسة المواضيع القومية، ووضع برامج فنية لتنفيذها فعلينا أن لا نخلي الساحة لغيرنا كي يرسموا مواضيعنا القومية ويرصدوا تاريخنا الذي يحتوي على كثير من الحضارات والانتصارات، فهذا عيب كبير.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

أمّا الفن التجريدي بصورة عامة فهو يشكل مناخاً جيداً لثقافة فنية إذا ارتكز هذا الفن على أسس تطبيقية وخبرة عالية وثقافة بصرية ترتكز على موهبة قادرة أن تقدم فناً يخدم فكرة أو موضوعاً ويصل إلى نتيجة إنسانية.

لمحة عن حياة الفنان عاصم زكريا

- ولد الفنان عاصم زكريا في دمشق عام ١٩٣٧م.
- عاش في بيئة فنية وأدبية.
- تتلمذ على يد الفنان السوري سعيد تحسين في أعوام (١٩٥١-١٩٥٢م).
- نال شهادة الدراسة الثانوية السورية في عام (١٩٥٧م).
- نال إجازة في الحقوق من جامعة دمشق عام (١٩٦١م).
- تابع دراسته الفنية في روما لأعوام (١٩٦٢-١٩٦٣م).
- عاد إلى دمشق واشتغل بتدريس الفنون والتاريخ الإسلامي إلى جانب عمله في المحاماة.
- التحق بالأكاديمية الملكية البريطانية في لندن عام (١٩٧٣-١٩٧٤م).
- أعماله محفوظة في متحف دمشق وأشهرها:
- لوحة ميسلون- رجال الثورة السورية الكبرى وله أعمال في ألمانيا وإسبانيا والولايات المتحدة.
- زار كلاً من روما وفلورنسا وباريس ومدريد والأندلس والمغرب العربي وإسطنبول والقاهرة وصنعاء، وأقام فترة طويلة في لندن وهو مشترك بصالة كريستز للمزادات العالمية في لندن.
- له خبرة بترميم اللوحات الزيتية القديمة.
- شارك في معارض دولية ومحلية ورسمية كثيرة جداً ونال جوائز عدّة ومتنوعة وكان آخرها معرض الجلاء سمفونية المجد عام ٢٠١٢م في صالة الشعب للفنون الجميلة.
- عضو في اتحاد الفنانين التشكيليين العرب وفي نقابة الفنون الجميلة في دمشق.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تأملات في رسائل الأدباء

عرض وتقديم: حسني هلال*

تتدرج مفـردة «رسالة» في لغتنا العربية -وربما في غيرهـا- ضمن قائمـة.. أو في رأس قائمة المفردات، ذات الدلالة الواسعة، والمعاني المتباينة، والمضامين المختلفة. إذ تبدأ من رسالـة بمعنى مكتوب (ما تصفه عامة ريفنا بـ«ثلثي المشاهدة»).. تمرّ بالمعادل الأكاديمي للمفردة «أطروحة جامعية».. إلى الدلالة المعاصرة لهذه المفردة في تداولنا الشفـوي. وأحياناً الكتابي: كإبلاغ أو إنباء. إذ يقـول أحدنا للآخر، أثنـاء حديث جارٍ: وصلـتْ الرسالـة. أي: وصلني المعنى الذي قصدتَ إليه.. وهكذا وصـولاً إلى الرسالة السماوية، بمعنى «الخطاب الديني» أو كتاب الله كالقرآن والإنجيل والزبور.



ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مثلمـا تدعى الكتـب السماوية رسائل. هنـاك كتـب دوّنت بأقـلام البشـر وأطلق عليها مؤلفوها اسم «رسائل» أيضاً. كرسالة

* أديب وصحفي سوري

الغفـــران «لأبي العلاء المعـــري» إضافة إلى رسائلــه إلى داعي الدعاة الفاطمي.. رسالة الشياطين.. رسالة التربيع والتدوير ورسالة الملائكة «للجاحظ».. رسالة روح القدس في محاسبـــة النفس لـ«محيي الدين بن عربي».. وغيرها.. وغيرها.

مما ذكرنا من أنواع الرسائل، نقارب هنا، الرسائل الشخصية، أي الخطاب أو المكتوب، المرســل من شخص إلى آخر. وخاصة منها، مراســلات الأدباء؛ الموضوع الذي عالجه الباحث عبد اللطيــف الأرناؤوط، في كتابه «تأمــلات في رسائل الأدبــاء» الصادر عن الهيئة العامة السورية للكتاب عام ٢٠١٢م.

رسائل الأدباء:





رسائل الأدباء، المشمولة أكثر بعين التركيز والاهتمام، في الكتـاب آنـف الذكر، هي الرسائل التــي يغلــب عليها طابــع السرية. أقلّه ما يتحاشى الكاتب اطــلاع الآخريــن عليــه ونشــره على الملأ. مــن مشاعر داخلية حساسة، تنتابه أحياناً أو دائماً، تجاه أمرٍ مــا.. قضية ما.. إنســانٍ ما، ولا يريد صاحبها إطلاع أحــد (حتى الطير الطاير) عليها. اللهم سوى مَنْ اصطفاه عقله وقلبه ووجدانه. الشــرط الذي قلّما توافر في غير المحبوب.

تمتــاز الرسائل الخاصــة المتبادلة فيما بين الأدباء والأديبات بأنها:

حساسة.. هامة.. وخلافية.

الصفات المتأتية أصلاً من خصوصيتها وعنها.

حساســـة: كونها تطال الســرّي المكنون والمسجـــون، من مفردات وجُمــل ونصوص المشاعر والتعابير.

هامــة: بسبــب سريتهــا أولاً، وبتقدير الكاتب ومعزته لذاته وللمكتوب إليه تالياً.

وخلافيــة: لناحيــة احتمــال وخطورة السماح بنشرها لاحقاً.

يقول المؤلف في مقدمة «تأملاته»:

الرسائل أوراق متفرقة فيها ودائع العمر يمــوت عنهــا الإنسان ولا تسخــو نفسه أن تموت قبلــه «...» وإذا كان بعض الأدباء في ساعات اليأســ أو الخطر، قد أقدموا على حــرق أعمالهم، فإنهم يتفاوتــون أيضاً، في تعاملهم مع الرسالــة. فمنهم مَنْ لايريد أن يكشــف عالمه الداخلــي النفسي، ويحب أن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يضع حاجزاً بينه وبين الناس، لا في رسائله فحسب، بل في أدبه أيضاً، ومنهم مَنْ يفضل أن يكون قلبه صفحة مكشوفة للناس، سواء في أدبه أو في رسائله.

الرسالة فن من فنون الكتابة النثرية، كالخطاب والمقامة والمناظرة.

تلعب الرسالة دوراً كبيراً في حياتنا العامة. وتقوم بمهام عدّة سياسيّة- اجتماعية- دينية- فكاهية تهكمية..

ويشير المؤلف في مقدمته إلى أن:

الرسائل قد عرفت منذ العصر الجاهلي إلا أنّها لم تلبس حلّتها الأدبية المزركشة إلّا بعد الإسلام بفترة طويلة معتمدين على المقولة المشهورة: «بدأت الكتابة بعبد الحميد وانتهت بابن العميد».

ونقول: هيهات لهذا الفن أن ينتهي. وخير دليل على ذلك ما جاء في كتاب «تأملات في رسائل الأدباء» مثار هذا العرض.

بعض المزالق ضرورية للفن

وكما عرفنا في أدبنا العربي، قديمه وحديثه، رسائل رهط من الأدباء والأديبات. كذلك عرف العالم، شرقاً وغرباً، رسائل لمشاهير الأدب والفلسفة والمجتمع. مثل رسائل الزعيم الهندي «جواهر لال نهرو لابنته انديرا غاندي».. مراسلات الأديبة «سيمون دي بوفوار والأديب الفيلسوف جان بول سارتر».. مراسلات الأديبين الفرنسيين «بول فاليري وبيير لويس».. رسائل «أوتيل دور امبوابة».. ورسائل «فولتير وشاتو بريان» إلخ.. إلخ.





ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

من الرسائل المكشوف عنها الحظر، ومحرّرة من سجن الأعراف والتقاليد. رسائل القاصة «سميرة عزام ١٩٢٧-١٩٦٧م» التي بعثت بها إلى الأديبة ألفة الإدلبي، في الفترة ما بين ١٩٦٠و١٩٦٦م، وعددها عشرون رسالة.

كانت «سميرة» تحدس موتها العاجل وتقاسي من عقابيل وتبعات ذلك الحدس. الذي تفصح عن جانب منه في واحدة من رسائلها للإدلبي إذ تقول:

أشعر يا ألفة.. بأنني أبدد أيامي، وأنني سأموت دون أن أقبض إلّا على العبث... وإزاء هذا الشعور يخطر لي أن أسأل ولِمَ كل هذا العناء.. الموت يضع نهاية لكل شيء

فلماذا أحمل هذا الصليب الثقيل على كتفي، وأعتقد أن عليَّ أن أفعل الكثير، وأقيّم كل ما أفعله بميزان قاسٍ..؟؟.

كما تصرّح -على عكس عادة كثير من الأديبات- في رسالة أخرى عن ضعف إرادتها فتقول:

إنَّ ضعف الإرادة عندي يتجلى في مظهرين: الحب والسيجارة.. وأنا قوية الإرادة فيما عداهما.. ولست أتبجح بهذا الكلام، فقوة الإرادة ليست فضيلة الفنان.. وبعض هذه المزالق ضرورية للفن...

هناك في رسائل المبدعة سميرة عزام، غير إشراقة شعرية باهرة وغير تنبؤ لافت. وإذا كنا هنا لا نستطيع تفنيد كامل مناقبيتها، والوقوف عند جميع استشرافاتها. فلا بأس من التنويه بحدسها بموتها مبكراً، واستشرافها المستقبل الباهر لـ غادة السمان. ما تكلمت عنه عزام في إحدى رسائلها إلى «الإدلبي» حين كانت «السمان» لا تزال في بداية مشوارها الأدبي:

(قرأت قصة بعنوان «رجل في الزقاق» لفتت نظري حقاً.. لفتاة سورية تُدعى غادة السمان، يهمني أن تطلعي عليها، فإذا كانت هذه هي بداية الفتاة، فثقي بأنها بداية قوية حقاً...).

رسائل من وإلى ميّ زيادة: (١٨٨٦-١٩٤١م):

عرض الباحث عبد اللطيف، في كتابه مثار تقصّينا. لرسائل كثيرة من أديبات وأدباء، في مشرق الوطن العربي وفي مغربه: وداد سكاكيني.. طه حسين.. عبد العزيز التويجري.. سلمى الخضراء الجيوسي.. يوسف إدريس.. حبيبة الجبالي.. لطفي الخولي.. مها غريب.. أمين الريحاني.. نازك الملائكة وميخائيل نعيمة.

ولصعوبة التكلم عن كل التجارب، سنكتفي هنا، بمقاربة مراسلات الأديبة الباحثة المبدعة «ميّ زيادة»، كونها تشتمل على أكثر وأغنى وأخصّ الرسائل. لما تتمتع به صاحبتها من ذهن متفتح.. فكر متوقد.. همة عالية.. وجرأة نادرة. ازدان بها عمر قصير، تُوّج بأنواع التهم والتخرصات، التي طالت أخصّ خصوصيات ميّ كمبدعة وكإنسانة.

لقد اجتمع لـ ميّ زيادة، ذات الإحساس المرهف.. المشاعر الرقيقة والتهذيب الرفيع. التحرر والاختلاط مع الالتزام الطوعي بعفة الأخلاق وسمو الأهداف. واستطاعت أن تؤسس منتدىً أدبياً هو الأول من نوعه في مصر. تستقبل فيه كل «ثلاثاء» مختلف

روّاد وهواة ومهتمي الثقافة والإبداع -من الجنسين- في فترة لم تكن النساء فيها تختلط بالرجال. إضافة إلى مداومتها التراسل مع غير قليل من أصحاب القلم:

• بعث ولي الدين يكن رسالة إلى ميّ زيادة، ضمنها رسماً له كتب تحته:

كل شيء يا ميّ عندك غالِ

غير أني وحدي لديك رخيصُ

• لقد استبد العشق -ولو من طرف واحد- بالأديب عباس محمود العقاد. الذي فتن بخصال ميّ وجمالها، وبعث إليها برسائل شعره وشعوره. التي قال في إحداها:

حيّاكِ يا ميّ ما غنى وما عبقا

وفاض حولك بشراً كل ما شرقا

أتعلمين به؟ بل أنت عالمة

بالود في هذه الدنيا إذا صدقا

طوبى له ألف طوبى، إن وثقت به

فإنه بك دون الناس قد وثقا

فتجيبه ميّ التي ما كانت تكن له سوى التقدير والاحترام:

سيدي الأستاذ العزيز.

أبكيتني بهذه القصيدة، أبكاني صوتك الحنون، فشكراً..

حبذا كلمة تطمئنني عن صحتك كيف أنت؟

وتموت ميّ فيرثيها العقاد مفجوعاً:

أين ميّ؟ هل علمتم أين ميّ؟

الحديث الحلو واللحن الشجي

والجبين الحرّ والوجه السنيّ

أين ولّى كوكباه؟ أين غاب

كل هذا للتراب

آه من هذا التراب

• هناك رسالة من الشيخ إسماعيل صبري، الذي طالما أغرم بيفاعة ميّ يقول في الرسالة:

أهاجرتي أطفئي

لواعج لا تنتهي

مضت في هواكِ السنونُ

وما نلتُ ما أشتهي

فأجابته ميّ بالقول:

زمانك قبلي انتهى

ولا يرجع المنتهي

فحسبي أن أزدهي

وحسبك أن تشتهي

• لئن حملت الرسائل لميّ، مختلف ومتنوع المشاعر، من إكبار وانجذاب وإعجاب وسواه. وحمّلت ميّ رسائلها صادق وحميم بعض مشاعرها ومشاكلها. فتبقى مراسلات «مي وجبران» من أجمل وأرفع وأرق الأدب الحافل بالرومانسية.

بعد أن استبد المرض بجبران، صارحته ميّ بحبها معترفة له أنه محبوبها الأوحد. إذ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كتبت له رسالة عام ١٩٢٤م تقول فيها:

ولكني أعرف أنك محبوبي وأني أخاف الحب.. إني أنتظر من الحب كثيراً، فأخاف ألا يأتيني بكل ما أنتظر.. كيف أجسر على الإفضاء إليك بهذا..!! وكيف أفرّط فيه..؟؟ لا أدري..!!

• من الرسائل التي تكشف بها ميّ، عن خالص ومؤرّق حبها لجبران. رسالة تقول:

لابد أن تكون مسراتنا مزيداً من المحسوس وغير المحسوس، لذلك يروق لي أن ألتقي بك في الضباب وخارجاً عنه.. تعال يا جبران وزرنا في هذه المدينة (القاهرة) فلماذا لا تأتي.. وأنت فتى البلاد التي تناديك؟

تعال فنور القمر يثير الرمل حول أبي الهول، ويمرح في موج النيل.. تعال ياصديقي..

تعال فالحياة قصيرة..!

في الرسائل والمرسلين:

لئن كان في كلّ ولكل من وما في هذا الكون من إنسٍ وجنٍّ وسماء وأرض وفضاء ونار وماء وشجر ونبات وحجر وأشياء.. وأشياء، رسالة. فلعل الإنسان هو المُعَنّى والمُعْنى الأول، بتلك الرسائل، والذي له أيضاً رسائله، الموجهة للكون الذي يسبح فيه عامة، وللناس الذين يشاركونه هذا الوجود خاصة.

أمّا أن يذهب المتراسلون جميعاً، لتبقى رسائل بعضهم حيّة فوق أسمائهم -لتذكر بهم- كشاهدة على قبر. فإن في ذلك لحكمة!

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

رئيس التحرير

الجمال المسموع

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الموسيقى لغة إنسانية تستخدم الأنغام والإيقاعات لتنقل إلى المستمع مضموناً لا يحتاج إلى ترجمة أو شرح.. إنّها تخاطب عقل الإنسان ووجدانه، ويكفي الإصغاء إليها والتركيز على إيحاءاتها، حتى تتصاعد منها مشاعر ومعانٍ تسقط تلقائياً في أعماق نفوسنا ووعينا، والإصغاء ليس أمراً سهلاً، لأنّه تركيز يحتاج إلى تدريب متدرج، وما أحوج الإنسان إلى تعلم فن الإصغاء..

تأثير الموسيقى لا ينحصر في الإمتاع الحسّي والذهني فقط، فهي فن وفكر.. لها قدرة تربوية فعّالة في تقويم النشء، ورفع مستوى تذوقهم للفنون، وتشجيعهم على تحقيق أحلامهم وتعليمهم حب الحياة، إلى جانب شغل أوقات الفراغ، وغني عن القول إنّ الفن، بوجه عام يصقل الشخصية ويهذب الوجدان..

العمل الموسيقي من الأعمال المركبة من عناصر وأفكار عدّة.. له شكل ومضمون، وله بداية ونهاية، ويمر العمل الموسيقي، قبل أن يخرج للوجود بمراحل ثلاث:

١- ما قبل الإنتاج: وهي مرحلة تدور داخل نفس المؤلف، يتم فيها البحث عن موضوع، وتحصيل المعلومات عنه، ثم بلوَرة التفكير في كيفية التعبير عنه، ثم اختيار ما يناسب الموضوع من الأفكار الموسيقية.

٢- تجسيد العمل الفني، أي مرحلة التدوين، وخروج العمل من الأعماق إلى الوجود، وتعتمد هذه المرحلة على مهارة المؤلف في تكوين عباراته الموسيقية التي تأتي في الغالب مطعّمة بطابع البيئة، وبالطابع القومي. ثم كتابة العمل للأوركسترا، مما يتطلب المعرفة الكاملة لطبيعة الأصوات، والآلات..

٣- مراجعة العمل لتذوقه ونقده نقداً ذاتياً ثم وضع اللمسات الأخيرة عليه.

حول هذا الموضوع، يرى المايسترو المصري عزيز الشوّان أنَّ أهم الأحكام التي يجب أن يخضع لها الموسيقي، هي إحكام المنطق، أي الفكر السليم في عملية الإبداع، ولو أنَّها في الواقع مزيج من مفعول العقل، وتأثير الوجدان معاً، ومن ناحية أخرى فإن أي عمل عظيم لا يعتبر عظيماً إلا إذا ابتكر فيه الفنان قيماً جمالية، نابعة من وجدانه، وقام بمعالجتها بعقله وعلمه، حتى يسوِّر العمل التسلسلُ المنطقي الذي يسهل على المتلقي متابعته وإدراكه..

ولما كانت الموسيقى هي الجمال المسموع، فهل يمكن أن تقبل أعمالاً غابت عنها صفة الجمال بحجة الثورية، أو البحث عن الجديد المناسب للعصر الحديث؟! حول هذا يمكن القول، إنَّ الرغبة في ابتكار القيم الجمالية عند الفنان، لا تقف عند الالتزام، لأنَّ هذه الرغبة لا تنقطع، وتخضع لحساسية الأذن البشرية، والنظام المقامي الذي يفرضه المنطق السليم في الفكر الموسيقي، والرؤية الواضحة لجوهر الموسيقى، التي لا تأتي بالصدمات، بل بالتصاعد التدريجي كخط بياني يبدأ من الأسفل وليس من الأعلى..

التذوق الموسيقي يكتسبه الإنسان بالمران والتجربة حتى يصل إلى الإحساس بالجمال، أي النفاذ إلى أعماق العمل الفني، أي حصول اتصال وجداني بين العمل

الفني والمتلقي، أو استحسان وتعاطف يسمحان بإدراك معنى العمل والكشف عن نواحي الثراء الفني فيه، ومظاهر الجمال التي يحتويها..

التذوق ليس تقبلاً ثقيلاً سلبياً لعمل فني، بل هو تقبّل وإعجاب قائمان على إدراك وتقويم.. والأذواق لا تناقش ولا يصح مناقشتها، فما يروق لفرد قد لا يروق لآخر.. فالمتذوق قد يتأمل العمل الفني، ولا يبحث عن أسباب إعجابه أو عدمه، وهو كثيراً ما يعتمد على رأي النقاد.. أمّا هؤلاء فعليهم التأمل والتحليل العلمي ليستطيعوا وضع تقويم علمي لما حققه المؤلف من حسن الصياغة، ووضوح المضمون، وترصيع العمل باللمسات الجمالية.. إنّه بحث فلسفي في العمل الفني ينشر لا لإبداء رأي الناقد فقط، بل لتوجيه فكر المستمعين إلى ماله قيمة وماليس له قيمة..

يرى نقّاد الموسيقى، أنَّ تربية التذوّق يستحسن أن تبدأ من مرحلة الطفولة، كوسيلة لإيقاظ الإحساس بالجمال تدريجياً، فيتفتح وينمو مع الطفل، ولذلك فإنه من الضروري أن نهيئ للطفل البيئة التي تتيح له أن يتلمّس بنفسه مظاهر الجمال فيها، وبعد اكتساب الطفل أو الشاب هذه القدرة، يصل إلى مرحلة المقارنة بين الجميل والقبيح، وتعد عملية تكرار المعاينة للشيء نفسه، أو الاستماع للعمل الموسيقي نفسه من أهم وسائل تربية الذوق، وتنمية الإحساس بالظواهر الجمالية، والأثر الكبير يأتي من البدء بالاستماع إلى أقل أنواع الموسيقى تعقيداً، أي المؤلفات البسيطة الصغيرة التي اصطلح الناس العاديون على اعتبارها جميلة.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com